

سنة ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الوعي الإسلامي

Al-Wa'ed Al-Islami
مجلة كويتية شهرية جامعة



مَقَالَاتٌ وَدِرَاسَاتٌ

إِسْلَامِيَّة - أَدَبِيَّة
فِكْرِيَّة

مصطفى قاسم عباس

إجازة من كلية أصول الدين - جامعة الأزهر
إجازة في اللغة العربية وآدابها - جامعة دمشق

الإصدار
السابع والسبعون
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

مَقَالَاتُ وَدَرَسَاتُ
إِسْلَامِيَّة - أَدَبِيَّة - فِكْرِيَّة



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

Al-Waei Al-Islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
دولة الكويت - في مطلع كل شهر عربي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

الإصدار السابع والسبعون

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

العنوان:

ص.ب ٢٣٦٦٧

الصفة ١٣٠٩٧ الكويت

هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ - ١٨٤٤٠٤٤

فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

الموقع الإلكتروني:

www.alwaei.gov.kw

الإشراف العام:

رئيس التحرير

فيصل يوسف أحمد العلي

مَقَالَاتٌ وَدِرَاسَاتٌ

إِسْلَامِيَّةٌ - أَدَبِيَّةٌ - فِكْرِيَّةٌ

تأليف

مصطفى قاسم عباس

إجازة من كلية أصول الدين - جامعة الأزهر
إجازة في اللغة العربية وآدابها - جامعة دمشق

الإصدار السابع والسبعون

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



تصدير

بقلم رئيس تحرير مجلة «الوعي الإسلامي»

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، ووهب له العقل ليعقل عن ربه ما شرعه وأبان، وأنزل القرآن تبصرة للعقول والأذهان، وأرسل رسوله بالهدى والبلاغ والتبيان، وقَيَّضَ من عباده من نظم الفقه بأفصح لسان، أحمده حمداً يملأ الميزان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كل يوم هو في شان، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الناس كافة بالدليل والبرهان. اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

فإن العلم والثقافة الشرعيّة ميدانٌ خصبٌ لكلِّ متعلِّمٍ؛ إذا أراد أن يستزيد من الإحاطة بلغته، ودينه، ومبادئ أمته. وحتى ينتشر هذا الوعي ويعم، كان لا بد من توفير المواد العلميّة اللازمة له.

ومن أهمّ تلك الموادّ: الكتب بمختلف أنواعها ومناهجها ومستوياتها، شريطة أن تكون نافعة ببناء جادة.

ولأجل تواصل المثقّفين شرقًا وغربًا، وتنامي الشعور بالانتماء، وتقوية أواصر الارتباط الثقافي بين شعوب الأمتين العربيّة والإسلامية، كانت فكرة الاجتهاد في إخراج الكنوز التراثية، وطباعة الرسائل العلميّة، أولويّة عمليّة في مجلّة «الوعي الإسلاميّ»، فهي بذلك تسعى لزرع الثقافة العربيّة الإسلاميّة، بثّتي صنوفها، في الناشئة والمبتدئين، وفي الصغار والكبار، على حدّ سواء.

وقد جمعت مجلّة «الوعي الإسلاميّ» طاقاتها وإمكاناتها العلميّة والماديّة لتحقيق هذا الهدف السامي، فتيسّر لها بفضل الله تعالى إخراج عدد ليس بالقليل من هذه الكتب والرسائل، وكان لها نصيب وافر من الحفاوة والتكريم في كثير من المجتمعات داخل الكويت وخارجها، وذلك لما تميّزت به هذه الإصدارات من أصالة وقوّة ووضوح منهج، ومراعاة لمصلحة المثقّف، وحاجته العلميّة.

ومن هذه الإصدارات النافعة، كتاب:

«مقالات ودراسات إسلامية - أدبية - فكرية»

للأستاذ مصطفى قاسم عباس

ب

ومجلّة «الوعي الإسلامي» إذ تقدّم هذا الإصدار لقراءتها،
فإنّها تتوجّه بخالص الشكر والتقدير للأستاذ الفاضل على إذنه
الكريم بطباعة الكتاب، نسأل الله له التوفيق والسداد.

والحمد لله رب العالمين

رئيس التحرير
فيصل يوسف أحمد العلي



❁ قال العماو الأصفهاني:

«إني رأيت أن لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في

غده:

لو عُيِّرَ هذا لكان أحسنَ، ولو زيدَ كذا لكان يُستحسنُ،
ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضلَ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجملَ، وهذا
من أعظم العِبَرِ، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جُملةِ
البشرِ».



الإهداء

إلى كلِّ مسلمٍ يعتزُّ بدينه، ولسانُ حاله دائماً: نحن أمة أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزّة في غيره أذلنا الله.

إلى كلِّ مشوقٍ إلى العلم، متزودٍ منه لأنه خير زاد للإنسان، فتراه دائماً في ظمأٍ لورد مناهله، والتضلع من معينه، فيتعلم ويتعلم، وشعاره نصب عينيه: (من ظن أنه تعلم فقد بدأ جهله).

إلى كلِّ أديبٍ أريبٍ، ذواقٍ للشعر، ذي إحساسٍ مرهفٍ، وعاطفةٍ مشبوبةٍ بنمير الحب، وخالص الوداد.

إلى كلِّ من يغار على اللغة العربية، فيسعى جاهداً في خدمتها، وبشتى أنواع الخدمة؛ لأنه يعلم أنها لغة القرآن الكريم، وهي خالدة بخلوده، محفوظة بحفظه.

إلى كلِّ من تعلمتُ منهم حرفاً أو حكماً، أو تجربةً، أو أي شيء، فلهم فضل علي في ذلك، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

إلى أمي وأبي وأولادي وكلِّ أقاربي، وكلِّ من أحبهم في الله ويحبونني فيه، وأتمنى لهم الخيرَ فيتمنون لي أضعافه.

إلى كلِّ هؤلاءٍ أهدي هذا الكتاب محبةً وعرفاناً بالجميل.





مقدمة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين وأفضل الصلاة على سيدنا محمد
المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر
الميامين، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا كتاب: (دراسات ومقالات إسلامية. أدبية. فكرية) أضعه
بين يدي القارئ الكريم، وهو كتابٌ حوى عدة مقالات ودراسات في
مجالات شتى، إسلامية. فكرية. أدبية. اجتماعية. . . ومنها ما يتعلقُ
بالتراث، ومنها ما هو في الحاضر، ومنها ما طغى عليه الأسلوب
الأدبي، ومنها ما طغى عليها الأسلوب العلمي، ومنها ما يكون قراءةً
ودراسةً موجزةً عن كتاب قرأته أكثر من مرة فأعجبني، وكما قالوا:

(كتاب تقرأه ثلاث مرات، خيرٌ من قراءة ثلاثة كتب)،
والإنسان يقرأ كثيراً من الكتب، ولكن الكتب التي تستوقفه، وتسيطر
على شعوره هي التي يقوم بدراسةٍ عنها، وبصراحة إن الكتب التي
قمت بدراسة موجزة عنها ليست كلّ الكتب التي استوقفتني حين
قراءتها، بل هناك الكثير منها لم أقم بدراسته دراسة موجزة، ولعل

الأقدارَ تسمح لنا في المستقبل بدراسة تلك الكتب .

وهذه المقالات والدراسات التي بين طيات الكتاب تهم المرء المسلم؛ لأن منها ما يحث على التوبة والرجوع إلى الله، ومنها ما يُنير فكر المرء المسلم ولا يجعل منه إمعة يقول:

إن أحسن الناس أحسنْتُ، وإن أساؤوا أسأتُ، وذلك كما سيري القارئ الكريم في مقال: (أنلوم المشعوذين أم نبه المغفلين) وكذلك في مقال: (أصحاب الآراء الشاذة من أين أتونا بها؟!).. وغيرها من المقالات التي سيجدها في مكانها في هذا الكتاب .

كما أن هناك بعضَ المقالات التي أتت عفوَ خاطر، لذلك هي أقرب ما تكون إلى الخاطرة، والخطرة تُصاد صيداً كما هو معلوم؛ لأنها إن نفرت وشردت لا يستطيع المرء أن يُمسك بها بعد النفور، فيقول متحسراً: ليتني دونتها... .

ومن هذه الخواطر: (خواطر بعد منتصف الليل) (تأملات في سفر الحياة) (لأن الحياة لا تنتظر) (آمالٌ تموت وآمال تحيا) (قلوبٌ شاكية وعبرات ساجمة) (كلمات مبعثرة) (من عجائب الأقدار)... .

وهناك مقالاتٌ ودرسات أدبيّة، حول موضوع محدد وذلك كمقال: (المكفوفون في الأدب العربي - البصيرة قبل البصر) ومقال: (أشواقُ الغربة وبكاء الديار) ومقال: (شعراء في غياهب السجون) ومقال: (دموعُ القوافي في عيون المراثي) ومقال: (الغرابُ في الشعر العربي .. نذير شؤم أم بشير خير؟!) وغيرها من الدراسات والمقالات .

كما أنك ستجد في الكتاب - أيها القارئ الكريم - بعض المحاضرات التي ألقيتها في بعض المراكز الثقافية، وقد حرصتُ على وضعها في الكتاب حتى يعم النفع، وتكثر الفائدة، وذلك كمحاضرة: (دين الإسلام بريء من التطرف والإرهاب) ومحاضرة: (جمال العربية وخطر انتشار العامية)، وهناك أيضاً في الكتاب دراسة مطولة، وهي تلخيص كتاب: (إدارة الوقت من المنظور الإسلامي والإداري) لمؤلفه الدكتور خالد بن عبد الرحمن بن علي الجريسي، وهذا التلخيص فائز في مسابقة (الملخص الماهر) التي أقامها موقع الألوكة وهو موقع علمي مميز ومشهور...

كما أن معظم هذه الدراسات والمقالات قد نُشرت في المجلات العربية والصحف الأدبية والثقافية، ومواقع الإنترنت، فقد نُشر بعضها في مجلة الراقد الإماراتية، وبعضها في المجلة العربية، وفي مجلة الحج والعمرة، ومجلة الوعي الإسلامي، ومجلة الفرقان، ومجلة نهج الإسلام وكثير منها قد نُشر في جريدة الفداء التي أكتبُ فيها منذ أكثر من ثلاث عشرة سنة، وتستطيع أن تجد معظمها في مواقع الإنترنت، وخاصة في موقع الألوكة، ودنيا الوطن، وسيريا نيوز، وغيرها من مواقع المجلات والصحف...

وهذا الكتاب - عزيزي القارئ - هو حصيلة ما يقارب عشر سنين أو أكثر، ففيه تجارب من الحياة، وفيه زادٌ للأديب، وشواهدٌ للخطيب، وموعظةٌ للغافل، وهدىٌ لمن يسير في دروب الضلال.. ولم أعتمد في ترتيب مقالاته على التسلسل الزمني للكتابة، إلا أنه

حوى معظم ما كتبتُ ونشرت إلى تاريخ صدوره. وأتى كحديقة غناء تنتقل فيها من غصن إلى غصن، وتُحْدَق في ألوان مختلفة، وتشتم روائح فواحة متنوعة... وذلك حتى لا يملَّ القارئ؛ لأنه ينتقل في هذه الحديقة من الأدب إلى الفكر، ومن الفكر إلى الخواطر، ومن الخاطرة إلى الدراسة...

وقد حرصتُ على أن تكون الحواشي والمصادر والمراجع في نهاية كل بحث، أو دراسة أو مقالة، وذلك على العادة في نشر المقالات، وحتى لا يتشتتَ ذهنُ بالحواشي أثناء القراءة...

فأسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله في ميزان حسناتي، وحسناتِ القارئ والناشر ومن ذكرتهم في الإهداء، وأسأله الرحمة والمغفرة، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

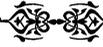
كُتِبَ وَكُتِبَ:

مصطفى قاسم عباس

سوريا - حماة - حي كازو

تاريخ: ٢ رجب، ١٤٣٣هـ، الموافق: ٢٢/٥/٢٠١٢م





تأملات في سفر الحياة

- الإنسان بطبيعته يكره المِحْن والخطوب، ويتبرم من الشدائد والملمات، ويتضجر من الظلم، ويغلي صدره غليان المرجل عندما يرى المآسي تثرى، والأحزان تتوالى، والعبرات تُسكب، وينفر عنه الصديق تلو الصديق، والأخ بعد الأخ...

... ويصل إلى مرحلة البكاء واضعاً نصب عينيه قول الشاعر:

يُخادعني العدوُّ فما أبالي وأبكي حين يخذعني الصديقُ

ولكن - ليت شعري - إن الإنسان عندما ينظر إلى هذه القضية بنظرة تأملية، فإنه سوف يرى أن في كل مِحنة منحةً، وفي كل غدر وفاءً، وستفتح له آفاق وآراء لم تكن لتتفتح لولا ما حلَّ به، فيقول: الحمد لله، ويمضي في طريقه قائلاً:

جزى الله الشدائد كلَّ خير وإن كانت تُغصصني بريقي
وما شكري لها حمداً ولكن عرفتُ بها عدويّ من صديقي

- قد يُكلم الإنسان بمُدية أو بسواها في ناحية من نواحي جسده، لكنَّ جرحه سرعان ما يلتئم، وحزن قلبه سرعان ما يزول، ولكنَّ نفسه عندما تُكلم، وروحه عندما تُجرح، وفؤاده عندما يتصدّع، فبالله قل لي: كيف ستلتئم الجراح، وكيف سينتظم زجاج القلب المتناثر؟!.

- إذا قمتَ بخدمةِ الناسِ لأجلِ الناسِ فإن كثيراً من الناسِ ينكرون فضلكَ، ويتناسون ما أسديتَ لهم من معروفٍ - خاصةً مع مرور الزمن - فاجعل خدمتكَ للناسِ لا لتتَظَرَّ الشاءَ منهم، بل لأجلِ فعلِ الخيرِ، ولتتذكر دائماً قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] . . .

- إذا كنتَ تتنظرُ ثواباً من الناسِ على معروفٍ أدَّيته، فهيهاتَ هيهاتَ - إلا من رحم ربك - فأكثرِ الناسِ ينسون، ﴿...وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] .

- قد تشعرُ بالخيبةِ والمرارة، ويحوطك الحزنُ واليأسُ من كلِّ جانبٍ، بالإضافة إلى ما يعتريك من الدهشةِ والحيرةِ والذهولِ، وإذا سألتني: متى يكون ذلك؟ فأقول لك: عندما تتيقن أن أعزَّ الناسِ عليك يطعنك في ظهرك، وفي الوقت ذاته يُظهِرُ لك خالصَ الحبِّ والودادِ، فعليك أن لا تستغربَ من ذلك، فهذا شيءٌ قد اعتاد عليه الناسُ في زماننا، بل عليك أن تهَيِّئَ نفسك لتستعدَّ لصفعةٍ أخرى من مُجِبِّ جديدٍ . . .

- يتعلَّلُ كثيرٌ من الضعفاءِ بقولِ الشاعر:

تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ

وبالمقابل يبالغُ كثيرٌ من الأقوياءِ الواثقين بأنفسهم عندما يقولون:

تجري الرياحُ كما تجري سفينتنا نحن الرياحِ، ونحن البحرِ، والسفنُ
- كثيرٌ من الناسِ تتحركُ عزائمُهُم، وتنهضُ حالُهُم، وتهبُ

رياحُ قوتهم، وتعلو همتهم حتى تصل الثريا، ولكنْ - مع الأسف - كل ذلك بعد فوات الأوان، ولذلك تراهم يدندنون ويهمهمون دائماً: إذا هبت رياحك فاغتنمها فعُقبى كلُّ خافقةٍ سكونُ - لا تغترَّ بكثرة الناس حولك، ففي الأعاصير والعواصف لا تثبت إلا الجبال... فأما الرِّبْد فيذهب جُفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض...

- الذي لا يتعلم من أخطائه، ولا من أخطاء الآخرين، فربما لن تتحسّر عليه إذا أَلمت به ملامةٌ جزاءً ما اكتسبت يداهُ.

- قد تصل إلى مرحلة تظن فيها أن الباطل أقوى من الحق، وأن الظلمَ أصلح من العدل، وأن الخيانة أفضل من الأمانة، وأن اليأس خيرٌ من الأمل... وأن الموت أجملٌ وألذ من الحياة ونعيمها، لكنك - يا صاحبي - تنظر بمنظار الساعة التي تعيش فيها، والمكان الذي تتعايش معه، فهذه الثوابتُ لا تُقاس بساعة زمنية ولا بمكان محدد، إنما تُحسب على مر العصور والأزمان، وقد تختلف باختلاف الأمكنة...

فبنظرة سريعةٍ في التاريخ الغابر، وبما خَلّف لنا من أوابدٍ أثريةٍ... نرى أن الباطل إذا كانت له جولةٌ فإن للحق جولاتٍ وجولاتٍ، وأن الظلم - كما قالوا - مرتعُه وخيم، وأن الخيانة لم ولن تكونَ كالأمانة في سموّها ورفعتها، وأن اليأس والتعلُّل مطيئةُ الفاشلين، وأن الموت ليس أجملَ من الحياة، وإلا لما كان هناك بعث ولا نشور، وهنا يجول في خاطري قول الشاعر:

ولو أننا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حيٍّ
ولكننا إذا متنا بُعثنا ونُسأل بعدها عن كل شيءٍ
- الأيام - أيها القارئ الكريم - هي الأيام ذاتها لم تتغير،
والزمن يجري شئتَ ذلك أم أبيت، والامكنة هي الامكنة، ولكنك
أنت لستَ أنت؟!!

أو بمعنى آخر: مزاجك يختلف من ساعة إلى ساعة، بل
من لحظة إلى أخرى، ولم يتغير شيء في الزمن.

وكذلك الأمر بالنسبة للامكنة، فعندما تكون بين السنابل
والأقاحي، وفي جنان أرضٍ تجري من تحتها الأنهار، وتتسَم أريجاً
يفوق المسك ذكاءً، فهذا طبعاً لا يُقارن بحالةٍ أخرى كأن تكون في
صحراء قاحلةٍ، ولفح الشمس يخترق وجنتيك، ولا ترى حولك إلا
سراباً بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً، وتظنُّ الأسلَّ والسدرَ والصبارَ ورداً
وياسمين وندرجس...

ومع ذلك نرى كثيراً من الناس يعتبرون على الزمن والدهر،
وبعضهم قد يصل إلى مرحلة السباب والشتائم، فتذكر قولَ القائل:
نعيب زماننا والعيبُ فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا





عِنْدَمَا يَحْزَنُ الشُّعْرَاءُ

كل واحد منا ودّع في هذه الدنيا عزيزاً، أو نأى عن وطنه
ففارق أمّاً وأباً وإخوة وأحبة، أو تراكمت فوق صدره جبالٌ
من المآسي وبحارٌ من الآهات والحسرات... فتجلبب بجلباب
الحزن الموشى بلآلئ الدموع، وتدثر بالألم، وسال عقيق مآقيه فانثر
على وجنتيه...

ومن منا لم يحزن؟ والحياة مليئة بما يُشجي النفوس، ويذري
الدموع، ويُلطي الفؤاد...

ومن منا لم يحزن؟ والحزنُ أحد الأشياء الثمانية التي تجري
على جميع الناس كما قال الشاعر:

ثمانيةٌ تجري على الناس كلهم ولا بد للإنسان يلقي الثمانية
سرور وحزن واجتماع وفرقة وعسر ويسر ثم سقم وعافية
وإذا كانت أحزاننا تظل دفينّة في شغاف القلب، أو بين حنايا
الروح أو في أعماق المقل، وفي خفايا العيون... فالشعراء ليسوا
كذلك.. لأنهم عندما يحزنون فإنهم يُعبرون عن أحزانهم وأحزاننا،
وأتراحهم وأتراحنا، فيمزجون دموعهم بمدادهم، ويسكبونها في
بحار القوافي، وتزهق أقلامهم فيما بعد ربيعاً شعرياً تخضر منه أوراقُ

الزمن، وتتراقص أفنائه، ويُعَبِّقُ أريجُه الدهرَ والخلود... .

فالشعراءُ أحزانُهُم لا كأحزاننا، وعبراتهم لا كعبرتنا... لأن
أحزاننا تتلاشى مع مرور الزمن وتغورُ في غياهب النسيان، في حين
نرى أن أحزانهم تبقى دموعها تبلل الأسفار، وعويلها يُصمُّ أسماعنا
بين السطور... وكذلك؛ لأن عَبْرَاتِنَا من المقل والجفون، أما
عبرات الشعراء فما هي إلا قلبٌ يذوب، وروحٌ تتدفق، وشعورٌ يهمي
على لُجَيْنِ الضمير... .

والشعراءُ في الغالب يملكون إحساساً مرهفاً، وشعوراً رقيقاً،
وقلباً يعتصره الحزن، ويؤذيهِ الأسى، ويُضنِّيه العويل... وما الدموعُ
والنواح والعويل وسحُ العبرات في شعرهم إلا تعبيرٌ عما يجول في
خواطر الناس ويعتلج في صدورهم... فمعظم أشعارهم - وإن
نظموها لحالاتٍ وجدانية خاصة طغت عليهم - أشعارٌ مناسبة
للإنسانية كلها؛ لأن الحزن لا يميز بين صغير ولا كبير، ولا غني
ولا فقير، ولا بين ذكر وأنثى، ولا عربي ولا عجمي... .

... بل حتى العنادلُ والبلابل واليمام والحمام والكناري،
نرى أن الشاعر أخذ يرى فيها سميراً في الحزن، ونَجِيّاً عند
الشكوى، وسُلُوءاً للأحزان، وجَبِراً لما يَصْرَمُ الضمير، ويقد
الإحساس من سيوف الأثات، وظبى الحسرات، ورماح الألم
والأنين... .

فلا غرو - بعد ذلك - ولا عَجَب أن يتقاسم الإنسان الشاعرُ
أحزانَه مع أحزان اليمام، وعويلَه مع تغريد البلابل، ونواحه مع نواح

الحمام... وأغلب ظني أنه قد لاح في فكرك - أيها القارئ الكريم -
ما لاح في فكري عند ذكر الحمام والنواح والحزن شعرُ أبي فراس
المشهور، وقد سمع حمامة تنوح بقربه على شجرة عالية:

أقولُ وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا: هل بات حالكِ حالي؟
معاذَ الهوى ما ذقتِ طارقةَ الهوى ولا خطرت منك الهمومُ ببال
أيا جارتنا ما أنصف الدهرُ بيننا تعالي أقاسمك الهمومَ تعالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مُقلَّةً ولكن دمعي في الحوادثِ غالٍ^(١)

وكذلك نتذكر معاً ما قاله شقيقُ بن سليك الأسدِيُّ:

فقد هيَّجتُ منِّي حمامةً أيكَّةٍ منَ الوجدِ شوقاً كنتُ أكتمهُ جُهدي^(٢)

إلا أن الإنسانَ عند الحزن تسحُّ دموعه، وتسيل عبراته، أما
الحمام فيبكي مع الشاعر وينوح مع نواحه، بل ويُبكي الشاعرَ حتى
يبوح بأسراره التي كان حريصاً على إخفائها، وقد يُشجيه صوتُ
الحمام ويكادُ يُميته... ومع ذلك فالحمام لا تُرى له دموع تسيل،
ولا عبرات تغرقه... كما قال الشاعر:

ألا يا حماماتِ اللوى عُدنَ عودةً فإنِّي إلى أصواتكنَّ حزينُ

(١) ديوان الأمير أبي فراس الحمداني تحقيق وشرح: د. محمد التونجي،
منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق عام:
١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٢٤٦ - ١٤٧، وانظر: قرى الضيف، عبد الله بن
محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، تحقيق:
عبد الله بن حمد المنصور ٩٢/١.

(٢) الزهرة، ابن داود الأصبهاني ٩٣/١.

فَعُدْنَ فَلَمَّا عَدْنَ كَدْنَ يُمْتَنِنِي وَكَدْتُ بِأَسْرَارِي لَهْنَ أُبِينُ
وَلَمْ تَرَ عَيْنِي قَبْلَهْنَ حَمَائِمًا بَكِينَ وَلَمْ تَدْمَعْ لَهْنَ عَيُونَ^(١)

وكثيراً ما يدعو ترثم الحمام الشاعر إلى الشوق والحزن
والهوى، ويتساءل الشاعر عن سر بكاء الحمام... هل - يا ترى -
جفاه حبيب أم فارقه إلف عزيز؟ فينطبق عليه قول الشاعر:

دعاني الهوى والشوق لَمَّا تَرَمْتِ عَلَى الْأَيْكَ مِنْ بَيْنِ الْغُصُونِ طَرُوبُ
تُجَاوِبُهَا وُرقُ يُرْعَنُ لَصَوْتِهَا وَكُلُّ لِكُلِّ مَسْعِدٍ وَمُجِيبُ
أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْكَ مَا لَكَ بَاكِئًا أَفَارَقْتَ إلفًا أَمَّ جفَاكَ حَبِيبُ؟^(٢)

وما أروع ما قاله ابن أبي حجلة في كتابه ديوان الصبابة!
حيث أطاع الجفن الذي قرّحته الدموع، وعصى فيمن يحب كل
معنف وناصح، وكتبت مدامعه لقلبه محضراً من الدماء... فيها هو
يقول:

خَالَفْتُ فَيْكَ مَعْنَفًا وَنَصِيحًا وَأَطَعْتُ جَفْنَاً بِالدَّمُوعِ قَرِيحًا
فَاعْمَلْ لِقَتْلِي مَحْضَرًا فَمَدَامِعِي كَتَبْتَ لِقَلْبِي بِالدَّمَا مَشْرُوحًا
صَبُّ عَلَى سَفْحِ الْمَقْطَمِ دَمْعُهُ تَجْرِي الْعَيُونَُ بِهِ دَمًا مَسْفُوحًا
لَوْ شَاهَدْتَ عَيْنَاكَ أَحْمَرَ دَمْعِهِ زَكَّيْتَ شَاهِدَ قَلْبِهِ الْمَجْرُوحَا^(٣)

والإنسان في الحقيقة يشعر بارتياح بعد تذراف الدموع،
فالدموع الحبيسة في العيون، والعصية عند البكاء، تُبقي في الفؤاد

(١) الزهرة، ابن داود الأصبهاني ٩٣/١.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٩٣.

(٣) ديوان الصبابة المؤلف: ابن أبي حجلة، ص ٦٩.

الحزن والأسى، أما العين الهتّانة، والجفن السيّال، فإنهما يساعدان صاحبهما على الراحة والسكينة والسلوان، فدواء الحزن الدموع، لذلك قال ابن عياش:

نزلت بي مصيبة أمضتني وأشجنتني، فتذكرتُ قول ذي الرّمة:
خليلي عُوجاً من صدور الرواحل على دار مَيِّ وابكيا في المنازل
لعل انحدارَ الدمع يعقب راحةً من الغم أو يَشفي نجِّي البلابل
فخلوتُ وبكيت، فسلوتُ، وقلت: رحم الله ذا الرمة، فما كان
أعرفه بدواء الحزن^(١).

وأصدق الدموع عاطفةً دموعَ الرثاء، وكلما كان الفقيد عزيزاً
عليك كلما كانت الدموع أكثرَ حرارةً، وأصدق عاطفةً، وأشدَّ تأثيراً،
وهل بعد رثاء الأم من رثاء، وبعد فراقها من فراق؟! فالشريف
الرضي عند فقد أمه يقول:

أبكيك لو نقع الغليل بكائي وأقول لو ذهب المقال بدائي
وأعوذ بالصبر الجميل تعزياً لو كان في الصبر الجميل عزائي
طوراً تكاثرني الدموعُ، وتارةً أوي إلى أكرومتني وحيائي
كم عبرة موهتُها بأناملي وسترتها مُتجملاً بردائي^(٢)

وكذلك لفقد الأخ وقعٌ عظيم، وأثر بالغ، فلا عجب أن نرى
أن متمع بن نويرة عندما قدم العراق - كما قال الأصمعي - أقبل

(١) خاص الخاص الثعالبي ١/٣٥.

(٢) يتيمة الدهر، الثعالبي ١/٣٦٢.

لا يرى قبراً إلا بكى عليه، فقيل له: يموت أخوك بالملا، وتبكي أنت على قبرٍ بالعراق! فقال:

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذرافِ الدموع السّوافك
أمن أجل قبرٍ بالملا أنت نائحٌ على كل قبرٍ أو على كل هالك
فقلت له: إن الشجا يبعثُ الشجا فدعني، فهذا كلُّه قبرُ مالك^(١)

وكذلك حزن الشعراء كثيراً عند فراق الأحبة، وعندما تجرّعوا
غصص البين في كؤوس من الهجر، والشواهدُ على ذلك كثيرة،
ومنها ما قاله الأميرُ شهابُ الملك:

واسمَحْ بدمعك في مواطئِ عيسهم كسماحِ عُروّةٍ بالدموعِ وعددِ
واشجُ الديارَ كما شجّتك ونُح بها نوحِ الحمامِ على الأراكِ بثهمدِ^(٢)

والحديث عن الأحزان يطول وتذكرتُ قصيدة لي عنوانها:
(وَمَضَيْتُ وَالْأَيَّامُ تَأْكُلُ مُهَجَّتِي) تتحدث عن الحزن والسهاد والنشيج
والتباريح، أقتطف منها هذه الأبيات:

دمعي يسافرُ في دجى أهدابي ويزورُ جفني بعد طولِ غيابي
يهمي على الخدين نهراً دامياً فيُحيل وِجَناتي كما العُنبُ
أرقُّ وآهاتي يطولُ نشيجُها سُهدي يُكفكفُ أدْمعِ الأعصابِ
أشكو تباريحَ الغرامِ لأضلعي لكنْ . . تُمزقُ أضلعي أوصابي
ركبُ لأحبابي مضى وكأنه قبل الرحيلِ إلى الأسي أوصى بي

(١) الأماي، أبو علي القالي ١/١٣٥.

(٢) خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصبهاني ١/٢٨٩.

ساروا، وغابت في القفار جمالهم ورجعتُ أحملُ عبرتي وعذابي^(١)
وختاماً: فإننا نعوذ بالله من الهم والحزن ونسأله أن تبقى ديارنا
وقلوبنا عامرةً بالمسرّات مطمئنة بنعمة الأمان والرخاء.



(١) جريدة الفداء: بتاريخ: ٢٨/٣/٢٠١٢م.



مَنْ صَمِيمِ الْفُؤَادِ

- رأيتها عجوزاً بائسةً، وعيناً غائرةً، وتجاعيدَ بعدد سنوات عمرها، تقفُ على قارعة طريق الحياة، وقد أحت السنونَ ظهرها، وعُكست آهاتُ الزمن وأوجاعُ الماضي المريرِ على تجاعيد وجهها... تنظرُ إلى الأفق البعيد بعينٍ قد سئمت من النظر إلى الحياة... وكانت هذه العجوزُ تظللُ وجهها بيدها التي أضناها المنجلُ والمعولُ... إنها تنتظر وصول قافلة الأموات لتستقلها إلى العالم الآخر...

- خلقنا الله تعالى من الطين، ومن ماءٍ مهين، ونتكبر على الآخرين، ونعلوا علواً كبيراً، فكيف لو كان خلقنا من الذهب، والزمرد والياقوت؟!

- ما أكثر العابدين، وما أقلَّ المخلصين!

- لئن كان النظرُ إلى عين الشمس يؤدي إلى العمى، فإن النظرَ إلى عين القلب يؤدي إلى الإبصار والبصيرة، وإذا كانت الشمسُ تُكسف بين الفينة والأخرى، فإن شمسَ القلوب المشرقة لا تُكسف مدى الحياة، فاجعلوا بصائر عيونكم تنظر إلى شمس قلوبكم، فإن النظر إليها يُزيل العمى عن العيون، ويكشف الران عن القلوب!!

- إذا كان الناسُ يُحبون بالقلب فقط، فإن لي حبيباً عظيماً،
جليلاً مهيباً قلت فيه:

أمسيتُ كُلِّي قلوباً أحببتُ فيها الحبيبا
لذاك نيرانُ وجددي غشتُ كياني لهيبا
- قد يستطيع الإنسانُ أن يجبر نفسه على الضحك، ولكنه
لا يستطيع أن يجبرها على البكاء!

- ما أجملَ أن تعيشَ بعقيدة تملأُ عقلك فكراً نيراً، وقلبك
إيماناً صادقاً، ونفسك رضىً وطمأنينةً، وجوارحك عملاً مُتقناً مُفعماً
بنور الإخلاص!!.

- إنسانٌ جبهتهُ على الأرض، وهامتهُ تُلامس الثرى، ولكنه
تجلبب بجلباب العزّة والكرامة، وإنسانٌ جبهتهُ على الأرض، وهامتهُ
تلامس الثرى، ولكن، تكسوه الذلّة والصغارُ والمهانةُ؟؟!!
فالأولُ يُعَفِّرُ وجههُ في التراب ساجداً لله، والثاني يسجدُ
لصاحب المنصب، والمال والجاه!!

- تُصعِّرُ خدكُ للناس، وتمشي في الأرض مرحاً، وتشمخُ
بأنفك في السماء، وترتدي ثوبَ الغرور والكبرياء، وتدّعي أنك عالمٌ
بكل الأمور، ومع ذلك تطلب من الله أن يزرعَ محبتك في قلوب
الناس، وفي أرواح الخلق؟!

هيهات هيهات!! فما أحبّ الخلقُ إلا من تواضع لهم،
فالنفوسُ البشريةُ جُبلت على حب المتواضعين، وبغض المتكبرين
المستكبرين.

- ما وجدت شيئاً يُريح النفسَ، ويبعث فيها الطمأنينة والراحة،
عندما تدلهمُ الخطوبُ، ويستولي على الوجه الشحوبُ، أعظمَ
من مناجاة الله جلّ وعلا، في جُح الليل البهيم، والناس في سباتٍ
عميقٍ... .

- تأملُ معي، وفكرُ في الأوقات التي قضيتها في السهر
والسمر، والتي ربما أضفت لسوادها سوادَ إثمك ومعاصيك، فكَرُّ
ملياً ستجدُ أنك قاتلٌ لوقتك، وظالمٌ لنفسك.





لماذا لا نفكر من جديد؟!

هو سؤال أطرحه دائماً على نفسي، وأهمس به في أذن فكري، وكثيراً ما يجول في سفينة خواطري ولا يرسو على شاطئ الجواب، فأعينوني بقوة أجعل بين جبل السؤال وانكشاف سهل الجواب ردماً!

ويبقى السؤال:

لماذا لا نفكر من جديد في كثير من الأمور التي تجري من حولنا؟ وفي كثير من الأفكار التي ترسبت مع مرور الزمن في عقولنا وقلوبنا؟

لماذا لا نفكر من جديد في كثير من الصداقات التي كوَّناها خلال السنوات الماضية؟ والتي اكتشفنا أنها كانت كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمان ماءً، أو كالباحث عن الغول والعنقاء!

هل فكّرنا في الحسد وما يصنع في القلوب حتى نراها تكاد تميّز من الغيظ؟ وفي الضغينة وما تُخلّف من أحقاد وعداوات ورزايا؟ وفي الرياء الذي أصبح فطرةً عند بعض الناس، والغبية التي أصبحت جزءاً من لسان أقوام يحبون أكل لحوم إخوتهم وهم أمواتٌ؟ وفي النفاق الذي استشرى في صدور كثيرٍ من أبناء مجتمعاتنا، وكأن ابن أبي سلول له خلائفٌ وأحفادٌ؟

لماذا لا نفكر في الكاتب الذي يظن أن كتاباته عَقِمَ القلمُ بعد أن وُلدت، وأن كلماته في رونقها يتيمةُ الدهر، وفي علوّها ورفعتها مُعلّقات هذا العصر، أمّا كتابات غيره وكلماتهم فهي قد أكل وشربَ عليها الدهرُ؟

لماذا لا نفكر في الشاعر العجوز الهرم الذي يتحدث عن الغزل والحب زاعماً أنه خليفة عمرَ في زماننا ولكن ليس ابن الخطاب بل ابن أبي ربيعة؟!

وفي الشاعر الذي يُحدّثك عن التواضع وهو أول المتكبرين، وعن الوفاء وهو أول الخائنين، وعن الشجاعة وهو أول الجبناء الخائفين؟

هل فكّرنا في الصحفي الذي يكتب عن الفضيلة وهو بعيد عنها، ولا يعرف إلا اسمها؟، وعن الثقافة ولا يعرف أصولها ويكتب باللغة العربية ولا يعرف أبسط قواعدها، ويعالج قضايا الناس وهو بحاجة إلى من يعالج له قضاياها؟

هل فكرنا في المعلم الذي يُمضي درسه لهواً ولعباً، ويزرع سِدْر السموم علقماً مرّاً في عقول طُلابه؟
وفي الطبيب الذي يجرح قلوبَ الفقراء والبائسين بتطاوله وتجبره، ويشرّح أجسادهم بمبضعه؟

أنفكرُ في الشيخ الدعي الذي رمى بنفسه في بحر العلماء، وهو لا يزال غارقاً في أبحر جهله؟ أم نفكرُ في الإمّعات الذين يتبعون كل ناعقٍ، ويركضون وراء كل سراب؟! ...

هل نفكر في المدير الفاشل الذي يضع اللوم على موظفيه عند العقاب! ويُقَلَّدُ هوَ أوسمةَ الإخلاص والتفاني في العمل عند الجزاء والثواب؟

لماذا لم نفكر في المرأين وأصحاب النقد النابع من الحقد، الذين همُّهم في الحياة تتبُّع السَّقَطَات، والنظرُ إلى الحضيض، ولست أدري، لماذا أولعوا بحب السقطات والعثرات؟ وحدِّقوا بأعينهم في وجه الذي زلت به القدم على أنه ارتكب الموبقاتِ السبع؟ فهؤلاء الذين ينطبق عليهم قولُ الشاعر:

فإن يروا هفوةً طاروا بها فرحاً مني وما علموا من صالحٍ دفنوا
... وللإنصاف أيضاً، لماذا لا نفكر في الصديق الوفي، وبصاحب القلب النقي؟ وفي الكاتب الذي يسطر كتاباته بمداد دمه الطاهر على بياض قلبه الناصع، وفلذة كبده، ونبض خافقه، يواسي المحرومين، ويمسح بيد كتاباته الحانية على رؤوس الحيارى والوجلين...

وفي الشاعر الذي يصوغ شعره وقوافيه رسالةً ومنهجاً وإخلاصاً وحباً ووفاءً...

دعونا نفكر معاً في الصحفي الذي يراه الناس مرآة صافية تعكس آمالهم وآلامهم، وفي المعلم النصوح الشفوق الذي يسقي غراسه علماً ونوراً ومعرفةً وحكمةً...

وفي الطبيب الحاذق الذي يخفف بحنانه وإنسانيته دموع الأسي، وجراح القلب الحزين، قبل أن يداوي الأجساد والجوارح...

وفي الشيخ العالم العامل الذي يدعو إلى الله على بصيرة
وهديّ وكتابٍ منير... .

لنفكرَ معاً في أصحاب العقول الحرّة التي تبحث عن الحقيقة،
وترتوي من فرات المعرفة ماءً فُراتاً سائغاً للشاربين... وفي المدير
الذي يخرج صباحاً إلى مديريته ليرى فيها بيته الثاني، وأسرته
المثالية... .

دعونا نفكر معاً من جديد؛ لأن الأمر يتطلب منا تفكيراً جديداً
بين الفينة والأخرى، حتى لا تتراكم وتترسب وتتربع على عرش
عقولنا وقلوبنا رواسبُ الزمن وعاداته وتقاليده... .

لنفكر في كل ما حولنا، فما أشد حاجة الإنسان إلى لحظة
يعيدُ فيها حساباته، ويفكر فيها من جديد.





كَلِمَاتٌ مُبَعَثَرَةٌ

- لا عجبَ أن نرى في بعض القلوب صحراواتٍ مقفرةً،
وجبالاً جرداءً، وأراضِي قاحلةً . . . فهذه القلوب تُسقى من حميم
الكرامية، وأجاجِ الحقدِ، في كؤوسٍ من الحسدِ البغيض . . . فحريٌّ
بها أن تكونَ على تلك الحالة من القفر والجذب . . .

ولا عجبَ أن نرى في بعض القلوب، رياضاً مزهرةً، وروابي
مُخضرةً، وغاباتٍ وارفةَ الظلال، تشدو على أفنانها البلابلُ
والعنادلُ، ويُطربنا ويُسَنِّفُ آذاننا حفيفُ أوراقها، وتسحرنا بجلالها
وجمالها . . . فهذه القلوب تُسقى من الكوثر والتسنيم، ومن ماء
معين، وتسقى فرات المحبة، وقُراح الصفاء والإخاء، في كؤوسٍ
من الرأفة والرحمة والإخلاص والتقى . . . فحريٌّ بها أن تكونَ على
هذه الحالة من الخصب والخير . . .

- قالوا: إن الوفاء لا يتجزأ، فليس من الممكن أن يكون
الإنسان نصفَ وفيٍّ ونصفَ خائنٍ!! . . . ولكن، ليت شعري!! ألا
ترى معي أن الوفاء تجزأ في أيامنا، وتقطعُ إزباً إزباً!!

- دائماً أسأل نفسي: هل ينقطعُ العلم في الجنة؟؟ أم أن
الإنسان في الجنة يتعلم كلما يريد، ويحفظ كلما يشاء . . . لا شكَّ
أن التعلُّم لذةٌ، وفي الجنة كل ما تشتهي الأنفسُ وما تريد!

- ما وجدت لذةً أعظمَ من لذة تعلُّم شيءٍ جديد، وما وجدت متعةً أفضلَ من كلمات المحبة الصادقة التي أرسلها إلى صديقٍ وفيٍّ ويرسلها إلي، في زمنٍ كثر فيه الأصدقاء، وقلَّ فيه الأوفياء . . .

- كلما فاض قلبُ المرء باليقين، كلما قلت الشكايَةَ، وتلاشى صوتُ الأنين. فما أشدَّ حاجتنا إلى إيمانٍ يباشر قلوبنا، ويقينٍ يهون علينا مصائب الدنيا.

- كم من فكرةٍ جالت في فكري، وطربت روحك لجمالها وجدَّتْهَا، ولكن، كنتَ على فراش النوم، وغلبك النعاس، وأغمضتَ جفناكَ للكرى، قائلاً في نفسك: سأدوُّنها في الصباح

فما طلع عليك الفجرُ، ولاحت بوارقُه، إلا ودفنتَ تلك الفكرة في مقابر النسيان! بعد أن كُفِّنت في كفن التسوية!!

- ما رأيت إنساناً مبدعاً إلا ورأيتُ في سيرته الذاتية، جنباً يتجافى عن المضجع، وعيناً تهجر النوم والكرى، ونفساً طموحاً أتعبت جسده، وتعباً مُرهقاً، ونضالاً مُضنياً، ورأيتُ أنه قد اجتاز جسرَ التعب، حتى وصل إلى شاطئ الراحة والأمان، ثم قيل له:

بُصرتَ بالراحة العُظمى فلم ترها تُنال إلا على جسرٍ من التعب وخاطبه المتنبى:

وإذا كانت النفوسُ كباراً تعبت في مُرادها الأجسامُ
طموحُ الناس على قدر هِمَمِهِم وعزائمِهِم، لا على قدر أعمارِهِم وأجسادِهِم، وقد قلت في أحد أساتذتي الفضلاء:

قد جاوز الخمسَ والسبعين في جسدٍ لكنَّ هِمَّتَهُ روحُ الصِّبا فيها



في الحياة...

هناك شيءٌ جميلٌ ... وهناك شيءٌ أجملٌ

جميلٌ منظرُ الغروب عندما تغور الشمسُ في لُججِ البحر،
أو تغيبُ وراء الأفق...

ولكن الأجمَلُ أنها تتركُ لنا شعاعاً من ضيائها نراه في إطلالةِ
القمر.

جميلٌ أن تتألّم عندما ترى قلباً كسيراً، ودموعاً داميةً ليتيمٍ
بأسٍ محزونٍ...

ولكن الأجمَلُ من ذلك أن تجبرُ كسرَ قلبه، وتكفكفَ دموعه
الثكلى، وترسّمَ بسمةَ الأمل والرضا على ثغره وشفتيه.

جميلٌ أن تستنيرَ بضوء السراج في العتمة، ولكن الأجمَلُ أن
تكون أنت سراجاً ينير للآخرين دروبهم في حلكِ الأيام، ودياجير
الظلام.

شيءٌ جميلٌ أن يعيش الإنسانُ في قلوب الناس، ولكن الأجمَلُ
أن يحافظَ على العيش في تلك المنازل حتى لا يُخرجَ منها يوماً ما.
شيءٌ جميلٌ أن يدخلَ الإنسانُ إلى قلبك، ولكن الأجمَلُ أن
تُدخله إلى قلبك بعد أن يخرج منه.

شيء جميلٌ أن تتنَّسَمَ عبيرَ الأفاحي والورودِ، وأن ينتشي
طرْفُك من سحر جمالها... ولكن الأجل من ذلك أن تكون
سيرتُك كعبيرها وشذاها، وأن تكون روْحك كجمالها ورقتها.

جميلٌ أن تبتسَمَ عندما تلتقي بِمَنْ تُحب، ولكن الأجل أن
تبتسم عندما تلتقي بمن لا تُحب !

جميل أن يصبح الفقيرُ غنياً، ولكن الأجل أن يتذكر دائماً أنه
كان فقيراً يوماً من الأيام.

جميلٌ منك أن تنسى لحظاتِ المرارةِ والأسى التي تجرَّعت
كووس حنظلها لأيام وأيام... ولكن الأجل أن تتذكرها بين الفينة
والأخرى حتى تشعرَ بالآلام الآخريين ومآسيهم.

جميل أن تُحبَّ من يبادلُك الحبَّ والمودة... ولكن الأجل
أن تحبَّ من يكرهك، وإن كان في ذلك إجبارٌ للنفس على
ما لا تطيقُ. فمخالفة النفس ترتقي بالإنسان ليصل إلى علياء الصفاء
والطهر والمودة..

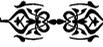
جميلٌ أن يعيش الإنسان ذكرياتِ عذبةً من الماضي، تُنعش
قلبه، ويَطرب لها فكرُهُ ولُبُّهُ، وثِقْلُهُ من الواقع الأليم إلى الماضي
الرَّغيد... .

ولكن الأجل أن يعيش الإنسان مع الحقيقة لا مع الخيال،
ومع المستقبل لا مع الماضي، ويعلم أن الماضي ما هو إلا ذكرياتٌ
تَقَصَّت، وأحلامٌ تبخَّرت، وسرابٌ لا يروي الظمآن، وَوَسْنٌ لا يُغني
عن الكرى...

جميل أن تعيش مع الأمل، وتجعلَ منه مطيةً لأحلام
تُراودك... وأمنيات لا تتحقق في المستقبل إن جلست على قارعة
الزمن تنتظر من يحققها لك...

ولكن الأجمَل أن تمتلك الأملَ بيدك، وتجعلَ من العمل
الدؤوبِ مطيةً لتحقيق آمالك وما تصبو إليه..





الإنسانُ الشاعرُ عندما تطولُ به الحياةُ

حقاً إن أمر الإنسان لعجيبٌ، تدعو له بطول العمر فيشعرُ بالسعادة، وتلوح بسمة الأمل والرضا على مُحيّاه، ويطول به العمر فيسأمُ من الحياة ويملُّها وتملُّه، وإذ به قد سئم من تكاليفها، وأخذ يردد بين الفينة والأخرى قول حكيمِ الجاهلية زهير:

سِئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ ثَمَانِينَ حَوْلًا - لَا أَبَا لَكَ - يَسَامُ
ومن أعجب المفارقات في حياة الإنسان أن الصغير يتمنى أن يترعرع ويكبر بسرعة، والكبير يتمنى أن يرجع به قطارُ الزمن حتى يعود صغيراً، وعلى كلِّ الأحوال فالإنسان في رحلته العُمرية يمر بثلاثة أطوار جمعها الله تعالى في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وتستمر رحلة الحياة بالإنسان: سرورٌ وحزن، وفرح وترح، وسقم وعافية، وأمل ويأس، وصفاء وكدر... ويمضي فيها، وتنقضي أيامه ولياليه، وما يدري ما تخبئ له الأقدار، ولسان حاله: أمضي الليالي والأيام في سفرٍ ولست أدري بما يخفيه لي قدري يمتطي الأيام، وتسير به السنون، وهو يُعالج الحياة وتعالجه،

يمخر لُجج بحارها، ويغوص في كدر مستنقعها، تطربه بلا بلها
وعنادلها حيناً، وتُشجيه حمائمها التي تسجّع على الأفنان أحياناً
أخرى، ويمر الشبابُ خُلسةً، ويتمطّي الهرمُ بصلبه فوق سنيّ العُمُر،
فيصحو المرء من سبات دهره، وينتبه من غفلة شروده... وإذ به قد
وصل إلى مرحلة تسمى أرذل العمر، فيتذكر قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي
الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ
وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدِّدُ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ
بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [الحج: ٥].

ولا تغادر فكره هذه الآية: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا
يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

ويصبح المرء وقد اشترى قوساً يلازمه، ودفع ثمنه غالياً من دُر
العمر وجواهر الأيام، وتصبح حالته كما قال الشاعر:

حنتني حانيات الدهر حتى كأني خاتِلٌ أدنو لصيد
قريبُ الخطوٍ يحسب من رأني ولست مقيّداً أني بقيد^(١)
وتشتكي منه الأعضاء والمفاصل، فينشد مع صاحبه أبي محلم
الذي عندما كبر كان يقول:

إذا ما امرؤٌ أحصى ثمانينَ حجةً وعاش تشكى كلُّ عضوٍ ومفصل^(٢)
وإذا كان أبو محلم أنشد ذلك، فإن أبا الدهماء أضاف فكرة

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر ١/٢٢٣.

(٢) محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني ١/٤٦٧.

جديدة، فهو عندما كبرت سنه، أخذ يمشي على رجلٍ، ولكن لیت شعري! أية رجلٍ؟! .. إنها مصنوعة من الخشب، وفرقٌ كبير بين ما صنعه الخلق، وبين ما صنعه الخالق فتبارك الله رب العالمين، لذلك قال أبو الدهماء:

وكنت أمشي على رجلين معتدلاً فصرتُ أمشي على رجل من الشجر
وقريبٌ من هذا المعنى ما قاله رجلٌ من بني عجل:

وشانِي واشٍ عند ليلی سفاهةً فقالت له لیلی مقالة ذي عقل
وخبَّرها أني عرجت فلم تكن كورهاء تجترُّ الملامة للبعل
وما بي من عيب الفتى غير أني جعلت العصا رجلاً أقيم بها رجلي

وإذا كان ذاك الشاعران يستطيعان المشي مع القدم الثالثة، فإن شاعرنا التالي لا يستطيع القيام إلا بعد أن يتجرعَ غصص الآلام، ويتضلع من حميم الأوجاع، وهذا الشاعر هو أبو ضبة الذي يقول:

وقد جعلتُ إذا ما قمتُ أوجعني ظهري، وقمتُ قيامَ الشارفِ الظهرِ^(١)

فالإنسان إذن عندما يبلغ من العمر عتياً، ويصل إلى أرذله تتغير كثيرٌ من أحواله، فبعد الشباب شيخوخةً، وبعد القوة ضعفٌ، وبعد الصحة والعافية سقمٌ وبلاء... وكثيراً ما تسألُ المرء:

كيف حالك؟ فيقول: بصحة جيدة والله الحمد والمنة، ولكن عمرو بن مسعود السلمي عندما سأله معاوية كيف حالك؟، أجاب بالتالي:

(١) البرصان والعرجان، الجاحظ ٤٧/١.

«ما يسأل أمير المؤمنين عمن سقطت ثمرته، وذبلت بشرته،
وابيض شعره، وانحنى ظهره، وكثر منه ما يحب أن يقل، وصعب
منه ما كان يحب أن يذل، وترك المطعم وكان المنعم، وهجر النساء
وكُنَّ الشفاء، وقصر خطوه، وذهب لهوه، وكثر سهوه، وثقل على
الأرض، وقرب بعضه من بعض، فقلَّ إيحاشه، وكثر ارتعاشه، فنومه
سبات، وهمه تارات»^(١)

وأبو زبيد الطائي يرى أن طول الحياة لا خير فيه ولا سعادة،
ومن الضلال أن يؤمل المرء خلوداً طويلاً في الدنيا، فنراه يقول:
إِنَّ طُولَ الْحَيَاةِ غَيْرُ سُعُودٍ وَضَلَالٌ تَأْمِيلُ طُولِ الْخُلُودِ^(٢)
وبعضهم يرى أن الحياة لا تُملُّ ولا يسأم منها الإنسان، فلا
أحد يتمنى الموت، بل كما قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ في الحديث الذي
رواه الشيخان: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى
الْعُمْرِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ» والصحيح أن الذي يُملُّ من الحياة عند
الكِبَر هو تكاليفها، فقد أنشد محمد بن محمد بن أحمد الرامثي
(ت ٤٩٠هـ) متأسفاً قوله:

وكنت صحيحاً والشبابُ منادمي وأنهلني صفوُ الشبابِ وعلني
وزدتُ على خمسِ ثمانين حجةً فجاء مشيبي بالضنى وأعلني
سئمتُ تكاليف الحياة وعلتي وما في ضميري من عسى ولعلني^(٣)

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر ٢٢٢/١.

(٢) جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي ٧٣/١.

(٣) نواذر الفوائد من كتاب بغية الوعاة، فرج حسن البوسيفي ٢٢/١.

ولذلك أيضاً عندما قال زهير:

سِئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ ثَمَانِينَ حَوْلًا - لَا أَبَا لِكَ - يَسْأَمُ
قال العلماء بالشعر: إنما سئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ لَا الْحَيَاةَ، فهو
أصح معنىً من قول لبيد إذ يقول:

ولقد سئِمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا وَمَقَالَ هَذَا النَّاسِ كَيْفَ لَبِيدٌ؟^(١)
ولبيد كان قد عمَّر أكثر من زهير، وإنه ما قال بأنه سئِمْتُ
من الحياة إلا بعد أن بلغ مائة وأربعين سنة - على ذمة أبي زيد
القرشي - حيث قال في الجمهرة:

«وكان لبيدٌ أحد المعمرين؛ يقال: إنه لم يمت حتى حُرِّمَ عليه
نكاحُ خمس مائة امرأةٍ من نساء بني عامر، وهو القائل لما بلغ تسعين
حجة:

كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حَجَّةً خَلَعْتُ بِهَا عَنِّي عِذَارَ لَجَامِي
رَمَتْنِي بِنَاتُ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى فَكَيْفَ بِمَنْ يُرْمَى، وليس برامي؟
وَلَوْ أَنَّني أُرْمَى بِسَهْمٍ رَأَيْتُهَا وَلَكِنِّي أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامٍ
وقال حين بلغ عشرين ومائة:

وَعَنَيْتُ دَهْرًا قَبْلَ مَجْرَى دَاحِسٍ، لو كان للنفس اللجوج خلودٌ
وقال حين بلغ أربعين ومائة:

ولقد سئِمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا، وسؤال هذا الناس: كيف لبيد؟

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، الجرجاني، باب سرقات المتنبي ١/

غَلَبَ الزَّمَانَ، وَكَانَ غَيْرَ مُغَلَّبٍ، دَهْرٌ طَوِيلٌ دَائِمٌ مَمْدُودٌ
يَوْمٌ إِذَا يَأْتِي عَلَيَّ، وَلَيْلَةٌ وَكِلَاهُمَا بَعْدَ انْقِضَاءِ يَعُودُ^(١)

وإذا كان أبو زيد القرشي قد ذكر ذلك، فالأعجب منه ما قاله
ابن قتيبة عندما تحدث عن الشاعر المستوغر حيث ذكر أنه تجاوز
ثلاثمائة سنة، ومما قاله ابن قتيبة عن المستوغر:

هو المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد رهط الأضبط، وهو
قديم من المعمرين وعاش ثلاث مائة سنة وعشرين سنة، وقال:

وَلَقَدْ سَمَّمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَعَمِرْتُ مِنْ عَدَدِ السِّنِينَ مِئِينَ
مِائَةً حَدَّثَهَا بَعْدَهَا مِائَتَانِ لِي وَازْدَدْتُ مِنْ بَعْدِ الشُّهُورِ سِنِينَ
هَلْ مَا بَقِيَ إِلَّا كَمَا قَدْ فَاتَنِي يَوْمٌ يَمُرُّ وَلَيْلَةٌ تَحْدُونَا؟!^(٢)

والمرء في جميع أحواله، وسواءً عليه أسم الحياة أم تكاليفها،
فإنه عند الكبر والهرم، لا تبارح ذكريات الشباب ضميره وخاطره،
وكثيراً ما يقارن بين حالته اليوم وحالته بالأمس حيث الشباب
والقوة، فهذا هو تميم بن مقبل العجلاني يقول:

كَانَ الشَّبَابُ لِحَاجَاتٍ وَكُنَّ لَهُ فَقَدْ فَرَعْتُ إِلَى حَاجَاتِي الْآخِرِ
يَا حَرَّ أَمْسَى سَوَادُ الرَّأْسِ خَالِطُهُ شَيْبُ الْفَدَالِ اخْتِلَاطُ الصَّفْوِ بِالْكَدْرِ
يَا حَرَّ مَنْ يَعْتَذِرُ مَنْ أَنْ يُلَمَّ بِهِ رَيْبُ الزَّمَانِ فَإِنِّي غَيْرٌ مَعْتَذِرٌ
قَالَتْ سُلَيْمَى لِأَخْتِهَا وَقَدْ صَدَقَتْ: لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَ الشَّيْبِ وَالْكَبَرِ^(٣)

(١) جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي ٢٢/١.

(٢) الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري ٧٨ / ١.

(٣) بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر ٢٢٣/١.

ومن أعاجيب القدر أن بعض الناس يتمنى أمنياتٍ في الشباب،
ويُلح في طلبها، ولكنها لا تأتيه إلا عند الكبر، وذلك بعد فوات
الأوان، فقد ذكروا «أن أحد الشعراء عاش مُعدماً مُفلساً، وهو في
عنفوان شبابه، يريدُ درهماً فلا يجده، يريدُ زوجةً فلا يحصلُ عليها،
فلما كبرت سنُّه وشاب رأسُه، ورقَّ عَظْمُه، جاءه المالُ من كلِّ
مكانٍ، وسهَّلَ أمرُ زواجهِ وسكنه»، فتأوّه وأنشد:

ما كنتُ أرجوهُ إذ كنتُ ابنَ عشرينا مُلِّكْتُه بعد ما جاوزتُ سبعينا
تُطوفُ بي من بناتِ التُّركِ أغزلةً مثلُ الطُّبَاءِ على كُثبانِ يبرينا
قالوا: أنيئكَ طولَ الليلِ يُسهرُنَا فما الذي تشتكي؟ قلتُ: الثمانينا^(١)

وختاماً: حياتنا تمضي وآمالنا لا تنقضي، وما مضى يلوح في
خوابنا سرابَ ذكرياتٍ وحلماً يبددهُ طلوعُ الفجر، وقد قلت في
إحدى قصائدي:

تمضي الحياة، وما تُقضى أمانينا وأسهمُ الحزن ترمينا فتشجينا
سماءُ آلامنا في الدهر تُمطرنا بوابلٍ مُدْنَفٍ يُدمي مآقينا
نهارنا، ما له يمضي كطيفِ كرى؟ وليلنا بالشقا دوماً يُغشينا
سُنُوننا تنقضي تكلّى على عجلٍ وكرُّ أيامنا للموت يُدنيننا
فأن أن تحمل الأحمالُ هودجنا ونركبَ الشعرَ كي ننسى مآسينا
عسى الخيالُ الذي يسري بخاطرنَا لما نعانيه من همٍّ يُنسينا
هذا هو العمرُ، والدنيا مُولِيَّةٌ يمضي ويفنى بحين يتبعُ الحينا
لا ريبَ أن الدُّنى ظلٌّ يزولُ إذا ما ضمنا للحدِّ . . والأهواءُ تُغرينا

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص ٧٢.

إذا تأملتَ في الدنيا فأنت ترى أن السعيد الذي ما ضيَّع الدينا
وفي كل الأحوال فقد كان النبي ﷺ يستعيد بالله من الغم
والهم والكسل والهرم. وكان عندما يتعوذ بالله من شيء يقول:
«وأعوذُ بك أن أُرَدَّ إلى أرذلِ العُمر» البخاري.
فاللَّهُمَّ بارِكْ لنا في أعمارنا، ولا تردِّنا إلى أرذلِ العُمر، إنك
سميع قريب.





كُنْ عِصَامِيًّا وَلَا تَكُنْ عِظَامِيًّا

كان أبي... كان جدي... وفي كل مجلس ومحفلٍ: كان أبي وكان جدي...، وإذا ما تفاخر ذوو الفخر وأولو المجد نراه يتبجح بأعلى صوته ويقول دائماً: كان أبي وكان جدي...

.. ويبقى السؤال: صحيح أنهما كانا وكانا، ولكن، من أنت؟ وهل تسير على ذات الدرب التي سار عليها أبوك وجدك؟ إذا كنت كذلك - وكان الدرب الذي ساروا عليه قبلك درب أخلاق وعلم ورقِيٍّ وسموٍّ وأدبٍ -... فأنت نعم الخلفٌ لخير سلفٍ، ولكن المشكلة تكمن في من يفتخر في كل مجلس بأبيه وجده، وهو بعيد كل البعد عن نهج أبيه ونهج جده...

وجميعنا نحفظُ بيت ابن الوردي في لاميته المشهورة عندما

يقول:

لا تقل: أصلي وفصلي أبدأً إنما أصلُ الفتى ما قد حصل^(١)
... ونحن لا ننكر طبعاً أن صلاح الآباء فيه صلاحٌ للأبناء؛
لأن المتأمل في القرآن الكريم يرى أن الله تعالى حفظ الأبناء لصلاح
الأب، وذلك عندما قال في سورة الكهف: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ

(١) الكشكول، البهاء العاملي ١/١١٣.

يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ [الكهف: ٨٢].

وجميعنا نعلم أن أفضل شيء يرثه الولد عن أبيه هو الصلاح والذكر الحسن، وأن على الولد الصالح أن يُحْيِيَ فِعَالَ أَبِيهِ، ويكون ذلك بأن يتم الولد بناء صرح الأخلاق الحميدة الذي بدأ به أبوه؛ لأن هناك من قال:

إِنَّمَا الْمَجْدُ مَا بَنَى وَالِدُ الصِّدْقِ وَأَحْيَا فِعَالَهُ الْمَوْلُودُ
وهناك من الشعراء من قال في خلافه:

لئن فخرت بأبائي ذوي شرفٍ لقد صدقت، ولكن بئس ما ولدوا^(١)
وقريبٌ منه كذلك قولٌ بعضهم:

أبوك أبٌ حرٌّ، وأمك حرّةٌ وقد يلدُ الحرّان غيرَ نجيبٍ
فالإنسان هو الذي يختار لنفسه، فإما أن يكون الأول فيتابعُ
بناءً مجد أبيه، وإما أن يكون الثاني فلا يبني لنفسه مجداً... بل لعله
يهدم بسوء فِعَالِهِ مجد أبيه الذي بناه في سنواتٍ وسنواتٍ!...

وكثيراً ما يُطرح التساؤل التالي: أيُّهما أهمُّ: أدبُ الرجل
أم حسبه؟ وهل الأدب يغني عن رفعة النسب والحسب؟. أجب
بعضهم بالآتي:

«الأدبُ كالحسب، قيل: من نهَضَ به أدبه، لم يقعد به حسبه.»

(١) كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكري ٣٢/١.

وقيل: شرفُ الحسبِ يحتاج إلى شرفِ الأدب، وشرفُ الأدبِ مستغنٌ عن شرفِ الحسبِ.

وقال الأحنف: من لم يكن له علمٌ ولا أدبٌ، لم يكن له حسبٌ ولا نسبٌ.

وقال شاعرٌ:

ما ضرَّ من حاز التأدبَ والنهي أن لا يكونَ من آلِ عبدِ منافٍ؟^(١)
وكذلك قال الشاعر:

كن ابنَ من شئتَ واتَّخذَ أدباً يغنيك محموده عن النسبِ
إنَّ الفتى من يقول: ها أنا ذا ليس الفتى من يقول: كان أبي^(٢)

والإنسانُ العاقلُ اللبيبُ حتى وإن كرمَ حسبه وطابت أرومته، فإنه لا يتكل على أحسابه، ولا يعتمد على أنسابه، بل عليه أن يكونَ لنفسه شخصيةً فاعلةً مؤثرةً في المجتمع، ومن جميل الشعر في هذا المعنى قولُ عبدِ الله بنِ معاويةَ بنِ عبدِ الله بنِ جعفر:

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمْتَ يوماً على الأحسابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا^(٣)

وعلى الإنسانِ العاقلِ أيضاً أن يكونَ عصامياً لا عظامياً، فهناك فرقٌ كبيرٌ بين العظامي والعظامي، فالعظامي: يفتخرُ بعظامِ آبائه

(١) محاضرات الأدباء: الراغب الأصفهاني ٨/١.

(٢) غرر الخصائص الواضحة: الوطواط ٧٤/١.

(٣) آداب العلماء والمتعلمين: الحسين بن المنصور اليميني ١٢٥/١.

وأجداده ربّما تكون قد نَحِرت، والعصاميُّ: من يبني نفسه بنفسه . . .

و«العصامي: منسوبٌ إلى عصام بن شهير، حاجبِ النعمان بن المنذر الذي قال له النابغةُ الذبيانيُّ حين حجبه عن عيادة النعمان من قصيدةٍ له:

فإني لا ألومك في دخولٍ ولكن، ما وراءك يا عصام؟
فكبيرُ الهمةِ عصاميُّ يبني مجده بشرف نفسه، لا اتكالاً على
حسبه ونسبه، ولا يضيره أن يكون ذا نسبٍ، فحسبه هِمَّتُهُ شرفاً
ونسباً»^(١).

ولذلك «كان بعض العلماء إذا سأل عن أحدٍ قال: أعصاميُّ هو أم عظاميُّ؟ أي: أهو ممن يفخر بأبائه وسلفه وبمَن قد مضى من أهله، وهو خالٍ مما كانوا فيه، أم هو بنفسه؟، كما قال الشاعر:

نفسُ عصامٍ سوّدتُ عصاما وعلمته الكَرَّ والإقداما وجعلته مَلِكا هُماما^(٢)
فالسوّدُ والمجدُ لا يكونان بالوراثة، إنما بالفعال الحميدة،
والأخلاق النبيلة، بل إن بعض أصحاب النفوس العظيمة يَأبُونَ أن
يكون سموُّهم إرثاً ورثوه عن أب أو أم كما قال عامر بن الطفيل
الجعفريُّ:

فإني وإن كنتُ ابنَ سيدِ عامرٍ وفارسها المشهورِ في كلِّ موكبٍ

(١) علو الهمة: محمد أحمد إسماعيل المقدم، المكتبة التوفيقية، ص ٩١.

(٢) الفاضل المبرد ٣/١.

فما سوّدتني عامرٌ عن وِراثة أبي الله أن أسمو بأُمَّ ولا أبٍ (١)
وهنا نتذكر شخصية المتنبّي فإنها تتميز بهذه الميزة، والمتنبّي
هو المشهور بتفاخره ونزعتة إلى السيادة، فهو يأنف من أخيه إذا كان
غير كريم وماجد، ولا يرضى بأن يُنسب الفضلُ إليه إكراماً لجده،
لذلك يقول:

وَأَنْفٌ مِنْ أَخِي لِأَبِي وَأُمِّي إِذَا مَا لَمْ أَجِدْهُ مِنَ الْكِرَامِ
وَلَسْتُ بِقَانِعٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ بِأَنْ أُعْزَى إِلَى جَدِّ هُمَامٍ (٢)
ويقول أيضاً:

أرى الأجداد يغلبها كثيرٌ على الأولاد أخلاق اللئام (٣)
وأفضلُ نسب على الإطلاق - ويحق لصاحبه أن يفتخر به
ويعتزّ - هو النسبُ النبوي، ومع ذلك أراد النبي ﷺ أن يُعلم البشرية
جمعاء أن عمل المرء هو الأساسُ يوم الحساب، وليست الأنسابُ
والألقاب، لذلك لَمَّا نَزَلَتْ آيَةٌ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١٤)
[الشعراء: ٢١٤] قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الصِّفَا فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ
مُحَمَّدٍ: يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَا بِنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: لَا أَمْلِكُ
لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ» (٤).

وكذلك يوم القيامة لا أنسابَ بين الناس إلا نسبُ الإيمان

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ابن رشيق القيرواني ١/١٥٩.

(٢) معجز أحمد: أبو العلاء المعري ١/٤٠٠.

(٣) الوساطة بين المتنبّي وخصومه: الجرجاني ١/٩٥.

(٤) صحيح مسلم

والعمل الصالح كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)

[المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣].

وختاماً: الإنسان بنفسه وبأخلاقه ومآثره، وليس بآبائه وأجداده، فكثيرٌ من الناس يعيشون مترنمين بأناشيد الماضي، حالمين على أطلال أمجاد آبائهم وأجدادهم، ولكنهم ما قدموا شيئاً يُذكرُ...

وفي المقابل فإن كثيراً من الناس يموتون، ويفارقون الدنيا بأجسادهم فقط، أما ذكرهم فيظلُّ مرفوعاً يُحاكي سماء الفضيلة والسمو...

واللبيب من يأخذ بنصيحة أحمد شوقي عندما قال في رثاء مصطفى كامل:

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمرٌ ثانٍ^(١)



(١) جواهر الأدب، أحمد الهاشمي ٩/٢.



الغُرَابُ عِنْدَ الْعَرَبِ.. نَذِيرُ شُؤْمٍ أَمْ بَشِيرُ خَيْرٍ؟!

كلما رأينا إنساناً أضناه الهجرُ، وأثقله البينُ، وأدنفه جوى يُذيب منه الحشا، ويفجر في صدره بركانَ شوقٍ يُمزقُ ضلوعه. . فإنه يُلقى باللوم على الغراب!

وكلما حكمت الأقدار على شخصٍ ما بفراقٍ مُحبِّ أو وداعٍ ركبٍ علّقوا في ركبهم فؤاده، فازداد انهمارُ الدموع ونحيبُ الأكباد... . فإن ذلك الشخص يرى أن السببَ في ذلك هو الغرابُ... .

وإن المتأملَ في أشعار العرب، وأسفار البلاغة والأدب، كثيراً ما يرى أن الشاعر يُلقى باللوم على غراب البين، فيكثر من تقيعه وذمه، وكأن الغراب بيده مفاتيحُ الشقاء والتجافي، أو هو مطيئةُ التّعاسة، ومركبٌ للبائسين... . مع أن ذلك الغراب مسكينٌ لا يملك حولاً ولا قوةً، ولا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا هجراً ولا لقاءً... .

وعندما يكون الشاعر متشائماً تسيطر عليه حالةٌ من السوداوية والكآبة نراه يتفنن في توبيخ الغراب، ويمطر عليه وابلاً من سحاب اللوم وغيثِ التقيع الذي قد يصل أحياناً إلى السباب والشتائم، بل ربّما تعدا ذلك إلى القتل والفناء... .

... ويبقى السؤال: ما ذنبُ الغراب حتى يُسمى غرابَ البين؟
وأيةَ جنايةٍ ارتكَبَ حتى يضافَ اسْمُهُ إلى الهجر والقطيعة والبعد
والفراق...؟! وهل يستطيع الغراب أن يصل ما شاءت الأقدارُ أن
يُقطع، أو أن يقطع ما شاءت الأقدارُ أن يُوصَلَ؟...

... وإذا كانت العربُ تتشائم بكثيرٍ من الأشياء، وترى فيها
النحسَ وسوءَ الطالع، فلماذا كان الغرابُ في طليعة ما يتشائمُ به
الشعراءُ في أشعارهم؟! وهل - يا تُرى - سنرى في تراثنا الأدبي أن
أحدًا من الشعراء تفاعل بمرأى الغراب وطرب لنعيقه ورأى فيه بشيراً
ورمزَ سعادة وهناء؟!

تلك أسئلةٌ كثيرةٌ، والإجابات عنها تطول، ولكن باختصار
أقول:

لقد حاول كثيرٌ من الأدباء والمفكرين تحليلَ إصاق البين
والنحس والتشاؤم بالغراب، ولهم في ذلك آراءٌ شتى، ولكلِّ وجهةٍ
هو مؤلِّها:

فمنهم من قال:

«الغرابُ أكثر من جميع ما يُتطيَّرُ به في باب الشؤم، ألا تراهم
كلما ذكروا ممَّا يتطيرون منه شيئاً ذكروا الغرابَ معه، وقد يذكرون
الغرابَ ولا يذكرون غيره...»

... ثم إذا ذكروا كلَّ واحدٍ من هذا الباب لا يمكنهم أن
يتطيروا منه إلا من وجهٍ واحد، والغرابُ كثيرُ المعاني في هذا

الباب، فهو المقدم في الشؤم»^(١).

ومنهم من حاول أن يُعلّل ذلك نثراً وشعراً، جاعلاً لكل مسمّى من اسمه نصيباً، فجعل الغراب من الاغتراب، والبين من البانة والبينونة والبعد والنوى، لذلك نرى أن من أصحاب هذا الرأي من يقول:

«وإنما لزمه [أي: الغراب] هذا الاسم؛ لأن الغراب إذا بانَ أهلُ الدار للتُّجعة، وقعَ في مرابض بيوتهم يلتمس ويتقَمّم، فيتشائمون به ويتطيرون منه؛ إذ كان لا يعتري منازلهم إلا إذا بانوا، فسمّوه غرابَ البين».

قال الشاعر:

وصاح غرابٌ فوق أعوادِ بانهٍ بأخبار أحبابي فقسمني الفكرُ
فقلتُ غرابٌ باغترابٍ وبانهٍ تُبين النوى تلك العيافة والزجر
وهبت جنوبٌ باجتنابي منهمم وهاجت صباقلت الصبابة والهجر^(٢)
وقريباً من ذلك التعليل، ما علل به السّمهريُّ عندما رأى غراباً على بانهٍ ينتفُ ريشه، فلم يجد في البان إلا البينونة، ووجد في الغراب جميع معاني المكروه، فقال:

رأيتُ غراباً واقعاً فوق بانهٍ يُنتفُ أعلى ريشه ويُطايِرُهُ
فقلتُ ولو أني أشاء زجرته بنفسي للنهدي: هل أنت زاجرُهُ؟

(١) الحيوان الجاحظ ١/٢٨٣.

(٢) مجمع الأمثال الميداني، باب أشأم من غراب البين، ص ١٦٨.

فقال: غرابٌ باغترابٍ من النَّوى وبالبانِ بَيْنُ من حبيبٍ تعاشرُهُ
فذكر الغرابَ بأكثرَ ممَّا ذُكرَ به غيرُهُ، ثمَّ ذكَّرَ بعدُ شأنَ الريشِ
وتطاييره^(١).

... في حين نرى أن بعض المفكرين الأدباء قد جعل غرابَ
البيِّن نوعين، - فهو في زعمه ليس غراباً واحداً - كما فعل الجاحظ
عندما قال:

«وغرابُ البيِّن نوعان:

أحدهما: غرابٌ صغارٌ معروفةٌ بالضعفِ واللُّؤمِ، والآخر: كُلبٌ
غرابٍ يُتَشَاءمُ به». وأضاف الجاحظُ إليها أيضاً غرابَ الليلِ الذي
يشبه البومَ، والذي قال عنه:

«ومن الغربانِ غرابُ الليلِ، وهو الذي ترك أخلاقَ الغربانِ،
وتشبهه بأخلاقِ البوم»^(٢).

... ولعلَّ لونَ الغرابِ الشاحبِ، واتِّشاحه بالسَّوادِ من أهم
الأسباب التي جعلته يتجلَّبَّبُ بالتشاؤمِ، ويتدَثَّرُ بالنحسِ، ولعلَّ لونه
الكالح أيضاً هو الذي جعله جديراً بلوعاتِ الفراقِ، وتباريحِ
النوى...

ونحن عندما نتأمَّل في التذكرة الحمدونية نرى أن هناك شاعرةً
- ولها قصةٌ في الكتاب مع ثلاثٍ من أخواتها وكيف قامت كلُّ واحدة

(١) الحيوان الجاحظ ٢٨٣/١.

(٢) الحيوان الجاحظ ١٨٤/١.

منهن بقتل غراب بعد تعذيبه - تطلبُ من غراب البين أن يُبين ويفصح عما يقوله حين يطير، وكذلك عما يقوله حين يقَع على الأرض، وتُشبه حالتها بحالته... فهي مطرودةٌ ولا ناصرَ لها مِمَّن ظلمها، والغراب كذلك مطرود ولا ناصرَ له ولا معين، فهذا هي تقول:

ألا يا غرابَ البينِ لونك شاحبٌ وأنتَ بلوعاتِ الفِراقِ جديرٌ
فبين لنا ما قُلتَ إذ أنتَ واقعٌ وبين لنا ما قُلتَ حين تطيرُ
فإن يكُ حقاً ما تقولُ فأصبحتُ هُمومك شتّى والجناح قصيرُ
ولا زلتَ مطروداً عديماً لناصِرٍ كما ليس لي من ظالمي نصير^(١)

وبعض الشعراء كان يتشاءم من الغراب إذا طار عن شماله، فمجرد رؤية الغراب تُشعره بالتشاؤم، فما بالك إذا طار الغراب عن شمال الشخص؟!!

فهذا الشاعر قيس بن ذريح نراه متشاءماً من الغراب بكل أحواله، فكيف به وقد رآه يطير عن شماله كلما ذكر لُبني؟!، سنى في أبياته أنه يدعو عليه بأن تُشلَّ رجلاه، وأن يضعفَ جناحاه عن الطيران، فهذا هو يقول في وصف ذلك المشهد:

ألا يا غرابَ البينِ مالكُ كُلِّما تذكَّرتُ لُبني طرتَ لي عن شماليا؟
أعندك علمُ العيبِ، أم أنتَ مُخبري عن الحيِّ إلا بالذي قد بدا ليا؟
فلا حملتَ رجلاكُ عِشاً لبيضةً ولا زالَ عَظْمٌ من جناحيكِ واهيا^(٢)

(١) انظر: القصة والأشعار كاملة في التذكرة الحمدونية، ابن حمدون ٣/

٨٤، وانظر: الأمالي، أبو علي القالي ١/٨٧.

(٢) الحماسة البصرية أبو الحسن البصري ١/١٤٨.

ولأجل ذلك «كانت محبوبتهُ لبني قد نذرت ألا تقدر على
غرابٍ إلا قتلته، وذلك لطيرة قيسٍ منهن» ولقوله أيضاً:

ألا يا غرابَ البينِ ويحكُ نبني بعلمك في لبني، وأنتَ خبيرٌ
فإن أنتَ لم تُخبرِ بشيءٍ علمته فلا طرتُ إلا والجنحُ كسيرٌ
وذرّتَ بأعداءِ حبيبك فيهم كما قد تُراني بالحبيبِ أدور^(١)

والأمر عند لبني لم يقتصر على الدعاء على الغراب فحسبُ
كما فعل قيسٌ، بل إنها نذرت أن تقتله كلما قدرت عليه، ووفت
بندرها، بل وبالغت في الوفاء به إلى درجة التشفي والانتقام، وكأن
الغراب هو سببُ تعاستها وصارمٌ حبلٍ وصلها...

فقد روي «أن لبني أمرت غلاماً لها فاشترى لها أربعة غرابان،
فلما رأتهن بكت وصرخت، وكتفتهن، وجعلت تضربهن بالسوط
حتى مِتْن جميعاً، وجعلت تقول بأعلى صوتها:

لقد نادى الغرابُ ببين لبني فطار القلبُ من حذرِ الغرابِ
فقلتُ: غداً تباعدُ دارُ لبني وتَنأى بعدُ وُدٌ واقترابِ
فقلتُ: تعستَ ويحكُ من غرابٍ أكلَ الدهرِ سعْيِكَ في تبابٍ؟
لقد أولعت، لا لاقيتَ خيراً، بتفريقِ المحبِّ عن الحبابِ»^(٢)

ولم يقتصر الأمر على قيس ولبني، بل كان لكثيرٍ عزة أيضاً
نصيبٌ من الحزن والألم عندما صاح غرابُ البين مؤذناً بالفراق

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري ١/١٣٦.

(٢) مصارع العشاق، السراج القارئ ١/٤٧.

والرحيل، فقد ذكروا «أن كُثِرَ عندما استنشده ابنُ أبي عتيق أنشدَ:
أبائنةٌ سَعدي؟ نعم ستبينُ، كما انبتَّ من حبلِ القرينِ قرينُ
أأنُ زَمَّ أجمالاً، وفارقَ جيرةً، وصاحَ غرابِ البينِ أنتَ حزينُ^(١)؟
إلا أن بعض الشعراء كان مُنصفاً في الحكم، ونصّب نفسه
قاضياً للدفاع عن الغراب، فأخذ يتساءل: علام الشتمُ ينهلُ على
غرابِ البين، والمحَبُّ هو الذي فارق حبيبه ولم يأمره الغراب
بذلك؟! وهذا القاضي المنصف لم يجعلِ الذنبَ في الفراق والبعد
على الغراب، وأتى بالأدلة المنطقية على دعواه، وذلك كما فعل
الشاعرُ أحمد بن مِيَّة - وهو أحد الظرفاء - عندما قال:

يسبُّ غرابَ البين ظلماً معاشرُهم وهم آثروا بعدَ الحبيبِ على القربِ
وما لغرابِ البينِ ذنبٌ فأبتدي بسبِّ غرابِ البينِ، لكنه ذنبي
فيا شوقٌ لا تنفدُ، ويا دمعُ فِضٍّ وزِدُ ويا حبُّ راوحِ بينِ جنبٍ إلى جنبِ
ويا عاذلي لُمَني، ويا عائدي الحُني عصيتُكما حتى أُغَيَّبَ في التُّربِ
إذا كان ربي عالماً بسريرتي فما الناس في عيني بأعظمَ من ربي^(٢)

والمتأمل في الشعر العربي يرى أن التشاؤم لم يقتصر عند
الشعراء على الغراب فقط، فهناك من تشاءم باليوم، وهناك من تشاءم
بالأفعى، ومنهم من تشاءم بالنُّوق بل وأخذ أيضاً يدافع عن الغراب،
فالنوق - كما يزعم - هي التي تحملُ الأحبةَ وتُغَيِّبُ هودجهم في
القفار والصحارى، فهي إذن من يشئت شملهم، ويفرِّق جمعهم،

(١) الموشى، الوشاء ٤٧/١.

(٢) المجلس الصالح والأنيس الناصح، المعافى بن زكريا ١٦٥/١.

لذلك نرى أن شاعرنا يُغلط الذين يلومون الغرابَ ونعيقَه، وما لومهم له إلا بسبب جهلهم، فإن الذنب الحقيقي للجمال وليس للغراب، وذلك عندما قال:

غلط الذين رأيتهم بجهالةٍ يلحون كلُّهم غراباً ينعقُ
ما الذنبُ إلا للجمال فإنها ممّا يُشتت شملهم ويفرق
إن الغراب بيمنه يُدني النوى وتشتت الشملَ الجميعَ الأنيقُ^(١)

وكذلك فعل أبو منصور ظافرُ بن القاسم عندما نأى أحبابه، وسحّت دموعه حتى كاد أن يغرقَ فيها، حيث لم يجعل اللومَ الحقيقيَّ على الغراب، بل جعل اللومَ على البينِ ومن ساعد عليه كالنياق والمطايا؛ لأن النياقَ والمطايا والمراكبَ هي التي أبعدت عنه الأحباب، وسرت بهم تمخُرُ عُباب البیداء، وتشق طريقها موغلةً في غياهب الرمال:

نأوا فالأسى يُجري غروبَ مدامعي على الخدِّ حتى كدتُ فيه أغوصُ
ألومُ غرابَ البينِ عند فراقهم وما البينُ إلا مرَكَّبٌ وقلُوصُ^(٢)

ونحن عندما تأملنا معاً وغُصنا في لُجج الأدب العربي رأينا أن كثيراً من الشعراء قد ربط بين الغراب وبين التشاؤم والطيرة، وخاصةً في العصر الجاهلي، ولعل ذلك يعود إلى كثير من المعتقدات الجاهلية التي كانوا عليها، حيث كانوا يتشاءمون من الهامة، ومن شهر صفرَ ومن الطيرة، ثم أتى الإسلام فبددها، وقال رسول الله ﷺ:

(١) المحاسن والأضداد، الجاحظ ٢٠/١.

(٢) خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصبهاني ٣٠٧/٢.

«لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»^(١).

ويبقى الغرابُ عند بعض الشعراء وبعض الناس نذيرَ شؤمٍ كالبوم يُنبئُ بالخراب، ومن يدري؟ فربما يدفع الغلُوُّ في هذا الأمر، والإيغالُ في الشاؤم من الغراب بناقدٍ يُطلُّ علينا ليقولَ لنا:

إن ذَكَرَ الغرابُ في داليةِ النابغة الشهيرة هو الذي جعل فيها عيباً من عيوب القوافي [وهو الإقواء]، لذلك كانت القصيدة كلها تسير على نمط عذبٍ متسلسلٍ، بِرَوِيٍّ مكسورٍ ومطلعها:

أَمِنْ آلِ مِيَّةٍ رَائِحٌ أَوْ مُغْتَدِي عَجْلَانٌ، ذَا زَادٍ وَغَيْرَ مَزُوْدٍ؟
حتى إذا ما ذَكَرَ الشاعِرُ غرابَ الشؤمِ حصلَ معه الإقواء، فأتى البيتُ كالتالي:

زَعَمَ البوارحُ أن رحلتنا غداً وبذاك خَبَرنا الغرابُ الأسودُ^(٢)
فكان هناك خللٌ في موسيقى البيت مَجَّته الآذان، ونفرت منه النفوس . . .

طبعاً نقول من يدري؟ فلعل ناقداً يقولُ ذلك!!

وقبل أن نختم هذا المقال، علينا أن نذكُرَ أيضاً أن بعض الشعراء رأوا في الغراب فألاً حسناً، ومبشراً بخيرٍ لا نذيرَ شؤمٍ، وأوردوا أمثلةً على ذلك، ومنها ما قاله الجاحظ حيث تحدث عن دفاع صاحب الغراب عن الغراب فقال:

(١) رواه البخاري.

(٢) انظر ما قيل عن الإقواء في: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، ١٠/١، وانظر: الزهرة، ابن داود الأصبهاني ٢٣٥/١.

«قال صاحبُ الغراب: الغرابُ وغير الغراب في ذلك سواءٌ
[أي: في الشؤم]، والأعرابيُّ إن شاء اشتقَّ من الكلمة، وتوهمَ فيها
الخيرَ، وإن شاء اشتقَّ منها الشرَّ، وكلُّ كلمةٍ تحتملُ وجوهاً.

ولذلك قال الشاعرُ ابنُ قيسِ الرُّقيَّاتِ:

بَشَّرَ الظَّبِّيُّ والغُرَابُ بُسْعُدِي مرحباً بالذي يقول الغرابُ^(١)
وختاماً: كثيراً ما يُبدع الشعراء ويأتون بصورٍ جميلةٍ ذُكر فيها
الغرابُ وسوادهُ، حتى وإن كانت في الهجاء، فنحن ننظر إلى الصورة
فنراها في غاية الجمال والطرافة. والأمثلة كثيرة في هذا المجال،
ومنها ما قاله الشاعرُ العباسُ بنُ يزيد الكنديُّ:

لو اظَّلَعَ الغُرَابُ على تَمِيمٍ وما فيها من السَّوآتِ شَابَا^(٢)
والذي يتبيَّن في نهاية المطاف - طبعاً وهذا الرأي لا ينتطح فيه
عزازان، ولا يتمارى فيه اثنان - أن الغراب مظلومٌ في إصاق الشؤم
به، والتطيرِ منه، وما هي إلا معتقداتٌ جاهليَّةٌ - كما أسلفنا -
معتقداتٌ سادت ثم بادت، وأصبحت من الماضي، فكلنا نعلم أن
ما قدره الله كائن لا محالة، وسواءٌ أشاء الغرابُ ذلك أم أبى؟!!!



(١) الحيوان الجاحظ ٢٨٣/١ - ٢٨٤.

(٢) ربيع الأبرار، الزمخشري ١٧٠/١.



النَّدْمُ... بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْأَدَبِ

كل واحدٍ منا قد يندم على فعلٍ أمرٍ ما، أو على فواتٍ أمرٍ ما، فتراه يُكثر من قوله:

ليتني فعلت كذا، ولو فعلت كذا لما حصل معي كذا... .

فنقول له: هوّن على نفسك، وقل: قدر الله وما شاء فعل، وتذكر دائماً أنه: «ما كلُّ ما يتمناه المرء يُدرکه»، وكم من أمرٍ ندم الإنسان على فواته فكان فواته خيراً له!، وكم من مُتمنٍّ كانت مَنِيَّتُهُ في أمنيته، فما عليك إلا أن تكرر هذه الآية الكريمة: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

... ثم إن ارتشاف الندم، وتجرُّع الحسرات، ولهيب الآهات، وجمر الزفرات، لا يُفيد في أيّ شيء، وهي أشياء لا تزيد صاحبها إلا أسىً ولوعة، وأشجاناً وانتحاباً، لأنها لن تُغيّر من قضاء الله وقدره أيّ شيء، فكلُّ مُصيبةٍ مقدّرةٌ في كتاب الله قبل وجودها، سواءً أكانت المصيبةُ في النفس أم في الأرض، وسواءً أرضي الإنسان بها أم سخط، لذلك قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا

فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾
 [الحديد: ٢٢، ٢٣] وعلى الإنسان العاقل أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، كما قال كعب بن أبي لابن الدلمي:

«وَلَوْ أَنْفَقْتَ جَبَلَ أَحَدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»^(١).

ومن أجمل الوصايا التي يجب على المرء أن يأخذ بها، ويعلمها لمن يحب، تلك الوصية الخالدة التي أوصى بها النبي ﷺ ابن عباس، والتي يرويها لنا ابن عباس رضي الله عنه، فيقول:

كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أَعَلَّمَكُ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(٢).

فالإنسان المؤمن يقيناً بالقدر لا يُقَلِّبُ كفيه على ما فاته من الأمور، ولا يُتَبِعُ الأمرَ الفاتتَ بـ(ليت، وهلا) ويتمثل قول القاضي الجرجاني:

(١) رواه أحمد في المسند.

(٢) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وإني إذا ما فاتني الأمر لم أبتُ أقلبُ كفي إثرهُ متندياً
ولكنه إن جاء عفواً قبلتهُ وإن مال لم أتبعه هلا وليتما^(١)
ثم إن العجلة، واتباع الهوى، وتسويل النفس، ووساوس
الشیطان هي المطايا التي تُوصل من امتطى متنها إلى بيداء الندامة،
فقايلُ ما ارتكب جريمة القتل إلا بعد أن سوّلت له نفسه، ثم أصبح
فيما بعدُ من النادمين، ولكن بعد ماذا؟! بعد ما ارتكب جريمة القتل
العمد، وليته ندم على ارتكابه جريمة القتل، بل ندم لأنه لم يعرف
ماذا يفعل بسوء أخيه، وكيف يُواربها بعد أن تعب من حمل أخيه
ميتاً كما في بعض التفاسير، وانظر كيف صور الله ﷻ لنا هذا
المشهد:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾
فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ
يَتَوَلَّى أَعْرَجْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ
الْنَادِمِينَ ﴿٣١﴾ [المائدة: ٣٠، ٣١]. وكذلك فعل القتال الكلابي عبيد بن
مجيب بن المضرحي، ندم، ولكن بعد أن قتل، واحمرت يده
من الدماء، وماذا ستفعل الندامة؟ قال:

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتَهٍ أَمَلْتُ لَهُ كَفِّي بَلَدَنٍ مُقَمِّمٍ
فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّي قَدْ قَتَلْتُهُ نَدِمْتُ عَلَيْهِ، أَيَّ سَاعَةٍ مَنَدَمٍ^(٢)
... هذا في عيون الشريعة الغراء، لكن الأمر قد يختلف

(١) التذكرة السعدية، العبيدي، ٣٧/١.

(٢) الحماسة البصرية، أبو الحسن البصري ١٥/١.

بعض الشيء في عيون الشعراء وأهل الأدب والأمثال، فهم فقط يهتمون بجانب النحيب والحسرات، وإظهار التندّم على ما فات، وقليلاً ما يذكر أحدهم أن ما تمّ من أمورٍ هو بقضاءٍ من الله وقدرٍ، وذلك كما فعل الإمام الشافعي في مطلع قصيدته المشهورة، حيث يقول:

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفساً إذا حكم القضاء
وهذا طبعاً؛ لأن الإمام الشافعي هو إمام في الشريعة، بل
وصاحب مذهب، وهو كذلك يعتبر أن الشعر يزري بالعلماء، ولولا
ذلك لكان أشعر من لييد كما قال!.

وفي كتب الأدب نرى أن هناك شخصاً كلما ذكر الندم يذكر
معه، وهو ممن اشتهر بندمه حتى ضرب به المثل، وهذا الشخص
اسمه: (الكسعي)، حتى قيل في المثل: أندم من الكسعي. وقيل
أيضاً: ندم ندامة الكسعي، فمن هو هذا الرجل؟ وما قصته؟

.. إنه محارب بن قيس، ومن حديثه كما ذكروا:

أنه كان يرعى إبلاً له، فبصر بنبعة [شجرة] في صخرة،
فأعجبته؛ وقال:

ينبغي أن تكون هذه قوساً، فجعل يتعهدها ويرقبها، حتى إذا
أدركت، قطعها وجففها؛ فلما جفت اتخذ منها قوساً وأسهماً... ثم
خرج حتى أتى غرةً على موارد حمير وحش، فكمّن ليلاً فيها، فمرّ
قطيع منها، فرماه، فمرق منه السهم، فظن أنه أخطأ، ثم لم يزل
يفعل ذلك حتى أفنى الأسهم الخمسة في أعيار خمسة، وقد أصابها

كلها، ومرق منها سهمه، فأصاب الصخرة فأجج ناراً، وهو يظن أنه
أخطأها... .

.. ثم عمد إلى القوس، فضرب بها حجراً، وكسرها
ونام... .

فلما أصبح نظر إلى الأعيار مصرعةً حوله، ونظر إلى أسهمه
مضرجةً بالدم؛ فندم على كسر القوس، فشد على إبهامه، فقطعها،
وأنشأ يقول:

ندمتُ ندامةً لو أن نفسي تطاوعني، إذن لقطعتُ خمسي
تَبَيَّنَ لي سفاهُ الرأيِ منِّي لعمرُ أبيك حين كسرتُ قوسي
وسارت ندامته مثلاً في كل نادٍ على ما جتته يده^(١).

لذلك قال الشاعر مخاطباً أحد النادمين:

ندمتَ ندامةَ الكُسعيِّ لما رأَتَ عيناكِ ما صنعتِ يداكِ^(٢)
وكذلك عندما طلق الفرزدق زوجته النوار قال أيضاً:

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الكُسَعِيِّ لَمَّا مَضَتْ مِنِّي مُطَلَّقَةً نَوَارُ
وَكَانَتْ جَنَّةً فَخَرَجْتُ مِنْهَا كَادَمَ حِينَ أَخْرَجَهُ الضُّرَارُ
وَكَنْتُ كَفَاقِي عَيْنِيهِ عَمْدًا فَأَصْبَحَ مَا يُضِيءُ بِهِ النَّهَارُ
وَلَوْ ضُنَّتْ يَدَايَ بِهَا وَنَفْسِي لَكَانَ عَلَيَّ لِلْقَدَرِ الخِيَارُ

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي ٤١/١، وانظر الكتاب:
كتاب جمهرة الأمثال، أبي هلال العسكري الطبعة الثانية، ١٩٨٨م،
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش ٣٢٥/٢ - ٣٢٦.

(٢) حياة الحيوان الكبرى، الدميري ١٣٢/٢.

وَمَا فَارَقْتُهَا شِبَعًا، وَلَكِنْ رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَأْخُذُ مَا يُعَارُ^(١)

ولكن، وحتى نعالج هذا الأمر بإنصافٍ فإننا نقول: على الإنسان أن يندم أحياناً، وأحياناً عليه أن لا يشعر بالندم، فكيف ذلك؟

يأتي الجواب كالتالي:

إذا كان الأمر فوق طاقة الإنسان، ومن الأمور الغيبية المقدرة عليه، فلا ندامة ولا حسرات؛ لأن ذلك لن يُغير من القدر شيئاً، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وذلك كالموت والأمراض، وما يعترى الإنسان من آفاتٍ جراء الزلزال والبراكين، وباختصار: كلُّ ما لا طاقة للإنسان فيه . . .

وأما إذا كان الأمر الذي لا يُريده المرء قد حصل بسبب تقصيرٍ منه، وعدم أخذه بالأسباب، ولولا تقصيره لما حصل له ما يكره - كطالبٍ رسب في الامتحان لأنه لم يدرس جيداً - فلا مانع من الندم في هذه الحالة وأمثالها؛ لأن الندم في مثل هذه الحالات يشحذ الهمم، ويمضي بأصحابها في دروب التقدم والطموح . . .

. . . وكذلك العبد الذي عصى ربه يوماً ما، فإن الندم في مثل هذه الحالة واجبٌ عليه شرعاً، وعليه أن يُسرع في الندم قبل أن يُغرغر؛ لأن عليه أن يتوب، وقد قال النبي ﷺ: «الندم توبة»^(٢).

(١) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي ٤٢/١.

(٢) رواه أحمد في المسند، وانظره في: المعجم الصغير للطبراني: ٨٣/١.

وختاماً نقول: اللَّهُمَّ لا تُكَلِّفنا ما لا طاقة لنا به، والطف بنا
في ما جرت به المقاديرُ، ولا تجعلنا من النادمين، يومَ لا ينفع ندمٌ،
ولا مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ.





قلوبٌ بلا دماءٍ

إذا قيل لك: إن إنساناً يعيش بلا قلبٍ فهل تصدق؟! أم أن علاماتِ الاستفهام سترتسم على نظرات عينك المحدقة في دهشة، ولسانٌ حالها يقول: هل من المعقولِ هذا؟

وإذا ما همس في أذنك إنسانٌ، وقال لك: إن هناك قلوباً في صدور أصحابها، ولكنها لا تنبض، ومع ذلك فهم لا يزالون على قيد الحياة. فهل سيسيطر عليك التعجب، وتغرق في بحار الاستغراب؟

وإذا ما طرحنا سؤالاً جديداً عليك، والسؤال يقول: هل رأيت قلباً بلا دماءٍ، أو جفت شرايينه فغدا صحراءً مجدبةً، وجرداءً مقفرةً؟! فماذا سوف تجيب على تلك الأسئلة؟

... قد تشعر بالغرابة والحيرة والدهشة للوهلة الأولى عند سماعك لتلك الأسئلة، ولكن ربما بعد قليل قد تزول شكوكك، ويطمئن قلبك، ويتلاشى تعجبك، ويضمحل استغرابك.

أما الأناس الذين يعيشون بلا قلوبٍ فإنهم كثر، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: رجلٌ نزع الرحمة من قلبه، فصرَّح عجزاً هراً بدمائه، وأمطر طفلاً بريئاً بوابل رصاصه، وقتل آلاف الأبرياء،

ومثل بمئات الجُثث، وشرّد الآمنين في ديارهم بعد أن أحرق منازلهم عن بكرة أبيها، وخلفها ملاعبَ لألسنة اللهب المتلطي، ومسارح تُعرض على خشباتها مواقف الذعر والخوف والهول، وحوّل أيكها ورياضها إلى مهامه موحشة بعد أن ذبح حمائمها وعنادلها، وأضحت أنهارها شراباً ذا غُصّة، وحميماً لا يُطاق ولا يُستساغ، فهل لهؤلاء قلوبٌ؟

وكثيرة هي القلوبُ التي في الصدور، ولكن قليلٌ منها ما ينبض، فالنبض دليلُ الحياة، وأمارة القوة والأمل، والحياة تعني الكرامة والعيش العزيز، وكم من إنسان يعيش ذليلاً، ويحيا بلا كرامة، يتجلبب بالضعف، ويقدّ خيوط الأمل، ولا يعرف معنى الحياة!

وكم من إنسانٍ يعيش حياته بلا هدف، لاهياً عابثاً، ليئه سباتٌ، ونهاره فراغٌ، وماؤه سراب... فأنتى لقلبه أن ينبض؟ وأنى لخافقه أن يخفق؟ فهذا وأمثاله، لهم قلوبٌ لا يفقهون بها، ولهم قلوبٌ لا تنبض، ومع ذلك فهم لا يزالون على قيد الحياة، إلا أنهم أحياءُ الأجساد وأمواتُ القلوب.

وماذا سنتحدث عن القلوب التي لا دماء فيها؟، في زمنٍ جفّت فيه دماءُ الحياء في قلوب كثير ممن يُطأطئون رأسهم أمام سادتهم من اليهود، والصهاينة المعتدين...

ماذا سأخبركم عن قلوب جفّت منها دماءُ الأمانة والفضيلة، وارتوت من أجاج الخيانة والرذيلة والخزي والعار؟!...

قلوبٌ استبدلت بدماء الإباء والرفعة دماء الذل والخنوع
والهوان... .

قلوبٌ يسري فساد الضمير في دماؤها منتشراً كانتشار النار في
الهشيم... .

قلوبٌ تُسقى من صديد الضلال، وتعيش على دَمِنِ الإفك
والبهتان، وترتوي من معين الفكر المنحرف، وتعبُّ الحقد عبأً،
وتشرب الحسد والضغينة شُرْبَ الهيم، وترتشف خمرة السكر الذهني
المَقِيَت، فلا بد لهذه القلوبِ أن تُنبَت أشواك النفاق على أغصان
الكرامية، في أشجار التقليد الأعمى، وسط مفاوز الزور والتضليل
التي تحتويها غياهب تلك القلوب... .

وعلى كل حالٍ، فلا تزال الحياة مليئةً بأناس قلوبهم حيةٌ
بالمودة، وأفئدتهم نقية، وخوافقهم سنية، وقلوبهم مفعمة بدماء الطهر
والإخلاص والحب الصادق والعفاف... . ولا بد لأبائيل الحق أن
ترمي الباطل بحجارة من سجيل... .

كما أتمنى أن يبقى العنوان (قلوبٌ بلا دماء) في الفكر وعلى
الورق والأسطر فقط، وعلى المجاز لا على الحقيقة، وفي الخيال
لا في الواقع... . حتى نعيش معاً بمحبة القلوب النابضة بدماء الحياة
البهية.





هكذا علمتني الأيام ...

- علمتني الأيام أنَّ الإنسان عندما يحبُّ عليه أن يخلص في حبه .. ولكن عندما يكرهه عليه ألا يكره بكلِّ قلبه، بل عليه أن يجعلَ للحبِّ مَوْضِعاً. فكم من عدوِّ انقلبَ حبيباً! وكم من حبيبٍ انقلبَ عدوًّا.
- علمتني الأيام أن القلوبَ قد تتغيَّرُ مع مرور الزمن إلا قلب الحسود فإنه ثابتٌ على البغض والحقد، لا تغيِّره الأيام، ولا السنون والأعوام!
- علمتني الأيام أن النجاح في الحياة لا ينتهي، فكلُّ نجاح بعده نجاح، وغالباً ما تكون شروطُ النجاح الثاني أصعبَ من الأوَّل، فلا راحةَ للإنسان إلا بملاقاة الديان.
- علمتني الأيام أنَّ الابتسامة تزيل بُغْضَ القلوب، وأنَّ التوبةَ النصوح تمحو الذنوب، وأن الصلاة على النبي ﷺ تفرِّجُ الكروب، وأن الإنسان مهما طغى وتكبَّرَ فمصيره إلى علام الغيوب.
- علمتني الأيام ألاَّ أغترَّ بضحك كثيرٍ من الناس في وجهي، فكم من إنسان يضحك في وجهي، وأرى في ضحكه المكرَّ والخداع، وكم من إنسان كنتُ أحسبه حملاً وديعاً فإذا به ذئبٍ ماكر، وثعبان مبین.

• علمتني أنّ المؤمنَ لا يُلدغ من جُحرٍ مرتين، ولكن أليس من الأولى ألا يلدغ على الإطلاق! فكم من إنسانٍ لدغ من جحر مرة، ثم لدغ بعد هُنيهة من الجُحر ذاته.

• علّمتني الحياة أنّ العاقل يستفيد من أخطاء الآخرين، فنظره إليهم عبرة، وما يحدث معهم يكون له عِظة، فأخطاء الآخرين حُفْرٌ في طريق الحياة، علمنا مكانها، ورأينا من وقع فيها أمامنا، فحريٌّ بنا أن نَحيد عنها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

• علمتني الأيام أن الأيامَ تسير بنا إلى المجهول، وأنها مطايا توصلنا إلى أقدار الله تعالى، وأنّ الأيام لا تتشابه إلا بالمسمّى، فمن المُحال أن يمر عليك يوم في المستقبل مثل اليوم الذي كنت تعيش فيه.

• علّمتني الأيام أن الإنسانَ الذي لا يُرتجى منه العطاءُ وُجودُه؛ مثلُ عدمه، بل ربّما كان عدمه خيراً من وجوده، لأنه بوجوده أخذ حيزاً ضمن الموجودات، وما هو في الحقيقة إلا عدم!!

• علمتني الأيام أنّ سنين التعب، وساعات الإرهاق، ومجافة الكرى، وهجر المضاجع، كلّها تَفنى ولا تبقى إلّا لذة الأشياء النافعة التي حققتها في الحياة.

.. فانت اليوم أيُّها الإنسانُ نفسك ذلك الإنسانَ الذي كان يَشقى، ويتجرّع علقم الأيام، ومرارة العيش، وضنك الحياة، ولكن - ليت شعري - ألا تلاحظ أن ذلك قد ذهبَ وبقيت أنت، أنت الإنسان الناجح، الذي رضي عنه مَولاهُ، وحصل على نعيم الحياة واطمئنان الانتقال إلى الله؟

• علمتني الأيام أنّ على الإنسان أن يخالط جميع أصناف البشر، ويأخذ منهم الدروس والعبر، فكثيرٌ من الناس يأتي إلى الحياة ويذهب منها وهو لم يتعرف إلى حقيقة كثيرٍ من الناس.

• علّمتني الأيام أنّ كثيراً من الناس يعيشُ لنفسه ويحيا لنفسه، وهو يظنُّ أنّ السعادة تلاحقه، والهناء يحيطُ به، والسرور يطغى عليه، وكأن هذا الإنسان لم يعلم أنه فقدَ جزءاً كبيراً من السعادة، ألا وهي صحبة الخُلان، والإحسان إلى أخيه الإنسان.

علمتني الأيام أن قلب الحسود مُعشّى بالسواد، ولن يحمل لك المحبة والوداد، وأنه ينطبق عليه أحد قولي رب العزة:

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

أو قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].





... لِأَنَّ الْحَيَاةَ لَا تَنْتَظِرُ، وَقِطَارَ الزَّمَنِ لَا يَتَوَقَّفُ!

- الحيرةُ تتملكُ عقلك، والوجومُ يُخَيِّمُ فوقَ ظلِّ صميتك،
ينتأبُك شعورٌ بالقلق، وتخوضُ في بحرٍ لُجِّيٍّ من الشك. فقل لي:
متى سترسو سفينةً شكوكك على شواطئ اليقين؟ ومتى ستصلُ - بعد
طول الطريقِ - إلى كهفِ السكينة، وغارِ الطمأنينة؟!!

- ما لك تجلببتِ بالأسى؟، ولأَيِّ سببٍ اتشحتِ بسوادِ
يغشاك، وسيطرتُ على لُبِّك حالةٌ من السوداوية والتشاؤم، وأخذتِ
سُحْبُ الاكتئابِ تُمطركِ بغيثٍ من الشَّجَنِ، ووابلٍ من الأحزان؟
وعلامَ تحملِ فوقِ سفحِ صدركِ جبلاً شامخاً من الهموم؟، وأنتِ
قادرٌ في لحظةٍ من اليقين والرضا أن تجعلها كالعين المنفوش، وأن
تسيفها من خيالكِ وصدركِ نسفاً، فتُصبحِ قاعاً صافصفاً، لا ترى فيها
عوجاً ولا أمثاً...

- إلى متى ستبقى على هذه الحال؟ حياتك عابثةٌ لاهيةٌ،
وأوقاتك هازلةٌ لا مكان فيها للجدية، إنما هي هزلٌ في هزل،
وسرابٌ يتبعُ سراياً... تمر أيامك ببطءٍ شديدٍ، ولياليك يُكلِّها سوادُ
قلبك، فهي سوادٌ في سواد، وحلُّك يغشاه الدجى، وتُحيط به
الدياجير...

- ... تعلمُ علمَ اليقين بأن الحياةَ لا تنتظرُ، وقطارَ الزمنِ

لا يتوقف ولا يستريح، وأنّ ما مضى من عمرك فلن يعود... وفي الوقت ذاته، يضيع وقتك سدىً، وتُضي أيامك في هوىً ويا للمفاجأة!، فبعد أن كنت تلهث وراء زلال الحقيقة لتنهل من معينها، تكتشف أنك إنما كنت تركض وراء سراب الوهم، وُعدت مُتضلعاً من شراب الحرمان، وحميم الشقاء! ..

- إلى متى سيخدعك الزيف البراق ظاناً أن كل ما يلمع ذهبٌ؟، وإلام ستُقلك الأمانى على أجنحة الأمل لتتحيا مع الآتي، فكنُ على يقين أن كل ما يُراود خيالك ما هو إلا رجمٌ بالغيب! هل ستظلُّ مبحراً في مياه الغياهِب، وتتهادى بك مراكبُ أحلام المستقبل يمناً ويسرةً، وتتقاذفك أمواج الحياة العاتية بلا بصيصِ رحمةٍ، ولا أدنى شفقةٍ؟! ..

فحتّامَ ترنو بناظر المترقّب إلى ما تأتي به السنون؟، ومتى سترجّل بعد أن كنت تمتطي جناح الآمال، وخيول الأُمّيات؟، وهل سترسو بك مراكبُ أحلامك بعد أن كانت تتهادى ذات اليمين وذات الشمال؟ وأين تلك اليد الحانية ذات اللمسة السحرية التي تنشلك من براثن الأمواج الغاضبة، وصخب البحر الهادر؟.

- هل رأيت دموعاً عادت إلى مآقيها بعد أن ذُرفت منها؟ وهل رأيت قطراتٍ مطرٍ عادت إلى عيون السّحب بعد أن سحّت منها؟ هل شاهدت عينك دخاناً تبتلعه الأرض بدل أن يصّاعد في السماء؟... فما لك ترجع القهقري؟، وما لِنفسك تعود إلى ما كنت عليه بعد طول غيابٍ عنه، ومُضي زمنٍ سحيقٍ على عهدٍ به؟، وما لِقَلْبِكَ

يصبح جلموداً، ويعود إلى قسوته بأن كان غضباً طرياً ليّناً، وما له لا تؤثر فيه النُّذْرُ، ولا تنفعه الذكرى؟، وها هو قد جفت أجفانه، بعد أن كان سريع العبرة، ينتصح بالعبرة! وما لعينك أصبح دمعتها عصياً، بعد أن كان طيعاً مُنساباً؟! .

- إلى متى ستبقى شارداً عن طريق الهدى، سادراً في قفار اللهو المجذبة، غارقاً في مستنقع الآثام الماجن الآسن؟! عجباً لأمرك! تستنير بالظلام وقد زُين لك على أنه نورٌ وهّاج، وتتبع عتمة المعاصي ودياجيرها، وأنت تظن أنك تتبع شمس التقى وبدور الهدى ووميض الفضيلة؟ .

- حريٌّ بدموعك أن تعودَ إلى أحاديثٍ وجنتيك - التي حقرتها بمنجَلِ السَّحَر - بعد طول جفاف!، وحريٌّ بأوردتك وشرايينك أن تنبض بالحب والصفاء، بعد أن سئمت من الكراهية والبغضاء، وبعد فترة كُمونٍ وبياس! وحريٌّ بك أن تنزع لباس الغدر الفاضح وتتدثر بل تكتسي بالوفاء! وعليك أن تكونَ قد تعلمت من الأيام:

أن أعمال الإخلاص تستمرُّ، وتصبحُ هباءً أعمال الرِّياء .

- ما لك تملُّ من الحياة وخاصةً عندما تتكاثر عليك خطوبها، ويَجَلِّ مصابها، ويُضنيك الأنينُ، وتعاديك الأيامُ، وتُرمى في الصميم بسهام من قسيِّ السنين؟ فعلامَ إذاً تتمنى الموت وناجيه؟! أظن لأنك ترى فيه راحة البال، وسعادة الضمير، وطمأنينة الروح، ولكن ذلك - ربما - لن يكونَ، ألا تتذكرُ ما اقترفت يداك، وما جنيت على نفسك؟، أغرَّك عفو ربك، أم تظن أن ربك كان نسيّاً؟

أم اطلعت الغيبَ بأنك ناجٍ، أم اتَّخذت عند الرحمن عهداً؟ .
- ... حياتك عذابٌ، ومعيشتك ضنكٌ، لأنك تعيش في غفلةٍ
عن الله، وبعدٍ عن نهجه القويم، وصراطه المستقيم... فيهمسُ
الإيمان في أذن قلبك:

نعم، لقد آن الأوانُ أن تصطَلح مع الله، وتعودَ إلى جداول
الهداية مياهُها العذبةُ، لتنبتَ فيك غراسُ التّقى وترعرعَ من جديدٍ! .





آمالٌ تموتُ وآمالٌ تحيا؟!!

الأمَلُ كلمةٌ تنبضُ بالحياة، يخترق الإنسانُ من خلالها ما وراء الحُجُب، ويهرب بها من الحاضر ليعيش مع المستقبل البعيد...

الأمَلُ كلمةٌ تحطّمُ جبروتَ اليأسِ وبؤسَه، فلولا خيوطُ الآمالِ التي ننسجُها لما عشنا إلا في الكآبة والحزن، ولما تجرّعنا إلا كؤوسَ الشقاء والحرمان!!.

الأمَلُ هو أعظمُ مفارقةٍ في الحياة لأنَّ أمَلَ الطفلِ إسراعُ عجلةِ الزمنِ في جريها حتى يصبحَ شابًا فرَجُلًا... وأمَلَ العجوزِ الهرمِ أنْ تعودَ به عجلةُ الزمنِ إلى الوراءِ، إلى عالمِ الطفولةِ البريئة!!.

الأمَلُ هو الذي يجعلُ مضيقَ الحياةِ بحرًا، وضيقتَها فُسحةً، وسقمها بُراءً...

أعللُ النفسَ بالآمالِ أرقبُها ما أضيقتُ العيشَ لولا فسحةُ الأمَلِ لم أرضَ بالعيشِ والأيامُ مقبلَةٌ فكيف أرضى وقدولتُ على عجلٍ؟

الأمَلُ هو الذي يزرعُ البسمةَ في وجهِ الكئيبِ الحزينِ، والهمةَ في نفسِ العجوزِ الذي سئمَ النظرَ إلى الحياةِ، وهو المحفِّزُ على الجدِّ والعملِ، ومن هنا قيل: لولا الأمَلُ لبطلَ العمل...

ولطالما نظرتُ متأملاً في وجوهِ كثيرٍ من الناسِ ممن أحتتِ

السنون ظهرهم، وبيّض سواد أيامهم شعر رؤوسهم، فرأيت آمالهم
قد تحولت إلى آلام، وأحلام يقظتهم تلاشت واضمحلت، ولم تبق
الآلام والأحلام إلا مآسي متوارية خلف تجاعيد الخدود، التي أبت
إلا بالظهور...

والآمال هي التي تجعل المرارة في حياتنا عسلاً مصقياً،
وتنقلنا من واقع اللحظات الدامية الدامعة إلى بشاشة اللحظات
السعيدة وهنائها...

وكما تولد الآمال فإن معظمها يموت في الصغر، بل ربما
مات وهو لا يزال في رحم الأفكار، وعالم الخيال، وقد يقضي
على الآمال صارم حبلها، ومشتت شملها، وهادم بنيانها، ألا وهو
الموت... ورحم الله من قال:

نؤمل آمالاً ونرجو نتاجها وعلّ الردى مما نرجيه أقرب
وبني القصور المشمخرات في الهوى وفي علمنا أننا نموت وتخرّب^(١)
وكم كان الأصمعي صادقاً عندما قال:

بلغني أن بعض الحكماء كان يقول: واعلموا أن الدنيا سرورها
أحزان، وإقبالها إدمان، آخر حياتها الموت، فكم من مستقبل يوماً
لا يستكمل، ومنتظر غداً لا يبلغه؛ ولو تنظرون إلى الأجل ومسيره،
لأبغضتم الأمل وغروره^(٢).

(١) إلى الذين أسرفوا على أنفسهم، عائض القرني، ط ١، ١٤٢١هـ/

٢٠٠٠م، دار ابن حزم، ص ٢١٧.

(٢) الأماي، أبو علي القالي ١/١٥٩.

والمرء دائماً يقوِّي آماله ويبسطها، والنفس تسرح وتمرح معها، إلا أن الدهر يقبض الآمال بعد بسطها، ويطويها الموت بعد نشرها:

وَلِلنُّفُوسِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى وَجَلٍ مِّنَ الْمَنِيِّ آمَالٌ تُقَوِّيهَا
فَالمرءُ يَبْسُطُهَا وَالدهرُ يَقْبِضُهَا وَالنَّفْسُ تَنْشُرُهَا وَالْمَوْتُ يَطْوِيهَا^(١)

فكلُّ وداع يعيش الإنسان بعده على أمل اللقاء، إلا وداع من يموت فإنه لا أمل في اللقاء بعد الموت!! مع أن الكثيرين قد اغتروا بالدنيا وآمالها، وأمسى حالهم كما قال الشاعر:

قد غرَّ أكثر هذا العالم الأملُ وكلهم بسوافي روحه أجلُّ
وإنما المرء طيفٌ والحياة له كالآلِ والموت ورد شرعهُ عللٌ
فلا تغرَّتكَ الدنيا وزينتها فإنها زخرفٌ يا أيها الرجل^(٢)

ويبقى الأمل هو الذي يرفع القصور، ويبني الدور، ويساهم في العمران؛ «فَلِذَلِكَ مَا أَرْفَقَ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقَهُ بِاتِّسَاعِ الْأَمَالِ إِلَّا حَتَّى عَمَّرَ بِهِ الدُّنْيَا فَعَمَّ صَلَاحُهَا وَصَارَتْ تَنْتَقِلُ بِعُمُرَانِهَا إِلَى قَرْنٍ بَعْدَ قَرْنٍ، فَيُتِمُّ الثَّانِي مَا أَبْقَاهُ الْأَوَّلُ مِنْ عِمَارَتِهَا، وَيُرِمُّ الثَّلَاثُ مَا أَحَدَثَهُ الثَّانِي مِنْ شَعَثِهَا لِتَكُونَ أَحْوَالُهَا عَلَى الْأَعْصَارِ مُلْتَمِئَةً، وَأُمُورُهَا عَلَى

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، ت: محمد أبي محمد بن فريد، المكتبة التوفيقية، ص ١٨٢.

(٢) شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، استخرجها وحققها الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت الجزء: ٢، الطبعة: ٣، ١٩٨٨م، ص ٣٦٧.

مَمَرِ الدُّهُورِ مُنْتَظِمَةً. وَلَوْ قَصُرَتِ الْأَمَالُ مَا تَجَاوَزَ الْوَاحِدُ حَاجَةَ
يَوْمِهِ، وَلَا تَعَدَى ضَرُورَةَ وَقْتِهِ، وَلَكَّانَتْ تَنْتَقِلُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ خَرَاباً
لَا يَجِدُ فِيهَا بُلْغَةً، وَلَا يُدْرِكُ مِنْهَا حَاجَةً.

ثُمَّ تَنْتَقِلُ إِلَى مَنْ بَعْدُ بِأَسْوَأَ مِنْ ذَلِكَ حَالاً حَتَّى
لَا يُنَمَى بِهَا نَبْتُ، وَلَا يُمَكِّنُ فِيهَا لُبُّهُ» فَلَا مَالَ هِيَ الَّتِي تَصْنَعُ
الرجال^(١).

وإذا كان الموت يقطع حبال الآمال ويصرمها، فإن هناك شيئاً
آخر يقلل مآربها، ويُخمد لهيب نارها، وهو الشيب، لذلك قال
أحمد بن خلف أبو العباس المعري المعروف بالمتعمق:

وما تزال بنا الآمال مائلةً إلى المطامع في وجدٍ وفي عدم
إذا الشبيبةُ بانت عن أخي أربٍ فلا مآربَ بعد الشيب والهزم^(٢)
والآمال قد تورق، وتسقى من ماء الوعود، فكثيراً ما يُوعَد
الإنسانُ بوعِدٍ من الوعود فيحيا قلبه بهذا الوعد، ويعيش مع آمال
وأحلام عظام حتى يأتي الموعد، فإما أن يكون مع الورق ثمراً،
أو ورق بلا ثمر، وهذا ما عبّر عنه العتّابي بقوله:

قَدْ أَوْرَقْتُ فِيكَ آمَالِي بِوَعْدِكَ لِي وَلَيْسَ فِي وَرَقِ الْأَمَالِ لِي ثَمَرٌ نَفْسِهِ
وكم من الشعراء من جعل أمله في الحياة نظرةً إلى نور

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، ت: محمد أبي محمد بن
فريد، المكتبة التوفيقية، ص ١٨٢.

(٢) شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، استخراجها وحققها الدكتور إحسان
عباس، ص ٣٧٤.

من يُحب، حتى يكحل برؤيتهم جفنه، فهو يظلُّ مع آلامه وأحزانه
حتى يرى الأحباب:

أعيش دهري مع الأيام في أملٍ وصرتُ من منهل الأحزان أنتهل
للناس في العيش آمالاً تؤمّلها ونظرةً من سناهم عندي الأملُ
متى أراهم عياناً، أه من لهفي؟! وجفن عيني بنور النور يكتحل
ختاماً: تظل آمالنا متواريةً خلف حجاب المجهول، وبعضها
يكون كسرَابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمآنُ ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً،
وبعضها يلتحم مع الطموح للوصول إلى المبتغى، وأهم شيء أن
لا ندفن آمالنا وهي حية كالموؤودة، بل نمضي معها، لا تموت إلا
بموتنا، ولا تفارقنا إلا عندما نفارق الحياة...





أَيُّهَا الدَّعَاةُ إِلَى اللَّهِ

نصيحةٌ من قلبي لنفسي قبلَ أنفسكم، ومن خافقي أودَّ أن
تمتزجَ بخوافقكم، ومن روحي إلى صميم أرواحكم، وآملُ أن
تسمعوها بأذنِ قلوبكم وإخلاصكم قبل السمع بالأذان المعهودة... .

إن قسوتُ في كلامي فإنني أقسو على نفسي لا عليكم... .

وإن وجهتُ نصحاً أو إرشاداً، فإلى نفسي قبل أنفسكم، وليس
من باب الإرشاد أو التوجيه، بل من باب التذكير والمنصحة في
الدين، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين... .

تعلمون أن الدربَ طويلٌ، والليلَ ساجٍ، والظلامَ دامسٍ،
والخطبَ جَلَلٍ، والدياجيرَ مدلهمةً، والمهمةَ صعبةً، لكني على يقين
تام - بعونه تعالى - أن إخلاصكم يقصر الدربَ، وينير الليلَ، ويُطِيح
بالظلامَ، ويجعل الخطبَ الجللَ ذلولاً، والعقبةَ الكؤودَ سهلاً
لا أشواكَ فيها ولا عقبات... .

فلا تغرنكم سحابةُ الصيفِ فإنها عن قريبٍ ستنتشع، ولا يغرنكم
مطرُ الصيفِ فإنه سريعُ الجفافِ، ولا يغرنكم طولُ سوادِ الليلِ، فبعدَ
الليلِ فجرٌ يبزغُ، وصبحٌ يتنفسُ و... .

ولا تياسوا لكثرةِ الراكبين في فلكِ الغفلةِ، ولا تُغرقوا سفينتهم

بخرقها حتى لا تكونوا قد جئتم شيئاً نكراً... فالبحرُ خَضَمٌ،
والأمواجُ عاتيةٌ، والظلماتُ بعضُها فوق بعض، إذا أخرج الإنسان
فيها يده لم يكذِّرها، فتعاونوا على الإطاحةِ بالظلام، وخوضِ
غَمَارِ البحار، وركوبِ أمواجِ الهدايةِ والمحبةِ والتآخيِ
والتشاور...، فالشمعةُ إلى الشمعة، والسراجُ إلى السراج يصنعون
نهاراً مشرقاً بالإيمان في دياجيرِ الظلام...

تعلّموا قبل أن تسودوا، وتيقنوا قبل أن تشكّوا، وأخلصوا
فالإخلاص سرٌّ من أسرارِ الله، مكمّنه القلبُ، وملامحُه باديةٌ على
الوجه واللسان...

عيشوا مع الماضي في الكتب والسير والتاريخ والأيام
والوقائع، ومع الحاضرِ بقرآنا الصالح لكل زمان ومكان، وبسنةِ نبينا
العدنانِ عليه الصلاة والسلام...

... ومع الحاضرِ بعلومه وأحداثه وأخباره وأفراحه وشجونه
ومآسيه...

مع الحاضرِ في زرعِ البسمةِ في وجهِ المحزون، والهدايةِ في
قلبِ الضالِّ، والطمأنينةِ في فؤادِ الخائفِ الوجِلِّ، واليقينِ في فكرِ
المتحيّرِ، والرضا في ضميرِ المفجوعِ، والأملِ في قلبِ اليائسِ،
والشجاعةِ في قلبِ الجبانِ، والأمانةِ فيمن تسوّل له نفسه
بالخيانة...

مع الحاضرِ بيدِ حانية، ونظرةِ عطفٍ ورحمةٍ وشفقةٍ، بلسانِ
يداول ذكرِ الله، وقلبِ يرحم أهلِ البلاء، كما قال عيسى ابنُ مريم

- عليه الصلاة والسلام -: « لا تُكثِرُوا الكلامَ بغيرِ ذِكْرِ اللهِ ، فَتَقْسُوَ قلوبُكم ، فإنَّ القَلْبَ القاسيَ بعيدٌ من اللهِ ، ولكن لا تعلمون .

ولا تنظروا في ذُنُوبِ الناسِ كأنَّكم أربابُ ، وانظروا في ذُنُوبِكُمْ كأنَّكم عبيدُ ، فإنَّما الناسُ مُبْتَلَى ومَعافَى ، فارحُموا أهلَ البلاءِ ، واحمَدوا اللهُ على العافيةِ .

وكونوا مع المستقبلِ بِأماله وأمنياته ، ونظرةِ المتفائلِ ، فالخيرُ في هذه الأمةِ إلى يومِ القيامةِ . . .

لنحملُ معاً همومَ البائسينَ في قلوبنا ، ولنمسحَ دموعَ اليتامى بعطفِ قلوبنا وأيادينا ، ولنُدعُ إلى اللهِ على بصيرةٍ وهدىٍ وكتابٍ منيرٍ . . .

لنكنُ دعوتنا بقلبٍ يحترقُ أسفاً على العصاة ، ويعتصره الحزنُ والألمُ على أهلِ الغفلةِ ، حتى نأخذَ بزمامِ سفينتهم إلى مراسي الحقيقةِ والخيرِ والنجاةِ . . . فليستِ النائحةُ كالثكلي ، وليس الشَّجِيُّ كالخلي ، ولنعلَمُ أنه عما قريبٍ سيصبحُ يوماً ماضياً سحيقاً ، وغداً طواه الزمنُ ، وسندم على كل لحظةٍ لم ندعُ فيها إلى اللهِ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ . . .

لا تنفروا الناسَ من الدينِ بأفكارٍ ضالَّةٍ ، أو بشطحاتٍ خياليةٍ ، أو بتصرفاتٍ فرديةٍ قد تؤثرُ سلباً على الجميعِ ، وكونوا كالشامةِ في أعينِ الناسِ . . .

لا تهتموا بصغارِ الأمورِ وسفاسفها ، أو بالنقدِ الهدامِ الذي تتربع على عرشه الضغينةُ ، وإياكم أن تتبعوا السقطاتِ والهفواتِ ،

وتتصيدوا الأخطاء، وتفرحوا بالعثرات، وتدفنوا الصالحات، وتُميتوا الحسنات، ولا تنتعشوا عندما يبتئس الآخرون، ولا تضحكوا عندما يبكي الباقون...

أيها الدعاء إلى الله:

حياتنا لا مكان للعب فيها، فالجدُّ رياضُه لا يتسكع في أفيائها الهازلون، وقافلة الإيمان تمضي ولم يلحق بها الحالمون... وحياتنا تجد بنا المسير، وسنواتنا لحظات، وماضينا حلمٌ انقضى، وآجالنا مكتوبة وقد جفَّ مدادها، ووقتنا كنز نفيس، فما أشد احتياجنا إلى علو الهمم، والوصول أعالي القمم، قبل المشيب والهمم... عمرنا لا مُتسع فيه للخصام، وقلوبنا لا ينبغي أن تشحنها البغضاء، وأعمالنا حذارٍ أن يحبط ثوابها الرياء... نحذر من الغيبة ونأكلُ لحوم بعضنا البعض، ثم نتذرع بعلم الجرح والتعديل...

ونحسدُ بعضنا البعض وللحسد في لساننا تأويلٌ وألفٌ دليل...

وبعضنا ثابتٌ لا تحركه عواصفُ الفتن، وبعضنا يميل مع الريح حيثُ تميل...

الأمر منا يتطلب جدَّةً في العمل، وإخلاصاً في القلوب، وحُرقة على الشاردين، ونظرة عطف حانيةً على السادرين، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.





لصوص الإنترنت وسارقو الفكر والإبداع... مَنْ يُحَاسِبُهُمْ؟!

ماذا تفعلُ إذا أمضيتَ عدة أيام وأنت مُطرقٌ متأملٌ، ولك جَفْنٌ مؤرَّقٌ، وفكرٌ متّقدٌ، وجَنَبُكُ يُجَافِي الكرى، وعينك تهجرُ الوَسْنَ... إلى أن انتهيتَ من كتابةِ دراسةٍ فريدةٍ في غاية الإبداع وقمة الإتيقان أو مقالةٍ كالشَّمسِ وضحاها... .

... ولكن فجأةً، وبينما كنت تُقلب صفحاتِ الشَّابكة العنكبوتية (الإنترنت)... وجدت أن أحدهم قد سرق تلك الدراسة، ونسبها نسباً غيرَ شرعيٍّ إلى نفسه، وليته سرقها خُلُسةً، وهو يمشي على استحياءٍ كما هي عادة اللصوص، بل سرقها جِهَاراً نهاراً مُعلنًا للملأ أنه السارق، حيث لصق اسمه بجانب تلك الدراسة، وقام بمسح اسمك... .

.. ثم إن ذلك اللصَّ شعرَ بالإعياء والتعب بعد أن بذل ذلك الجهدَ الجهيدَ في النسخ واللصق... فما كان منه إلا أن رسمَ بسمَةَ رضاً صفراءَ على شفّتيه، وأقنعَ نفسه بأنه حقاً هو صاحبُ تلك الدراسة الإبداعية.. ومن ثمَّ أسلمَ جفونَه للنوم، وذهب في سبات عميق... بعد طول سهرٍ، ومعاناةٍ سُهدٍ، وتمحيصٍ وتدقيقٍ...!!؟

وماذا تفعل - أيها الشاعرُ المبدعُ - إذا سكبت أحاسيسك
ومشاعرك في بُحور الشعر المفعمة بالحب، ومزجت عواطفك الحرّى
بدماء دموعك، ومداد يراعك، ثم غرست فسائل إبداعك في ضميرك
ووحى قلمك، فنبئت في بستان فكرك قصيدةً مفعمةً بالوجدان، تُبهر
الألباب، وتُطرب الفؤاد، وتوقظ الوسنان، وتشنّف الآذان. . .

. . . وبينما كنت تُقلّب صفحات الإنترنت وجدت أيضاً أن
أحدهم قد قام بسرقة تلك القصيدة منك، سرقها بكلّ ما تحويه
من عواطفك وأحاسيسك، ونسب القصيدة نسباً غير شرعيّ إلى
نفسه، ولم يرعَ حرمة لعرض الشعر، وشرف بنات الأفكار،
ولم يُخفِ جرائمه الشنيعة تلك، بل وضع اسمه في نهاية القصيدة،
ونسى أو تناسى أن الإنسان إذا بُلي بارتكاب المعاصي عليه أن
يستتر؟!

لا ريب - أيها المفكرُ والأديبُ والشاعرُ - أنك ستشعر
بالغضب، بل تكاد تميّز من الغيظ، وقد تهمس في سرّ نفسك،
وتناجي طيف فكرك:

رحم الله لصوص تلك الأيام، وما أشدّ حياء لصوص الأموال،
وسارقي النفايس!، حيث كانوا يتخفّون ويسرقون ووجوههم مصفرة،
وفرائضهم ترتعد، وأيادهم ترتجف خوفاً وقلقاً. . . فأحدهم عندما
يسرق مالاً أو ذهباً أو كنزاً يحاول جاهداً أن لا يترك أيّ أثرٍ يدل على
فعلته الشنيعة تلك، وما رأينا سارقاً وضع قُصاصة ورقيةً بعد عملية
السرقه ووضّح فيها اسمه، ونسب السرقه إليه. . .

... أما في الإنترنت فإن اللصوصَ كَثُرُوا، وخاصةً إذا لم يكن هناك رادعٌ من الله يردعهم، وعقوبة من الخلق تزرهم، فسارق المال تُقطعُ يده كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: 38]، أما لصُّ الإنترنت، وسارقُ أفكارِ البشر ومواهبهم فمن يقطع يده؟، ومن يحاسبه؟، وإذا لم يخف من الله فمن أيِّ أحد سيخاف؟! ..

هذا مع أننا نعلم أن السرقة سرقة، وأن اللص لص سواءً أكانت الأشياء المسروقة مالاً أم فكراً أم أيَّ شيءٍ آخر.. بل إن سرقة الفكر تكون أشدَّ خطراً من سرقة المال؛ لأن المال قد يحصل عليه أيُّ شخصٍ، فهو في متناول الجميع... أما الإبداع السامي، والفكر المتألق، والعاطفة المشبوبة بلوعة كاتبها لتخرج قصيدة كحديقة ذات بهجة، والمقال المتجدد، والدراسة الجادة الفريدة، فهذه الأشياء لا يستطيع أيُّ شخص أن يحصل عليها، لذلك هي أشياء خاصة بالمبدعين والمفكرين، وليست مشاعاً يرتع فيه كلُّ من يريد، ولا شرباً سائغاً لكلِّ الشاربين...

فباب السرقة في الإنترنت مفتوح لكل من لا خوف من الله يحجبه، ولا ضمير يردعه؛ لأن الشبكة العنكبوتية مرتع خصب للأدعياء، وهي في الوقت ذاته مستنقع آسن لكل من يعبُّ منه ويردُّ أجاجه من لصوص الفكر، وسارقي المواهب، وقطاع طريق النتاج الأدبي والثقافي والفكري، ففي الإنترنت يكتب من شاء ما شاء، ويسرق من يريد لكل من يريد، أما في المجالات العلمية والصحف

والكتب فقد نجد في حالات نادرة أن أحدهم قام بسرقة قصيدة أو رواية أو مقالة ونشرها في تلك الصحيفة أو المجلة أو الكتاب، ولكن، حتى وإن نشرها فإنه سرعان ما يُفتضح أمره، ويردُّ عليه الكثيرون من أنصار رد الحقوق إلى أصحابها، وخاصةً إذا كانت القصيدة مشهورةً، وكان السارق - بالإضافة إلى سرقة - مُغفلاً، ويظن أن لا أحد يعلم من هو صاحب القصيدة ومبدعها . . .

وعلى كل الأحوال، ليست النائحة كالثكلى، والخليقة التي تكسو صاحبها مهما حاول أن يُخفيها فلا بد أن تظهر يوماً ما للملأ . . .

وعلى المنتحل والسارق أن يعلم علم اليقين أن كل قصيدة أو مقالة أو دراسة تَرثُ بالفطرة لغةً وعواطفَ وفكرَ وأحاسيسَ وأسلوبَ كاتبها، فالمتمرسون بالنقد الأدبي والتذوق الفطري للنصوص يعرفون من النظرة الأولى كاتبَ النتاج الأدبي، وذلك قبل قراءة اسمه؛ لأن لكل كاتب وشاعر في كتاباته سماتٍ وخصائصَ وُسَمَ بها، وميزاتٍ تُميّزه عن غيره من الكُتّاب والأدباء والشعراء، اللهم إلا من بدأ بكتابه مقلداً للآخرين، وتقمّص أساليبهم فإن الأمر قد يلتبس أحياناً على من لا خبرة عنده . . . وكذلك قد يلتبس الأمر إذا كان الكاتبُ في بدايات كتاباته، ولم يقرأ له الناسُ إلا قليلاً . . .

. . أظن أن الرسالة والنصيحة قد وصلت، وإن كانت تُساورني بعض الشكوك أني قد أجدُ في المستقبل من قام بسرقة هذه المقالة، ومحا اسمي ولصق اسمه!!

فأذْكرُ كلَّ من تسوَّل له نفسه بالسرقه - مهما كان نوعها،
وأخصُّ هنا السرقاتِ الأدبية والفكرية - أن الله مُطلع عليه، وأنه يعلم
السرَّ وأخفى، وأذْكره أن يُكرّر دائماً قولَ الشاعر:

وما من كاتبٍ إلا سيَفتني ويبقى الدهرَ ما كتبتُ يداهُ
فلا تكتبْ بكفِّك غيرَ شيءٍ يسُرُّك في القيامةِ أن تراهُ
وعليه أن يعلم أن الله يراه، وأن يجعل نصب عينيه قولَ
القائل:

وإذا خلوتَ بريبةً في ظلمةٍ والنفسُ داعيةٌ إلى الطغيانِ
فاستحي من نظرِ الإلهِ وقل لها: إن الذي خلق الظلامَ يراني
وفي الختام حبذا لو وُجد من المفكرين والمثقفين والمبدعين
والمنصفين من يُجند نفسه ليعيد الحقوق المسروقة إلى أصحابها،
ويُظهر عوار السارقين، ويفضح سرقاتهم على رؤوس الأشهاد،
وأجره وثوابه على الله.





قراءة في كتاب: (عَصْرُنَا وَالْعَيْشُ فِي زَمَانِهِ الصَّعْبِ)

عنوانٌ يحمل بين طياته الكثيرَ من التساؤلات؟
هل عصرُنَا يختلف عن العصور السابقة؟؟
وهل كان العيش سهلاً في العصور السابقة حتى رأينا العيش
صعباً في زماننا؟؟

أم أن العصر يبقى حقبةً زمنيةً والناس هم الذين يختلفون؟
أم كما قال الشاعر:

نعيبُ زماننا والعيبُ فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا؟
وغيرُها من الأسئلة الكثير الكثير...

(عَصْرُنَا وَالْعَيْشُ فِي زَمَانِهِ الصَّعْبِ) هو عنوانُ كتابٍ للأستاذ
الدكتور عبد الكريم بكار، حاول المؤلف من خلاله تسليط الضوء
على كثيرٍ من القضايا الشائكة والحساسة في زماننا وعصرنا، سلط
الضوء على أوضاعه وملامحه، وعلى العيش فيه، والصعوبات التي
يواجهها المسلمُ الملتزم بالقيام بأمر الله تعالى في ظل ظروف
وأوضاع كثيراً ما تكون غير مواتية، وأتى المؤلف بالحلول المناسبة
للعيش في زماننا الصعب، وما يحتاجه هذا الواقع من تطوير وتحسين

للأبعاد العقلية والنفسية والجسمية والاجتماعية، بالإضافة إلى تحسين إدارة شؤون العيش.

وهذا الكتاب يعالج كثيراً من القضايا الأساسية في زماننا، وعندما قرأته رأيت أنه يجب أن يكون في كل بيت، وفي كل مؤسسة وشركة ومكتب ومكان عمل...

الكتاب يتألف من مقدمة في صفحة واحدة، ذكر المؤلف فيها سبب تأليفه للكتاب، ثم قسمه إلى خمسة أبواب، وكلُّ باب يحتوي على عدة فصول على النحو التالي:

الباب الأول

(عصرنا وملامحه وأوضاعه)

وهو يتألف من فصلين:

الفصل الأول: أتى على صيغة سؤال: هل يعيش العالم عصرًا واحدًا؟ وأتى فيه بالنتيجة التالية: (في الحديث الصحيح: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ سَلَكَوا جُبْحَرَ ضَبِّ لَسَلَكَتُمُوهُ»). قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟»).

إن السير خلف الآخرين خطوةً خطوةً، - حتى ولو دخلوا مداخل ضيقة ومهلكة، وعملوا أعمالاً لا خير فيها، ولا معنى لها - لم يتحقق في عصرٍ من العصور كتحقيقه في هذا العصر. إن الحديث يشير إلى أمم تقود، وشعوب تتبع، والذي ينظر اليوم في نهم الشعوب الضعيفة إلى استيراد كل شيء من الدول التي تقود

الحضارة، ما هو نافع وما هو ضارٌّ - على حد سواءٍ - يتأكد له دقّة التشبيه بدخول جحر الضبّ!

... على مقدار ما تسهم الشعوب المقودة في إنتاج قيم ونظم وأدوات، تسهّل الحياة، وتحلّ المشكلات، تترك بصماتها على العصر الذي نعيش فيه، وتبلغ رسالتها ورؤيتها في الحياة.

ثم تحدّث عن علاقتنا مع الغرب، وتعاضم الاحتكاك بين الإسلام والنصرانية عبر محورين:

الأول: المحورُ الفكريُّ: حيث تأثر الأوروبيون تأثراً بالغاً بالفكر الحضاري الإسلامي عبر تعلم العربية، وعبر تعلم الترجمات من العربية إلى اللاتينية...

الثاني: فقد كان يتمثل في الحروب الصليبية التي بدأت قبل نهاية القرن الخامس، ولم تنته إلا قبيل انتهاء القرن السابع الهجري، عندما تم تصفية النفوذ الصليبي في الشام، وما يصاحبه من الانهيار الغربي بالحضارة الإسلامية، ورأى أن صورة الإسلام في ذهن الغربيين صورةً غامضةً، يكتنفها الكثير من الجهل والتشويش، وانتهى إلى أن الغرب غربٌ والشرق شرقٌ، ولا يمكن لهما أن يصبحا شيئاً واحداً، ولكن سيكون بإمكان كل واحد منهما أن يستفيد من الآخر إذا ما راعى كلٌّ منهما حقوق الطرف الآخر، وخصوصيته الحضارية... وسنظل نأملُ بحصول ذلك مهما كانت المعطيات السائدة باعثةً على التشاؤم.

والفصل الثاني: تحدّث فيه عن قيم ومفاهيم وأوضاع سائدة،

وأنّ فهم العصر الذي نعيش فيه، هو الخطوة الأولى التي يجب أن نخطوها نحو التمكن من العيش فيه على نحو مقبول وفعال... وتطرق فيه إلى مسائل هامة، هي على الترتيب:

من التفاؤل إلى العدمية، ضياع الهدف النهائي، التأزم الخُلقي، تقدّم بلا حدود، تغيير في المفاهيم، العنف وإرادة القوة، التحدي والاستجابة، انتشار نظام التجارة، وجنون الاستهلاك، شافعاً كلّ ذلك بالأدلة العقلية والنقلية على صحة ما يقول، وتوضيح تلك المسائل.

الباب الثاني

(العيش في الزمان الصّعب)

وهو من أربعة فصول:

الفصل الأول: تحدّث فيه عن عصر العيش الصّعب، ولماذا زماننا صعبٌ؟؟ وسلط الضوء على ما يراه في جملة الأسباب المهمة لصعوبة العيش في زماننا هذا، وذلك باختصار لم يفصل فيه، ذاكراً من الأسباب:

انتقال مركز السيطرة من الإنسان إلى الأشياء، وصيرورة كثير من الأشياء الكمالية أشياء أساسية، فأكثر من (٩٥٪) من أثاث المنزل الآن كان يُعد في الماضي من جملة الكماليات، بل كثيرٌ منه لم يكن معروفاً أصلاً، والحاجة إلى المزيد من المهارة، والتغيرات السريعة التي قسّمت العالم، وزيادة السأم من الحياة، والإحساس بالكرب والضغط النفسي، مع ذكر بعض الإحصائيات عن الجرائم

في بعض الدول الغربية، واليأس من صلاح الأحوال، وتدهور الحياة البيئية... .

الفصل الثاني: تحدّث فيه عن العيش خارج العصر، فالعيش خارج العصر - كما يرى - لا يحتاج إلى تخطيط، ولا إلى جهد، فهو الأصل، والعيش داخل العصر هو الذي يتطلب الكثير من الفهم والعناء والبدل... .

وذكر أهمّ السمات للذين يعيشون خارج العصر، منها:

التكبل بالأوهام، ومنشأ هذه الأوهام، والتخفّف من القيود الأخلاقية، والتشتّت بين الماضي والمستقبل، وفقد المبادرة الشخصية، والإعراض عن النقد الذاتي، وعدم الاهتمام بالوقت والإهمال والفوضى... .

الفصل الثالث: خصّصه للحديث عن المسلم المعاصر، وجعل منه نموذجاً وأسوةً حسنة، ولفت النظر إلى بعض المسارات والمهارات التي يرى أنها تحتل مكانة خاصة في نموذج المسلم المعاصر على النحو التالي:

توجيه جميع المناشط نحو الغاية العليا، وعدم المساواة في المبدأ، والمحافظة على الصورة الكلية، والتحرّر الدائم، والتفوّق على الذات، والشعور بالتأنق الذي كثيراً ما يرتقي بالإنسان - على نحو ما - إلى درجة الريادة، حيث يضحى قدوةً لغيره، وأن يسير نحو الهدف في وضوح تامّ، وسلوك منطقي، وأن يحرص على النجاح مهما كان صغيراً، ومن الصفات المهمة للمسلم المعاصر سمّة

الإيجابية وهي مغايرة لصفة السلبية، وتعني الإيجابية: القدرة على التحكم في العواطف، والفهم العميق لتحديات العصر ومطالبه، وجعل المؤلف الصحة النفسية أهم ركن من أركان الإيجابية، ثم جعل التقييم الذاتي هو الأصل في مفهوم الإنسان لذاته، فعلى المسلم اليوم أن يمتلك القدرة على إعادة فهم ذاته . . .

الفصل الرابع: تحدّث فيه عن قضايا هامة وعامة، فهو يرى أن المدينة الفاضلة وهمّ فليس في هذه الأرض مدينةً مثاليةً للعيش؛ لأن هذه الدنيا دارٌ ابتلاء، ودارٌ زرع، وتحدّث فيه عن إضاعة الوقت وأسباب ضياعه، وعن بعض المبادئ والآليات في الاستفادة من الوقت، وتحسين الإنتاجية ومبادئ تحسينها، ومواجهة المشكلات، والاهتمام بالمستقبل، ورسم بعض الأفكار التي تساعد على رسم خطة شخصية، ولم ينسَ الحديث عن السعادة والرضا، ومصدرِ الشعور السعادة والإحساس بالرضا، وعن السبق والتفاحس وسمات السباقين والمتفاحسين، وجعلَ لكل شيء ثمنًا، وأسهبَ في الحديث عن الدقة وبعض المطالب المتناقضة . . .

الباب الثالث

(العيشُ في الزمان الصعب البعدُ العقلي والبعدُ النفسي)

وهو من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تحدّث فيه عن البعد العقلي، وعن العقل وأهميته المزايده، وتحدّث عنه شكلاً ومضموناً، فشكّله الإمكانيات والقدرات التي زوّدها الله بها دماغنا، ومضمونه المبادئ الفطرية،

وبعضها المكتسب، المرتبط بالثقافة، ثم شرح العقلانية شرحاً وافياً.
الفصل الثاني: تجديد البعد العقلي وشرط هذا التجديد، واستخدام العلاج الإدراكي، وركّز على قضايا مهمة للفهم كالنظرة المتعمقة، والاستماع الجيد، وتنشيط الذاكرة، والمرونة الذهنية، وتحسن التفكير عن طريق القبعات الست، والتي هي مواقف نفسية عقلية يجري تقمصها خلال جلسات الحوار والمناقشة...

الفصل الثالث: تحدث فيه عن التفكير المعوجّ، وذلك من خلال إصدار الأحكام المسبقة، وسوء التعامل مع المعلومات غير الملائمة، والضلال في تفسير الظواهر، وتأثير الانطباعات الأولى، وتأثير الهالة، والمبالغة، والقراءات القاصرة...

الفصل الرابع: تحدث فيه عن البعد النفسيّ وتجديده من خلال تخليص النفس من أمراضها، وتخفيف القلق، والتخلص من الاكتئاب، والثقة بالنفس واحترامها، والإرادة الصلبة، وحسم الصراع الداخليّ، وأن يكافئ الإنسان نفسه، ويسيطر على انفعالاته...

الباب الرابع

(العيش في الزمان الصعب البعد الخلقى والبعد البدني)

(إدارة شؤون العيش)

ويتألف من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تجديد البعد الخلقى، من خلال التمسك بالسنة، وتجسيد المبادئ الأخلاقية، والحث على الأخلاق الشريفة،

والتأبي الخلقى، واللياقة الخلقية من خلال إغناء الحياة العامة وفضيلة الاهتمام وخلق التسامح، ثم تكلم عن ضرورة اكتساب عاداتٍ جديدة، والتخلص من التسويف، والخروج من دائرة الكلاله، والانهماك في الأعمال الصغيرة، والشعور بالواجب . . .

الفصل الثاني: تجديد البعد البدني، وأنّ هناك تحدياتٍ جديدةً

في الحياة، ووضع قواعدَ لحفظ الصحة العامة تتجلى فيما يلي:

١ - النظرةُ إلى وضعيّة الحياة.

٢ - التوازنُ.

٣ - توجيهات شرعية:

أ - أكلُ الطيبات باعتدال.

ب - التداوي.

ج - الامتناعُ عن المحرمات.

د - النظافةُ.

٤ - الغذاءُ المتوازن.

٥ - التخلص من البدانة.

٦ - الإقلاع عن التدخين.

٧ - الراحة النفسية.

٨ - ممارسة الرياضة.

الفصل الثالث: إدارة شؤون العيش من خلال أمرين:

المنطلقُ النظري: ويقوم على أن الله تعالى ضامنٌ لرزق العباد،

والعملُ في الحصول على الرزق عبادةً، والأكل من عمل اليد،

والغني الشاكرُ أم الفقير الصابرُ؟ وأسباب الفقر في العالم الإسلامي،
والتوسط في الإنفاق... .

أساليبٌ ووسائل في تدبير شؤون العيش: وتقوم على الاستقامة
والالتزام، والتفوق، ومحاولة تحسن الدخل واكتساب المهارات،
واغتنام الفرص المتاحة، فالسفر بابٌ من أبواب الرزق، وعدم
تجميد الأموال، وختمها أن العلاقة الحسنة مصدرُ الرزق.

الباب الخامس

(العيشُ في الزمان الصعب العلاقات الاجتماعية)

وهو يتألف من أربعة فصول:

الفصل الأول: أهمية العلاقات الاجتماعية، والمساعدة على
فهم العالم، وإشباع الحاجات العاطفية، وأوضح أنّ من سمات
اللبنة الصالحة، الالتزام والتواضع والصبر والرحمة والمبادرة الفردية
والألفة التي تأتي من خلال طيب الكلام والجدارة بالثقة، والوضوح
وتقبل النقد، وعدم إفهام الناقد أنه مخطئ... .

الفصل الثاني: الاتصال الإنساني من خلال تعريف الاتصال
وكيف يكون جيداً وذلك عن طريق: تكوين الانطباع الأولي، ومعرفة
النفس، والدقة في استخدام اللغة، والاتصال عبر الهاتف،
والخطاب المؤثر والإصغاء الجيد... .

الفصل الثالث: مبادئ ومفاهيم في العلاقات الاجتماعية، ومن
خلال رعاية العلاقة الخاصة، وأن يعرف الإنسان هذه القضايا:

ندرة الطراز الرفيع من الإخوان، أسباب انعدام الصداقة الحميمة، ما يجب توفره في الصديق... .

ومن مبادئ العلاقات الأسرية: ركود الحياة الزوجية، وعزل متاعب الحياة عن المنزل، وعلاقة الزوجين تقوم على التخالف، والانسحاب من الحوار، وحبذ الاستهلاك عند المرأة... .

الفصل الرابع: التعامل مع الاختلاف، فأساب وجود الاختلاف كثيرة، ويمكن أن تنحصر في عدة أمور:

اختلاف القيم والأفكار، التنوع وكثرة الخيارات، اجتماع الناس يولد التوترات ومحدودية الموارد. أما كيف نقلل من الاختلاف مع الآخرين؟؟ فالإجابة تكون بتقليل الاعتماد على الآخرين، وعدم الإسراف في إعطاء الوعود، والتخلص من سوء الفهم ومن الغضب، والبحث عن الحلول عوضاً عن اللوم، والتقليل من إصدار الأحكام.

أما حل الخلاف فيكون بتحديد نقاط الخلاف، والجو النفسي للحل، والمحافظة على الهدوء، وتجاوز الماضي إلى الحاضر، والاعتراف بالخطأ... .

ثم وضع المؤلف بعد الباب الخامس خاتمةً خلص منها إلى أنّ أفكار الكتاب تجعل القارئ معاصراً لزمانه وأحداثه، وكفناً في التعامل معها، وأنها تتجه نحو تفعيل الإمكانيات الشخصية للمسلم المعاصر... .

ثم وضع فهرساً للمراجع والمصادر، وفهرساً للأفكار

والمقولات العامة، وفهرساً لمواضيع الكتاب فجزى الله المؤلف عنا
كل خير، إنه سميع قريب.

* * *

- الكتاب: عصرنا والعيش في زمانه الصعب
- المؤلف: الدكتور عبد الكريم بكار
- الطبعة الثالثة، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م دار القلم، دمشق، بيروت





قراءة في كتاب (بصائر للمُسلمِ المُعاصِرِ)

أحبّتي وإخوتي إليكمو هديتي إليكمو نصيحتي
إليكمو وصيّي إليكمو محبتي مضمومةً في باقيتي
هديتي بصائرٌ للمسلم المعاصرُ على طريق الصحوة
نصيحتي زواجراً للمسلم المخاطرُ في غفلة البصيرة
نداءٌ قلبٍ حزينٍ:

«يا شبابَ الإسلام، ويا طلائع البناء الجديد، ويا حباتِ قلوب
الأمّة الإسلامية المجيدة:

ليكنْ في علمكم أن دهاة الكيد العالميين قد بالغوا في الكلام
على الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي، وهولوا أمرها لهدفين:

١- ليورّطوا شباب الإسلام وطلائع البناء الجديد في رعوناتٍ
تسحق هذه الصحوة، وتعيد المسلمين إلى سُبّاتهم.

٢ - وليدُفّوا ناقوس الخطر في آذان دول العالم الغربي وسائر
الدول التي تخشى عودة الإسلام إلى الظهور والقوة في الأرض...
وظهور كيان الأمّة الإسلامية الواحدة.

لا تغتروا بمن يخادعكم ليستدرجكم، ولا يقودنكم أحداثٌ

الأحلام، ولا المراهقون في فهم الإسلام، ولا تعتبروا كل من يخالفكم في الرأي خصماً لكم، ولا كل من يوافقكم في الرأي صديقاً لكم...

لا تشتروا الثمار على أشجارها قبل أن يبدو صلاحها، فريح باردة أو شديدة تسقطها وهي غير صالحة للانتفاع بها... واتقوا الله في أعمالكم، إن الله مع المتقين.

بتلك الأبيات العذبة أهدى كتابه وبدأه، وبذلك النداء من القلب الحزين الجريح ثنى، ثم ثلث بفاتحة لقاء مع الإخوة، هكذا فعل الشيخ العالم الداعية عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه القيم: «بصائر للمسلم المعاصر» الذي هو فعلاً سراج نور وهداية، طريق علم ومعرفة، ونبراس وضياء في ظلام ليل حالك معاصر، وإشعاع أمل في قلوب بائسة، وتذكير بحديث سيد الكائنات: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله»...

سنمضي اليوم على بصيرة ونور في دراسة هذا الكتاب دراسة تعبر عن محتواه، وترشد إلى فحواه، فنقول وبالله التوفيق:

بعد الإهداء الذي ذكرناه، ونداء ذلك القلب الحزين، وفاتحة لقاء مع الإخوة، قسم المؤلف كتابه إلى أربعة أبواب، وكل باب إلى عدة فصول:

الباب الأول

بدأه بنظرات حول أسباب الأخطاء، وصور الجنوح الفكري عن إدراك الحقيقة، ثم قسمه إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: تحدّث فيه عن حدود حقائق الأشياء ومقاديرها، فلكلّ أمرٍ حقيقةٌ، ولكل حقيقةٍ حدودٌ ومقاديرٌ، وقسمها إلى خمسة وجوه، ثم تكلم عن الحقائق فمنها أزليّةٌ، ومنها مجعولةٌ، ومنها بسيطةٌ، ومنها مركّبةٌ، . . .

الفصل الثاني: تحدّث فيه عن مكانة الحقّ في مفهوم الدين، وعن الصراع بين الحقّ والباطل، وخلص إلى عدة حقائق، وهي على الترتيب:

الله هو الحقُّ، لا يقول إلا الحقَّ، يُحقّ الحق بكلماته، يقصّ الحق، يقضي بالحق، يخلق بالحق، وعدُّ الله حقُّ، أنزل الله كتابه بالحق، أرسل الله رسوله بالحق وبدين الحق، ليس بعد الحق إلا الضلالُ، وأيد كلَّ ذلك بالشواهد المناسبة من كتاب الله، ومن سنّة رسول الله ﷺ . . .

الفصل الثالث: تحدّث فيه عن صور الإدراك بين الخطأ والصواب، وهي ستُّ صور:

- ١ - إدراك الحقيقة إدراكاً كاملاً . . .
- ٢ - إدراك الحقيقة إدراكاً ناقصاً . . .
- ٣ - إدراكٌ تختلط فيه حدود الحقائق . . .
- ٤ - الزيادة على حدود الحقيقة، مع ادّعاء أن الزيادة داخلَةٌ في حدود الحقيقة . . .

ثم تكلم عن التعميم الفاسد، وأتى بأمثلة من التعميمات الفاسدة، منها: إدخال النتائج في الأحكام الخاصة بالمقدمات، واختلاف

الآراء الاجتهادية في الأحكام الفقهية، ثم طرح سؤالاً وأجاب عليه، وهو: هل الحق يتعدد بتعدد المقبول من الاجتهادات الفقهية؟

ومن الأمثلة أيضاً: الحكمُ على كل معطيات الحضارة الغربية بالصحة أو بالفساد، ورفضُ كل دين لأنَّ ما يُطلق عليه اسمُ دينٍ هو باطل، والحكمُ على كل عناصر مذهبٍ إنساني بالصحة أو بالفساد، تعميمُ الحرية وإطلاقها من غير قيود، تعميم المساواة وإطلاقها من غير قيود، رفضُ كل ما عند المذاهب المخافة لأن بعضها باطل، رفضُ تعليل كل الأحكام الشرعية لأن بعضها تعبديةٌ محضةٌ، اعتبار سببٍ واحد من عدة أسباب هو السببُ الوحيد، اعتبارُ كل نتائج التوجه لاتباع السنَّة هو الحق.

٥ - الإدراك المنحرف عن مطابقة رقعة الحقيقة مع التلاقي الجزئي، وأتى بأمثلة على ذلك؛ كالأخطاء في مفهوم الزهد، وأخطاءٍ حول مفهوم القضاء والقدر...

٦ - الإدراك المجانب للحقيقة مجانبةً كليةً، كمن يشير إلى رقعة مكة المكرمة في الخريطة فيقول: هذه رقعة دمشق، وقول الذين قالوا: لا إله، والوجودُ كله مادةٌ أزليةٌ، إلى غير ذلك من أمورٍ باطلةٍ كثيرةٍ ليس بينها وبين رقعة الحقيقة أيُّ تلاقٍ جزئيٍّ...

الفصل الرابع: تحدّث فيه عن أسباب الخطأ والجنوح الفكري عن إدراك الحقيقة، وأتى فيه بمقولتين شرح في الأولى أسباب الخطأ والجنوح الفكري عن إدراك الحقيقة، ولخص هذه الأسباب في أحد عشر سبباً:

الأول: الوهمُ الناشئُ عن اضطرابِ نفسي أو عدم اتزان فكري .

الثاني: ضعفُ أداة الإدراك، أو وسيلته مع الغرور بالنفس .

الثالث: انحرافُ النظر عن حدود رقعة الحقيقة .

الرابع: اشتباهُ الحقيقة بما جاورها .

الخامس: تشابه الحقائق في صفاتها ولو تباعدت .

السادس: ردود الأفعال الفكرية السريعة بمؤثراتٍ نفسية .

السابع: سوابقُ الأفكار .

الثامن: التعصب لشخص أو قومٍ أو حزبٍ .

التاسع: التسرع في الحكم مع عدم وضوح الرؤية .

العاشر: مؤثراتُ الأهواء والشهوات والمصالح الخاصة .

الحادي عشر: التقليدُ الأعمى .

المقولة الثانية: عرض فيها أمثلة الأغاليط الناشئة عن الخطأ أو الجنوح الفكري عن إدراك الحقيقة، وحلل مقولة (الإنسان خليفةُ الله في الأرض)، وأثبت بطلانها من خلال عدة أمور: البيان التحليلي، الخلافة فيها معنى الوكالة، ما ينتج الناس من صناعات ومبتكرات من خلق الله، التسخيرُ ليس تفويضاً ولا توكيلاً ولا خلافةً عن الله، فكرةُ الخلافة عن الله مزلقٌ خطيرٌ، هل الإنسان مستخلفٌ عن الله في المال؟؟، فكرةُ خلافة الإنسان عن الله بدعةٌ محدثةٌ، ثم أتى بما قرره الإمام ابن تيمية حول هذه المقولة، ثم أتى بكلامٍ في غاية الروعة عن الأغاليط الشائعة لدى بعض السُّبَّان فقال:

«من الأغاليط الشائعة لدى بعض الشبان التحمّس لإقامة الحكم الإسلاميّ وتصوّرهم أن الطريقَ الأقرب لإصلاح المجتمع هو إقامة الحكم الإسلاميّ أولاً، وأن الطريقَ الأقربَ لإقامة الحكم الإسلاميّ، هو طريقُ الثورة والقتال، ويتصورون أنّ إصلاح المجتمع عن طريق الدعوة إلى الله والإقناع الفردي والجماهيري، وبناء الأجيال المؤمنة المسلمة طريقٌ طويلٌ، وأن أعداء الإسلام لا يمكنون الدعاة من متابعة دعوتهم، وإصلاح المجتمع عن طريق الدعوة والتربية والبناء»، وأثبت بالأدلة النقلية والعقلية أن طرق الدعوة والحكمة والموعظة الحسنة أنفع وأجدى...

ثم تحدّث عن مقولة للشيخ أبي الحسن الندوي حول الثورة الشيعية، وتحدث عن تعظيم الصغائر، وتكفير من لم يحكم بما أنزل الله، والتجرؤ على أحكام الدين بإصدار الفتاوى على غير هدى...

الباب الثاني

بدأه بالفهم الإسلامي الصحيح لقضية اتخاذ الأسباب مع التوكل على الله، وهو مكوّن من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أتى بمفاهيم وأمثلة عامّة عالج فيها عدة قضايا، منها: التوكل على الله وظيفّة إيمانية، واتخاذ الأسباب وظيفّة علمية، ثم تحدث عن دافعِي اتخاذ الأسباب الكونيّة وهما: الانسجام مع سنن الله الكونية، والطاعة لله في أحكامه التشريعية، ومنها: تأثير التوكل على الله في الإمداد بقوى معنوية عالية لدى اتخاذ الأسباب،

اتخاذ الأسباب طاعة لسنن الله، وطاعة لشرائعه، والتوكل على الله تعبير إيماني وطاعة قلبية، وأتى ببعض النتائج التي تكون غير سارة للأغاليط في هذا الموضوع...

الفصل الثاني: أدلة قرآنية وشرحها، حيث شرح قوله تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَنَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّهِمٍّ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ٩ - ١٤]، وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُّوا عَلَى اللَّهِ إِنْ لَمْ يَأْتِكُمْ مَعْتَدٍ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنَّهُوَا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُوَا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٠ - ١٩٥].

وغيرها من الآيات شرحاً وافياً تفصيلاً، واستنبط منها بعض الأحكام...

الفصل الثالث: تكلم فيه عن وجوه النصر وأدلته في العهد المكي والمدني، ولم يتعد هذا الموضوع.

الباب الثالث

بدأه بالحديث عن موضوع مهم وهو أن الدين الحق منهج متوسط بين التفريط والغلو، وهو يتكون من ستة فصول:

الفصل الأول: أتى فيه بتمهيد عام حول الحقائق والنظر إليها، وأتى بأمثلة على ذلك، وبكلام نفيس لابن تيمية يتكلم فيه أن الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرّمه الله ورسوله ﷺ، وحول قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الفصل الثاني: تمهيد حول مفاهيم التفريط والغلو، وذلك بأمثلة عامة، وذكر أن هناك قسماً من الحقائق تضيق مسافة حدودها، ثم تكلم عن التفريط والغلو في الدين، مع الأدلة والأمثلة على كل ما يأتي به...

الفصل الثالث: تحدّث فيه عن التفريط والغلو في العقائد والمفاهيم الأساسية للدين، وأكد كلامه بخمسة أمثلة وهي: الغلو في تعظيم الرسول ﷺ، غلو الجبريين وغلو المعتزلة، غلو بعض الجهلة المنتمين للسلفية، وغلو المشركين، وغلو الجهلة من عوام المسلمين...

الفصل الرابع: بيان التفريط والغلو في الأحكام التشريعية، ثم أتى بأدلة قرآنية على ذلك؛ كالذين يحرمون زينة الله التي أخرج لعباده، وذكر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَٰؤُلَاءِ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْلَهُمْ وَلَا تُرَوِّقُوا رُءُوسَكُمْ وَلَا تُحِبُّوا الرِّبَا وَلَا تُكُونُوا رِجَالًا حَرَمًا مِّمَّنْ حَرَّمَ اللَّهُ

الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ [الأعراف: ٣١ - ٣٣].

ففي هذا النص تنديد بالذين يحرمون من زينة الحياة الدنيا ما لم يحرمه الله تعالى، ثم تكلم عن غلوّ النصارى في الأحكام...

الفصل الخامس: بيان التفريط والغلو في السلوك الديني، وذكر أمثلة للغلو، ونصوصاً في بيان المنهج النبوي القصد، كالحديث الذي رواه البخاري ومسلم، عن أنس رضي الله عنه قال: جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى بِيوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا، كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَا أَنَا، فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا، وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمُ لَهُ، وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

الفصل السادس: بيان التفريط والغلو في الولاء، ويكون بعدة أمور، هي:

بمجاورة حد الحق في المناصرة والتأييد، بإعطاء بعض صفات الله أكثر من حقها، بكراهية الأديان الربانية الأخرى، بحب

الرسول أكثرَ من حب الله، بادّعاء أن القرآن هو الكتابُ الوحيدُ المنزَّلُ، بالمناصرةِ بالباطل لشخصٍ أو جماعة أو حزب، ثم تحدث عن قضيتين هامتين: النجاة من الغلو الحزبي، والغلو في الولاء إلى الإسلام على غير بصيرة

الباب الرابع

وهو مخصَّصٌ للحديث عن الجهاد في سبيل الله، ويتكون من أربعة فصول:

الفصل الأول: في تعريف الجهاد ومجالاته، واستعراض الآيات القرآنية في الجهاد، في العهد المكيّ والعهد المدنيّ . . .

الفصل الثاني: تحدث فيه عن أهداف الجهاد في سبيل الله، وعناصره وشروطه وفق سبعة أمور:

موجباته من الواقع البشري، غاية الجهاد في سبيل الله، خطوات الجهاد في سبيل الله ووسائله، الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله في التوراة والإنجيل والقرآن، شروط الجهاد في سبيل الله بالقتال، الروح المعنوية لدى المجاهدين في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله في تاريخ بناء الحضارة الإسلامية . . .

الفصل الثالث: تحدّث فيه عن محاولات التحريف في مفاهيم الجهاد في سبيل الله، أيضاً وفق سبعة أمور:

١ - مقدمة تحدّث فيها عن محاولات التحريف بشكل عام.

٢ - استغلال ردود الأفعال الناتجة عن توجيه الاتهام.

- ٣ - خطة تفرغ الجهاد في سبيل الله من مضامينه باصطناع البدائل .
- ٤ - خطة الربط الدوري بين الجهاد في سبيل الله بالقتال، وبين إقامة الحكم الإسلامي .
- ٥ - خطة اصطناع المنظمات العميلة الأجيعة «البهائية - القاديانية» .
- ٦ - خطة التوريط والإحباط .
- ٧ - خطة تقديم صورٍ مصطنعةٍ من جهادٍ منفرٍ .

الفصل الرابع: توجيهٌ حول قضيتنا الفلسطينية المعاصرة،

من خلال ستة أمور:

إن عدونا لخطيرٌ، ومع شدة خطره يهون أمره بالتزام الإسلام، ليس أثقالُ القوى العسكرية أخطرَ أسلحةِ عدونا الشيطان، أثرُ الشعارات والمذاهب الفكرية المعاصرة في جعلنا مطايا لعدونا، لا سبيلَ إلى تحرير فلسطين إلا بالجهاد في سبيل الله بعد اتّخاذ الوسائل الكافية له، السّلم مع العود استسلامٌ وخنوعٌ، . . .

ثم وضع المؤلفُ خاتمةً عامةً للكتاب، وذكر أنه كتب هذه البصائرَ وهو ممتلئٌ بالحزن والهمّ والغمّ من أجلّ أمته، وختمها بقوله:

وأكرر أنني أوجه هذه البصائرَ لنفسي أولاً، ثم إلى إخواني في الدين، الباحثين عن الحق، والذين يبتغون رضوانَ الله وجناتِ النعيم . . . ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] .

ثم وضع فهرساً عاماً للكتاب .

فجزى الله المؤلفَ عنا كلَّ خيرٍ على هذه البصائر، التي تنير
الدرب في الظلام الحالك.

* * *

- الكتاب: بصائرٌ للمُسْلِمِ المُعَاصِرِ
- المؤلف: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
- ط: ٣، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، دار القلم، دمشق





قراءة في كتاب: (كِدْبَةُ نَيْسَانَ فِي الْمِيزَانِ)

للهولة الأولى يظن القارئ الكريم أنّ العنوان السابق هو عنوان مقال، تناولت فيه نيسان وكذبتة، ووضعتها في الميزان...

لكن، عندما يقرأ المضمون فإنه سيرى أن هذا ليس مقالاً مكوّناً من كلمات معدودة، بل هو كتابٌ كاملٌ يحمل ذلك العنوان... وفي طياته أسئلةٌ كثيرةٌ يجيبنا عنها:

ها قد أتى شهرُ نيسانَ، فهل لهذا الشهر ميزةٌ على غيره من الشهور؟؟

ولماذا كلما أتى هذا الشهرُ المظلومُ، رأينا بعضهم يكذبون في أوله؟!!

وهل الكذبُ جائزٌ في بداية نيسانَ، ومحرمٌ في آخره؟؟
ونرى بعضَ الناسِ يمزح بالكذب القبيح، فيضحكُ عندما يحزن الآخرون، ويُسرُّ عندما يغتاظ الآخرون...

متى يكون الكذبُ مُباحاً؟؟

ومن هو أولٌ من كذب، وسنّ هذه السنّة السيئة، والعادة القبيحة، واخترع كذبة نيسانَ؟؟

هذه الأسئلة وغيرها نرى أجوبتها في الميزان الذي وضعه العلامة محمد خير رمضان يوسف صاحب المصنفات والمؤلفات والتحقيقات، فقد أَلَّف كتاباً سماه: (كذبة نيسان في الميزان).

وهذا الكتابُ يتألف من (١٢٦) صفحةً، بدأه المؤلفُ بحوارٍ بينه وبين أحد أنصار الكذب، وهذا الحوارُ شيقٌ حيث ينتصر كلُّ لرأيه، ثم ذكر المؤلفُ بعد ذلك سببَ تأليفه لهذا الكتابِ عندما قال: «ولا أخفي عليك، فإن الذي بعث هذه الأوراقَ القديمةَ من رقادها، ما لجأ إليه زميلٌ في العمل، من إشاعة كذبة في أول هذا العام الميلادي - كان ذلك عام (١٩٩٧م) - وكان في الستين من عمره أو ينوف! فتعجبت. . . وعلمتُ إلى أي مدى تستحکم العادةُ السيئة في الإنسان، (ص٩).

- وهذا الكتابُ يتألف من فصلين، الفصلُ الأول من (ص١٣) إلى (ص٧٦) والفصل الثاني من (ص٧٩) إلى (ص١٢٠).

- بدأ المؤلفُ الفصلَ الأول بتعريفِ الكذب، ثم قال: «وهو حرامٌ فإن عُلِم الضررُ فيه كان من الكبائر، وإلا فمن الصغائر» (ص١٣).

ثم تحدث بعد ذلك عن حقيقة الكذب، ودلالته، وأسبابه ودوافعه، وعن الكذبة الأولى التي سيردُفها بثانية وثالثة، حتى يصبح الكذبُ عنده رذيلة متأصلة!

ثم ذكر الآيات والأحاديث التي تُرهب من الكذب وتحذر منه، فمن الآيات مثلاً، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بَيَّأْتِ اللَّهُ وَأَوْلَيْتِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ [النحل: ١٠٥]، ومن الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام: «إياكم والكذب فإنه مع الفجور، وهما في النار» (ص ٢١).

ثم تحدث عن صور الكذب ومظاهره، ومنها:

النفاق، وشهادة الزور، والكذب في البيع والشراء، والكذب المقرون بالحسد، والكذب في البحوث العلمية، وغيرها من مظاهر الكذب وصوره، (ص ٢٧ - ٣١). ولم ينس المؤلف - حفظه الله - مبالغات المديح، وخاصة عند بعض الشعراء، (ص ٣٢ - ٣٦)، وبعد ذلك أكد على ضرورة الدقة، وتحري الصدق حتى مع الأطفال الصغار، وأجاب على سؤال يقول فيه: متى يُباح الكذب؟

وذكر ضمن الإجابة حديث النبي عليه الصلاة والسلام الذي يقول فيه: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً»، (ص ٤٢).

ثم تحدث عن الفرق بين المزاح والكذب، فقال: «لعل الذي يكذب في أول نيسان يقول: إني كنت أمزح؟ وفرق بين المزح والكذب، والكذب لا يكون مزاحاً، كما نهى عن المزاح بالكذب»، (ص ٤٦).

ثم تحدث عن المعاريض - وهو خلاف التصريح - وعن خطورة الكذب وضرره، وعن عقوبة الكذاب، وعلاج الكذب، مع ذكر بعض النصائح في ذم الكذب، ولزوم الصدق، والآثار الحميدة للصدق، وذكر طائفة الكذب في الغرب ف ٩١٪ من الأمريكيين

الذين شملهم استطلاع أُجريَ على ألفي شخص يكذبون بصفة متواصلة، (ص ٦٧).

وفي نهاية هذا الفصل تحدث عن الكذب حتى في الأبحاث العلمية! وأورد أمثلةً على ذلك (ص ٧١ - ٧٥).

- وأما الفصل الثاني فقد بدأه المؤلف بالحديث عن شهر نيسانٍ والتعريف به، ثم ذكر أن أقدمَ كذبة ورد ذكرها في اللغة الإنكليزية في مجلة كانت تعرف بمجلة (دريك) عام (١٦٩٨م).

ثم ذكر (ص ٩٣) أن الصحف في الغرب تتبارى في الكذب وكذلك بعض قنوات التلفاز، وبعض محطات الراديو، وذكر مثلاً على ذلك الخبرَ الكاذبَ الذي أذاعته محطة (راديو سود) في منطقة الجنوب الغربي الفرنسي (ص ٩٤)، ثم ذكر أمثلة على الكذب بشتى أنواعه (ص ٩٦ - ١٠١).

تحدث عما جرى للأديب إبراهيم عبد القادر المازني في أول نيسان، وكيف كذب عليه بعضُ أصدقائه حتى كادوا يوقعون الفتنة بينه وبين زوجته، (ص ١٠٢ - ١٠٦).

ثم جاء بأمثلة كثيرة عن الكذب السخيف بين بعض الأصدقاء في أول هذا الشهر، وخاصة عندما تكون الأضرارُ كبيرةً جداً كما في (ص ١٠٧ - ١٠٨).

وفي نهاية الكتاب وضع المؤلفُ كلمة تحذيرية حذراً فيها من الكذب بشكل عام، ومن كذبة نيسانٍ بشكل خاص، وكان مما قال: (كم رأينا وسمعنا لهذه الكذبة من عواقب سيئةٍ وحقدٍ وضغائن

وتقاطع وتدابر بين الناس!! وكم جرّت هذه الكذبَةُ على الناس من ويلات بين الإخوة، وبين أهل البيت الواحد!! وكم عطّلت على الناس من مصالح نتيجة ذلك! وكم أوقعتهم في خسائر مادية ومعنوية وغير ذلك بسبب هذا التقليد المتبع من عهد قديم في معظم الدول الأوربية) (ص ١١٩).

ثم وضع المؤلفُ فهرس المراجع والدوريات ثم فهرسَ الموضوعات، وأكثر من مائة عنوان من الكتب التي حققها وألفها، (ص ١٢٧ - ١٢٩).

فجزاه الله عنا كل خير، ونسأل الله تعالى أن يطهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

* * *

- الكتاب: كذبة نيسان في الميزان
- المؤلف: محمد خير رمضان يوسف
- الناشر: دار ابن حزم - بيروت





قراءة في كتاب:

(المنهج المفيد في بناء الإيمان والعقيدة)

فعلاً إنه منهج مفيد، وركنٌ شديدٌ رشيد، في بناء الإيمان، وإرساء دعائم العقيدة، وعنوانه يدل على مضمونه: (المنهج المفيد في بناء الإيمان والعقيدة)، وقد بدأه مؤلفه العلامة الشيخ إسماعيلُ المجذوبُ - حفظه الله تعالى - بمقدمةٍ رائعة تدل على المحتوى، وكان مما قال في المقدمة: «إن معرفة العقيدة الصحيحة أهمُّ جوانب المعرفة، وخطرُ الجهل في العقيدة أعظمُ الأخطار، وأكبرُ الجهالات.

ولما رأيتُ كثيراً من الناس أخذوا دينهم إراثاً ورثوه عن آبائهم دون علم ولا بصيرة، أحببت أن يكون لي نصيبٌ من خدمتهم، بكتابة رسالة في العقيدة، تكون صغيرةً في الحجم، مؤيدةً بالدليل، تبين عقيدة أهل الحق ليكونوا على بصيرة في دينهم.

وستكون هذه الرسالة - إن شاء الله تعالى - قريبةً لمنهج الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين، والأئمة المجتهدين، وخاليةً من التعقيد، بعيدةً عن علم الكلام، وعن منطق وفلسفة اليونان...

ومن العافية أيضاً عندما نرى مسائلَ جدليةً يختلف الناس فيها

أن نرجع إلى أحوال الذين ربّاهم النبي ﷺ وزكاهم، فنقتبس من أحوالهم قدوة صالحة نتبعهم فيها».

وقد قسّم المؤلف الكتابَ إلى أربعة فصول، الفصلُ الأول: من (ص ٨ - ١٣)، عرّف فيه علمَ العقيدة بأنه (العلمُ الذي تُعرف به العقائدُ الدينية التي جاء بها رسولُ الله ﷺ بالأدلة اليقينية)، ثم ذكر بعضَ خصائصها، وأتى ببعض الإضاءات العلمية الضرورية، التي تبعدنا عن الانحرافات، وتجعلنا على بصيرة في ديننا الحنيف منها:

- الإسلامُ دين المعرفة والبرهان.
 - واهتمامُ الإسلام بالجانب العقلي.
 - وبيانُ وسائل العلم والمعرفة.
 - الإلهامُ والرؤيا الصالحة لا ينتج عنهما علم.
 - إيماننا بالغيب يعتمد على المنهج العلمي.
 - لا مستندَ في أمور الغيب إلا بالوحي.
- وقد أتى بالأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة على كل الإضاءات السابقة.

- والفصل الثاني من (ص ١٤) إلى ص (١٠٢):
بدأه المؤلف - حفظه الله تعالى - بالحديث عن الإيمان بشكل مجمل، ثم دخل في تفصيل أركان الإيمان، بادئاً بالركن الأول: الإيمان بالله تعالى وحده، وكان تركيزه على ثلاث أفكار، وهي:
١ - الإيمان بالله فطرةً وبديهة.
٢ - البرهانُ والدليل العقلي ركيزةُ الإيمان بالله تعالى.

٣ - معرفة صفات الله تعالى، وهذه المعرفة جعلها في ثلاثة
مباحث، معتمداً فيها على ما جاء في القرآن الكريم، وفي سُنَّة
النبي ﷺ:

المبحثُ الأولُ: في طريق معرفة صفات الله تعالى.

وجعل لها طريقين، الأولُ: التأملُ في مخلوقات الله تعالى،
والثاني: الوحي الذي جاءنا به النبي ﷺ.

المبحثُ الثاني: أسسُ معرفة صفات الله تعالى.

المبحثُ الثالثُ: الإيمان بما فُصِّل في القرآن والسُنَّة
من صفات الله تعالى.

وقد تحدّث فيه عن وحدانية الله تعالى، وأنه فعّالٌ لما يريد،
وهو خالقُ كل شيء، فالله الخالق وللعباد الكسبُ، والله هو الغنيُّ
الحميدُ الحيُّ القيومُ الغفورُ الرحيمُ السميعُ البصيرُ الأولُ الآخرُ،
وهو ليس كمثله شيءٌ... ثم تحدث عن أركان الإيمان بالتفصيل
المؤيّد بالأدلة القرآنية والنبوية والعقلية...

وأنتهى الفصلَ الثانيَ بالحديث عن محبة أهل البيت، والصحابة
والسابقين والأولين، وأن لا أحدَ على الإطلاق يبلغ درجةَ
الصحابة ﷺ أجمعين.

الفصلُ الثالثُ: أفرده المؤلف بالحديث عن ميزان الإيمان،

وجعل لهذا الميزان جانبيين:

الأولُ: الأحوالُ والصفات والأعمال التي أرشدنا الله إليها،
ومدَح أهلها، وهي شعبُ الإيمان.

والثاني: الأحوال والصفات والأعمال التي حرّمها الله علينا، وذمّها وذمّ أهلها، وهي المحرّمات والفواحش، وهذا الفصل من (ص ١٠٣) إلى (ص ١٠٥).

أما الفصل الرابع والأخير، فهو من (ص ١٠٦) إلى (ص ١٤٠)، وقد جعل فيه المؤلف ملحقاتٍ من أجل إتمام الفائدة، وهي سبع ملحقاتٍ:

- ١ - حوار هرقل ملك الروم مع أبي سفيان قبل أن يسلم.
- ٢ - الإلهام والرؤيا الصالحة لا ينتج عنهما علم، وهو في مسألتين؛ الأولى: لا يصح الاعتماد على الإلهام، والثانية: لا يصح الاعتماد على الرؤية الصالحة في الأحكام الشرعية، وحذّر بشدّة من المضلّين.
- ٣ - في بطلان دعوى وجود الكون بالصدفة، وبطلان الإلحاد وقال: «ربط أنظمة المخلوقات بالصدفة أو بالطبيعة طفولة غبية» . . .
- ٤ - في ردّ شبهات إنكار حجية أحاديث الآحاد.
- ٥ - تنوير القلوب وإحيائها وسقايتها بذكر الله تعالى من الإيمان.

٦ - في التحذير من تكفير المسلم لأخيه.

٧ - نماذج من معجزات رسول الله ﷺ.

ثم وضع خاتمةً للكتاب، هي خلاصة ما جاء فيه، ومنها أقتطف للقارئ الكريم: «إن ما ذكر في هذا الكتاب يحتوي بفضل الله تعالى على أهم ما يحتاج إليه المسلم المعاصر من المعلومات التي

تجعله من حيث المعلومات على بصيرة في دينه، ويحميه - إن شاء الله تعالى - من الزيغ. ومضلات الفتن...

ومن الأسباب التي تعين العبد على تحصيل هذا الخير، أن يتفقد إيمانه، ويزنه بما ذكر في القرآن والسنة من الأحوال والأعمال التي أمر الله تعالى بها، ومدحها، وزكى أهلها أو نهى الله عنها، وذم أهلها...».

ثم ختمه بفهرس شامل للموضوعات. ولقد قرأت الكتاب كله، وهو جديرٌ بالقراءة، ومن أجمل ما فيه، أن أسلوبه سهل مبسط، ويستطيع أي مؤمن أن يأخذ منه الخير العميم، كل ذلك أتى مع الأدلة المعزوة إلى مصادرها، فجزى الله المؤلفَ القديرَ على هذا الكتاب، وعلى سائر كتبه النافعة الهادفة، التي تنقل الإنسان إلى شاطئ الهداية والإيمان.



- الكتاب: المنهج المفيد في بناء الإيمان والعقيدة
- المؤلف: الشيخ إسماعيل المجذوب.
- الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، دار الكلم الطيب، دمشق





قراءة في كتاب: (الأربعون الرياضيَّة)

لقد تطورت الرياضة كثيراً في هذا العصر، ولم تعد قاصرة على التنمية البدنية من حيث اللياقة والقوام الصحيح، بل تعدتها إلى أهداف معرفية، وترويحية، ونفسية، واجتماعية، وتربوية، وعلاجية، وغاب عن معظمها - إن لم يكن كلها - جمال الإسلام وأحكامه الشرعية التهذيبية التي تكسبها سلامة في التربية، ونقاء في الغاية، وسمواً في الهدف... بهذه الكلمات بدأ الناشر للكتاب الذي سوف نتحدث عنه اليوم، وقد نقلتها كما هي لواقعيتها ووضوحها وعذوبتها... وكلُّكم تعلمون بدايةً أن الذين كتبوا في الأربعين على مر التاريخ كُثُرٌ، منهم على سبيل المثال لا الحصر:

الإمام النووي: الأربعون النووية، ابن عساكر: الأربعون البلدانية، الحافظ العلائي: الأربعون الإلهية، الحافظ العراقي: الأربعون الجهادية، عبد الله الغماري: الأربعون الغمارية، الإمام العجلوني: الأربعون العجلونية... وغيرهم ممن يطول ذكرهم...

ولكن العلامة محمد خير رمضان يوسف، أتنا كعادته بعنوان طريف بديع، يثير انتباه القارئ الكريم؛ لأنه يتحدث عن الرياضة، التي احتلت مساحةً واسعة في عقول كثير من شبابنا وشاباتنا، فيريد

الشابُّ المسلمُ أن يعرف ما للرياضة وما عليها، فيقرأ العنوانَ التالي: (الأربعون الرياضية أربعون حديثاً في فضائل الرياضة)، فيبادر إلى قراءته، والتعرفِ على أحكامه وشرحه الوافي . . .

والمؤلف - حفظه الله تعالى - لم يكتب هذا الكتاب بروح رياضية، فما السرُّ في ذلك؟!!

أجابنا عن استفهامنا في مقدمة الكتاب عندما قال:

«وكانت لي جولةٌ بين أحاديثِ نبويةٍ شريفةٍ تحث على النشاط والقوة، فأثرت جمع أربعين منها في كتاب، مع التعليق عليها. وأعترف أن هذا الشرحَ أو التعليق لم يكن بـ«روح رياضية»، وقد دلفت على الشيخوخة، وصار أصعب دواء يوصف لي هو «رياضة المشي»! ولكنني عالجتُه بروح الفقيه والمحدث، مع فوائدٍ جاريةٍ يشُّ لها طالبُ العلم، ويرتاح لها الرياضيُّ المسلم، ويستعد لها شبابُ الإسلام، وأثبتُّ ضوابطَ فقهيةً لممارسة الرياضة وألعابها، وكلُّها نقولاتٌ من أهل العلم والاختصاص، جزاهم الله خيراً . . .

وهذا الكتابُ ليس شاملاً لأنواع الرياضات في الإسلام، ولا هو معالجة موضوعية لجوانبها المتعددة، بل هو مساهمة وتذكير لجوانبٍ منها بما يدل على مجموعة من الأحاديث النبوية الكريمة الصحيحة. ومن أراد التوسُّع فعليه الرجوعُ إلى الكتب المختصة في ذلك، وقد ذكرت مجموعةً منها في المراجع».

بدأ المؤلفُ - حفظه الله تعالى - كتابَه بالأمر بالقوة وترك العجز، مستشهداً بالحديث الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ...».

وذكر أن باحثاً معاصراً فسر القوة في الحديث بأربعة أشياء:

القوة الإيمانية، القوة العلمية، القوة الإرادية النفسية، القوة البدنية.

ثم انتقل المؤلف إلى الحديث عن حقوق الجسد، شارحاً لحديث النبي ﷺ: «إِنْ لَجَسَدَكَ عَلَيْكَ حَقًّا».

ثم تحدث عن رياضة المشي، وذكر الحديث الذي رواه البخاري أن النبي ﷺ كان يأتي قباء راكباً وماشياً، وعنون فيما بعد: الهرولة دليل القوة، وأتى بالأدلة، وتحدث عن المسابقة بالجري، وكيف سبقت السيدة عائشة النبي ﷺ ثم سبقها فقال: هذه بتلك. وذكر اللعب بالرمح والحراب والتحدي والتشجيع على التدريب والفروسية والسباحة، وذكر الحديث الذي رواه الطبراني في الأوسط والكبير، عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَهُوَ لَهْوٌ وَسَهْوٌ إِلَّا أَرْبَعَ خِصَالٍ: مَشْيُ الرَّجُلِ بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ، وَتَأْدِيبُهُ فَرَسَهُ وَمَلَاعِبَتُهُ أَهْلَهُ، وَتَعَلُّمُ السِّبَاحَةِ».

وانتقل إلى رياضة الصيد، والمصارعة وكيف صرع النبي ﷺ رُكَّانَةً، ومصارعة الفتيان سمرة بن جندب ورافع بن خديج، وذكر الملاكمة، وضرورة اجتناب الوجه، والحث على المسابقات الرياضية، كما في الحديث الصحيح: لا سبق إلا في نصلٍ أو خفٍّ

أو حافرٍ، وأن الخيل في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، وكيف هَشَّ النبي ﷺ لفرس يقال له «سبحة» عندما سبق غيره، وذكر المؤلف سباق النوق، والمبارزة، وأكد أن القوة هي الرمي، وحث عليها وذم من نسي الرمي، ثم ذكر الأحاديث التي تدعو إلى الرفق بالحيوان، وكيف لعن رسول الله من اتخذ شيئاً فيه الروحُ غَرَضاً.

ولم ينس المؤلف في نهاية الكتاب أن يتحدث عن الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها الرياضيون، وعن التربية الرياضية، وختم أحاديثه بحديث حسن يُذكر فيه أهل الرياضة، بأن لا يجعلوها ديدنهم، وتلهيهم عن أهم واجباتهم، وهو قول النبي ﷺ: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها».

هذا الكتاب يتألف من مائة وخمس عشرة صفحةً.

وفي النهاية وضع المؤلف فهرساً لأطراف الأحاديث، وفهرساً للمراجع، وفهرساً للموضوعات، فجزاه الله عنا كل خير.

* * *

- الكتاب: الأربعون الرياضية
- المؤلف: محمد خير رمضان يوسف
- دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ط: (١) ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م





قراءة في كتاب

(صَفَحَاتٌ مُضِيئَةٌ فِي التَّصَوُّرِ وَالسَّلُوكِ الدِّينِيِّ)

لقد كثرت في زماننا تصوراتٌ في أذهان المسلمين عن بعض الأمور الدينية، وعن سلوكِ بعض المسلمين وتصرفاتهم، وكثرت الآراء، وتعددت الاجتهاداتُ، مع أن الحقَّ واضحٌ وواحدٌ، وهو ما كان عليه رسولُ الله ﷺ، الذي تركَ فينا أمرين لن نضلَّ ما تمسكنا بهما، كتابَ الله وسُنَّةَ رسوله ﷺ . . .

ونرى في زماننا كثيراً من الناس قد انحرفوا عن جادة الصواب، وابتعدوا عن المنهج القويم، وخاصةً في قضايا شائكةٍ كالكرامات والأولياء وطُرُق ذكر الله، وغيرها من الأمور . . .

ولكنَّ العلامةَ الشيخَ إسماعيلَ المجذوب - حفظه الله تعالى - هذا العالمُ المنصفُ المحدثُ ناقشَ هذه القضايا بأسلوبٍ علميٍ دقيقٍ موضحٍ بالأدلة من كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، وقد أَلَّفَ كتاباً سماه: (صفحاتٌ مُضيئةٌ في التصور والسلوك الديني)، وعالج فيه كلَّ هذه القضايا بالعلم والإنصاف . . .

لقد قَسَمَ المؤلفُ كتابه إلى سبعة فصول، وناقش في كل فصل قضايا في غاية الأهمية، وقد ذكر في البداية مقدمةً تحدث فيها عن

كثرة الرؤوس الجهّال التي حذّر منها النبي ﷺ، وبيّن فيها غايته من هذا الكتاب، فقال: (وقد رأيتُ من المفيد أن أكتبَ رسالةً للطيبين الراغبين في اتّباع الحق، والحريصين على سلوك السبيل التي عاش عليها الصحابةُ ﷺ، الذين ربّاهم وزكّاهم أعظمُ المرّيين ﷺ، وعاش عليها التابعون وأتباعهم، والأئمة المجتهدون وأتباعهم، على منهج العلم والمعرفة).

وأذكر في هذه الرسالة - التي أرجو أن تكون تذكراً للمهتمين بدينهم بشكلٍ عام، وللشباب بشكلٍ خاصّ - بعضَ ما أراه نافعاً من الأسس والقواعد التي قد تغيب عن كثيرٍ من الإخوة، وبغياها فيما أرى تكثُر الانحرافاتُ، وتكثُر دواعي الصراع والشحناء، والخلاف السلبيّ بين المسلمين، ولعلّ معرفة هذه القواعد والأسس ومراجعتها تكون سبباً للعافية، فكثيراً ما تكون المراجعة والمدارسة عند المنصفين الموفقين سبباً مهماً في التمييز بين الحق والباطل، وفي إزالة كثيرٍ من دوافع التشنُّج والتنافر من الإخوة، عندما يبدو آراءهم ويتخذون مواقفهم.

كما أذكر فيها أموراً ونصائح، أرجو أن يجعل الله تعالى فيها نفعاً لطلاب العلم الشرعيّ المختصين، ولغيرهم من طلاب العلم غير المختصين، لتكون - إن شاء الله تعالى - تذكراً نافعةً تساعد على السير في طريق الاستقامة، وتحمي من الانحراف إلى طُرُق تُبعد عن سواء السبيل).

ثم أتى بتذكرة للقارئ الكريم، يبيّن فيها أن المؤمن يجب أن

يعلم أنه لا عُذر لمن ضل عن الحق بسبب غلبة الهوى، وقال:
(وليس ميزانُ الحق رأيي ولا رأيَ غيري، ولا ما ترجَّح
عندي، ولا ما ترجَّح عندك، إنما الميزان هو الحقُّ الذي جاء
من عند الله تعالى).

ثم أتى بتذكرة خاصة لطالب العلم، أرشده فيها أن يبحث عن
الحقيقة فقط...

أما فصول الكتاب فهي على النحو التالي:

الفصل الأول: ديننا دينُ الألفة والمحبة:

وهو يتألف من نقطتين:

الأولى: المؤمنون المتقربون إلى الله تعالى شأنهم الألفة
والمودة، وهذا شأن الذين تربَّوا على يد النبي ﷺ، قال تعالى:
﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقال أيضاً: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا
وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [١٤٣] وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣، ١٠٤].

الثانية: العوامل الموصلة إلى الألفة، ومنها:

طلبُ العلم الشرعيِّ بمنهج الموقِّقين الصالحين، والتأني
والثبوت عند التكلم في الأمور الدينية، وذكر هنا قولَ التابعي الجليل

عبد الرحمن بن أبي ليلى: لقد أدركتُ في هذا المسجد عشرين ومائةً من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، ما منهم أحدٌ يُحدِّثُ بحديثٍ إلا ودَّ أن أخاه كفاه الفُتيا.

ثم تكلم عن مراقبة الله تعالى وخشيته، والخوفِ من سوء الحساب، وضرورة المحافظة على جانب الأخوة والمحبة في الله تعالى، ولهذه الأخوة حقوقٌ منها:

المحافظة على صلاح ذات البين، واحترام المسلم لأخيه، وحسنُ الظن بأخيه، وإنصافُ الآخرين، وأن يراعي الإنسان حسن الخلق، وحسن الأسلوب، والتبئ والتثبت من الأخبار والإشاعات، والحدُّ من الوقوع في الغيبة والبهتان في حق أخيه، ثم تكلم عن الاشتغال بأبواب الخير، وتركِ الاهتمامات الجزئية، وخطورة الكلمة والمسؤولية عنها وعن آثارها، وعن التجرد والموضوعية وعدم التعصب، وذكر هنا من مظاهر التعصب:

- ١ - التعصُّبُ للمذهب.
- ٢ - التعصُّبُ للانتماءات.
- ٣ - التعصُّبُ للشيوخ، والثقةُ العمياء بهم، وإنكارُ وجود عيبٍ فيهم...

وتكلم عن ضرورة الانتماء للإسلام وترك انتماءات التصنيف، ذاكراً قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

والذي يدفعنا إلى اختيار الانتماء للإسلام، يُسرُّ تمسكنا به،

وكثرة الآثار الضارة لانتماءات التصنيف، والتي منها عدم التوازن بسبب ضغوط الانتماءات...

الفصل الثاني: منهج بناء الإيمان:

فالعقيدة الإسلامية ثلاثم العقل والكرامة الإنسانية، ومن أسس البناء المتين للإيمان، أن نبني إيماننا بالله تعالى بالبرهان العلمي على منهج القرآن الكريم، ونبني إيماننا برسول الله ﷺ على البرهان العلمي، وكذلك نبني عقيدتنا على القرآن والسنة، ونبتعد في بناء عقيدتنا عن منهج الفلاسفة وعلم الكلام، فمع الأدلة والبراهين عقيدتنا نوراً في القلوب، ويجب أن نبتعد في صفات الله تعالى عن التأويل، ومعمدنا في الأحكام والتوجيهات الدينية على القرآن والسنة، فلا اعتماد على الرؤيا الصالحة، ولا اعتماد على الإلهام، ثم تكلم عن التحذير من تكفير المسلم لأخيه المسلم...

الفصل الثالث: في التقليد والاجتهاد:

حيث بين شروط المجتهد، وما لا يصح فيه الاجتهاد، والمسائل التي يكون فيها الاجتهاد، وأكد أن من سعة التشريع أنه يجوز للمجتهد أن يقلد، ولا يجوز لمن قصر عن أهلية الاجتهاد أن يجتهد، ثم تساءل؟ هل يصح تقليد مجتهد معين؟ وأجاب على ذلك بالأدلة العلمية، المعقول منها والمنقول، وذكر أن باب الاجتهاد لم يُغلق، ولا حرج على المقلد أن يترك مذهب إمامه ليعمل بحديث بشروط معينة، وحذر من الغرائب، وبين تحذير العلماء منها مع الأمثلة، وأكد أن العامي لا مذهب له، ولا حرج عليه في سؤال

من تيسر له من العلماء، ولا إنكارَ في مسألة اختلف فيها الأئمةُ
المجتهدون، ويَبينُ أخيراً أن المسائل التي يلتبس فيها الأمرُ على
العامة لا يأمر ولا ينهى فيها إلا العلماء، ويتعد عن ذلك المبتدئون
في طلب العلم، فالضرر في أمرهم ونهيهم أكثرُ من النفع.

الفصلُ الرابع: الاهتمام بدراسة علم الإسناد والانتفاع به.

وتناول هذا الموضوعَ من خلال عدة نقاط:

النقطة الأولى: فوائد علم مصطلح الحديث.

النقطة الثانية: الموقفُ الصحيح من بعض أهل الفضل
المخالفين لمقتضيات علم الإسناد، وذكر هنا بعضَ ما حذر من روايته
الإمامُ السيوطي والكتاني، وما حذر من روايته ابنُ حجر في لسان
الميزان، والسخاويُّ في المقاصد الحسنة...

النقطة الثالثة: التساهلُ في الرواية يتنافى مع توجيه
رسول الله ﷺ.

النقطة الرابعة: يجبُ بيانُ الحق وإن سخط بعضُ الناس.

الفصل الخامس: الابتعادُ عن المحدثات التي حذر منها
رسولُ الله ﷺ أيضاً من خلال عدة نقاط:

الأولى: الخيرُ في التمسك بالسُّنة واتباع السابقين الأولين.

الثانية: كثيرٌ من المتحدثين عن البدعة الحسنة والسيئة
يتخبطون.

الثالثة: البدعة لها استعمالان لغويٌّ، وشرعيٌّ.

الرابعة: التمييز بين أكثر البدع والمحدثات من عمل المجتهدين .

الفصل السادس: الأولياء والكرامات:

وهو فصل مهم حيث ارتبطت عند كثير من الناس كلمة الأولياء بالكرامات، واختلفت تصورات الناس عن ذلك وتنوعت، وقامت في أذهان بعض المسلمين تصورات للولاية والأولياء والكرامات غريبة عجيبة، لم تُبن على الأدلة الشرعية المعتمدة، ولم يذكرها رسول الله ﷺ، ولا أحد من أصحابه رضي الله عنهم، ونتجت عن تلك التصورات أنواع من السلوك والعمل غير الموافق للشرع، تُبعد المسلم عن الصراط المستقيم . . .

فبيّن المؤلف في هذا الكتاب هذه القضايا، فعرف الولي والأولياء بتعريف شامل من كتاب الله، وقال عن الأولياء: هم الذين اجتمع فيهم وصفان ذكرهما الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

بعد تعريف الأولياء، تحدث عن ميزان الإيمان والولاية، وتعريف الكرامة والمعجزة، وذكر أنه لا تلازم بين الولاية والأمر الخارق للعادة، وأن أعظم الكرامات الاستقامة على هدي النبي ﷺ، ونحن لا نجزم بولاية إنسانٍ إلا عن طريق الوحي، وأكد بطلان توهم أن بعض الأولياء يتصرفون في الكون، ولا يصح اعتبار المعته أو المجنون من الأولياء.

الفصل السابع: ذكر الله تعالى:

خصّصه للحديث عن ذكر الله تعالى، وضرورة الذكر وفضله
وفضل الاجتماع عليه، ثم تكلم عن شروط الذكر المقبول:

وأول ما تجب مراعاته ما هو شرطٌ للقبول، وهو أمران:

الأول: الإخلاص، فمن المعروف أن الرّياء يُبطل ثواب الأعمال، والأدلة على ذلك كثيرة، ومنها حديثُ الصحيحين: «إنما الأعمال بالّيات، وإنما لكل امرئ ما نوى».

الثاني: أن يكون الذكرُ موافقاً لشرع النبي ﷺ، ومن الأدلة على ذلك حديثُ الصحيحين أيضاً: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ».

فإذا كان الذكر مخالفاً للشرع فلا يكون مقبولاً.

ومن الأمثلة على ذلك ما يقوم به بعض الإخوة من ذكرٍ يريدون به التقربَ إلى الله تعالى، ويكونُ ذكرهم مخالفاً لتوجيهات الشرع، عندما يبتعدون في نطقهم باسم الله تعالى عما يجب لهذا الاسم من النطق الصحيح والتعظيم، فيقولون في ذكرهم: (أه) أو (أه) أو نحو ذلك.

وقد ذكر بعض آداب الذكر، وشروط الذكر المشروع، وحذر من تحريف اسم الله تعالى، الذي يحصل في بعض حلقات الذكر، فجاء بأبيات الإمام الأخصري:

والرقصُ والصّراخ والتصفيقُ عمداً بذكر الله لا يليقُ
وإنما المطلوبُ في الأذكار الذكرُ بالخشوع والوقارِ

ورأى أن هذا التحريف للاسم الكريم سببه اتّخاذ الجُهال
شيوخاً يقتدون بهم، ويرجعون إلى رأيهم، فحذّر من اتّخاذهم شيوخاً
لهم وأكمل الآيات فقال:

واتخذوا مشايخاً جُهالاً لم يعرفوا الحرام والحلالاً
لم يقفوا عند حدود الله وسنة الهادي رسول الله
فنفروهم من دُعاة الدين أولي التقى والعلم واليقين
وأعرضوا عن سبيل الرحمن واتبعوا مسالك الشيطان
وهدموا قواعد الإسلام واعتبروا خرائف الأوهام

ثم تحدّث عن نصيب القلب من الذكر، وأهمية الأذكار الثابتة
في القرآن والسنة، وإبقاء الأذكار المأثورة كما كانت، وضرورة
الذكر لطالب العلم، والجهر بالذكر والدعاء والاجتماع عليه...

ثم وضع خاتمةً كان مما جاء فيها:

بعد كتابة هذه الصفحات أذكر القارئ الكريم بأني لم أكتبها
من باب الدراسة النظرية، بل كتبتها بلهماً مُركباً من توجيهات القرآن
الكريم وسنة النبي الأمين ﷺ، ومن أحوال وتوجيه الصحابة الكرام،
ومن سار على نهجهم من الأئمة الراسخين في العلم من ورث النبي
عليه الصلاة والسلام.

وختمها بقوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا
تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ثم وضع خلاصةً وأفكاراً وفوائد هذا الكتاب، وفهرساً
للمواضيع العامة.

فَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُرِينَا الْحَقَّ حَقًّا وَيُرْزِقَنَا اتِّبَاعَهُ، وَيُرِينَا
الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَيُرْزِقَنَا اجْتِنَابَهُ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مَجِيبٌ.

* * *

• الكتاب: صفحات مضيئة في التصور والسلوك الديني

• المؤلف: إسماعيل المجذوب

• ط ١، ٢٠٠٤م، مطبعة اليمامة، حمص





قراءة في كتاب: (حُرْمَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ)

أهل العلم، بدور هدايةٍ عندما يضلّ الإنسان الطريق، ويحيّد
عن الصواب...

أهل العلم، سُرُجُ نورٍ وضاءٍ، ومصابيحُ هداية، وشموسُ
تقى، ونجومُ إرشادٍ وتوجيه، وهداية الحائرين إلى الصراط
المستقيم...

أهل العلم، ثالث ثلاثة أقسم الله وَعَلَىٰ بِهِمْ عندما قال:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

أهل العلم، أشدُّ الناس خشيةً لله، ومعرفةً بالله، كذلك «إِنَّمَا
يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

وأهل العلم هم الذين رفعهم الله الدرجات العلى، وبوأهم
المنازل الرفيعة، فهو سبحانه القائل: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ
وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

أهل العلم هم الفرقة التي تنفر في سبيل الله، لتعود بعد فترة
إلى قومها، ليفقهوهم في الدين، مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَتْ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

بين أيدينا كتابٌ يشدّ الانتباهَ من العنوان، كتابٌ حساسٌ في موضوعه، وعظيمٌ في محتواه، كتابٌ ما أشدّ حاجتنا إليه في زمنٍ قلّ فيه العلماء، وكثر فيه الأدعياءُ، وكثر فيه الذين يطعنون في العلماء، وأين الثرى من الثريا؟! وما أجمل قولَ الشاعر:

إذا وصف الطائيّ بالبخل مارداً وعير قساً بالفهاة باقلاً
وطاولت الأرضُ السماءَ سفاهةً وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادلُ
فيا موتُ زُرْ إنَّ الحياةَ ذميمةٌ ويا نفسُ جدي إنَّ دهرَكَ هازلُ

وهذا الكتابُ عنوانُه (حرمة أهل العلم) للمؤلف القدير الدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدم، وهو كتابٌ فريدٌ في موضوعه، وستنتقل بين أشجار رياضه وأزهاره، متنسّمين عبقها، ومرتشفين رحيقها...

والكتابُ يتألف من مقدمة، وثلاثة أبواب وخاتمة.

أما المقدمة:

فقد بدأها المؤلفُ بالحديث عن حسن الخلق، والأدبِ مع العلماء، وعدم الإساءة إليهم، ومما قال فيها: «إن المسيء إلى العلماء، والطاعنَ عليهم بغياً وعدواً قد ركب متنَ الشطط، ووقع في أقبح الغلط؛ لأن حرمة العلماء مضاعفةٌ، وحقوقهم متعددةٌ، فلهم كلُّ ما ثبت من حقوق المسلم على أخيه المسلم، ولهم حقوقُ

المسنين والأكابر، ولهم حقوق حملة القرآن، ولهم حقوق العلماء
العاملين . . .

وأما الباب الأول

فيتألف من ستة فصول:

الفصل الأول: ذكر فيه أن من أعظم حقوق المسلم، صيانة
عرضه، ورعاية حرمة، وأن الغيبة من أعظم الذنوب، وعرف الغيبة
بتعريف النبي ﷺ لها بالحديث المشهور الذي أخرجه مسلم
وأصحاب السنن عن أبي هريرة رفعه: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله
ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكرهه. قال: أفرأيت إن كان
في أخي ما أقول؟ قال: إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبتته، وإن
لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

وأما أدلة تحريمها فهي كثيرة، منها الآية الكريمة: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ
عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
أَجْتَنَبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَِعْضُكُم
بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَانْفُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
نَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ [الحجرات: ١١، ١٢].

ومنها حديث النبي ﷺ الذي رواه الإمام أحمد، قال
رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه،
لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم

يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته».

وذكر أحاديث تصوّر بعض المشاهد من عقاب المغتابين يوم القيامة، كقوله عليه الصلاة والسلام: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُسُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ. قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ». رواه الإمام أحمد، ثم تحدث عما تكون به الغيبة، وأثر الغيبة في الطهارة والصوم، وأن مستمع الغيبة والمغتتاب شريكان في الإثم ...

الفصل الثاني: تحدث فيه عن أولوية الاشتغال بعيوب النفس، وأن الإنسان يبصر القذى في عين أخيه، وينسى الجذع في عينه... ولم يعرّج في هذا الفصل على غير هذا الموضوع.

الفصل الثالث: تحدث فيه عن وجوب حفظ اللسان، وعن فضيلة الصمت، ذاكراً حديث النبي ﷺ «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»، وموازناً بين الصمت والكلام، وأتى ببعض النصوص الشريفة، وآثار السلف، في وجوب حفظ اللسان، والكفّ عن أذية الخلق، مؤيداً كلامه بحديث النبي ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَهْوَى بِهَا فِي النَّارِ، أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ».

الفصل الرابع: بدأ بالحديث عن مجاهدة النفس قي ترك الغيبة، وحفظ اللسان، ذاكراً أنّ قلة المخالطة وقاية من الغيبة، متمثلاً بقول الشاعر:

لقاء الناس ليس يُفيد شيئاً سوى الهديانِ من قيلٍ وقالٍ فأقللُ من لقاءِ الناسِ إلا لأخذ العلمِ أو إصلاحِ حالِ

الفصلُ الخامسُ: وهو فيما يجب على من حضر مجلسَ غيبة، وكيف عليه أن يرد عن عرض أخيه المسلم، حيث قال النبي ﷺ: «من ردَّ عن عرض أخيه المسلم، كان حقاً على الله ﷻ أن يردَّ عنه نارَ جهنمَ يوم القيامة» وتكلم عن بعض المنزهين عن الغيبة، فهذا أبو عاصم النبيل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «ما اغتبتُ مسلماً منذ علمت أن الله حرّم الغيبة».

الفصلُ السادسُ: طرح سؤالاً وأجاب عليه، كيف تكون التوبة من الغيبة؟ وتحدث عن استحباب الإبراء من الغيبة، وكيفية التخلص من داء الغيبة، ويكون ذلك بعلاج الأسباب التي تفضي إليها، ومنها:

الحسد، المجاملة، إرادة المغتاب أن يمدح نفسه، المزاح، التنافس في الدنيا، الحزبية والعصبية الجاهلية، ويكون علاجها: بمجاهدة النفس على لزوم الصمت، والفرار من مجالس الغيبة، واستحضار حال المغتاب يوم القيامة، وشكر نعمة اللسان، وكثرة ذكر الموت والقبور... فعن البراء بن عازب قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة، فقال: «علام اجتمع عليه هؤلاء؟» قيل: على قبر يحفرونه. قال: ففزع رسول الله ﷺ فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً حتى انتهى إلى القبر، فجثا عليه قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بل الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا، قال: «أي إخواني: لمثل هذا اليوم فاعدوا»...

الباب الثاني

يتألف من سبعة فصول:

الفصل الأول: تحدث فيه عن أهمية الأدب، وشدة الحاجة إليه، واهتمام السلف الصالح بالأدب، مع ذكر بعض آثارهم بالحث على التأدب، كقول عبد الله بن المبارك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من تهاون بالأدب عُوقب بحرمان السُّنن، ومن تهاون بالسُّنن عُوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عُوقب بحرمان المعرفة، كما ذكر أن السلف كانوا يرجحون الأدب على العلم، وكانوا حريصين على ملازمة الشيوخ والمؤدبين، وختمه بذكر ثلاث فوائد عن الأدب...

الفصل الثاني: تحدّث فيه عن أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعن أدب سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَام مع الخضر، وأدب سيدنا إبراهيم في مخاطبة ربه، وأدب نبينا عليه الصلاة والسلام، ثم انتقل إلى أدب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذاكراً قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَأَنْقُوا لِلَّهِ إِنَّا لِلَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ [الحجرات: ١ - ٤].

وكيف قيل للعباس: أيهما أكبر أنت أم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال: هو أكبر مني، وأنا وُلدت قبله. وكان العباس أسن من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولد

قبل الفيل بثلاث سنين . ، ثم تحدث عن أدب العلماء مع النبي ﷺ فالقاضي عياض يقول: «واعلم أن حرمة النبي ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازمٌ كما كان حال حياته، وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه وسنته، وسماع اسمه وسيرته، ومعاملة آله وعترته، وتعظيم أهل بيته، وصحابته، قال أبو إبراهيم التجيبى: واجبٌ على كل مؤمن متى ذكره أو ذُكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر، ويسكن من حركته، ويأخذ في هيئته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه، ويتأدب بما أَدبنا الله به» .

الفصل الثالث: بدأه بفضل العلماء، والثناء عليهم، وذكر قول شيخ الإسلام ابن تيمية الذي يقول فيه:

وقد كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون يسوسون الناس في دينهم ودنياهم، ثم بعد ذلك تفرقت الأمور، فصار أمراء الحرب يسوسون الناس في أمر الدنيا والدين الظاهر، وشيوخ العلم والدين يسوسون الناس فيما يرجع إليهم فيه من العلم والدين، وهؤلاء أولوا أمرٍ تجب طاعتهم فيما يأمرون به من طاعة الله . . .

وقال في موضع آخر رَحِمَهُ اللهُ: وأولوا الأمر؛ أصحابُ الأمر وذووه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه أهلُ اليد والقدرة، وأهلُ العلم والكلام، فلهذا كان أولوا الأمر صنفين: «العلماء والأمرء، فإذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس» .

وتحدّث عن أدب الأئمة مع شيوخهم، ومع بعضهم البعض،

ومنها أن يحيى بن سعيد، كان يُجالس ربيعة، فإذا غاب ربيعة، حدّثهم يحيى أحسن الحديث. وكان كثير الحديث، فإذا حضر ربيعة، كفّ يحيى إجلالاً لربيعة، وليس ربيعةُ أسنَّ منه، وهو فيما هو فيه، وكان كلُّ واحدٍ منهما مبعجلاً لصاحبه. ثم انتقل إلى الحديث عن النصره والولاء بين العلماء، في ثناء بعضهم على بعض، ودفاع بعضهم عن بعض، وحنينهم لموت الواحد منهم...

الفصل الرابع: الأدب مع العلماء، وبدأه بحديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «ليس من أمتي من لم يُجلَّ كبيرنا، ويرحمَ صغيرنا، ويعرفَ لعالمنا حقَّه»، وذكر جملةً من آداب طالب العلم، منها ما ذكره سيّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «من حق العالم عليك إذا أتيتَه أن تسلّم عليه خاصّة، وعلى القوم عامّة، وتجلسُ قدامه، ولا تُشرُّ بيديك، ولا تغمز بعينيك، ولا تقل: قال فلان خلاف قولك، ولا تأخذ بثوبه، ولا تُلحّ عليه في السؤال؛ فإنه بمنزلة النخلة المرطبة لا يزال يسقط عليك منها شيء».

ولا بدّ من تقدير العالم وهيبته، وتواضع الطالب لشيخه، وأدبه مع شيخه عند مخاطبته، وزجر الطالب الذي حاد عن الأدب...

الفصل الخامس: خصصه للحديث عن آداب السؤال، ومداراة العالم والصبر على جفوته، ومراحل تنبيه العالم على خطئه، وذمّ كثرة السؤال، وبعض الآثار في ذلك، والنهي عن السؤال عما لم يقَع، وبيان ما يُحمد من الأسئلة وما يُذم، والمواضع التي يكره فيها السؤال، وأكّد أن النهي في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا

تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴿ [المائدة: ١٠١] مقيّدٌ بما لا تدعو إليه الحاجةُ، كما حذّر من إبرام الشيخ وإضجاره، ومن الجدل والمراء، وقسم الجدل إلى قسمين: محمودٍ ومذمومٍ، ونهى عن الأغلوطات، ...

الفصل السادس: للحديث عن الأدب مع حامل القرآن الكريم، ولم يخرج فيه عن هذا الموضوع...

الفصل السابع: الأدب مع الأكابر، وذكر عدة أحاديث تدل على ذلك، منها قول رسول الله ﷺ: «يَوْمُ الْقَوْمِ أَقْرُوهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا...» رواه مسلم.

وذكر في هذا المجال أبيات شعرٍ للقاضي عبد الوهاب المذكور وهي:

متى يصل العطاشُ إلى ارتواءٍ إذا استقت البحارُ من الرّكايا
ومن يثني الأصغرَ عن مُرادٍ وقد جلس الأكابرُ في الرّوايا
وإنّ ترقّع الوضّعاء يوماً على الرّفعاء من إحدى الرّزايا
إذا استوت الأسافلُ والأعالي فقد طابت منادمة المنايا

الباب الثالث

ويتألف من خمسة فصول:

الفصل الأول: تحدّث فيه عن حرمة العلماء بين أخلاق السلف، وواقع الخلف، وأتى بصورٍ من عدوان المنسلخين عن

أخلاق السلف، وشكوى العلماء منهم، بدعوى الغيرة على الحق، مع أن الغيرة على الحق لا تسوّغ العدوان على الفضلاء، ووقف وقفة مع أحد المتهورين في ثلب الأئمة، ونماذج من تطاوله على بعض العلماء، وختمها بقوله: إنما نحترّمك ما احترمت الأئمة...

الفصل الثاني: خطر الطعن على العلماء، وشؤم الحطّ من مقدارهم، فالجناية على العلماء خرقٌ في الدين، والوقية فيهم من الكبائر؛ لأن الطاعنين على العلماء يستجلبون لأنفسهم أخبث الأوصاف، وأشأم العواقب، ويُخشى على الطاعن من سوء الخاتمة، كما تحدث عن تصدّر المترسّين بالجهالة، وانتهاك الحرمات، وأتى بقصص واقعية تدل على أنّ من الوقية ما قتل...

الفصل الثالث: تحدّث فيه عن أسباب ظاهرة التطاول على العلماء، وجعلها ثلاثة عشر سبباً وهي:

- ١ - تشيخُ الصحيفة، وافتقاد القدوة.
- ٢ - استعجالُ التصدر قبل تحصيل الحد الأدنى من العلم الشرعي بحجة الدعوة.
- ٣ - التعالم وتصدر الأحداث.
- ٤ - الاغترارُ بكلام العلماء بعضهم في بعض.
- ٥ - الاغترار بمسلك الإمام ابن حزم في شدته على الأئمة.
- ٦ - جهل المنتقدين بأقدار من ينتقدونهم من العلماء.
- ٧ - التأثير بفوضوية الغربيين ونعراتهم.
- ٨ - التعصّب الحزبيّ والبغي، وعقد الولاء على غير الكتاب والسنة.

٩ - التحاسدُ والتنافس على العلو والرياسة.

١٠ - عدم الثبوت في النقل.

١١ - الفراغ.

١٢ - الجحود وعدم الإنصاف.

١٣ - استثمارُ المغرضين لزلات العلماء.

الفصل الرابع: تحدّث فيه عن زلة العالم، والضابط التقريبي لزلة العالم، والتحذير من زلات العلماء، وبيان آثارها، والموقف المذموم من زلة العالم، وضوابط الموقف الصحيح من زلة العالم، وختَمَ بقاعدةٍ عظيمةٍ: كل مجتهدٍ استفرغَ وسعه للوصول إلى الحق استحقَّ الثوابَ وإن أخطأ.

الفصل الخامس: حدّر فيه من القول على الله بغير علم، ومن التعامل، فينبغي لمن يتصدى للإفتاء أن يكون أهلاً لذلك، ومن هو العالم؟؟ وكيف نعرفه؟؟ وحتى لا يتشبه العلماء بغيرهم، كما تحدث عن ضرورة إنصاف شباب الصحوة الإسلامية المعاصرة، وأن أسعد الدعاة والمفكرين والطلاب بالمنهج السويّ أشدّهم التحاماً بالعلم والعلماء...

ثم ختم الكتابَ بخاتمة جميلة مفيدة، ووضع فهرساً لموضوعات الكتاب، وما علينا في الختام إلا أن نذكر حديثَ النبي ﷺ الذي يرويه الإمام مسلم:

«المُفْلِسُ من أُمَّتِي من يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَآكَلَ مَالَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا

من حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنَيْتَ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِي مَا عَلَيْهِ
أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرِحَتْ عَلَيْهِ وَطُرِحَ فِي النَّارِ» فَنَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ،
وَأَنْ يَعْرِفْنَا قَدْرَ أَنْفُسِنَا إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

* * *

- الكتاب: حُرْمَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ
- المؤلف: مُحَمَّدٌ أَحْمَدُ إِسْمَاعِيلُ الْمُقَدِّمُ
- الطَّبْعَةُ السَّادِسَةُ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، دَارُ الْعَقِيدَةِ





قراءة في كتاب: (لَحَظَاتٌ قَبْلَ الْمَوْتِ)

هي اللحظات التي يفارق فيها الحبيب حبيبه، والخليل خليله، ويفارق فيها الولد أمه، والوالد ولده، هي اللحظات التي بعدها تُرْمَلُ الزوجة، وتشكلُ الأم، ويُتِمُّ الولد... .

هي اللحظات التي تُختم بها حياة الإنسان في الحياة الدنيا، إما بخاتمة حسنى، وإما بخاتمة سيئة، والعياذُ بالله... .

هي لحظات الانتقال من الحياة إلى عالم البرزخ والآخرة، فمن مات فقد قامت قيامته... .

هي اللحظات التي يعرق فيها الجبين، ويكثر فيها الأنين، ويعجز عندها الطيب، ويحار اللبيب، ويكثر البكاء والنحيب... .

هي اللحظات التي تعبر عن عمر مديد، والإنسان عندها شقيٌّ أو سعيد... .

هي اللحظات التي ينقطع بها الأمل، ولا يصلح بعدها العمل... . وأمنية الكافر بعدها: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

[المؤمنون: ١٠٠].

هي لحظات طالما انتظرها المؤمن لأنها تقربه إلى الله، وطالما
خاف منها الفاجر لعظيم ما قدمت يداه... .

- منذ الصغر وأنا أحب أن أقرأ عن المحتضرين، وأحوالهم،
وأحوال من حولهم، وأتذكر قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾
وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا
إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧]،
فالقراءة عن المحتضرين تُدَكِّرُ بِالْآخِرَةِ، وتليّن القلب، وتُدَمِّعُ العَيْنَ،
وتشجّد همة المؤمن من جديد... .

... وبقيت على هذه الحالة، أتتبع أخبارهم في هذا الكتاب
وذاك، وكم كانت فرحتي عظيمةً عندما قرأت عنواناً لكتابٍ اسمه
(لحظاتٌ قبل الموت)، وكانت فرحتي أشدَّ عندما علمت أن المؤلف
هو العلامة محمد خير رمضان يوسف؛ لأن له باعاً طويلاً في هذا
المجال، فهو عالم مؤلفٌ بَحَاثَةٌ جَمَاعَةٌ، فقرأت الكتاب في تسع
ساعات، مع أنه (٣٧٨) صفحةً، فالقارئ لا يشعر بالوقت؛ لأنه
يعيش تارةً مع الأحياء، وأخرى مع الأموات!!... .

- بدأ المؤلف كتابه بمقدمة أدبية تسيل من حروفها الدموعُ،
جاء فيها: «وهذه مجموعةٌ من أقوال ومواقف وحكايات من حضرهم
الموت، فنطقوا بما هو عبرة للآخرين، من خير وشر، ومن مهانة
وكِبْر، ومن سلامة إلى مذلة، ومن شوق إلى خوف، بل ومن إيمانٍ
وكفر، حيث يغلب على المحتضر ما كان حاله في الحياة، ويبعث
على ما مات عليه... .

وجاء متنوعاً، يفيد أهل الإيمان، والعلم والأدب، ممن يتشوق إلى لقاء الله الكريم، وقد جاهد وعبد، وقاسى وتعب، ثم سدد وقارب، وأحكم الربط لئلا يغرق. أو ممن يخاف القدوم عليه، وقد فرط وأسرف، وأنساه النعيم قصف الموت، فغرق في اللذات، وتمرغ في الشهوات، وأجل التوبة حتى لم يقدر على النطق بكلمة الإخلاص، أو عمل وهو ينتظر رحمة الله، ويخشى أن تفوته».

وقد ذكر المؤلف أنه بدأ بجمع هذا الكتاب بعد أن انتهى من تحقيق كتاب «المحتضرين» لابن أبي الدنيا، وطبعاً ما يميز هذا الكتاب عن كتاب ابن أبي الدنيا، أن ابن أبي الدنيا من أعلام القرن الثالث الهجري، فقد ذكر أحوال المحتضرين إلى عصره فقط، أما كتابنا الذي نتحدث عنه فإن مؤلفه معاصرٌ - أطال الله في عمره - هذا يعني أنه قد ذكر أحوال المحتضرين، وآخر لحظات حياتهم إلى القرن الخامس الهجري...

- بعد مقدمة الكتاب المحزنة المبكية أتى المؤلفُ بآيات تتحدث عن الاحتضار، منها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، ثم بأحاديث في الاحتضار...

وانتقل إلى الحديث عن المحتضرين، فبدأ بما قبل الإسلام؛ كسيدنا نوح وذي القرنين ولقمان الحكيم وامرئ القيس، وحاتم الطائي، وزهير بن أبي سلمى...

ثم تحدّث عن القرن الأول فالثاني فالثالث... فالخامس عشر.

وسنكتفي بذكر مثالٍ عن كل قرن، وقد اخترتها مختصرةً، وأحياناً أخذ موقف الاحتضار فقط، وأحياناً يكون الموقف حسن خاتمة لصاحبه، وأحياناً يكون سوء خاتمة والعياذ بالله، هذا مع ذكر رقم الصفحة، والعنوان الذي وضعه المؤلف:

ما قبل الإسلام: حائرٌ.. لم يطمئن قلبه بالإيمان

قيل لرجل من الماضين: كيف وجدت الأمر؟

قال: دخلت الدنيا جاهلاً، وعشت متحيراً، وخرجت منها كارهاً. (ص ١٢).

القرن الأول: لا تبكوا عليّ.

أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، أرضعته حليلة السعدية.. لما حضرته الوفاة قال لأهله: لا تبكوا علي، فإني لم أتطق بخطيئة منذ أسلمت. (ص ٣٨).

القرن الثاني: الحسنُ البصريُّ.

أغمي عليه عند موته، ثم أفاق فقال: لقد نبهتموني من جناتٍ وعيون ومقام كريم! (ص ٨٣).

القرن الثالث: المنتصرُ بالله.

الخليفة المنتصر العباسي، لما حضرته الوفاة أنشد:

وما فرحت نفسي بدنيا أخذتها ولكن إلى الربِّ الكريم أصير
(ص ١٤٦).

القرن الرابع: حارسٌ أمينٌ.

قيل للكناني لما حضرته الوفاة: ما كان عملك؟

فقال: لو لم يقترب أجلي ما خبرتكم به! وقفت على باب قلبي أربعين سنة، فكلما مرّ فيه غيرُ الله حجبتُه عنه. (ص ١٨٧).

القرن الخامس: جبلان من نار.

احتضر رجلٌ، فإذا هو يقول: جبلين من نار، جبلين من نار! فسئل أهله عن عمله، فقالوا: كان له مكيالان، يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر! (ص ٢٠٥).

القرن السادس: العماد المقدسي.

حكى عنه أنه لما جاءه الموت جعل يقول: يا حيُّ يا قيوم لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث. واستقبل القبلة وتشهّد. (ص ٢٢٥).

القرن السابع: الإمام النووي.

روي أن الإمام النووي رحمته الله أنشد أبياتاً عند الوفاة، منها هذان البيتان، وزيد ما بعدهما:

تباشر قلبي في قدومي عليهم وبالسير روعي يوم تسري إليهم
وفي رحلتي يصفو مقامي وحبذا مقامٌ به حطّ الرحال لديهم
ولا زاد لي إلا يقيني بأنهم لهم كرمٌ يُغني الوفودَ عنهم
(ص ٢٣٤).

القرن الثامن: شحاذون وتجار.

قال ابن القيم رحمته الله:

أخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته، فجعل يقول: لله
فليس والله فليس. حتى قضى... وكذلك تاجر يقول: هذه القطعة
رخيصة... (ص ١٤٢ - ١٤٣).

القرن التاسع: عبد الرحيم البرعي.

قال رَحِمَهُ اللهُ عندما مَرِضَ مَرَضَ الموت وهو في طريقه إلى
الحج:

يا راحلين إلى منى بقيادي هيجتم يوم الرحيل فؤادي
والقصيدة خمسة عشر بيتاً (ص ١٤٨ - ١٤٩).

القرن العاشر: نفسه رهينة.

عالم مالكي... اسمه زين بن أحمد الجيزي. كان يلح في
الدعاء أن يختم عمره بحجة، فتوفي منصرفه من الحج والزيارة سنة
(٩٧٧هـ)، وكان ينشد بعد هذه الحجة كثيراً:

أصبحت نفسي رهينة بين مكة والمدينة
(ص ١٦١ - ١٦٢).

القرن الحادي عشر: يُحب ربّه.

شيخ صالح من دمشق اسمه علي بن عمر العقبي... سُمع
يقول وهو في سكرات الموت: يا سيدي يا حبيبي يا ربي: والله إنك
لتعلم أنني أحبك. ثم مات عشية ذلك اليوم. (ص ١٦٢).

القرن الثاني عشر: شهد الله.

الشيخ أحمد بن عبد اللطيف التونسي، بدأ في قراءة ﴿شَهَدَ

اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿آل عمران: ١٨﴾ إلى آخر الآية، ثم سلّم الروحَ إلى بارئها. (ص ١٦٨).

القرن الثالث عشر: عالمٌ مسمومٌ.

عالم من مدينة صبياء بالسعودية... وضع له من كان يظنه صديقاً سُمّاً في مشروب قدمه له، فقال مُورياً:

سألتُ الناس هل سمى طبيبي لعلتي التي أضنته ممّا وما النوع الذي أضنى عظامي وقد وهنت، فقال الناسُ: سُمّاً. (ص ٢٧١).

القرن الرابع عشر: مستشرقٌ.

المستشرق الألماني أروين جراف متخصصٌ في الفقه الإسلامي... ألقى محاضرةً في جامعة توبنجن بعنوان: «تصورات الموت في إطار الأنثروبولوجيا الإسلامية» وعلى إثرها توفي. (ص ١٩٦).

القرن الخامس عشر: أنورُ الجندي.

مفكر وكاتبٌ وداعية إسلامي كبيرٌ... مرض مرضاً شديداً قبيل وفاته، وكان آخرَ ما قاله: «يا رسول الله أنا أنورُ الجندي قادم إليك من الصعيد»!. وبشهادة طبيبه الخاص: مات وهو يصلي مضطجعاً على شقّه الأيمن. (ص ٣٣٠).

هذا وقد ختم المؤلفُ كتابه بفهرس للأعلام المحتَضرين، ثم بفهرس للموضوعات.

وختاماً: أسأل الله العليّ القدير أن يُحسن ختامنا جميعاً، وأن
نلقاه وهو عنا راضٍ، إنه سميع قريب مجيب.

* * *

- الكتاب: لحظات قبل الموت
- المؤلف: محمد خير رمضان يوسف
- دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط(١) ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م





قراءة في كتاب: (الإسلام الحِصْنُ الأَمِينُ من أَمْرَاضِ العَصْرِ)

كثرت الأمراض في زماننا، وانتشرت انتشار النار في الهشيم، وفي كل يوم يطالعنا اسمٌ جديد من الأوبئة والأمراض التي ما سمعنا بها في آبائنا الأولين، ولم تكن معلومةً لديهم، وفعلاً كما قال النبي ﷺ: «لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضُوا»...

وها نحن اليوم نرى مرض أنفلونزا الخنازير، الذي ينتشر انتشاراً سريعاً، فنسأل الله السلامة...

وكثيرٌ من الكُتَّاب من كتب عن هذه الأمراض والأوبئة، وكثيرةٌ هي الندوات والمحاضرات، والبرامج الإذاعية والمرئية، التي تُخصِّص وقتاً كبيراً للوقاية من هذه الأمراض...

وبين يدينا كتابٌ قيِّم، فريدٌ في نوعه، فريدٌ في مؤلفه، أما النوع فلأنه يحدِّثنا عن كثيرٍ من الأمراض المعاصرة، ذاكراً أسبابها، وشارحاً أعراضها، وسبب الوقاية منها، وذلك بأسلوبٍ علمي بسيط مشرقٍ جميلٍ...

وأما المؤلف فلأنه عالمٌ جليل، وطبيبٌ فاضلٌ حاذقٌ، ومن هنا يأخذ الكتاب أهميةً أخرى بالتوسع في دراسة الأمراض من الناحية الطبية، بالإضافة إلى الناحية الشرعية، (الإسلام الحصن الأمين من أمراض العصر)، كتابُ ألفه الدكتور منير غندور، وصدره بثلاث آياتٍ من كتاب الله ﷻ، وهي قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

وقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوْنَهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الفصص: ٥٠].

وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

ثم قسّم الكتاب إلى سبعة أبواب، وتناول فيها مواضيعَ في غاية الأهمية، وهي كالتالي:

البابُ الأولُ

أتى فيه بمقدمة وتمهيد، وكلمةٍ عامةٍ عن مهلكات الأمم، وكان مما قال في المقدمة:

(لقد ابتليت مجتمعاتُ القرن العشرين بأوبئةِ الحضارة الحديثة... هذه الأوبئةُ عامةٌ شاملةٌ تكاد تعمُّ الأرضَ بأطرافها،

والأمام بأسرها، تزيد في بيئة، وتخف في أخرى، وتنشط في قطر، وتقل في آخر، حسب هوية ذلك القطر، وحسب اعتقادات سكانه، وحالهم الخلقية والاجتماعية، والمادية، وحسب عاداتهم وتقاليدهم الموروثة على ما فيها من خيرٍ وشرٍّ.

ثم تحدث عن الربا، وعن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ [البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦].

ثم تكلم عن خلافة الإنسان لله في الأرض، وأن الله وهب الإنسان من الطاقات الخيرة الكثير، ثم تكلم عن الإنسان بين فتنة الاستنساخ وفطرة الإنسانية، وقال بأن معطيات العلوم الحالية للإنسان، بشتى صورها وفوائدها، وما قد ينجم من أضرارها وخبائثها إنما هي فتنة، ولا بد أن يكون العلم في أيدي أمينة مؤمنة من العلماء من بني الإنسان ليكون الخير في أيديهم، وإلا فستكون فتنة العلم أضر على أهله، وعلى الإنسانية من كل ضرر سابق...

وتكلم عن عناية الإسلام بصحة الفرد والمجتمع، فهدف الدين صحة في إيمان ويقين، وعن يسر الوقاية الصحية في الإسلام، وعدم الإفراط والتفريط، وسؤال الله العافية في الدنيا والآخرة...

الباب الثاني

أتى فيه بكلمة موجزة عن أمراض العصر أو مهلكات الأمم، ثم تحدث عن الطرق غير المباشرة للوقاية من هذه الأمراض، والتي حثنا الإسلام عليها، ورجبنا فيها؛ كالطهارة، والغسل، ونظافة البدن، والختان، مؤيداً كلامه بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦].

وحديث النبي ﷺ الذي رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قَالَ: «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ - أَوْ خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ - الْخِتَانُ وَالِاسْتِحْدَادُ وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ وَنَتْفُ الْإِبْطِ وَقَصُّ الشَّارِبِ».

ثم تحدث عن نظافة السبيلين، ونظافة اليدين، والفم والسواك، ونظافة الأنف، ونظافة الشعر...

ثم تكلم عن الصلاة والوضوء لها، وأنها تذهب الأدران، وذكر حديث النبي ﷺ الذي يقول فيه: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟». قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ.

قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا».

رواه مسلم.

وتكلم عن الصوم ومزاياه وفوائده، وعن الشره والسرف ونتائجهما، وذكر أن من أسباب الوقاية من أمراض العصر أيضاً:

اعتزال النساء مدة الحيض، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وتجنب زواج الأقارب، وخاصةً في حال وجود أمراض وراثية، وذلك للحد منها، والوقاية من نتائجها، وقسم الأمراض الوراثية الأسرية إلى زمر، وتحدث عن كل زمرة...

ثم تحدث عن النوم المبكر والاستيقاظ المبكر، وأذكار النوم، ولم ينس الحديث عن الرياضة البدنية، وما لها من فوائد جمّة.....

الباب الثالث

تحدث فيه عن الخبائث، ومخاطرها ونتائجها وطرق الوقاية منها، والعفة والمروءة في الإسلام، وتكلم عن الكبت والإباحية عند عدو الإنسانية (فرويد)، وضرورة تجنّب الاختلاط، والتوجيه القويم...

الباب الرابع

تحدث فيه عن الأمراض الجنسية، بادئاً حديثه بالأمراض الزهريّة؛ كالداء الإفرنجي الزهري، وأدواره الثلاثة: دور القرحة، ودور الانتشار والشمول، ودور تفاقم المرض، وتحدث عن السيّلان البني، وعن اللواط وأضراره الفاحشة، وأن نسبة الانحراف

الأخلاقي في المجتمعات الغربية، قد وصلت إلى أكثر من ٨٠٪...
ثم تكلم عن طاعون العصر، الإيدز (فقد المناعة المكتسبة
أو العوز المناعي البشري)، فعرف المرض، وأنه اكتشف عام
(١٩٨٥م)، وذكر صفاته ومراحله، والعدوى، فهو ينتقل عن طريق
الاتصال الجنسي بين أفراد الجنس الواحد، أو الجنسين؛ أي: بالزنا
واللواط، وهو النمط الرئيس للانتقال، ويشكل (٩٠ - ٩٥٪)
من حالات العدوى، فهو مرض ينتقل جنسياً بسبب الفاحشة، وقد
ينتقل عن طريق الدم الملوث وذلك بنسبة (٥٪) من مجموع
الحالات...

ثم تحدّث عن طُرق مكافحة هذا المرض، وقوله تعالى: ﴿وَلَا
تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

ثم ذكر بعض الإحصائيات عن إصابات الإيدز في العالم،
وهي فعلاً أرقام مخيفة، وذكر أيضاً بعض الإحصائيات عن الولادات
غير الشرعية في العالم الغربي، وحديث النبي ﷺ: «لَمْ تَطْهَرِ
الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّىٰ يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ
الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَّتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا» ابن ماجه

الباب الخامس

تحدّث فيه عن المخدرات، وعن مراحل الاعتیاد عليها، وذكر
أن النبي ﷺ نهى عن كل مُسكرٍ ومُفترٍ، وأتى بالأدلة على تحريم
المخدرات، كقوله تعالى: ﴿وَيُحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]
وقول النبي ﷺ: «لا ضررَ ولا ضرارَ»...

ثم تكلم عن المُسكرات، أو الخمر أو الأشربة الغولية، وعن مراحل تحريم الخمر بالتدرج إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩١) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

وذكر حديث رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ إِنَّ عَلَى اللَّهِ وَجِيلًا عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ». قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وما طِينَةُ الْخَبَالِ قَالَ: «عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ أَوْ عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ». رواه مسلم.

وأكد أنه لا توجد بيرةٌ بدون كحول، فالبيرة المسماة بدون كحول تحوي: ٢ - ٣٪ من الكحول، ونبينا ﷺ يقول: «مَا أَسْكَرَ الْفَرْقُ مِنْهُ فَمِلْءُ الْكَفِّ مِنْهُ حَرَامٌ» الترمذي.

ثم تكلم عن أضرار المسكرات، والأشربة الغولية في البدن، وأن الله تعالى لم يجعل شفاءنا فيما حرم علينا، وتكلم عن عواقب الإدمان على المسكرات، ومكافحة الإدمان على المسكرات والوقاية منها، وأتى بإحصائيات مذهلة عن الأمم التي ستهزمها المسكرات والمخدرات...

الباب السادس

تكلم فيه عن التَّبَع والتدخين، فعرفَّ التَّبَع، والمواد الضارة في التبغ، وأن ١٠/١ غ من النيكوتين يكفي لقتل كلب، وثمانِي قطرات منه تُحَقِّن تحت جلد الحصان تقتله بعد أربع دقائق، ثم تكلم عن

التسمم الحادّ بالتبغ، وأعراض التسمم الحاد، وأضرار عادة التدخين، فله مضارٌّ في جهاز التنفس حيث يُنقص الوظائف التنفسية، ويعطّل وسائل الدفاع في الطرق التنفسية، ويؤدّي إلى انتفاخ الرئة، وسرطان المجاري التنفسية، وأكّد أن التصفية بما يسمى الفلتر لا تمنع حدوث السرطان... .

ثم ذكر مضارّه على جهاز الدوران، ومضارّه على جهاز الهضم، ومضاره في الجملة العصبية والحواس، وفي جهازَي التناسل والبول... .

ولم ينسَ الحديث عن المدخن السلبيّ، فإن الجلوسَ لأربع ساعات في غرفة مغلقة وفيها مدخنون يعادل تدخين عشرٍ لفافاتٍ يومياً!!

وذكر أن بعض الناس يلجأ إلى سُعوط التبغ؛ أي: وضعه في المنخر، والبعض يمضغه، وذكر أحكام التدخين وفق قواعد الشريعة الإسلامية، وأن الحكم الحقيقيّ هو التحريمُ بناءً على المعطيات التي ذكرها... .

وختم هذا البابَ بالحديث عن سُبُل الإقلاع عن التدخين... . وبياناتٍ وأرقام عن عدد الوفيات في العالم، حيث يموت كل [١٣] ثانيةً شخصٌ مدخن... .

فحريٌّ بالإنسان العاقل بعد وضوح الآثار الضارة للتبغ والدخان ألا يقع أسيراً لعادة التدخين غير الحميدة التي تذهب المال إسرافاً، وتجلب كثيراً من الشرور إلى البدن... .

الباب السابع

خصّصه للحديث عن الهجرة والإقامة والتجنّس، وقال:

إن الواقع الذي نحياه، والذي أُشير إليه وأكتب عنه في هذا الفصل، هو أمرٌ واقعي جُرّب خلال خمسين عاماً، فكانت نتائجه ما كانت عليه من إهلاكٍ للأمة، وإفناءٍ لإمكاناتها البشرية، وضياعٍ لحقوق أبنائها، وصورٍ مختلفة قاتمة، من المآسي العائلية، والفرقة والخلاف، بل الجريمة، مما لا يمكن إنكاره، ولا التغاضي عن نتائجه . . .

وقد بيّن لنا الواقع الذي عشناه خلال نصف قرن، أن أكثر من ٩٥٪ من الزواج من الكتابيات كان فاشلاً، نعم هناك زيجاتٌ قليلةٌ لا تتجاوز ٢ - ٣٪ كانت غيرَ فاشلة، ولكنها لم تكن سعيدةً، ولا ناجحة تماماً، ولم تكن في سعادتها وبناء الأسرة فيها، كمن يتزوج من أهل بلده ودينه، بل فيها من المنغصّات الشيء الكثير . . .

ثم تحدّث عن الإقامة والتجنّس في بلاد الكفر؛ لأن المسلم قد ينجرّ بسبب الإقامة المستمرة إلى محرّمات فكرية واعتقادية، وإلى محرّمات سلوكية، ثم أتى بنماذج وأمثلة واقعية عن الذين أقاموا في تلك البلاد، وعن الذين تزوّجوا من الكتابيات . . .

ثم أنهى كتابه بخاتمةٍ لطيفةٍ، حثّ فيها على اتّباع النهج الإلهيِّ السليم، الذي أكرم الله به البشرية جمعاء، والذي هو الحصن الأمين من كافة المهالك . . .

ووضع فهرساً لموضوعات الكتاب .
فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين كلَّ خير .

* * *

- الكتاب: الإسلام الحصن الأمين من أمراض العصر
- المؤلف: د. منير غندور
- ط. ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، دار الفارابي، دمشق





قراءة في كتاب

(فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية في الهند والباكستان)

محمد إقبال فيلسوفٌ من فلاسفة الإسلام، وشاعرٌ من شعراء الحكمة، وعالمٌ من علماء الإسلام، ومجاهدٌ في سبيل رفع راية لا إله إلا الله، خفاقةٌ في أصقاع البوذيين والهندوس، وعُباد الأصنام...

محمد إقبال في شعره حيوية المعاني، ورقة الألفاظ، وبراعة الأداء، هو قلبٌ خافقٌ، ونفسٌ حرةٌ تأبى الظلم والضيم، وروحٌ عامرةٌ ومطمئنة باليقين...

«تكون نجوى روح لروح، وهمس قلب لقلب، وفهم نفسٍ لنفس، إذا ما شمل النفسين شعورٌ، وغمر القلبين نورٌ، وجمع الروحين هدفٌ، واتحد مثلٌ».

وبذاك يتحدث الإفريقي الدار، العربيُّ اللسان، عن «إقبال» الآسيويِّ الموطن، الأورديِّ اللغة، ولو لم يهتف «إقبال» بالعربية، أو يتحرك لساني بالفارسية أو الأوردية... إذ تناجى بالإسلام روحان، وتهامس بالإيمان القلبان، وتآلف على الحق النفسان... وتمت كلمة ربك... ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا

مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾
[الأنفال: ٦٣].

بهذه الكلمات، بمناجاة الروح، قدّم الأستاذ الكبير: أمين الخولي لكتاب: «فلسفة إقبال، والثقافة الإسلامية في الهند والباكستان»، الذي ألفه كلٌّ من الأستاذ: محمد حسن الأعظمي، عميد كلية اللغة العربية بكراتشي، والأستاذ: الصاوي علي شعلان الحاصل على دبلوم اللغات الشرقية من جامعة فؤاد الأول... وهذا الكتاب في الحقيقة يتألف من ثلاثة كتب، الكتاب الأول: «في فلسفة إقبال» والكتاب الثاني: «في المتفرقات»، والكتاب الثالث: «في الثقافة الإسلامية في الهند والباكستان»، وسنقوم بدراسة يسيرة لهذه الكتب الثلاثة:

الكتاب الأول

(في فلسفة إقبال)

بدأه المؤلفان بسبع صفحاتٍ عن حياة الشاعر محمد إقبال، بعنوان: (إقبال شاعر الباكستان)، نوجزها فيما يلي:

كان مولد الدكتور محمد إقبال سنة (١٨٧٦م)، من أسرة برهمنية الأصل، اعتنقت الإسلام منذ ثلاثة قرون، وهاجرت من كشمير أمام الحوادث إلى البنجاب، حيث استقرت بها آمنة مطمئنة، وبدت عليه مخايل النبوغ منذ الصغر، فكان يتفوق على لِداته، ويفوز بالجوائز العلمية... وأكمل دراسته بالكلية بلاهور، ثم وقّع عليه الاختيارٌ لتدريس الفلسفة في الكلية نفسها... وفي سنة

(١٩٠٥م) سافر إلى كمبردج، ثم إلى ميونخ، ونال درجة الدكتوراه في الفلسفة، وألقى في أوروبا عدة محاضراتٍ مظهرًا فيها مزايا الإسلام، وكذلك في إنكلترا، ثم عاد إلى الهند سنة (١٩٠هـ)، ووقف بيانه وتفكيره وشعوره لإعلاء كلمة الإسلام، ثم امتهن المحاماة في لاهور، ثم والى بعد ذلك رحلاته إلى مختلف بلدان المشرق والمغرب...

... كان إقبال يُنشد الشعر بالأردية والفارسية، وجمع ديواناً سمّاه (بانك درا) أي: «صلصلة الجرس» وله عدة كتبٍ منها: أسرار خودي ورموز بي خودي «أسرار الذاتية ورموزُ الذاتية»، وهي بالفارسية، ومن كتبه أيضاً بالأردية، وقد وافته المنية وهو ينظم كتابه «أرمغان حجاز» ونصفه بالفارسية، والنصف الآخر بالأردية، وقد طبع هذا الكتاب بعد وفاته.

ثم تحدّث المؤلفان عن موته - وقد أحرنا الحديث عن تاريخ وفاته لآخر هذه الدراسة -، وذكرنا نصّ الخطبة التي ألقاها العلامة محمد إقبال في الحفلة السنوية للرابطة الإسلامية، بمدينة الله آباد بالهند، سنة: (١٩٣٠م)، وقدم فيها فكرة الدعوة إلى قيام باكستان، وكانت خطبةً طويلةً تحدّث فيها عن الإسلام والقومية، وضرورة اتحاد الهند القومية، وكان مما قال: «قد لا يكون بالإمكان أن نجمع شعوبَ البشرية لنهض بها طفرةً إلى حياةٍ واحدةٍ، ولكن، في الإمكان أن نجمع الأسرة الإسلامية على صراطٍ مستقيم...» وتحدّث عن ضرورة قيام هندٍ إسلامية «باكستان»، وعن دستور الهند،

مؤكداً على ضرورة وحدة المسلمين؛ لأن اختلافهم دماراً لأمتهم...
ثم تحدث المؤلفان عن إقبال والبرّ بالفقراء، وقوله: «ليس
طريقي طريقَ المستكبرين بل طريق الفقراء»، وبدأ ينشد للمسلمين
الحرية الاقتصادية ليفك أسراهم من سلاسل يهود الهند...

ثم انتقلا إلى الحديث عن العشق والجمال، من كتاب روح
إقبال، وعن خلود الحياة في فلسفته، ويصف ذلك المسلم الذي
ينطلق كالسهم النافذ إلى العدو، فيقول:

ذلك المؤمنُ المجاهدُ يغشى غمرة الحربِ والردي يغشاهُ
تحت ظلّ السيوفِ ماضٍ قويٌّ درعه لا إله إلا الله
ثم تحدّث عن الظواهر الكونية بلغةٍ ساحرةٍ، وأنها تعطينا درساً
بليغاً، فليس الموتُ إلا غروباً لشمس الروح، ثم تسطع بعد ذلك في
صبح الخلود الذي لا فناء بعده:

يزعمُ الجاهلون أنّ المنايا مغربٌ فيه للحياة انقضاء
أفلم ينظروا إلى الشمس يبدو نورها بعدما طواها المساء
تغرب النفسُ ثم يشرق صبحٌ فيه للنفس بالخلود ارتقاء
ثم ذكر أنّ قيمة الوقت ليست بقصرها وطولها، ولكن قيمتها
في أعمالها ولذتها في جهادها:

بنور الجهاد الحيّ سار محمدٌ بجيشٍ على راياته الفوزُ إكليلٌ
يكبر جندُ الله حولَ ركابه فيهتف بالبشرى وبالنصر جبريلٌ
ثم تحدّث المؤلفان عن قصيدتين تُعدّان في طليعة ما نظم إقبالٌ
في اللغة الأردية، حاول بهما أن يستحثّ همم المسلمين إلى طلب

الرفعة، واستخلاصِ تراثِ الماضي من بين براثن الدهر، والعودةِ بالركب الإسلامي إلى قافلة الحياة الدائبة في سيرها صوب الكمال... وهاتان القصيدتان هما: (شكوى) و(جوابُ الشكوى)، وهما في غاية الروعة.

مطلع الأولى:

شكوايَ أم نجوايَ في هذا الدُّجى ونجومٌ ليلى حُسّدي أم عُوّدي
أمسيت في الماضي أعيش كأنما قطعَ الزمانُ طريقَ أمسي عن غدي
وفي منتصفها يقول:

مَنْ غيرُنا هدم التماثيلَ التي كانت تُقدّسُها جهالاتُ الوري؟
حتى هوت صورُ المعابدِ سُجّداً لجلالِ من خلق الوجودَ وصوِّرا
ومطلعُ الثانية:

كلامُ الرّوح للأرواح يسري وتدرّكه القلوبُ بلا عناءٍ
هتفتُ به فطار بلا جناحٍ وشقَّ أنينه صدرُ الفضاءِ
وفي ختامها يخاطب النبيَّ محمداً ﷺ قائلاً:

نداؤك في العناصر مستجابٌ إذا دوى بصوتٍ من بلالٍ
وعقلك في الخطوب أجلُّ درعٍ وعشقك خيرٌ سيفٍ للنضالِ

ثم ذكر المؤلفان عدةً قصائدَ له، منها: فاطمةُ الزهراء، وصوتُ إقبال إلى الأمة العربية، وفقهُ الصالحين، وتصويرُ الألم وتجديد الأمل، وعزيمةُ المسلم، والنشيدُ الإسلامي، ونشيدُ الأخوة الإسلامية، وفي الحقيقة كُلُّها قصائدُ في غاية الروعة والبيان، والسلاسة والعدوبة...

الكتابُ الثاني

(في المتفرقات)

بدأه المؤلفان بأمثلةٍ من شعر إقبال، والتي اختارها الدكتورُ عبد الوهاب بك عزام، وهذه الأمثلة تتألف من أربعة عشر مثلاً، وهي على الترتيب:

الحياة، اليراعة، الحقيقة، الحكمة والشعر، الوحدة، نسيم الصباح، العشق، نغمة حادي الحجاز، جمعية الأقوام، نيتشة، جلال الدين الرومي وهيجل، نهر الكنج وهملايا، قصة الطائر الذي أنهكه العطش، في الكلام على الوقت...

ثم نقرأ عنوان (في حفلة الذكرى)، وهي كلمةٌ لصاحب السعادة محمد علي علوبة باشا سفير مصر في باكستان، تحدث فيها عن لقائه مع إقبال، وروعة هذا اللقاء...

وبعد ذلك (شعرُ إقبال)، وهي أيضاً كلمةٌ للأستاذ سيد عبد الواحد مدير الغابات في باكستان، تحدث فيها عن إقبال شاعراً إسلامياً، يتخذ من الشعر وسيلةً لهدي الناس إلى السبيل السوي، ويدلّهم إلى طريق الصواب، فالشعرُ إذا لم يُثر في الناس الشعورَ بالصواب والحق لا يؤدي الغرض المتوخى منه...

ثم نقرأ: (محمد إقبال شاعر الإسلام، ولمعةٌ من تاريخ اللغة الأوردية)، وهي محاضرةٌ ألقاها الأستاذ الأعظمي، ونُشرت في عدد جمادى الأولى سنة (١٣٥٨هـ) بمجلة الأزهر، تحدث فيها عن دخول الإسلام إلى الهند، وكيف تأثرت اللغة الأردية باللغة العربية، وعن أوجه المقاربة بين الأشعار الأردية والعربية، وذكر أن من أهم

أسباب انتشار الشعر في الهند هو المشاعرة؛ أي: المطارحة الشعرية، ثم تحدث عن صورة إجمالية لألمعية إقبال، في قصيدته المميزة (طلوع الإسلام).

ونرى أيضاً قصيدة عصماء لصاحب السعادة السيد عبد الحميد الخطيب، سفير المملكة العربية السعودية في باكستان، نظمها بعد مطالعته لكتاب: (الحياة والموت في فلسفة إقبال)، منها:

أنعم بفلسفة إقبال مصدرها تُبدي الحقيقة في أجلى معانيها
عن الحياة وعن موتٍ به انهلعتُ كلُّ القلوب وحدت من أمانيتها
وجاء إقبال يدعوها لمعرفة تُزيل عنها الأسى حقاً وتهديها
وختم هذا الكتاب بقصيدة أيضاً لمحمد باشا الشريفى، تحدث فيها عن إقبال وفلسفته.

الكتاب الثالث

(في الثقافة الإسلامية في الهند والباكستان)

أول عنوانٍ نطالعُه في هذا الكتاب: (أحسنُ السَّير)، وهو موضوعٌ للعلامة الكبير والمؤرخ الشهير، شبلي نعماني، ويتحدث فيه عن مقتطفات من حياة سيدنا محمد ﷺ، بأسلوبٍ أدبيٍّ مشوقٍ جميلٍ . . . ثم نطالع مقالاً بقلم العالم الهنديِّ المحقق السيد سليمان الندويِّ، يتحدث فيه عن السيدة عائشة أم المؤمنين ﷺ، عن ولادتها وطفولتها، وعن زواجها وزفافها ﷺ، وكذلك بأسلوبٍ في غاية الروعة والبيان . . . ثم يجيب السيد سليمان الندويُّ رئيسُ ندوة العلماء في الهند عن سؤالٍ حول حكمة التكرار في آيات القرآن الكريم، مدعماً إجابته

بالشواهد المناسبة من الشعر العربي القديم، وبأقوال علماء البلاغة والعربية، وتحدث بعد ذلك العالم الندوي عن مقام المرأة في الإسلام، أمّاً وزوجةً وأختاً ومجاهدةً وشاعرةً...

وختم هذا الكتاب بقصيدة عامرة عنوانها: (المؤاخاة في الإسلام) كتبها العالم الكبير: «دل محمد»، عميد الكلية الإسلامية سابقاً بلاهور، منها:

غرسُ الأخوة أصلُهُ من يثربِ هي جنَّةُ المأوى وغارُسُها النَّبي
إن ضلَّت الدنيا أعاد صوابها نورُ المدينة لا شعاعُ الكوكبِ
بعث النبيُّ بها الجماعةَ موكباً فإذا الملائكُ في صفوف الموكبِ
وسقى الأخوةَ كوثرًا من نوره فالظامئُ الحيرانُ من لم يشربِ

وبذلك يكون قد انتهى الكتابُ الثالث، وانتهى الحديث عن كتابنا: «فلسفة إقبال، والثقافة الإسلامية في الهند والباكستان».

أما إقبال فقد انتقل إلى رحمة الله، في اليوم الحادي والعشرين من إبريل سنة (١٩٨٣م)، الساعة الخامسة صباحاً، في مدينة لاهور، واحتشدت عشرات الألوف تودّعه بالبكاء والزفرات، ثم غربت شمسُ إقبال في جدتها، وأدرجت الحكمةُ والشعرُ والحرية تحت أطباق الشرى... فرحمه الله، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.



- الكتاب: فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية في الهند والباكستان
- المؤلف: محمد حسن الأعظمي، الصاوي علي شعلان
- ط: ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه



قراءة في كتاب: (سفينة الفرج فيما هبَّ ودبَّ ودرج)

سنتحدث اليوم عن سفينة، ولكنها ليست كباقي السفن، فلا هي ذات ألواحٍ ودُسُرٍ، وليست من الجوار المنشآت كالبحر في الأعلام...

وهي سفينةٌ - على الرِّغم من عظمها - تستطيع حملها أينما يَمَّمْت، وفي أي مكان كنت، فهي سفينةُ الصحراء والخضراء، والبرِّ والبحر بل والفضاء...

إنها سفينة تمخر عباب الزمن لتحمل لنا من حنياه وأسراره موعظةً وحكمةً وشعراً ونثراً، وأدباً رفيعاً، وقولاً بديعاً، بالإضافة إلى ما فيها من الطرائف والفكاهة، ومواقف للعلماء والحكماء تدل على الفطنة والنباهة...

هي سفينة تفرِّج الهموم، وتداوي المكلوم، بما تحمله من روائع العلوم.

... هذه السفينة هي كتاب: (سفينة الفرج فيما هبَّ ودبَّ ودرج)، الذي صنّفه الشيخ الأديب: محمد سعيد بن قاسم القاسميّ الدمشقي المتوفى سنة: (١٣١٧هـ)، وحقَّق هذا الكتاب، وكان ربَّاناً

هذه السفينة الحاذق، ومرشدها المُلهم، صاحبُ التصانيف،
والمؤلفات، وعالي العزائم والهمم، العلامةُ محمدُ خير رمضان
يوسف، حفظه الله.

وسأحاول - باختصار - أن أبين بعض مزايا هذا الكتاب،
فأقول وبالله التوفيق:

- المؤلف: هو الشيخُ الأديب: محمد سعيد بن قاسم
القاسمي الدمشقي، وُلِدَ في أوائل شهر المحرم من سنة (١٢٥٩هـ)
بدمشق، وتُوفِّيَ في صباح يوم الجمعة: ١٣ شوال سنة (١٣١٧هـ)،
وأحيلك - أيها القارئُ الكريم - إلى الصفحة (١١، ١٢) لتطلع على
المزيد.

- الأصول المعتمدةُ في التحقيق: اعتمد المحقق على النسختين
المخطوطتين منه في مكتبة آل القاسمي بدمشق، أولاهما بخط
المؤلف، والثانية بخط محمد ابن الشيخ عبد القادر المجذوب.

وللأمانة: فقد أجاد المحققُ وأفاد، وهذَّب وشدَّب، واعتنى به
عنايةً فائقة، حتى خرج إلينا في أجمل حُلَّة، وأبهى ثوب، وها هو
يقول في مقدمته في الصفحة (١٧): «وقد هذبتُ الكتاب كما قدمت،
وعلقت على بعض ما يلزم، وركزت على تخريج أحاديثه، وبيان
حكمها، وشرحت ألفاظه الغريبة، وترجمت لبعض أعلامه، وشكَّلت
أواخرَ الكلمات، ورقَّمت فقراته كلَّها، ووضعت لمجموعاتٍ منها
عناوينَ جانبيةً، وعملت له فيها فهرسَ مفيدةً، بينها فهرسٌ بأهم
موضوعاته، بما يعطي مفهوماً للعناية به وتنقيحه، والحمد لله الذي

أعاني على هذا»، وقد وَفَى المحقق بما قال، ورأيتُ ذلك عندما قرأت الكتاب.

- ومقدمة المحقق - جزاه الله خيراً - قد اشتملت على عدة أمور مهمة، وهي:

عرّف العنوان، ومصطلح (سفينة) وذكر سُفناً (كتباً) أخرى بهذا الاسم، ونقل كلامَ الشيخ جمال الدين القاسميّ ابن المؤلف عن الكتاب، وتحدّث المحقق عن منهجه وعمله بالكتاب، وما يُؤخذ على الكتاب، وترجم للمؤلف، وذكر الأصول المعتمدة في التحقيق، مع صور المخطوط، (ص ١٨- ٢١).

والكتاب يتألف من ثلاثة أجزاء في مجلد واحد:

- الجزء الأول: من الصفحة (٢٥) إلى الصفحة (٢٠٣)، احتوى على فوائد وحكايات وأشعار، ولم يخلُ من الغرائب والطرائف، كما في الصفحات (٤٧ - ٥٢)، ثم تحدّث عن اتّباع القرآن والسُنّة، من كلام الصحابة والتابعين، والأئمة الأربعة، وبعض أئمة التصوف الأعلام، ثم تحدّث عن الهوى العفيف، والمحبة الصادقة، وذكر عظام بليغةً وحكماً جليلة، ثم تحدّث عن الشكر والإنعام، والولاء والحُكام، يُوشّي كل ذلك بأشعار احتوت على حكم راقية، كما ذكر في هذا الجزء شيئاً من فقه الجنائيات، وبعض الأحاديث، وتطرّق إلى الجغرافية، ولم ينسَ حكام الشام من سلاطين آل عثمان ووزرائهم، وذكر وقائع تاريخية مهمة، وأرّخها، وختم الجزء الأول بباقةٍ من الأشعار التي يفوح شذاها، ويضوع أريجها.

- أما الجزء الثاني: فقد بدأه المصنف بوقفات للذكرى، ثم ببعض الخرافات، كما كانوا يفعلون عند خسوف القمر، وأتبعها بفوائدٍ وعبرٍ، وحوادثٍ تاريخيةٍ عظيمةٍ خطيرةٍ؛ كحادثة حريق المسجد الأموي، واحتوى على حكم وأشعار جمّة، تُقال في بعض المواقف، وتحدث عن القضاء والقدر، والزواج والعبر، وقد ذكر بعض القصص الوعظية الجدية منها والهزلية بطريقة شعرية، كما في قصة (حال المؤصليّ مع زوجته) (ص ٣٠٢)، أو القصة التي جرت بين أبي تمام وابن المعدّل، (ص ٣١٠). وتحدث - أحياناً - عن انتحار العشاق.

وفي هذا الجزء قصيدةٌ جميلةٌ عن فصل الشتاء، (ص ٣٤٠ - ٣٤٥)، وأتبعها بقصيدة هزلية، كما أن هنالك قصائد في النقد الاجتماعي كقصيدة: كُبراء مفاليس، (ص ٣٥٠)، وختم هذا الجزء أيضاً بأشعار في مناسبات مختلفة، وتحدث عن أشياء نفيسة مليئة بالحكم، فعلى القارئ الكريم أن يتضلع من زمزم مائها، وقُراح شرابها.

- في الجزء الثالث: - وهو أوسع الأجزاء - يبدأ القاسميّ الدمشقي بكلام عن معرفة الله - جلّ وعلا - ثم بوقائع جرت لأبي حنيفة رضي الله عنه، ويذكر بعد ذلك بعض الأحاديث والفكاهات والبداهة، (ص ٣٧٦ - ٣٨١)، وعجائب، وعبراً من التاريخ، وهو مكتظٌ بمنثور الحكم والمناظرات، والفوائد والأخبار العلمية، والمقطعات الشعرية النادرة، والوصف العجيب؛ كقصيدة (ابن الأعمى) في وصف بيتٍ قديم يوشك على السقوط، (ص ٥٠٠ - ٥٠٢)، ولم يخلُ أيضاً

من قصص بعض الأنبياء، والفوائد الدينية، واللغوية، والأسئلة العويصة وإجاباتها، (ص ٥١٧ - ٥٢٠)، والفوائد الطبية والوصايا والأمثال وبعض ما قيل في الصحبة والصدقة، وشرح بعض الأحاديث القدسية، وفي آخره مطوّلاتٌ جميلةٌ، ومن أجمل ما قرأت منظومةً لإبراهيم الأندلسي عن العلم والأدب وأخلاق العلماء، (ص ٦١٩ - ٦٢٥).

- بعد ذلك وضع المحقق الفهارس العامة وهي في غاية الدقة، وذكر مراجع التحقيق، وفهرس الموضوعات ثم الفهرس الإجمالي.
هذا والمحقق - حفظه الله - قد ألّف وحقّق ما يربو على مائة وأربعين كتاباً، ومحا عنها غبار الزمن، واستخرجها من بحر العلوم اللّجّي، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.
- إلى هنا وترسو سفينة قلمي، وهي لم تزل بعدُ على الشاطئ، وآمل أن يقرأ الكتاب كلُّ مثقّفٍ لبيب، وأديبٍ وخطيبٍ، فهو تاجٌ تُزيّنُ به المكتباتُ، ويبقى سميرك مدى الحياة، وعلماً نافعاً مفيداً بعد الممات.

- طبع الكتاب في شركة البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.





قراءة في كتاب: (دفاعٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه)

أبو هريرة رضي الله عنه ... قس من أنوار الإسلام...
أبو هريرة رضي الله عنه ... نورٌ يضيء القلوب...
واحدٌ من قادة الإسلام الرواد الذين ساهموا في إرساء قواعد
دولة الإسلام الأولى...
ورمزٌ ومثالٌ لمعلمي الأمة الذين وجَّهوا نهضتها الفكرية،
وشرحوا لها قرآنها، ووصفوا لها سيرة نبيها صلى الله عليه وسلم...
وحددت مروياته جزئيات العقيدة، ورسمت صورة التفكير
الملتزم بالتوجيهات الربانية، وحفظت الأخلاق، وأججت روح
الجهاد...
ومن أجل ذلك ركز عليه الأعداء الهجوم...
ومن أجل ذلك يكرهه أصحاب الأهواء والشهوات...
ومن أجل ذلك يحبه كل مؤمن غيورٍ على الإسلام، ومصالح
أمة الإسلام^(١).

(١) انظر: ص ٤٥٩ من الكتاب.

وحاول البعض الطعنَ في روايات أبي هريرة لكثرتها، فكانت
محاولاتهم:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعلُ
... جميعنا يعلم أن القرآن الكريم محفوظٌ في الصدور
والسطور، وقد تكفلَ اللهُ ﷻ بحفظه. فلم يستطع أعداءُ الإسلام
أن يُدخلوا فيه حرفاً أو ينقصوه، وباءت كلُّ محاولاتِهم بالفشل،
(ولكنَّ اليهود وأعوانهم وأتباعهم لم يلقوا السلاح، ولم ينصرفوا
عن حربهم للإسلام، فسلكوا مسلكاً آخرَ يقوم على التشكيك في
رواة السُّنة النبوية، ولا سيما المكثرين منهم، وإثارة الشبهات
حولهم، والطعن في أمانتهم وصدقهم بحجة النقد العلمي، والبحث
الموضوعي، والرأي الحر... وكان نصيبُ الصحابي الجليل،
راوية الإسلام، وحبیبِ المؤمنين، أبي هريرة رضي الله عنه، من هذا الكيد
الجديد الشيء الكثير؛ لأنه رضي الله عنه من أكثر الصحابة روايةً للحديث،
نظراً لأنه كان من أكثر الصحابة ملازمةً لمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم،
فسمع ما لم يسمع غيره، إضافة إلى مسموعاته من غيره
من الصحابة، فصار عنده الشيء الكثير، يرويه للناس ويعلمهم
إياه^(١).

واستطاع اليهودُ والمستشرقون أن ينشروا سمومهم في عقول
أذئابهم من العرب، فأخذوا بالطعن في أبي هريرة أكثر
من المستشرقين أنفسهم، وذلك كما فعل الشيخُ محمودُ أبو رية في

(١) انظر: ص ٧ - ٨ من الكتاب.

كتاب ألفه وسمّاه: (أضواءً على السنّة المحمدية) وهو في حقيقته ظلامٌ دامسٌ، وضلالٌ مبینٌ . . .

وانبرى كثيرٌ من المسلمين والعلماء الأجلاء الغيورين على الدين للدفاع عن أبي هريرة رضي الله عنه مفنّدين الشبهات، ومبطلين تلك الدعاوى بالأدلة والبراهين، والكلام العلمي الدقيق، منهم: الدكتور محمد أبو شهبه رحمته الله في كتابه: (دفاعٌ عن السنّة)، والدكتور مصطفى السباعي رحمته الله في كتابه: (السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي)، والدكتور محمد أبو زهو في كتابه: (الحديث والمحدثون)، والأستاذ محمد عجاج الخطيب في كتابه: (أبو هريرة راوية الإسلام) وغيرهم الكثير من العلماء أمثال: الدكتور محمد السماحي، والشيخ المحقق عبد الرحمن العلمي اليماني رحمته الله مدير مكتبة الحرم المكي، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة رحمته الله مدير دار الحديث بمكة المكرمة . . .

ثم جاء بعدهم الأستاذ عبد المنعم صالح العلي العزّي، الذي ألف كتاباً جامعاً شاملاً سمّاه (دفاعٌ عن أبي هريرة)، فاستحقّ التقدّم في هذا المضمار؛ لأنه انتهج لنفسه نهجاً جديداً في العمل، حيث بدأ بجمع النقول، ثم نسّقها، وقارنها بعمل أولئك العلماء، فأضاف ما غفلوا عنه، واستعان بما أنشأوه من التعليقات، وجرّد جرداً - كما قال - معظم كتب الحديث، وكتب الرجال، وكتب الرجال الشيعية صفحة صفحةً، وراجع فصولاً دون أخرى في كتب كثيرة متنوعة في الحديث وأصوله، والتاريخ، والفقه . . . فحوى الكتاب جميع ما يهم موضوعَ أبي هريرة رضي الله عنه، وتمكن من وضع حقائق، واكتشافات

جديدة، أمام أنظار محبِّي أبي هريرة لم يوردها غيره من العلماء...
بعد المقدمة قسّم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من (ص ١٧) إلى (ص ١٧٠):

تحدّث فيه عن اسمه في الجاهلية والإسلام، ونسبته إلى دوس، وسبب كنيته الغريبة التي منها ما أخرجه الترمذي عنه قال: «كنتُ أرعى غنم أهلي، فكانت لي هريرة صغيرة، فكنت أضعها بالليل في الشجرة، فإذا كان النهارُ ذهبت بها معي فلعبت بها، فكنّوني بأبي هريرة»، وكان رسول الله ﷺ يدعوه أبا هرّ، ويدعوه الناس أبا هريرة... ثم تحدّث عن صفته وإسلامه وهجرته ومدة صحبته وهي أربع سنين وزيادة

وذكر بعد ذلك تتابع الفضل على أبي هريرة ومن هذا الفضل:

نيلُهُ فضلَ الصحبة المطلقة، ونيله شرفَ دعوة النبي ﷺ لدوسٍ بالهداية، ونيلُهُ شرفَ اليمن وأهلها آنذاك، ونيلُهُ شرفَ دعوة وتوثيق النبي ﷺ له، ولحوق شرف الفقر، وسكنى صفة المسجد به، وحبه النبي ﷺ وملازمته له، وجوعه وجهاده، وشهوّه غزوة خيبر وقتال وادي القرى، وعمرة القضاء، وذات الرقاع وإجلاء بعض يهود المدينة، والفتح الأكبر وحنين والطائف، وتبوك ومؤتة، واشترائه في قمع المرتدين، وشهوّه اليرموك، وغزوات أرمينية وجهات جرجان...

ثم تحدّث عن تحلّيه بأخلاق المؤمنين؛ كعنايته بالقرآن الكريم وحفظه له، وكثرة تعبّده وأمره بالمعروف، وبرّه بأمه، وتواضعه

العلمي وعدم اغتراره، وتثبته في الفتوى، وأهليته لها، وكرمه وعتقه العبيد، وإحسانه لمواليه، وكفالاته الأيتام، وتربيته الصالحة لأولاده ودعابته . . .

ثم تحدث عن أبي هريرة الحافظ الثقة، وتوثيق النبي ﷺ له بالحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة أنه قال: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ».

وغيره من الأحاديث، وتوثيق الصحابة له؛ كطلحة وأبي بن كعب وابن عمر وحذيفة بن اليمان، واعتماد أبي بكر له، وقبول عمر لشهادته، والصنيع العملي من الصحابة الدال على توثيق أبي هريرة، ومجالسته لابن عباس، وقبول ابن عباس معارضته واتباعه له، وغيره الكثير . . .

وذكر أن أهل المدينة قبلوا جميعاً تصدراً أبي هريرة للفتوى ثلاثاً وعشرين سنة، وتوثيق التابعين والذين بعدهم، وفنّد الأقوال التي تُنسب إلى الخلفاء الراشدين في تكذيب أبي هريرة، وأظهر بطلانها . . .

ثم انتقل إلى الحديث عن أبي هريرة بعد وفاة النبي ﷺ حيث كان مع العلاء بن الحضرمي في زمن أبي بكر ﷺ، ومع قدامة بن

مظعون في زمن سيدنا عمرَ وولاه الفاروقُ أميراً على البحرين بعد هذا التدرّج . . .

وذكر موقفه الصائب في محنة عثمان رضي الله عنه، وحياده أثناء فتنة القتال بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، ثم عن علاقته بمروان بن الحكم والأمويين . . . وعن زواجه وأولاده وأقاربه ومواليه . . .

وختم المؤلف هذا القسمَ بوداع أبي هريرة للدينا، واختلاف العلماء في سنة وفاته ما بين سبع وخمسين وتسع وخمسين .

القسم الثاني: من (ص ١٧١) إلى (ص ٢٦٠):

بدأه المؤلف بحب أبي هريرة لعلي وفاطمة، وللحسن والحسين رضي الله عنهما وبالأحاديث التي يرويها في حبّ الحسن والحسين معاً، ثم تحدث عن رواية أبناء سيدنا علي رضي الله عنه وفرسانه وأصحابه ومواليه وجماهير الشيعة الأوائل عن أبي هريرة رضي الله عنه، وذلك كرواية الإمام زين العابدين والباقر والصادق وابن الحنفية ومدير شرطة أمير المؤمنين وعظيم خواصّه وكاتبه وأمين سره، والشيعة من أتباع التابعين وتابعيهم أيضاً، وذكر منهم سليمان بن مهران الأعمش الشيعي، ومنصور بن المعتمر وابن فضيل وأبا أحمد الزبيري، وكيف أن الشيعة وثّقوا صهرَ أبي هريرة، وأشهرَ تلامذته سعيد بن المسيّب . . .

وذكر أن الحسن والحسين رضي الله عنهما أمسكا عن جرحه، وكذلك أبناءهم والعقيليين الذين يعفّ لسانهم، والجعفرين والعباسيين، وسكوت أصحاب علي من الصحابة عن جرح أبي هريرة . . .

وتحدّث بعد ذلك عن الاستدراكات التي بيّن أنها من باب السؤال والاستفسار.

وعن استدراكات ضعاف الإيمان على بعض الأحاديث الصحيحة، كحديث الذباب، ونفي العدوى، وتحتاج الجنة والنار، وحديث خلق آدم على صورته . . .

أما القسم الثالث: فهو من (ص ٢٦٧) إلى (ص ٤٤٩):

وقد خصصه المؤلف للحديث عن رواية الثقات عن أبي هريرة رضي الله عنه، فذكر قائمةً موحدةً بأسماء الذين رووا عن أبي هريرة، وأرقام الذين أخرج البخاري رواياتهم عن أبي هريرة في صحيحه، وأرقام الذين زادهم مسلم والنسائي وأبو داود والترمذي وابن ماجه والإمام أحمد، ومن زاد إسحاق بن راهويه على الكتب السبعة، وزيادات أخرى، ورسم خوارط أسانيد البخاري ومسلم إلى أبي هريرة بإحكام وإتقان، ووضع قائمةً بأسماء الرواة الواردة في الخوارط . . . ثم تحدّث عن الوضع على أبي هريرة، ومسند أبي هريرة كما يرويه البخاري.

والخاتمة بدأها المؤلف بأبي هريرة في شعر المؤمنين، حيث ذكر عدة قصائد في مدح أبي هريرة رضي الله عنه، منها قصيدة لوليد الأعظمي عنوانها: (سيدي أبا هريرة) مطلعها:

حباك النبيّ بالطفاه وعشت سعيداً بقرب النبي،
وقصيدة لمحمود دلي آل جعفر عنوانها: (إلى صحابي)،
ومطلّعها:

من أجل بعث هدى الإسلام معتكفٌ ومن عذوبة ذاك النبع مغترفٌ
وقصيدةٌ للأستاذ عبد الجليل رشيد عنوانها: (أبو هريرة تاريخٌ
ومفخرةٌ) مطلعها:

أشدو بذكرك شدو الطير في السحرِ وأقبسُ الهدى من تاريخك العطرِ
وغيرها من القصائد الرائعة.

ثم ذكر قائمةً بأسماء المصادر والمراجع.

فجزى الله المؤلف كلَّ خيرٍ لدفاعه عن سنة النبي ﷺ، وعن
صحابيٍّ من خيرة أصحابه ﷺ أجمعين، وجعل ما كتب في ميزان
حسناته يوم العرض عليه. إنه سميع قريب.

* * *

- الكتاب: دفاعٌ عن أبي هريرة
- المؤلف: عبد المنعم صالح العلي العزي
- ط. (٢) عام ١٩٨١م، دار القلم، بيروت - لبنان





قراءة في كتاب: (اصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ)

ما أجملَ أن تُدخلَ الحبور والسعادة على قلوب البائسين
والمحرومين، والأراملِ واليتامى!!، وتمسحَ بيدِ حانيةٍ دموعهم،
وتضمّدَ جراحهم، وما أجملَ أن تزرعَ البسمة على شفاه المحتاجين!
وتصنعَ في الدنيا معروفاً وإحساناً يخلدُ ذكركَ بين الكرماء المحسنين
في الدنيا، ويجازيك الله بالإحسان إحساناً في الآخرة، فهل جزاءُ
الإحسان إلا الإحسان؟؟

وكلنا نحفظ قول الشاعر:

من يفعلِ الخير لا يعدمَ جوازيه لا يذهب العرفُ بين الله والناس
ونعلم جميعاً أنّ مجردَ نية المعروف والهَمّ به يثاب عليها
صاحبها:

لأشكرنك معروفاً هممتَ به فإن همك بالمعروف معروف
ولا أذمّ - وإن لم يُمضه قدرٌ - والشيءُ بالقدر المحتوم مصروف

بين يدينا اليوم كتابُ اسمه (اصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ) وهو من الكتب
القيّمة لابن أبي الدنيا رحمه الله تعالى، وقد كانت هذه اللؤلؤة
الثمينة، والدرّة النفيسة، في خضمّ الزمن والنسيان، مغمورةً

مطموسة، فاستخرجها المحققُ الجهبذ العلامة محمد خير رمضان يوسف، وصانها وحماها وصقلها، فخرجت لنا درّةً موشاةً بالياقوت والزبرجد، بعد أن كُسيت حُلّةً من التحقيق العلمي الدقيق، فما أبهاها من درة!!

- المؤلف: هو الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا، واعظٌ حكيم، ومحدثٌ صدوقٌ، وأخباريٌّ مؤدّبٌ، توفي في بغدادَ عاصمةَ الخلافة العباسية سنة (٢٨١هـ)، بعد أن عمّر أكثر من سبعين عاماً، وكتابه هذا فيه الجديد من الأخبار والآثار، وفيه رواياتُ الأحاديث تتفاوت بين الصحة والضعف.

الأصل المعتمد في التحقيق:

قال المحقق: «والمخطوط المعتمد تحقيقُهُ نسخةٌ وحيدةٌ لا أعرف لها ثانية، وهي من منتقيات مكتبة (لا له لي) بتركيا ضمن مجموع برقم: (٥/١٣٦٦٤) حصلت على مصوّرتها من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة» كما تحدث عن ناسخها وعن مقابلتها فقال: «وناسخها أحمدُ بنُ عبد الله بن أبي الغنائم (ت ٦٦٦هـ) كتبها عام (٦٣٩هـ). وهي نسخة مقابلة مصحّحةٌ، عليها سماعاتٌ وإجازاتٌ».

وهذه الصورة - كما ذكر المحقق - مشوّهة قد نال الطمسُ أوراقاً عديدة منها، وأنت الرطوبة على جوانب من المخطوطة كلها، لذلك نراه أحياناً يذكر رقم الحديث فقط ثم يضع نقاطاً بعد الرقم كما في (ص ٣٢)، وأحياناً يضع نقاطاً في بداية الباب، ويذكر

المقدار المطموس في الهامش كما في (ص ٤٧)، وأحياناً يذكر عدم وضوح الورقة في المخطوط، ويدون ذلك في حاشية الكتاب، وخاصة عندما يكون المطموس اسماً لأحد الرواة في سند الحديث أو الأثر كما في (ص ٣٢). كما لم ينس المحقق أن يزود الكتاب ببعض الصور لأوراق المخطوط ص (١١ - ١٤٩).

وهذا الكتاب أعمّ من كتاب (قضاء الحوائج) للمؤلف نفسه؛ لأن كتاب قضاء الحوائج يُعد فرعاً من كتاب اصطناع المعروف.

ولقد بلغ التحقيق - على ما رأيت - ضعفي حجم الكتاب، مع اعتماد المحقق على أكثر من (١٦٩) مرجعاً للتحقيق، وهي من أمهات الكتب فأحيلك إلى الصفحات (١٩٦ - ٢٠٤) لتقرأ أسماء هذه المراجع ومؤلفيها ومحققيها مع تاريخ الطبعة ودار النشر ففي التعرّف على هذه المراجع خيرٌ كثير، وزادٌ وفير.

لقد كان عملُ المحقق في الكتاب يقوم على شرح لبعض الكلمات الغريبة، وتعليق بعض التعليقات الفريدة والثرينة، لكنّ اهتمامه الأكبر كان في الأحاديث، فالكتاب معظمه أحاديث وأثار وأخبار، ومن عمله بها كما قال: الضبط والتحقيق والتوثيق والتخريج وبيان درجة الأحاديث من خلال أقوال علماء الحديث واستنتاج الأحكام منها، مع عمل الفهارس العلمية لها.

- والكتاب يتألف من جزأين:

أ - الجزء الأول يتألف من أربعة أبواب معنوية، والمحقق هو الذي وضع عنوان الباب الأول كما ذكر في المقدمة (ص ٥).

والجزء الثاني يتألف من ثلاثة أبواب، وسأتحدث باختصار شديد عن أبواب هذا الكتاب فأقول:

الباب الأول: عنوانه: (فضل اصطناع المعروف) وفيه ٢٥ حديثاً: تحث على اصطناع المعروف، وتحدث عن فضل ذلك، فاصطناع المعروف من الصدقات العظيمة، والله وَعَبَّكَ يغفر لصانعي المعروف، وبدأه المؤلف بالحديث التالي: قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة، والمعروف يقي سبعين نوعاً من البلاء، ويبقي مائة سوء، والمعروف والمنكر خُلُقَانِ منصوبان للناس يوم القيامة، فالمعروف لازم لأهله، يقودهم ويسوقهم إلى الجنة، والمنكر لازم لأهله يقودهم ويسوقهم إلى النار».

وهذا الباب من (ص ١٨) إلى (ص ٣٦).

الباب الثاني: عنوانه: (الضحك) وفيه (١٨) حديثاً: كلها تدل على فضل طلاقة الوجه والتبسم، وتذكر أن النبي ﷺ كان أكثر الناس تبسماً (ص ٣٩)، وهذا الباب من (ص ٣٧) إلى (ص ٤٦).

الباب الثالث: عنوانه: (اصطناع المعروف إلى من هو أهله) واحتوى على (٣١) حديثاً: تدل على أن اصطناع المعروف يجب أن يكون إلى إنسان عارف ومقدّر لقيمة هذا المعروف، لا إلى إنسانٍ أحمق أو فاحشٍ أو لئيم، وتحدث عن سبب ذلك (ص ٥٢).

وفي هذا الباب أشعارٌ جميلة تتحدث عن اصطناع المعروف إلى أهله، وعن صنعة الخير، (ص ٤٨ - ٥٦)، ومنها أسوق لك هذه الأبيات:

إن الصنعة لا تكون صنعةً حتى يصاب بها طريقُ المصنع
فإذا صنعت صنعةً فاعمد بها لله أو لذوي القرابة أو دَع
ومنها :

ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المكارم يُنسبُ
فاصبر لعادتك التي عودتنا أو لا، فأرشدنا إلى من نذهب
وكم في قوله : «أو لا فأرشدنا إلى من نذهب» من وقع جميل
لطيف محبب، والله درّ البيتين ما أروعهما في الاستعطاف
والاستلطاف!!

وهذا الباب يقع من (ص ٤٧) إلى (ص ٦٤).

الباب الرابع: عنوانه: (في الحوائج)، احتوى على ١٤
حديثاً؛ معظمها ضعيفٌ أو ضعيف جداً، وتتقوى الأحاديث الضعيفة
ببعضها البعض كما هو معلوم عند علماء مصطلح الحديث الشريف.
وصدّر المؤلف هذا الباب بحديث عظيم يحث على التعاون
وتقديم الخير والمعروف إلى كل إنسان، حيث روي عن النبي ﷺ
أنه قال: «الخلق كلُّهم عيالُ الله، فأحبَّهم إلى الله تعالى أنفعُهم
لعياله» (ص ٦٥).

وهذا الباب يقع من (ص ٦٥) إلى (ص ٧٣).

ثم يتابع المؤلف هذا الباب من بداية الجزء الثاني إلى (ص ٩١).

ب - الجزء الثاني:

الباب الأول: عنوانه: (طلبُ الحوائج عند حسان الوجوه)،
واحتوى على ١٩ حديثاً؛ تدلُّ على طلب الحوائج عند حسان

الوجوه، فهم في الأغلب من الكرام، وصانعي المعروف، وذكرت فيه أشعارٌ تعبّر عن ذلك (ص ٩٦، ٩٧) على سبيل المثال، وهذا الباب من (ص ٩٢) إلى (ص ١٠٤).

الباب الثاني: عنوانه: (في شكر الصنعة)، وفيه ٢٧ حديثاً؛
بدأها المؤلف بحديث: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح، واحتوى البابُ على أشعار حسنةٍ تحت على حسن الصنعة وشكرها، منها:

لو كنتُ أعرف فوق الشكر منزلةً أعلى من الشكر عند الله في الثمنِ
إذا منحتُكها مني مهذبةً حذوي على حذوما أوليت من حسن

وهذا الباب من (ص ك ١٠٥) إلى (ص ١٢٢).

الباب الثالث: عنوانه: (من أنظر معسراً)، يحتوي على ٢٦
حديثاً؛ تدلّ على فضل إنظار المعسر، وتنفيس الكرب عن المكروب، وبدأه المؤلف بحديث صحيح يذكر فيه فضل ذلك، والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من ستر على مسلم عورةً ستره الله وَعَجَّلَ في الدنيا والآخرة، ومن يسر على مسلم يسر الله وَعَجَّلَ عليه في الدنيا والآخرة، والله تعالى في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومن نَفَسَ عن مسلم كرباً نفس الله وَعَجَّلَ عنه كرباً من كُرب يوم القيامة، ومن أقال مسلماً أقال الله وَعَجَّلَ عشرته يوم القيامة».

وإليك أيضاً هذا الحديث حيث يكافئ المعروفُ صاحبه يوم

القيامة:

قال رسول الله ﷺ: «إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة، وإن الله ليبعث أهل المعروف يوم القيامة في صورة الرجل المسافر، فيأتي صاحبه إذا انشق عنه قبره فيمسح عن وجهه التراب ويقول: أبشر يا وليَّ الله بأمان الله وكرامته، ولا يهولنك ما ترى من أهوال يوم القيامة، فلا يزال يقول له: احذر هذا، واتقِ هذا فيسكن بذلك روعه، حتى يجاوز به الصراط، فإذا جاوز الصراط عدل وليُّ الله إلى منزله في الجنة، ثم ينثني عنه المعروف، فيتعلق به فيقول: يا عبد الله من أنت؟؟ خذلني الخلائق في أهوال يوم القيامة غيرك، فمن أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، فيقول: أنا المعروف الذي عملته في الدنيا بعثني الله خلقاً ليجازيك به في يوم القيامة».

وفي الباب أيضاً أشعارٌ جميلة بهذا الصدد، منها: حدثنا عبد الله قال: حدثنا الحسين بن عبد الرحمن قال: دخل زياد الأعجم على عبد الله بن عامر بن كريز فأنشده:

أخ لك لا تراه الدهر إلا على العِلات بساماً جوادا
أخ لك ما مودته بمذق إذا ما عاد فقر أخيه عادا
سألناه الجزيل فما تلگا فأعطى فوق مُنيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عُدنا فأحسن ثم عدت له فعادا
مراراً لا أعود إليه إلا تبسم ضاحكاً وثنى الوسادا

وهو من (ص ١٢٣) إلى (ص ١٤٢).

بعد هذه الأبواب وضع المحقق ملحقاً (ص ١٤٣)، ثم وضع
الفهارس العامة وهي على الترتيب:

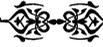
فهرسُ الآيات القرآنية، الأماكن، الأحاديث الشريفة (فهرس
أطراف الحديث ويشتمل على المتن والهامش)، فهرسُ الأخبار
والآثار، الشعر والأعلام، المراجع، الموضوعات.

وواجبنا بدورنا أن نشكرَ المؤلف والعلامة المحققَ على هذا
المعروف حيث وضعنا بين أيدينا كتاباً من أهم الكتب التي تحث على
الأخلاق الحسنة الفاضلة، وعلى رأسها اصطناعُ المعروف، وإغائهُ
الملهوف، وشكرُنَا يأتي تطبيقاً للحديث المذكورِ في الكتاب: «من لم
يشكر الناسَ لم يشكر الله»، فجزاهما الله عنا كلَّ خير، إنه سميع
قريب.

* * *

- الكتاب: اصطناع المعروف
- المؤلف: ابن أبي الدنيا
- المحقق: محمد خير رمضان يوسف
- الناشر: دار ابن حزم ت، بيروت، ط. ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م





أصحابُ الآراءِ الشَّاذَّةِ، من أين أتونا بها؟!

بين الفينة والأخرى يخرج إلينا إنسانٌ جديد يدَّعي أنه مفكّر - وليته لم يفكر - وأنه أتى برأيٍ بعد جهدٍ ولأبي وإرهاقٍ وهجرٍ للكبرى... أتى برأيٍ يُبهر الألباب، ويُنير العقول، ويفتح آفاقاً فكريةً علميةً جديدةً للبشرية جمعاء!

أتى برأيٍ سبق العالمَ كلّه إليه، ولم يقل به أحدٌ قبله من العالمين، ولسان حاله يقول:

إن الكونَ كان يعيش في ظلام الجهل والضلال، وتغشاه أمواجٌ لُجِّيَّةٌ من الجمود والكسل والخمول، فأتيتكم برأيٍ جديدٍ سيحوّل - حسب اعتقاده - ظلام الكون الدامس إلى شمسٍ من النور الفكريّ، وسوف يُشكل نهضة ثقافية فكرية ما عهدت لها البشرية من مثيل!

ومن هؤلاء الشاذين الفكريين من يكون مغموراً لا يعرفه أحد، ولكنه في الوقت نفسه يحب الشهرة والظهور، ولا أحدٌ يساعده على تحقيق مبتغاه، فيحدّث نفسه مرة أخرى قائلاً:

لم لا أنقّب في بطون الكتب، وأفتش في أعماق الزمان، وأقرأ سيرَ المشاهير؟... لعلّي بعد ذلك البحثِ والتنقيب سأجد رأياً

شاذاً خالف فيه أحدُهم - ولو سهواً أو خطأً - آراء السواد الأعظم من العلماء، والذي ساروا عليه لقرون وقرون، ولم يردّ أحدٌ عليهم، ولم يعترض أحدٌ على أفكارهم وآرائهم، بل تلقّتها الأمة كلّها بالقبول والاحترام...، ليس لي سبيل إلى الشهرة إلا إذا خالفتُ آراهم، ونقدتها وفندتها، وكما قالوا في المثل: (خالِفْ تُعْرِفْ)...

وفي الحقيقة - أيها القارئ المنصف - إن المتصفح للتاريخ ورجاله وعلمائه، يرى أن القلة القليلة هي التي خالفت في بعض الآراء، ولكن، كما قلنا هذا يكون في النادر القليل...

ولكن الذي يُمعِنُ النظر في العصر الحديث، وينظر بعين قلبه الحيّ النابض بالحقيقة، فإنه سوف يرى ولادة أناس يدعون العلم والمعرفة، والحجّة والإقناع، وهم في الميزان العلمي بعيدون كل البعد عن أبسط قواعد العلم الصحيح، والمنهج المعتمد، والرأي السديد، وُلد في العصر الحديث أناسٌ ساعدتهم أموالهم، وتعصّبهم وجهلهم على طرح العديد من الآراء الشاذة في القنوات والكتب والصحف وعقول البُسطاء... تراهم يُكفّرون الناس لمجرد ارتكاب ذنبٍ صغير، وكأنهم أغلقوا باب التوبة الذي فتحه الله لنا على مصراعيه، وكأنهم خلّاتُف - في شذوذ أفكارهم وضلالهم - للخوارج والمعتزلة، ومن سار على نهجهم، واتّبع سننهم... تراهم يظنون أن علماء الأمة الإسلامية كلّهم على ضلال، وهذه الفئة الصغيرة المُحدّثة التي ليس لها جذر ضارب في التاريخ هم العلماء، وعنهم حصراً يُؤخذ العلم الحق، والتوحيد الحق، والعبادة الحق، وعن سواهم يُؤخذ الكفر والفسوق، والبهتان والعصيان...

أصحاب الآراء الشاذة، يتوارثونها جيلاً بعد جيلٍ، بتقليدٍ أعمى مقيتٍ، وكأنَّ أحدهم إمعةٌ... حصرُوا العلمَ كلَّه في خمسة إلى ستة علماء وأئمة، وما عدا هذا النفرَ من العلماء فهم علماء سَوءٍ، وغارقون في الجهل، يكفرون ولا يشعرون!، فيا عجباً من هذا البهتان العظيم، والافتراء والزيف المُبين!!

... أسمع إلى رأي أحدهم فأغوص في يَمِّ الدهر باحثاً عمَّن أخذَ هذا العالمُ المحدث قوله البديع!، أو ما دليله على رأيه الشاذ الذي يتفوّه به؟، والدليل مطلوبٌ - كما يعلم القارئُ الكريم - على حسب القاعدة العلمية المشهورة (إن كنتَ ناقلاً فالصحة، أو مُدّعياً فالدليلُ).

فأراه لم يأخذ بدليل، بل قد أبدع رأيه هذا من بنات أفكاره المنحرفات، أو اتكأ على آراء بعض الشاذين الفكريين أمثاله، فوافق شَنْ طَبَقَةَ!

أصحاب الآراء الشاذة، وبتأمل سريع هُم أحد هؤلاء حسب ما أرى - وقد أصيب وأخطئ - ورحم الله امرأً أهدي إلي عيوبي:

● قلة نادرة لا يعبا بها أحد، ووُجِد الآن لها أنصارٌ من المستشرقين والمستغربين.

● إنسانٌ حرّف القاعدة المشهورة التي تقول: (رأيي صحيح ويحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب)، وجعل القاعدة السابقة كالتالي: (رأيي صحيح ولا يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ، ولا يحتمل الصحة)!!

● مقلد أعمى، لا يقبل الحوار ولا النقاش مع أحد؛ لأنه يُفضّل أن يبقى على شذوذه الفكري، وعقله التكفيري.

● وآخر، شذوذ آرائه لمصلحة شخصية آنية تتحقق له من خلال رأيه، فإذا ما رأى مصلحة جديدة أكثر عطاءً ونوالاً فإنه سيأتي بفكر شاذ آخر يخالف فكره الأول.

● ذنب للغرب، إلا أن الغرب قطعوه في بلادنا لكي لا يذهب معهم إلى الغرب، فأصبح لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء!.

● قارئ بغير أستاذ، دائماً يلوم شوقي على قوله: ثم للمعلم وَفِّهِ التبجيلاً . . . يأخذ العلم كحاطب ليلٍ من هنا وهناك، وقد يحمل في ليله بين الحطب أفعى ستلدغه وهو يحملها، أو ستلدغ غيره عن قريب . . .

● متكبر لا يتواضع لطلب العلم، أو جامع كتب ينطبق عليه قول القائل:

إِذَا لَمْ يُذَاكِرْ دُوَ الْعُلُومِ بِعِلْمِهِ وَلَمْ يَسْتَفِدْ عِلْمًا نَسِي مَا تَعَلَّمَ
فَكَمْ جَامِعٍ لِلْكَتُبِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ يَزِيدُ مَعَ الْأَيَّامِ فِي جَمْعِهِ عَمَى

● والآخر نقول له: قالت الأمة كلها بجواز هذا الرأي، فيقول متعجباً: ولكن عندي أن هذا الرأي غير جائز، فذكرني بقول الشاعر:

يقولون: هذا جائز عند غيرنا ومن أنتم حتى يقال لكم عند؟!!

● الشاذ الفكري يُعجبه جمع الأفكار الشاذة للتباهي بها، ويظن بذلك أنه أعلم من غيره، لكنه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء!

• الشاذ الفكري يتبع زُحَل، ويترك الشمس، فيقول له

الناصح:

خذ ما علمت، ودع شيئاً سمعتَ به في طلعة الشمس ما يُغنيك عن زحل
ختاماً: إن الحديث ليطول عن أصحاب الآراء الشاذة،
ولا نستطيع أن نحصرها في هذه الورقات الصغيرة، خاصّةً وأنها
تتوالد وتتكاثر من جديد، وكم أتمنى أن يكون هناك بترُّ فكريّ، كلما
رأى هناك شذوذاً فكرياً يُضل به بعضُ المغفلين، قام بقطع هذا
الفكر المنحرف من جذوره حتى لا يترعرع من جديد.

فعلى الإنسان أن يكون مع الجماعة، فإنما يأكل الذئب
من الغنم القاصية.





أَصْدَقُ الدَّمُوعِ فِي رِثَاءِ الإِخْوَةِ..

كلُّ واحدٍ منا في هذه الدنيا تجرَّع كأس الفراق، وذاق علقم
الفقد، ولوعة الوداع، وسكب عبراتٍ حرّى من القلوب، وذرف دماءً
سخينةً من المقل والعيون... وكلُّ واحد منا فقد أمّا رؤوماً، أو أباً
عطوفاً، أو أخاً شفيقاً، أو زوجاً حنوناً أو صديقاً حميماً...

والإنسان عندما يودّع مسافراً فإنه يعيش على أمل اللقاء به
ولو بعد حين، أما عندما يُودِع إنساناً تحت أطباق الثرى، فإنه لا أملَ
له في لقائه بهذه الدنيا، فكأسُ الفراق مرُّ المذاق...

وعند فراق الأحبة، يُعبّر كل إنسان عما يجيش في نفسه
بطريقته، فهذا بالنعيب، وذاك بالبكاء والدموع، وغيره بالعويل،
والآخر بالصبر والسّلوان... أما الشعراء فتتحول دموعهم إلى مرثٍ
حزينة، حروفها الأحزان، وسفرها قلبٌ مُضنى، وقافيتها اللوعة
والأسى، وبحرّها من فيضانات الدموع وبحورِ العبرات
والحسرات...

وكلما كان الفقيد عزيزاً كلما كان شعرُ الرثاء أصدق دموعاً
وعاطفةً، وأشدّ تأثيراً، وأرهفَ إحساساً، وأصفى شعوراً، وأشدَّ
حُرقةً... فمعلومٌ أن النائحة ليست كالثكلى...

والأشعارُ التي فيها رثاءٌ من أخٍ لأخيه تكون من أصدق العواطف في الشعر؛ لأن لفقد الأخ وقعاً خاصاً في النفوس، فالأخ هو الصديق وتربُّ الطفولة وسميرُ الوحدة، ومكمنُ الأسرار، وهو النجِيُّ قبلَ النوم، وهو ظلُّك في مراتع الصِّبا حيثُ الضحكاتُ البريئةُ والعيشُ الرغيد بقلوبٍ لا يُكدرُ صفوها همٌّ ولا كراهيةٌ؛ لأن تلك القلوبَ صافيةٌ كماء السماء... .

وبما أن الأمر كذلك، فلا غرو بعد ذلك ولا عجب أن نرى، أن هناك قصيدةً سمّوها أمّ المراثي، وهي مرثيةٌ متمم بن نؤيرة التي رثى فيها أخاه مالكا، وما سُميت بأم المراثي، إلا لروعتها، واحتوائها على عظيم المعاني والصفات، ولذلك نرى أن ابن سلام الجُمحيّ في طبقاته عندما جعل أصحاب المراثي طبقاتٍ جعل أولهم متمم بن نؤيرة، فيقول الجُمحي:

«وصيرنا أصحاب المراثي طبقةً بعد العشر الطبقات.

أولهم: متمم بن نؤيرة بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع، رثى أخاه مالكا... . والمقدم عندنا متمم بن نؤيرة، ويكنى أبا نهشل، رثى أخاه مالك بن نؤيرة»^(١).

وقد ذكر القصيدة كاملةً أبو زيد القرشيّ في جمهرته في الجزء الأول، وقد اخترتُ منها هذه الأبيات، بعدما وقعتُ في حيرة من أمري عندما أردتُ الاختيار، فكلُّ بيتٍ حديقةٌ ورد

(١) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجُمحي ٢٧/١.

تُذهلك روعةً أزهارها، ويشدُّك آسِراً إياك أريجُ أزهارها، فاخترت
منها:

لَعْمَرِي وما دَهْرِي بتأبين هالكٍ ولا جَزَعاً ممّا أَلَمَّ فأوْجَعَا
لقد غَيَّبَ الْمِنْهَالُ تحتِ رِداءه فَتَى غَيْرَ مِبْطَانِ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعَا
وما كان وَقَافاً إذا الْحَيْلُ أَحْجَمَتْ ولا طالباً من حَشِيَّةِ الْمَوْتِ مَفْرَعَا
وأني متى ما أَدْعُ باسمك لم تُجِبْ وكُنْتَ حَرِيّاً أن تُجيبَ وتُسمعا
تَحِيَّتَه مَنِّي وإن كان نائياً وأمسى تُراباً فوقَه الأرضُ بَلْقَعَا
فإن تَكُنِ الأيامُ فَرَقْنَ بَيْننا فَقَدَ بانَ مَحْموداً أَخِي حِينَ وَدَّعَا
وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَدِيمَةَ حِقْبَةَ من الدَّهْرِ حتى قِيلَ: لَنْ يَتَصَدَّعَا
فلَمَّا تَفَرَّقنا كَأني ومالِكاً لِطولِ اجْتِماعٍ لم نَبِتْ ليلَةً معَا

ولمتمم هذا قصائد كثيرة في رثاء أخيه، منها أيضاً قصيدته
الكافية التي قالها عندما قدم العراق - كما قال الأصمعي - حيث
أقبل لا يرى قبراً إلا بكى عليه، ف قيل له: يموت أخوك بالملا،
وتبكي أنت على قبرٍ بالعراق! فقال:

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذرافِ الدموعِ السّوافك
أمن أجل قبرٍ بالملا أنت نائحُ على كل قبرٍ أو على كل هالكٍ؟
فقلت له: إن الشّجا يبعثُ الشّجا فدعني، فهذا كلُّ قبرٍ مالِكٍ^(١)

ولصدق مشاعره ورقة شعره سنرى بعد قليل، - وفي قصيدة
أخرى أيضاً - كيف أن سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه طلب منه

(١) الأمامي، أبو علي القالي ١/١٣٥.

الزيادة مصغياً لأبيات الرثاء، وكيف أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له: لوددتُ أني رثيتُ أخي بما رثيت به أخاك.

فقد ذكروا أن: «متمم بن نويرة دخل على أبي بكر، وهو يصلي بالناس، وكان متمم رجلاً ذميماً أعور، فاتكأ على سية قوسه [ما عطف من طرفيها، ولها سبتان] ثم قال يرثي أخاه مالكا:

نعم القليلُ إذا الرياحُ تناوحتُ خلف السُّتورِ قتلتَ يا ابنَ الأزورِ
فقال أبو بكر: زد، فبكى متمم، وانحط على سية قوسه حتى دمعت عينه العوراء، ثم قال:

لا يُمسكُ العوراءُ تحت ثيابه حلو شمائله عفيفُ المئزرِ
ولنعم حشوُ الدرعِ كنتَ وخاسراً ولنعم مأوى الطارقِ المتنورِ
فقام إليه عمر بن الخطاب، وقال: لوددت أني رثيت أخي بما رثيت به أخاك.

فقال له متمم: رفتهُ عنك أبا حفص، فلو صار أخي حيث صار أخوك ما رثيته.

فقال عمر: ما عزاني أحد عن أخي بمثل تعزيتك.

وكان زيد بن الخطاب استشهد يوم مسيلمة^(١).

وإذا كانت قصائدُ ابن نويرة قد ذاع صيتها، وسارت بها الركبان، وخاصةً أم المراثي، فإن القصائد التي قيلت في رثاء الإخوة كثيرة في تراثنا العربي، وما على الباحث إلا أن ينفص عنها

(١) الحور العين، نشوان الحميري ٣٥/١.

غبارَ الزمن المتراكم، ويغورَ في غياهب أسفارها، ولُجج أبحارها،
حتى يلتقطَ منها دُرراً نادرةً ما زادها مرورُ الزمن إلا إشراقاً
وصفاءً... فهذا كعبُ بنِ سعد الغنويُّ، يرثي أخاه بقصيدة في غايةِ
الروعة والبهاء وذكر فيها محامدَ أخيه ومحاسنَه من كرم وشجاعة،
ولو كان الميْتُ يُفدى لفداه بكل ما يعز على النفس، بل بالنفس
ذاتها، ومن هذه القصيدة قوله:

لعمري لئن كانت أصابتُ منيةً أخي، والمنيا للرجالِ شعوبُ
لقد عجمتُ مني المنيةُ ماجداً عروفاً لريبِ الدهرِ حينَ يريبُ
فلو كان ميْتُ يُفتدى لفديته بما لم تكنْ عنه النفوسُ تطيبُ
فإن تكنِ الأيامُ أحسنَّ مرةً إليّ فقد عادتْ لهنَّ ذنوبُ
أخٌ كان يكفيني وكان يُعينني على نائباتِ الدهرِ حينَ تنوبُ
أخي ما أخي! لا فاحشٌ عند بيته ولا ورعٌ عند اللقاءِ هيوبُ
حليفُ الندى يدعو الندى فيجيبهُ سريعاً ويدعوهُ الندى فيجيبُ
أخو شتواتِ يعلمُ الحيُّ أنه سيكثرُ ما في قدره ويَطيبُ
ليبككَ عانٍ لم يجدْ من يعينه وطاوي الحشا نائي المزارِ غريبُ
وإنني لباكيهِ وإنني لصادقُ عليه، وبعضُ القائلينَ كذوبُ^(١)

فالأخ يكون مع أخيه وبين أهله وذويه، وفجأةً إذ به يُمسي
تحت أطباق الثرى، كما حصل مع داودَ بن أبي داود الإيادي عندما
قال يرثي أخاه:

فبات فينا، وأمسي تحت هاديةٍ يا بعدَ يومك من ممسى وإصبح

(١) مختارات شعراء العرب، ابن الشجري، ص ٩ - ١٠.

لا يصحب الغيِّ إلا حيث فارقه إلى الرشاد ولا يصغي إلى اللاحي^(١)
وذكر الأمدى شخصاً اسمه الرواغ، وأن له أخاً اسمه مربع،
فلما مات مربع أخذت عينُ الرواغ تبكي بكل حرقةٍ عليه، وذكر أن
جفنه سيظل سيالاً بأحرِّ الدموع...

قال الأمدى: الرواغ ها هنا اسمُ رجل قال يرثي أخاه
مربعاً:

لقد كنتُ أنأى عن بنيِّ وأخوتي على ثقةٍ ما كان في الحي مربعُ
ولولا اعترافُ بالذي ليس تاركاً أخا أحدٍ ما زالت العينُ تدمع^(٢)
وممن رثى أخاه أعشى باهلةً، رثى المنتشر بن وهب الباهليِّ،
قتيل بني الحارث بن كعب، رثاه بقصيدة من روائع شعر الرثاء،
ومما جاء فيها:

لا يَأْمَنُ النَّاسُ مُمَسَّاهُ وَمُضَبَّحُهُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَإِنْ لَمْ يَغْزُ يُنْتَظَرُ
لا يَغْمِزُ السَّاقَ مِنْ أَيْنٍ وَلَا وَجَعٍ وَلَا يَزَالُ أَمَامَ الْقَوْمِ يَقْتَفِرُ
إِنِّي أَشَدُّ حَزِيمِي ثُمَّ يُدْرِكُنِي مِنْكَ الْبَلَاءُ وَمِنْ آلَائِكَ الذِّكْرُ
فَإِنْ جَزَعْنَا فَمَثَلُ الشَّرِّ أَجْزَعَنَا وَإِنْ صَبَرْنَا فَإِنَّا مَعْشَرٌ صَبْرُ
إِنَّمَا سَلَكْتَ سَبِيلًا كُنْتَ سَالِكَهَا فَأَذْهَبُ فَلَا يُبْعِدُنكَ اللَّهُ مُنْتَشِرُ
لا يُضْعَبُ الْأَمْرَ إِلَّا رَيْثَ يَرْكَبُهُ وَكُلَّ أَمْرٍ سِوَى الْفَحْشَاءِ يَأْتِمُرُ

وهناك قصيدة لا بد أن نذكرها في هذا المضمار، وهي قصيدة

(١) المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء، الأمدى ١/٥١،

(٢) المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء، الأمدى ١/٥٧.

كعب بن سعد الغنوي، التي رثى فيها أخاه أبا المغوار، وهو أيضاً
كعادة العرب يذكر فضائل أخيه وسجاياه من كرم وشجاعة، ويتمنى
أن يفديه بنفسه، ومنها:

فَخَبَّرْتُمَانِي أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقَرَى وَمَاءُ سَمَاءٍ كَانَ غَيْرَ مَحْمَمَةٍ
فَكَيْفَ وَهَذَا رَوْضَةٌ وَكَثِيبٌ!؟ وَمَنْزِلَةٌ فِي دَارِ صِدْقٍ وَغِبْطَةٍ
بِداوِيَّةٍ تَجْرِي عَلَيْهِ جَنُوبٌ فلو كَانَتِ الْمَوْتَى تُبَاعُ أُشْتَرِيَتْهُ
وَمَا اقْتَالَ فِي حُكْمِ عَلِيٍّ طَبِيبٌ بِعَيْنِي أَوْ كِلْتَا يَدَيَّ وَقِيلَ لِي:
بِمَا لَمْ تَكُنْ عَنْهُ النَّفُوسُ تَطِيبُ وَدَاعُ دَعَا: يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى؟
هُوَ الْغَانِمُ الْجَذْلَانُ حِينَ يُؤُوبُ فَقُلْتُ: ادْعُ أُخْرَى وَارْفَعْ الصَّوْتِ دَعْوَةً
فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ لَعَلَّ أَبَا الْمَغُورِ مِنْكَ قَرِيبٌ^(١)

ومع أن الخوارج اشتهروا بقسوتهم، إلا أن قلوبهم عند الرثاء
تلين، ومن الشعراء الخوارج الشاعر شمر بن عبد الله الشكري الذي
رثى أخاه الريان، حيث أصبح شاعرنا وحيداً بعد فقد أخيه، بل
وفجع كل الناس بموته، فقال يرثي أخاه الريان:

وَلَقَدْ فُجِعْتُ بِسَادَةٍ وَفُوارِسٍ لِلْحَرْبِ سَعْرٍ مِنْ بَنِي شَيْبَانَ
إِعْتاقَهُمْ رَيْبُ الزَّمَانِ فَعَالَهُمْ وَتُرَكْتُ فَرْدًا غَيْرَ ذِي إِخْوَانٍ^(٢)
وشعر رثاء الإخوة لم يقتصر على أخ رثى أخاه؛ لأن هناك
من الشواعر أيضاً من رثت أخاها، وتبادر الخنساء على الفور إلى

(١) نفسه، ٢٨/١.

(٢) شعر الخوارج، إحسان عباس، ط٣، ١٩٧٤م، دار الثقافة، بيروت،
١٩٩/١.

أذهاننا، وهي التي دبّجت في أخيها صخرٍ أروع قصائد الرثاء، منها
البائية التي مطلعها:

يا عينُ ما لكِ لا تبكين تسكابا إذ راب دهرٌ وكان الدهر ريباً^(١)؟
ومنها الرائية المشهورة التي منها:

وإن صخرًا لوالينا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشتو لنحار
وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علمٌ في رأسه نار^(٢)
وكما بكت الخنساء أخاها صخرًا فإنها بكت كذلك أخاها
معاوية الذي فجعت به. [مع أن قصائدها في صخر كانت أكثر
شهرة] وإذا كان صخر قد قتلته بنو أسد، فإن معاوية قد قتلته بنو مرة
غطفان. فقالت في رثاء أخيها معاوية قصيدة ومنها:

فما بالُ عيني ما بالها؟ لقد أخضل الدمعُ سربالها
فأليتُ آسى على هالكٍ وأسألُ نائحةً ما لها^(٣)؟
والشواعرُ اللائي رثين إخوتهن كثيراتٌ جدًّا، وإن كانت
الخنساء فاقتهنَّ في الشهرة...

... ومنهن على سبيل المثال لا الحصر، فارعة بنت شداد
التي قالت ترثي أخاها مسعود بن شداد:

يا عينُ بكِّي لمسعود بن شداد بكاءً ذي عبراتٍ شجوةً بادي

(١) ديوان الخنساء إصدار: دار كرم بدمشق، ص ١٩.

(٢) ديوان الخنساء، ص ٤٤ - ٤٥.

(٣) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١/ ٢١٣.

مَنْ لَا يُذَابُ لَهُ شَحْمُ السَّدِيفِ وَلَا يَجْفُو الْعِيَالَ إِذَا مَا ضَنَّ بِالرَّادِ^(١)

ومنهن كذلك زينب بنت الطرية التي رثت أباها بقولها:

أرى الأثل من بطن العقيق مُجاوري مقيماً، وقد غالت يزيدَ غوائله
فتى قد قدَّ السيفَ لا متضائلٌ ولا رهلاً لبَّاته وأباجله^(٢)

وأختم بالشاعرة أخت الفارس عمرو بن عبد ود العامري، وهو الذي قتله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فرثته أخته، ولكنها عزت نفسها بكلام مقنع نوعاً ما، وذلك بأن من قتله هو أشجع العرب، وهذه ميثة لا يُعاب بها فارس، فكان مما قالت:

لو كان قاتلُ عمرو غيرَ قاتله بكيته ما أقام الروح في جسدي
لكنَّ قاتله من لا يُعاب به وكان يُدعى قديماً بيضة البلد^(٣)

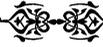
وهكذا نلاحظ أن شعر رثاء الإخوة من أصدق الأشعار دموعاً وعاطفةً، ومن أشدها لوعةً وحزناً ونحيباً، ورأينا أن الحزن عندما يُصاغ شعرَ رثاءٍ فإنه لا يفرق بين ذكر وأنثى...

وتبقى قصائد رثاء الإخوة بعاطفتها المشبوبة قلائد مرصعة يُزين بها أدبنا العربيّ جيده، ويُلبسها لنحر الزمن الخالد، وستبقى قوافي شعر الرثاء هتانةً بالدمع والمآسي، ومفعمةً بالعويل، ومترعةً بالآهات ومثقلة بالحسرات...

(١) الأمازي، أبو علي القالي ٢٨٥/١.

(٢) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي ٣٢٢/١.

(٣) نفسه ٢٤٩/١.



الشَّيْبُ... يَضْحَكُ فَيُبْكِي

الشَّيْبُ: ثَلَجٌ يَلُوحُ فِي سِوَادِ الرَّأْسِ، وَسِنَا بَدْرِ يَشَعُّ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ، وَنَذِيرٌ لِلْإِنْسَانِ أَنَّ مَرِحَلَةَ جَدِيدَةٍ بَدَأَتْ فِي حَيَاتِهِ...

الشَّيْبُ: هُوَ الضَّيْفُ الَّذِي لَا يُقَالُ لَهُ: أَهْلًا وَمَرْحَبًا، فَبِمَجِيئِهِ يَرْحَلُ الشَّبَابُ، وَيَكْثُرُ الْإِنْسَانُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى الْمَقَابِرِ وَالتَّرَابِ.

رَحَلَ الشَّبَابُ وَلَيْتَهُ لَمْ يَرْحَلِ وَالشَّيْبُ حَلَّ وَلَيْتَهُ لَمْ يَحُلِّلِ
الشَّيْبُ هُوَ الَّذِي مِنْ أَرْوَعٍ مَا قِيلَ فِيهِ:

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَسِيرُ بِجَانِبِيهِ نَهَارٌ

الشَّيْبُ هُوَ النَّارُ الَّذِي تَشْتَعِلُ فِي الرَّأْسِ، وَهُوَ مِنْ أَمَارَاتِ

الضَّعْفِ وَالانْكَسَارِ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّ الْعِزَّةِ، فَسَيَدُنَا زَكْرِيَّا عِنْدَمَا نَادَى

رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ

أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ [مريم: ٤].

وَلَكَّمْ تَضَرَّعَ الْإِنْسَانُ إِلَى خَالِقِهِ، ذَاكِرًا كِبَرَهُ وَضَعْفَهُ وَشَيْبَتَهُ،

أَتِيًّا بِالصُّورَةِ الْبَدِيعَةِ التَّالِيَةِ فِي دَعَائِهِ:

إِنَّ الْمَلُوكَ إِذَا شَابَتْ عِبِيدُهُمْ فِي رِقْمِهِمْ أَعْتَقُوهُمْ عَتَقَ أَحْرَارٍ

وَأَنْتَ يَا سَيِّدِي أَوْلَى بِذَا كَرَمًا قَدْ شَبْتُ فِي الرِّقِّ فَاعْتُقْنِي مِنَ النَّارِ

وهذا الشاعرُ الآخرُ جعلَ الشيبَ من الخلائقِ الأربعِ التي تنهى
الإنسانَ عن الفحشِ والعصيانِ، فتراه يقول:

وإني لتنهاني خلائقُ أربعٍ عن الفحشِ فيها للكريمِ روادِعُ
حياءً وإسلامً وشيبً وعفةً وما المرءُ إلا ما حبته الطباع
وقد كنت في عصرِ الشبابِ مُجانباً صبايَ فأنى الآنَ والشيبُ شائع
ومع أن من طبعِ الكريمِ حبُّ الضيفِ، والترحيبُ به، وإظهارَ
البشرِ بقدمه، إلا أن الشيبَ ضيفٌ غيرُ مرحَّبٍ به، وكثيراً ما كان
الصاحبُ بن عبادٍ يردد قبل موته هذين البيتين:

أناخَ الشيبَ ضيفاً لم أرده ولكن لا أطيق له مرداً
رداءً للردى فيه دليلٌ تردى من به يوماً تردى^(١)

وأكثرُ ما يتحسّرُ الإنسانُ في حياته على أيامِ الشبابِ وعهدِ
الفتوة، عندما يلوحُ الشيبُ برأسه؛ لأن الشيبَ نذيرُ الهرمِ، فيبكي
لعهدِ صباه، مع أن الشيبَ يضحكُ في رأسه:

أبكي لعهدِ الصبا والشيبُ يضحكُ بي يا للرجالِ سبتُ جدِّي ملاعبهُ
ولن ترى كالهوى، أشجاهُ سالفهُ ولا كوعدِ المُنَى، أحلاه كاذبهُ
وهمةُ المرءِ تُغليه وتُرخصه من عزِّ نفساً لقد عزت مطالبهُ

ويتمنى الإنسانُ بعد المشيبِ أن يعودَ إليه الشبابُ، ولكن
هيهاتَ هيهات !! فتراه يسكبُ العبراتِ، ويتجرَّعُ الحسراتِ قائلاً:

(١) لحظات قبل الموت محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم للطباعة
والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص١٧٧.

عُرِيتَ مِنَ الشَّبَابِ وَكُنْتُ غَصْنًا كَمَا يَعْرِى مِنَ الْوَرَقِ الْقَضِيبُ
وُنُحْتُ عَلَى الشَّبَابِ بَدَمَعَ عَيْنِي فَمَا نَفَعَ الْبُكَاءُ وَلَا النُّحَيْبُ
فِيَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأَخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ
أَمَّا أَحْمَدُ بْنُ خَلْفِ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَعْرِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالْمَمْتَعِ،
فَإِنَّهُ جَعَلَ نَهَايَةَ الْمَآرِبِ وَالْأَمَالَ عِنْدَمَا يَرْحَلُ الشَّبَابُ، وَيُخَلْفُ وَرَاءَهُ
شَيْبًا وَهَرْمًا:

وَمَا تَزَالُ بِنَا الْأَمَالَ مَائِلَةً إِلَى الْمَطَامِعِ فِي وَجْدٍ وَفِي عَدَمِ
إِذَا الشَّبِيبَةُ بَانَتْ عَنْ أُخِي أَرِبٍ فَلَا مَآرَبَ بَعْدَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ^(١)
وَيَبْقَى الْإِنْسَانُ بَعْدَ الْمَشِيبِ يَرْتَقِبُ أَجَلَهُ، وَيَنْتَظِرُ سَاعَةَ رَحِيلِهِ،
فَلَا شَيْبُهُ يَزُولُ، وَلَا شَبَابُهُ يَعُودُ:

تَمَرُّ بِنَا الْأَيَّامِ تَتَرَى وَإِنَّمَا نُسَاقُ إِلَى الْأَجَالِ وَالْعَيْنُ تَنْظُرُ
فَلَا عَائِدٌ ذَاكَ الشَّبَابُ الَّذِي مَضَى وَلَا زَائِلٌ هَذَا الْمَشِيبُ الْمَكْدُرُّ
فَالشَّيْبُ يَرِافِقُ الْإِنْسَانَ إِلَى حِينِ الْمَمَاتِ:

وَفَكَّرْتُ فِي شَيْبِ الْفَتَى وَشَبَابِهِ فَأَيَقَنْتُ أَنَّ الْحَقَّ لِلشَّيْبِ وَاجِبُ
يَصَاحِبُنِي شَرُخُ الشَّبَابِ فَيَنْقُضِي وَشَيْبِي إِلَى حِينِ الْمَمَاتِ مَصَاحِبُ
وَالشَّبَابُ وَالصَّحَّةُ، مِنْ أَهَمِّ رِكَائِزِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، أَمَّا الْهَرَمُ
وَالشَّيْبُ فَفِيهِمَا تَكْثُرُ الْعِلَلُ، وَيَسْأَمُ الْإِنْسَانُ بِهِمَا مِنْ تَكَالِيفِ الْحَيَاةِ،
فَقَدْ أَنْشَدَ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الرَّامِثِيَّ (ت ٤٩٠هـ) مَتَأَسَفًا بِقَوْلِهِ:

(١) شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، استخرجها وحققها الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت الجزء ٢، الطبعة ٣، ١٩٨٨م، ص ٣٧٤.

وكنت صحيحاً والشبابُ منادمي وأنهلني صفوُ الشبابِ وعلّني
وزدتُ على خمسِ ثمانين حجةً فجاء مشيبي بالضنى وأعلّني
سئمتُ تكاليف الحياةِ وعلّني وما في ضميري من عسى ولعلّني^(١)

والبعض يحاول أن يسلي نفسه عندما يحل به الشيب، وما يرى
فيه إلا الوقارَ والنضج، فيكرر دائماً:

عيرتني بالشيب وهو وقارٌ ليتها عيرت بما هو عارٌ
فيجيبه الآخرُ بالحقيقة الصارخة، من غير مقدمة وبلا مجاملة:
وأَيُّ وقارٍ لامرئٍ عرّي الصِّبا ومن خلفه شيبٌ وقُدّامُه شيبٌ
ويأتي بدويُّ الجبل ليذكر أن القلب لا يشيب، حتى وإن شاب
رأس الإنسان فيقول:

يبقى الشبابُ ندياً في شمائله فلم يشب قلبُه إنْ شاب فوداهُ
في حين نرى أن من حلّت به مصيبة ما، قد يشيب قلبُه، وإن
كان شعرُه كالحِ اللون، يحاكي سوادَ الليل، فنراه يقول:

إلا يشبُّ رأسي بعظم مُصابه بالأكرمين فإن قلبي أشيبُ
ويبقى للشعراء تعليقاتُهم في الشيب، وهذه التعليقاتُ
- وللأمانة - جعلتهم يأتون بصورٍ بديعة فريدة، في غاية الروعة
والجمال، فشهابُ الدين الظاهريُّ، يرى أن الشيب ما هو إلا ضوءُ
المحبة وسناها، الذي كان متربّعاً على عرش قلبه وفي ثناياه، لكنه
أبى إلا بالظهور على وجنتيه، قال:

(١) نواذر الفوائد من كتاب بغية الوعاة، فرج حسن البوسيفي ٢٢/١.

رأت شيبتي قالت: عجبْتُ مع الصُّبا مشيُبك هذا! صفهُ لي بحياتي
فقلت لها: ما ذاك شيبٌ وإنما سناك بقلبي لاح في وِجْناي^(١)
وعندما استنَّ أهلُ الأندلس لبسَ البياض عادةً في الحزن
على موتاهم، - وذلك من عهد بني أمية قصداً لمخالفة بني
العباس في لباسهم السوادَ - قال الأستاذ النحويُّ أبو الحسن
الحصري:

إذا كانَ البياضُ لباسَ حزنٍ بأندلسٍ فذاك من الصَّواب
ألم ترني لبستُ بياضَ شَيْبي لأنني قد حَزِنْتُ على الشَّبَابِ^(٢)
ورأى بعضُ الشعراء في بياض الشيب سواداً للوجه، فحاول
أن يلجأ إلى الحيلة والخداع، وقرر أن يقضي على بياض الشيب
بسواد الخضاب، وظن أنه سيعيد بذلك الشباب وقوته، ولكن، ليت
شعري! هل يصلح العطار ما أفسد الدهرُ؟!

فابن الرومي يقول:

يا بياضَ المَشيبِ سَوَدَّتْ وَجْهي عند بيضِ الوجوه سُودِ القرونِ
فلعمري لأخفينَّكَ جَهْدِي عن عياني وعن عيانِ العيونِ
ولعمري لأمنعَنَّكَ أن تَضُحك في رأسِ آسفٍ محزونِ
بسوادٍ فيه ابيضاضٌ لوجهي وسوادٌ لوجهك المَلْعُونِ

(١) دكانة الكتب رحلة إلى جزر التراث، محمد خير رمضان يوسف، ط١،
١٤١٩هـ/١٩٩٨م، دار ابن حزم، بيروت، ص١٨٩.

(٢) المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية الكلبي، باب المرواني
الطليق ٢٢/١.

وهذا الشاعر يقول:

قالت أراك خضبت الشيبَ قلتُ لها سترتهُ عنك يا سمعي ويا بصري
فقهقتها ثم قالت من تعجبها: تكاثر الغش حتى صار في الشعر
ومن الأشياء التي استحسناها الشعراء والنقاد، وأكثروا التعجب
منها قول دِعْبُل: (ضحك المشيبُ برأسه فبكى) قال محمود بن
حُميد: كُنَّا عند الأصمعي، فأنشده رجلُ أبيات دعبل:

لا تعجبي يا سلمُ من رجلٍ ضحك المشيبُ برأسه فبكى
يا سلمُ ما بالشيبِ منقصةٌ لا سُوقَةٌ يُبقي ولا مَلِكَا
قال: فاستحسناها كلُّ من في المجلس، وأكثروا التَّعَجُّب من قوله:
ضحك المشيبُ برأسه فبكى^(١).

ختاماً، الحديث عن الشيب يذكرنا بيوم يجعل الولدان شيباً،
ويذكرنا بمراحل عمر الإنسان، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

ف«يا من أدركه المشيبُ، اترك الغزل والنسيب، وارجع إلى الله
من قريب، ولذ بالمتاب واعدل عن الخضاب، واخش نصول
الفضول، ودع من يزور ثم يزول. ولا تطمع بوصل الحسان، واكتب
لهن تسريحاً بإحسان، واحذر منهنَّ العدو الأزرق، واسبق إلى منعهن
من قبل أن تُسَبَق.

(١) الأمامي، يموت بن المزرع، ٦/١ بتصرف.

عذر الكواعبِ أنهن كواكبٌ لا يجتمعن مع الصباح إذا بدا»^(١)
وتذكّر دائماً قول ابن الجوزي في كتابه: (تنبيه النائم الغمر
على مواسم العمر):

غَرَرْنَا بِالشَّبَابِ المُسْتَعَارِ أَفْقِنَا بِالمَشِيبِ مِنَ الخَمَارِ
تَعَالَوْا نَبِكِ مَا قَدْ كَانَ مِنَّا وَقَوْمُوا فِي الدِّيَاجِي بِاعْتِدَارِ
واجعل - يا أخي - بياضَ شيبك انعكاساً لبياض قلبك . . .
واعلم أنك كما ودّعت طفولتك ستودع شبابك، وكما ودعت شبابك
ستودّع هرمك، وكما ودعت هرمك ستودع الحياة!!



(١) نسيم الصبا، ابن حبيب الحلبي، باب في الشيب والخضاب ١/١٩.



المكفوفون في الأدب العربي البصيرة قبل البصر

إن من أعظم نعم الله ﷻ التي امتنّ بها علينا نعمة البصر،
وهل يستوي الأعمى والبصير؟

والدنيا - كما هو معلوم - دارُ ابتلاء وامتحان، قد يبتلي الله
فيها الإنسانَ بفقد البصر، ولكنه - جل وعلا - يعوّضه الجنة،
فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ:
قَالَ اللَّهُ ﷻ: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ، ثُمَّ صَبَرَ عَوَّضْتُهُ الْجَنَّةَ -
يُرِيدُ عَيْنَيْهِ»^(١).

ومع ذلك تبقى البصيرةُ هي المقياسَ والأساس، فكثيرٌ
من الناس لهم أعينٌ لا يبصرون بها، فيكون أعمى في هذه الدنيا
﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٧٢)
[الإسراء: ٧٢]، وتراه معرضاً عن ذكر الله، وربُّ العزة يقول: ﴿وَمَنْ
أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾^(٧٤)
[طه: ١٢٤].

وكثير من الناس من حُرِمَ نعمة البصر، ونور العين، لكنه

(١) حديث صحيح. انظر: شرح السُّنَّة للبغوي، ٣/٢١.

ما حُرْمَ نورِ القلبِ، وذكاءِ العقلِ، وفصاحةِ اللسانِ، فابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما
بعد ما ذهب بصره يقولُ:

إِنْ يَأْخُذِ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نُورَهُمَا فِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورٌ
قَلْبِي ذَكِيٌّ وَعَقْلِي غَيْرُ ذِي دَخَلٍ وَفِي فَمِي صَارُمٌ كَالسَّيْفِ مَأْثُورٌ^(١)
وفي نفس المعنى، بل بتوافقٍ في الشطر الأول من البيت
الأول قال عز الدين أحمد بن عبد الدائم:

إِنْ يُذْهِبِ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نُورَهُمَا فَإِنْ قَلْبِي بَصِيرٌ مَا بِهِ ضُرٌّ
أَرَى بِقَلْبِي دُنْيَايَ وَأَخْرَتِي وَالْقَلْبُ يُدْرِكُ مَا لَا يَدْرِكُ الْبَصْرُ^(٢)
وأحدُ الخطباءِ المعاصرين كان أعمى، وسئل مرة: هل تجلس
أمام التلفاز؟ فأجاب: إن الله تبارك وتعالى أكرمني بفقد البصر حتى
لا أرى ما يغضبه. ثم أنشأ يقول:

رَأَيْتِ الْعَمَى أَجْرًا وَذَخْرًا وَعَصْمَةً وَإِنِّي إِلَى تِلْكَ الثَّلَاثِ فَقِيرٌ
يَعَيِّرُنِي الْأَعْدَاءُ وَالْعَيْبُ فِيهِمْ وَلَيْسَ بَعِيْبٌ أَنْ يُقَالَ ضَرِيرٌ
إِذَا أَبْصَرَ الْمَرْءُ الْمَرْوَةَ وَالْوَفَا فَإِنَّ عَمَى الْعَيْنِينَ لَيْسَ يَضِيرُ^(٣)

والشاعر الضريرُ نصر علي سعيد يرى أن كثيراً من المبصرين
يمشون في درب الحياة بلا هدف ولا هدى، ويرى كثيراً من العميان
متوهجين في بصيرتهم، ويملؤون الدنيا عطاءً وعطاء، وها هو يبحث

(١) الحيوان، الجاحظ، باب شعر في الخصب والجذب ٢١٦/١.

(٢) نكت الهميان في نكت العميان، الصفدي، ص ٢٤، ٢٥.

(٣) آخر لقاء مع (٢٠) عالماً ومفكراً إسلامياً، جمع وإعداد: محمد خير
رمضان يوسف، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، دار ابن حزم، ص ٥١.

عن قلبٍ لا حرابَ فيه في زمن الذئاب البشرية يقول:

كم من ضريِرٍ مبصرٍ متوهِّجٍ يعطي ويعطي والمدى وهَّابُ
وترى ألوف المبصرين بلا هدىً لكأنما فوق العيون حجابُ
وأسيرُ في درب الحياة لعلني أحظى بقلبٍ ليس فيه حِراب
فالناس تنهش بعضها بشراهةٍ لكأنهم - ياويلتاهُ - ذئابٌ^(١)

ويأتينا الشاعرُ علي بن عبد الغني الحصريُّ بصورةٍ بديعةٍ عندما
جعل سوادَ العين يزيد سواد القلب، ليصبحا مجتمعين على الفهم
والفطنة:

وقالوا قد عميتَ فقلت: كلا وإني اليوم أبصرُ من بصيرِ
سوادُ العين زاد سوادَ قلبي ليجمعنا على فهمِ الأمورِ^(٢)

- وقد يولد الإنسانُ أعمى، وقد يفقد بصره فيما بعد، فمن
الحالة الأولى الشاعر بشار بن برد، حيث وُلد وهو أعمى بل حتى
وهو جنين كما يقول، وأخذ يعلل ذلك بالذكاء، وأن ضياءَ العين
عندما غاض أتى مرادفاً ورافداً للقلب، قال:

عميتُ جنيناً والذكاءُ من العمى فجئتُ عجيبَ الظنِّ للعلمِ موثلاً
وغاضَ ضياءُ العينِ للعلمِ رافداً لقلبٍ إذا ما ضيَّع الناسُ حصلاً
وشعرٍ كنورِ الروضِ لاءمتُ بينه بقولٍ إذا ما أحزنَ الشعرُ أسهلاً^(٣)

ومن الحالة الثانية الشاعرُ صالح بن عبد القدوس، الذي فقد

(١) جريدة الفداء. عدد ١١٩٥٧ تاريخ ١٥/١٠/٢٠٠٢م.

(٢) نكت الهميان في نكت العميان، الصفدي، ص ٢٤.

(٣) نور القبس، المرزباني ١/٥٤.

عينه فرثاها بأروع كلمات الرثاء، وأودع قصيدته التالية روائع الحكم:

عزاءك أيها العينُ السكوبُ ودمعك إنها نُوبٌ تنوبُ
وكنتِ كريمتي وسراجٌ وجهي وكانت لي بك الدنيا تطيبُ
فإن ألكُ قد ثكلتكِ في حياتي وفارقني بك الإلف الحبيبُ
فكلَّ قرينة لا بُد يوماً سيشعب إلفها عنها شعوبُ
على الدنيا السلامُ فما لشيخ ضريرِ العينِ في الدنيا نصيبُ
يموت المرءُ وهو يُعدُّ حياً ويخلف ظنَّه الأملُ الكذوبُ
يمتيني الطبيبُ شفاء عيني وما غير الإله لها طبيبُ
إذا ما مات بعضك فابك بعضاً فإن البعض من بعض قريبٌ^(١)

وإننا عندما نتأمل في شعر العميان نرى أن بعضهم أتى بصورٍ يعجز عنها المبصرون، مما يجعلنا في غاية التعجب! ونقول: كيف لو كان هذا الأعمى مبصراً؟! وفارس هذا المضمار رهينُ المحبسين أبو العلاء المعريُّ، الذي كلما تحدث أحدٌ عن الشعر والعمى يخطر على البال، والذي عناه المتنبى - كما يقول - في بيته المشهور:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممُ
وحسبُك من وصفه قصيدتهُ التي يصف فيها الليل وعروسه
الزنجية، ومنها قوله:

ليلتي هذه عروسٌ من الزن ج عليها قلائدٌ من جمان

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، ط٣، دار صادر، ص٦٦٩ - ٦٧٠.

وسهيلٌ كوجنة الحبّ في اللو ن وقلب المحب في الخفقان
ثم شاب الدّجى وخاف من الهج ر فغطى المشيب بالزعفران^(١)
وكثيرةٌ هي الصور الفريدة البديعة التي أتى بها الشعراء
العميان، والتي يعجز عنها المبصرون..

- ونطرح سؤالاً هنا؟ هل الحب والعشق مقصور على
المبصرين؟؟ والجواب: طبعاً لا؛ لأن العشق لا يميز بين أعمى
وبصير، وما أروع قولَ بشار بن برد في هذا المجال:

يا قَوْمِ أَذْنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ وَالْأُذُنُ تَعَشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانًا
قَالُوا: بِمَنْ لَا تَرَى تَهْدِي؟ فَقُلْتُ لَهُمْ: الْأُذُنُ كَالْعَيْنِ تُوفِي الْقَلْبَ مَا كَانَا^(٢)

والإنسان يحب عادة فتاة حوراء عيناء، نجلاء كحلأ، فهل
هناك من الشعراء أحب فتاة عمياء؟!.

ويأتي الجواب أيضاً بأن الحب لا يعرف أعمى ولا بصيراً،
فهذا الشاعر أحبّ امرأة عمياء، وأتى بتعليل لطيف وهو أن محبوبته
العمياء لا ترى الشيبَ عندما يلوح في فؤديه، يقول ابن قزل يتغزل
في عمياء:

قالوا: تعشقتها عمياء قلت لهم ما شأنها ذاك في عيني ولا قدحا
بل زاد وجدّي فيها أنها أبدأ لا تعرف الشيبَ في فؤدي إذا وضحا
إن يجرح السيف مسلولاً فلا عجبٌ وإنما أعجبٌ لسيف مغمدٍ جرحا^(٣)

(١) وانظر: ربيع الأبرار، الزمخشري ٤١٣/١.

(٢) نصرة الثائر على المثل السائر، الصفدي ٤٤/١.

(٣) خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي ٣٨٥/١.

- ونرى أن بعض الشعراء العميان حالتهم تُدمع العين، وتُحزن
الفؤاد فابن التعاويذي، يرى نفسه مقبوراً في منزله، ليُّله ونهاره
سواءً، وحالته تبكي العذول، وتُدمع العيون، يقول:

فها أنا كالمقبور في كسر منزلي سواءً صباحي عنده ومسائي
يرق ويبكي حاسدي لي رحمةً وبعداً لها من رقةٍ وبكاء^(١)
وهكذا كنا في جولة سريعة مع من فقد بصره، ولا يزال نور
شعره متوهجاً مدى الأيام، بل لا يزيده مرورُ الأيام إلا صقلاً
وجمالاً وبهاءً . . .

وما علينا في الختام إلا أن نحمد الله على نعمه وآلائه، وعلى
نعمة البصر العظيمة، ولكن - كما قلنا - البصرُ ليس كلَّ شيءٍ فالأهمُّ
البصيرة، ولا عجبَ عندما نرى في الدنيا بصيراً يسقط في حفرة،
وأعمى يمشي بلا اصطدام، وما أروع ما قاله الشاعرُ إبراهيم علي
بديوي:

قل للبصير وكان يحذر حفرة فهوى بها من ذا الذي أهواكا؟
بل سائل الأعمى خطا بين الزحاً م بلا اصطدام: من يقود خطاكا؟
فاللَّهُمَّ متّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله
الوارث منا، وارزقنا نعمة البصيرة المنيرة، والهدى المستقيم، إنك
سميع مجيب.



(١) نكت الهميان في نكت العميان، الصفدي، ص ٢٥.



بيني وبين صديقي الشاعر صهيب يوسف

التقيتُ به للمرة الأولى في دمشق، فانسابت روعي في روحه،
ودخل شغاف القلب من غير استئذان، وبسرعة النار في الهشيم، نما
الحب في الله بيننا وترعرع، وأينع بستان المحبة أشجاراً باسقةً
تطاول سماء الإخلاص، وضاربةً جذورها في أعماق الوفاء...

وتمر الأيام سريعةً، ونتخرج من الجامعة، وتفترق أجسادنا
تاركةً وراءها لوعةً الاشتياق، ودموعَ الفراق، ومرارة الهجر والبعاد،
واتصال الأرواح في عالم الإخوة في الله...

وكلما تذكرتُ تلك الأيام، وتلك السنواتِ أكرّر مع الشاعر:

ثم انقضت تلك السنونَ وأهلها فكأنها وكأنهم أحلامٌ
وكلما ذهبت من حماة إلى دمشق، يتسارع إلى مخيلتي هذان
البيتان:

ولقد مررتُ على المنازل بعدهم أبكي وأسأل عنهم وأنوحُ
وأقول إن سألوا بحالي في التوى: ... ما حال جسم فارقتهُ الروح
... ثم سافر إلى السعودية للعمل هناك، وحيثُ مسكنُ
أهله ... وبقيتُ هنا، وظلت الرسائلُ بيني وبينه، بمناسبات وبلا
مناسبات...

طبعاً تريدون أن تعرفوا من هو؟ وما اسمه؟؟

إنه الشاعرُ الأديبُ الأريبُ صهيبُ محمد خير رمضان يوسفُ،
الذي جمع إلى مجده وبلاغته مجدَ أبيه وسؤدده، فأبوه هو العلامة
المشهور صاحبُ المصنفات والمؤلفات والتحقيقات: محمدُ خير
رمضان يوسف حفظه الله . . .

. . . ومن محاسن الجوال والإنترنت أنهما سهّلا الاتصال،
رغم المسافات الشاسعة، فكتبْتُ له وكتب لي الكثيرَ من الرسائل،
وبما أنه شاعر، فقد كانت معظمُ الرسائل بيننا شعراً منبعه صميمُ
الروح، وبحرُه الحب في الله . . .

. . . وها هو شهر رمضان يلوح بالرحيل، فتأتيني منه هذه
الآياتُ الرائعة:

أرى الأيام تسرع بارتحالٍ وبدَرَ الشهر صار إلى هلال
فبادر باغتنام الأجر فيما بقي من هذه العشر الفضال
ولا تترك محبَّك من دعاءٍ فإن ذنوبَه مثلُ الجبال
لعل ملائكَ الرَّحْمَن تُثني عليك بمثله من ذي الجلال

ثم يأتي عيدُ الفطر فإذا به يقول لي:

أدام الله لكم الأعيادَ دهوراً وألبسكم من التقوى نورا
وتمر الأيام مسرعة سكرى، ويحل علينا عيدُ الأضحى
المباركُ، ومع إشراق صباحه، أرى على جوالي:

صباحُ الخير والأضحى مباركُ وعمَّر ربُّنا بالحب داركُ
عزيزي . . . إن تفرقنا الليالي فإنَّ القلبَ لم يترك مزاركُ

إنه سباقٌ إلى الخير، فغالباً ما يكون صاحب المبادرة في الإرسال، شعراً مُدَبَّجاً في غاية الروعة، أما رسائلي له فقد تكون نثراً، وقد تكون شعراً لا يرتقي إلى مستوى شعره وبيانه . . .

ولا أدري لماذا أحبني هذا الحبّ - على الرغم من كل عيوبي ومساوئي -؟؟ على كلِّ فهو أحدُ أمرين، إما أنه يحسن ظنّه فيّ، - وطبعاً، الإنسان لا يُحسن ظنه بالآخرين إلا إذا كانت أفعاله حسنةً - أو لأنّ روحي وروحه التقتا في عالم الأرواح، فحصل التآلف لأنّ الأرواح جنودٌ مجنّدة، فما تعارف منها اتّلف، وما تناكر منها اختلف، وكثيراً ما كان يسميني شيخه في شعره، - وهذا طبعاً من باب المداعبات الشعرية - ويثني عليّ بعبارات لستُ أهلاً لها، وقد كنت لا أريد ذكرَ هذه الأبيات، إلا أنّ بلاغتها وروعها أبت إلا أن تظهرها للجميع .

فها هو يقول:

لشيخِي في قلبي (أمرٌ كثيرة!!) فأولها شوقي إلى وجهه الدّرّي
وآخرها أني أراه كأنني ظلامٌ وشيخي الفجر، بل غرةُ الفجر
وبينهما لا تسأل القلبَ عن أسي يعاودني دوماً إذا غرد القمري
وها هي تقارير الهوى والحب، تنقل له من مصدرها الثقة أنه
يحبني، وقد أتى بهذه الأبيات الجميلة عندما قال:

أنبئت أن تقارير الهوى كتبت - عن مصدر ثقة - أني مريدكم
وليس في ذاك شكٌ . . غير أنهمو نسوا بأن يكتبوا؟ أني أحبكم!
من مخبرٌ لبني عباسٍ أن فتى من الأعاجم مطلوبٌ لأمنهم

وكان يأتي أحياناً بمحسنات بديعية، غير متكلفة تأتي على
سجيتها مثل قوله:

أشتاقكم يا أهل ودي وبيننا فراسخ
أما حبُّكم في فؤادي فراسخ
فأجبتُه محاولاً تقليده في شيءٍ ما:

شيخي:

قرأت شعرك فهمتُ عندما فهمتُ
وأحياني فغابت فيه أحياني
وصرت أبتُّ أشجاني
شقيقَ الروح: سامحني إذا أضناك هذياني
وشعري صار سخريةً فصاح الويلَ شيطاني

إلا أنه أجاب على الفور:

على ثغرٍ أراك تردُّ عنَّا كل شيطاني
تُقضي العيش في كدٍّ وإخلاص وإيمان
فمن أهدي إذالم أهدكم شعري وألحاني؟!

... وقد رأيت في الرؤيا، أنه في سوريا وأنا أعانقه عناقاً
حاراً، فأرسلت له أخبره بهذه الرؤيا، وأنها أضغاث أحلام؛ لأنه
لم يكن قد قرر أن يأتي إلى سوريا .. وسبحان الله!!! !! كان جوابه
كالتالي: (ما هي بأضغاث أحلام!! وأفتيك بأني سأكون في سوريا
بعد شهرٍ وأسبوع - بمشيئته .. قررت ذلك البارحة فما أسفر الصبحُ
إلا وقد (كُشفت) لكم الحجبُ!!).

فسررت بهذا الخبر، وأصبحت كل يوم أتشوّق إلى اليوم الذي يليه . . .

حتى جاء اليوم الموعودُ . . . والتقينا عندي في مدينة حماة في حي كازو وهو الحي الذي أعيش فيه، فيا لحرارة اللقاء!! وعناق المحبة والإخاء!! وقضينا يومين من أجمل أيام العمر ثم ودعني إلى محافظة القامشلي في سوريا، وعندما وصلها، أرسل لي يقول:

هاك أشواق الوفا يا سيدي ودعاءً من مريد كمد
غاب عنكم ساعة فاشتاقكم يا ترى . . كيف به يوم غد؟!
ليت أشياخي بقامشلي رأوا ما رأأت عيناى بالأمس الندي
لن تراهم غير أفواج مضت نحو كازو بخطاكم تقتدي!
وبقي عدة أيام في صيف عام (٢٠٠٨م) في سوريا ثم قرر أن يعود إلى السعودية، وفي طريق عودته وعند الحدود، أرسلت له:

رحلتم وقلبي في شغاف قلوبكم فردُّوا أحباب الهوى لحظة قلبي
فأكمل بيتٍ صادقٍ كدمع الدرب الذي ذكره وقال:

فأواه . . ما أقسى الرحيلَ أحبتي وأصدقُ دمع العين ما سال في الدرب
ثم شاءت لي الأقدارُ، وأذن العزيز الغفار، في أن أحجَّ البيت الحرام، في نفس العام، فأخبرته وقرر أن يذهب للحج حتى نلتقي، ولكن القدر ما سمح له بذلك فقال لي:

تخلفنا عن البلد الحرام وما فيه من النعم الجسام
وفاز بفضلِهِ إخوانُ صدقٍ لنا نهضوا مع الوفد الكرام

وعندما كنت على أطلال مكة، والدموع تغمرني، وسيرة
المصطفى ﷺ تمرُّ في خاطري، جاءني منه ما يلي:

إيه يا مكة.. ها شيخي أطل فاحضنيه بعيون ومقل
قربي الركن اليماني له فشفاء الروح في تلك القبل
قدمي من زمزم وزداً له واتركيه حين يسعى في عجل
.. كم تمنى أن يراها في الكرى ولها صاغ دموعاً وجمل
وهو الآن لديها خاشعُ دامع العينين شكراً للأجل
وبعد وصولي إلى مكة بيوم أرسل لي:

بين الحطيم وزمزم هام الفؤاد المتيم
حار المحبُّ ولما أراد يقدم أحجم
فعقله مدني والقلب لبّي وأحرم!
يمضي إلى الفجر شيخي مُظلاً بالملائك
خلف المقام يصلي على هدى أنبيائك
يا رب: فاقبل دعاهُ فقد أتى لدعائك

فحاولتُ أن أرد له على الوزن نفسه فقلت:

آه متي القلبُ يسلم وناره تتضرم
بيانُ وجدي أبكم وأدمعي تتكلم
على الحبيب المعظم صلى الإله وسلم
وبقيت أكثر من شهر في مكة والمدينة، مرت كأنها سحابة
صيف، وكانت أجمل أيام عمري على الإطلاق... ثم غادرت
المدينة مودّعاً لها، وامتذكراً قول الشاعر:

قالت ومدت يداً نحوي تودعني ولوعةً البين تأبى أن تمدَّ يدا
أميَّت أنت أم حيٌّ؟ فقلت لها: من لم يمت يوم بين لم يمت أبدا
وعندما وصلت على الحدود السعودية الأردنية جاءني منه
أبياتٌ في غاية الروعة وجمال التصوير، ورصانة التعبير والتحبير:

عدتْ والقلبُ حاملٌ ألفَ ذكرى والالهي من المدامع تترى
كعبةً، زمزم، مقامٌ، حطيم والصفاء، والأذانُ يصدح فجرا
دعواتٌ على حمى عرفاتٍ والمُنَى في منى تحقن طرا
روضه، قبةً على حجرات بينها أبصرت عيونك بدرا
قال شعري- ومقله العين سهري-: شيخنا يا سواد عيني . . عذرا

وهكذا رأينا كيف أبدعت المحبة الصادقة في الله، من هذا
الشاعر الأديب، أروع ما كتب البيان، وفاض به الجنان . . . وما هذا
الذي ذكرته إلا غيظ من فيض، وهو ما يسمح به المقام.

ولا تزال محبته عالقة في قلبي، ما سجي ليل، وأعقبه فجر،
حتى نكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه،
وسيبقى توأم الروح، وشقيق الفؤاد، ومؤنس قلبي المضنى، فمن
خلاله عرفت معنى كلمة المحبة في الله^(١) . . .



(١) كان ذلك بتاريخ ٧/٦/٢٠٠٨م.



أُمُورٌ تَعَجَّبْتُ مِنْهَا!!!

- لكم تعجبتُ عندما سمعتُ أن الإنسان قد يدفن بعضه، وبعضه الآخرُ على قيد الحياة !!، وسرعان ما زال عجبي عندما دفنت ولداً من أولادي تحت أطباق الثرى، عندها أيقنت أنني دفنت فلذةً من كبدي، وجزءاً من سويداء قلبي...

- طالما تعجبت في صغري عندما كنتُ أسمع العبارة التالية: «دموعُ الفرح»، وأقول في نفسي: وهل للفرح دموعٌ، وللحزن دموعٌ؟! فإنني ما عرفت إلا دموعَ البكاء والأحزان، والنحيب والأشجان...

ولكن... ها أنا اليوم أرى للفرح أنواعاً شتى من الدموع، وللبيكاء أنواعاً شتى من الدموع، فله درُّ الدموع !! نبكي فنذرناها من العيون، ونفرح فتهيض بها المآقي والجفون!.

- تعجبت عندما قرأت عنوان الكتاب التالي: «بحرُ الدموع»، لمؤلفه ابن الجوزي فقلت: سبحان الله!! وهل للدموع أيضاً بحرٌ?! .
فما انتهيت من قراءته حتى قلت في نفسي: ليته سماه «بحارُ الدموع»!! .

- عجبت من الصخور الصماء التي تتفجّر منها الأنهارُ،

وعجبت من الصدور التي تحتوي على قلوبٍ أقسى من الأحجار!!
- عجبت من إنسان يملك قلباً لا يلين، وعيناً لا تدمع، ونفساً
لا تشبع، ويداً إلى الله متضرعةً لا تُرفع!!
- عجبتُ ممن أعطاه الله قلباً نابضاً، فأحبَّ فيه الأغيارَ، ونسي
العزيرَ الجبار!!

- عجبت ممن يعيشُ حياته بلا هدف، ويمضي في الدنيا بلا
عقيدة!!

- عجبت ممن يموتُ ولم يترك أحداً يترحمُ عليه، وعجبت
ممن يحيا، ويتمنى الناسُ أن يترحموا عليه!

- عجبت من طالب الوصول، وهو نائمٌ في أول الطريق،
وازداد عجبي من إنسانٍ وصل إلى نهاية الطريق، ثم اكتشف أنه كان
يسير في غير الطريق المطلوب، وإذا به في ضلال مبين...!!

- عجبت من ظالم يضحك ملءً فيه، ويمضي ليله في سباتٍ
عميق، وسهامٍ دعواتِ المظلومين تشقّ عنان السماء، وترقى فوق
الحُجب، في الصباح والمساء...!!

- عجبت ممن يبيع البخسَ بالثمين، ويخسر تجارة كان حريّاً
بها أن تكون رابحةً، ويستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ... .

- طالما تعجبت من الغافل عن ذكر الله، معيشتُهُ ضنكٌ، وقلبه
ميتٌ، وحياته شقاءً، ووقته هباءً!!

- ما أشدَّ تعجبي من إنسانٍ كافأ اليدَ التي أعطته بالقطع، وقابل
العطاءَ بالمنع!!

- عجبت من عينين مبصرتين كيف يعمى صاحبهما عن نور البصيرة، ولا يرى بهما شعاع الحق، وضياء التقى، وإشراق شمس الهداية...

- عجبت ممن يدّعي محبة النبي ﷺ، إلا أنه لا يسير على نهجه، ولا يتبع سنته، ولا يترسم خطاه...!!

- عجبت ممن أعطاه الله وجهاً حسناً، ولا يزال سادراً في ضلاله، متبعاً هواه وشهوآته، وكأنه ما قرأ قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

- تعجبت كثيراً من الذين رأوا وجه الحبيب المصطفى ﷺ ولم يبصروا النور الذي في مُحيآه، والجمال والبهاء الذي للوجه الشريف كسأه، ولم يتبعوا سبيله، ويهتدوا بهداه!!

لكن عجبي زال عندما قرأت قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وعلمت أن الإنسان لا يبصر بعينه، بل يبصر بقلبه، وفعلاً كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرَ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

- طالما تعجبتُ من ليل الصحابة رضي الله عنهم، فلا هو كليلنا، ولا نهارهم كنهارنا، فمن أين لنا أن نتشبه بهم؟! ولكن، على أية حال:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

- عجبت من الكثيرين الذين يتشوقون إلى رؤية المصطفى ﷺ، ويتحسرون لأن الله لم يخلقهم في عصر الصحابة رضي الله عنهم، فقلت في

نفسى: ليت شعري!! ومن قال لهم: إنهم سوف يؤمنون به، وأنَّ أحدهم سيكون كأبي بكر وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ رضي الله عنهم، فهم لا يدرون؟ وبالقدر المُعَيَّب لا يعلمون!! فربما كان أحدهم كأبي لهب وأبي جهل!!

فليحمد الإنسانُ ربَّه على عظيم نعمه، وليدعُ مع ذلك الأعرابي: اللَّهُمَّ إنك أعطيتنا الإسلامَ من غير أن نسألك، فلا تحرّمنا الجنة ونحن نسألك.

- تعجبتُ من الذين ينتظرون الثوابَ من الناس، ثناءً ومدحاً وإطراءً، فقلت: ليت شعري!! ألا يعلم هؤلاء أن الناسَ كما تمدحُ تقدحُ، وكما تشني عليك، تغتابك وتنمُّ عليك!! وأن الناسَ ينسون حسناتك، ويتذكرون كل زلةٍ من زلاتك، فانتظر ثوابك ممن يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدورُ، ويعلم السرَّ وأخفى، وأحاط بكل شيءٍ علماً.

فالناسُ - يا أخي - كما قال الشاعر:

فإن رأوا هفوةً طاروا بها فرحاً مني وما علموا من صالح دفنوا
- كم تعجبتُ من إنسانٍ كنتُ أظنه أُمياً فإذا بي تلميذٌ بين يديه!!، وكم تعجبتُ من إنسانٍ يدّعي العلمَ، وهو غارقٌ في بحارٍ من الجهل!!.

- كم من إنسانٍ كنتُ أظنه وفيّاً، فإذا به أشدُّ خيائنةً من أبي رغال!! وكم من إنسانٍ قالوا عنه: خائنٌ، فإذا به أوفى من السمؤال!!



صَوْرٌ مِنْ بَلَاغَةِ الْأَطْفَالِ

نعلم جميعاً أن مرحلة الطفولة هي أروع المراحل التي يمرُّ بها الإنسان في رحلة حياته، وأن الطفولة كلما ذُكرت فإن البراءة والطهر والنقاء تُذكر معها... ويجول في خواطرنَا قول الشاعر:

وصن ضحكةَ الأطفال يا رب إنها إذا غرّدت في ظمئ الرمل أعشبا
كما أننا عندما نطالع سيرَ العظماء، ونعود إلى مراحل صباهم،
فإننا نرى أن النجابة والإبداع والذكاء ظهرت بوادره في وقت مبكر
من حياتهم... وخاصة العلماء منهم، فلهم ذكرياتٌ مع الطفولة
لا تُنسى، وهم لا يزالون في مرحلة الطلب، فهذا الإمام سفيان بن
عيينة يصف نفسه عندما كان صغيراً. وهو يتحدث عن بداية حياته،
مخاطباً النضرَ الهلالي:

لو رأيتني يا نضرٌ ولي عشر سنين، طولي خمسة أشبار،
ووجهي كالدينار، وأنا كشعلة نار، وثيابي صغار، وأكمامي قصارٌ،
وذيلي [أسفل الثوب] بمقدار، ونعلي كأذان الفار، أختلف إلى علماء
الأمصار؛ كالزُّهري وعمرو بن دينار، أجلس بينهم كالمسمار.
محبرتي كالجوزة، ومقلمتي كالموزة، وقلمي كاللوزة. فإذا أتيت
قالوا:

أوسعوا للشيوخ الصغير! ثم ضحك! (١) . . .

وعندما نقرأ في القرآن الكريم ونتأمل فيه نرى أن الله جل وعلا يخبرنا أنه أتى يحيى الحكم صبياً، وأن قوم إبراهيم قالوا: سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم، كما حدثنا عن أصحاب الكهف: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ . والآيات القرآنية في هذا الصد كثيرة جداً، فطفولة الأنبياء ومن ذكرهم الله في كتابه الكريم طفولة تدلُّ على الفهم والإدراك وسبق الزمن والعمر . . .

وعندما نتحدث عن الأطفال النجباء فإننا نتذكر طفولة بعض الصحابة، فهذا ذو نهم شديد بطلب العلم، وهذا ذو شوق للجهاد في سبيل الله حتى يحظى بالشهادة، وغيره يتعارك مع صديقه ليصرعه أرضاً ويبرهن بذلك على قوته حتى يقبله الرسول ﷺ في المعركة، وذلك كما حصل مع سمرة بن جندب ورافع بن خديج . . . ومن محبة الأطفال للجهاد في سبيل الله ما يقصه علينا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو يحدثنا عن أخيه عمير رضي الله عنه، قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص يتواري قبيل بدء معركة بدر، فقلت: ما لك يا أخي؟، قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرنني فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة.

قال: فعرض الجيش على رسول الله ﷺ فرآه، فرده لصغره، فبكى أخي عمير فأجازه مرة أخرى.

(١) سفيان بن عيينة شيخ الإسلام وحافظ العصر، محمد خير رمضان يوسف، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، دار ابن حزم، ص ٧ - ٨.

فكان سعد رضي الله عنه يقول: فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره، فقتل وهو ابن ستّ عشرة سنة^(١).

ونماذج الطفولة الذكية المبدعة الخلاقة في حبها للجهاد وشغفها بطلب العلم ظهرت عند كثير من الصحابة في سن مبكرة، كما قرأنا في سيرة ابن عباس وابن عمر وأسامه بن زيد ومعاذ ومعوذ... رضي الله عنهم أجمعين.

وسنسوق في هذه العجالة بعض الصور والنماذج الرائعة للأطفال البلغاء المبدعين من الصحابة وغيرهم وفي ميادين شتى، وإنني سأهتم بجانب واحد من جوانب ذكاء هؤلاء الأطفال، وهو الأجوبة البليغة التي يعجز عنها الكبار، والتي تأتي محكمة السبك، رصينة العبارة، ثابتة كثبوت الجبال، تدلُّ على بلاغة وبيان، مع ثقة الطفل المتكلم بها بنفسه، واحترامه لمن يخاطبه...

فعندما مرَّ عمرُ بن الخطاب بعبد الله بن الزبير وهو صبي يلعب مع الصبيان، ففروا ووقف، فقال له: ما لك لم تفرّ مع أصحابك؟ قال: يا أمير المؤمنين، لم أجرم فأخاف، ولم تكن الطريق ضيقةً فأوسّع لك.

وكذلك ما ذكر من أن إياس بن معاوية تقدم وهو صبي إلى قاضي دمشق، ومعه شيخ فقال: أصلح الله القاضي، هذا الشيخ ظلمني واعتدى عليّ وأخذ مالي، فقال القاضي: أرفق به ولا تستقبل

(١) نوارد الكتب غريبها وطريفها، محمد خير يوسف، ط ٢، ١٤٢٥هـ، مكتبة العبيكان، ص ٤٤.

الشيخ بمثل هذا الكلام! فقال إياس: أصلح الله القاضي، إن الحق أكبرُ مني ومنه ومنك. قال: اسكت، قال: إن سكتُ فمن يقوم بحجتي؟ قال: تكلم، فوالله إنك لا تتكلم بخير فقال إياس: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فرفع صاحب الخبر هذا الخبر إلى الخليفة فعزل القاضي وولّى إياساً مكانه.

ثم يروي لنا الأصمعي هذه الحادثة فيقول: قلت لغلام حدّث السن من أولاد العرب: أيسرك أن يكون لك مائة ألف درهم وإنك أحمق؟ فقال: لا والله، قلت: ولم؟ قال أخاف أن يجني عليّ حمقي جناية تُذهب مالي، ويبقى عليّ حمقي. وأدخل على الرشيد صبي له أربع سنين فقال له: ما تحب أن أهب لك، قال: حسنُ رأيك.

بل قد تكون فتاة صغيرة، وتأتي بكلمة تسكت الرجل ولا ينبس بنت شفة في الجواب. قال بشر الحافي: أتيت باب المعافى بن عمران فدققت الباب، فقبل لي: من؟ قلت: بشر الحافي، فقالت لي بنية من داخل الدار: لو اشتريت نعلاً بدانقين ذهب عنك اسمُ الحافي^(١).

بل قد تنقذ الفتاة الصغيرة أباهَا من القتل عندما تحسن الكلام، فكيف بها إذا كنت تحسن نظم الشعر، وذلك كما حصل مع يزيد بن زبيبة الشيباني الذي عاش دهراً طويلاً حتى لحق زمن الحجاج،

(١) الأذكياء، ابن الجوزي، ت: أسامة عبد الكريم الرفاعي، مكتبة الغزالي، ١٩٨٥م، ص ٢٤٢ - ٢٤٦.

وسعى مع ابن الأشعث، فظفر به الحجاجُ وورد عليه كتابُ عبد الملك بن مروان يأمره بقتله، فلبس ثياباً بيضاً، وتهياً للقتل وركب، وخرجت نساؤه حتى أتيتَ باب الحجاج، فلما أدخل يزيد عليه، قال له الحجاج: أنت يزيد بن قرة؟ قال: نعم. قال: قتلي الله إن لم أقتلك. قال: نشدتك الله أيها الأمير أن لا تقتلني، فإنني قيم أربع وعشرين امرأة، ليس لهن قيم سواي. قال: ومن يعلم ذلك؟ قال: هُنَّ بالباب. فأمر بإدخالهن، فكل واحدة تقول: اقتلني ودعه. فيقول: من أنت؟ فتقول: عمته أو خالته أو بنته أو بنت أخ أو بنت أخت، حتى اجتمعن بين يديه قياماً، فقامت بنيةً له صغيرة. فبكت بكاءً حاراً موجعاً محرقاً، وأنشأت تقول:

أحجَّاجُ إما أن تُمنَ بنعمةٍ علينا وإما أن تُقتلنا معاً
أحجَّاجُ كم تُفجعُ به إن قتلته ثماني عشرٍ واثنتين وأربعاً
أحجَّاجُ لو تسمعُ بكاءَ نسائه وعماته يندبنه الليلَ أجمعا
أحجَّاجُ من هذا يقومُ مقامه علينا، فمهلاً لا تزدنا تَضَعُعا
أحجَّاجُ هَبْهُ اليومَ لله وحده وللباقيات الصارخات تفجُّعا
فرقَّ لها الحجاجُ وبكى، وكتب في أمره إلى عبد الملك «يصف ما جرى» فكتب إليه: إن كان حقاً فاعفُ عنه، وألحق عياله في العطاء، ففعل^(١).

كما أن الخيرَ والنفعَ قد يعم البوادي عندما يتكلم طفل بكلام

(١) أشعار النساء، المرزباني. وانظر: المحاسن والمساوي لإبراهيم البيهقي، ونوادر الكتب غريبها وطريفها، محمد خير يوسف، ص ٤٦ - ٤٧.

بليغ فصيح بين يدي الخليفة وذلك كما حصل مع درّواس بن حبيب، فقد حُكي أن البادية قحطت في أيام هشام بن عبد الملك، فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درّواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة [وفي بعض المراجع ابن أربع عشرة سنة]، له دُؤابة، وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه:

ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلا دخل حتى الصبيان!، فوثب درّواس حتى وقف بين يديه مطرقاً فقال:

يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرأً وطياً، وإنه لا يُعرف ما في طيّه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه، وقال له: انشره لله درك!، فقال:

يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاثٌ: فسنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقّت العظم، وفي أيديكم فضول أموالٍ، فإن كانت لله ففرّقوها على عباده، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم؟!، وإن كانت لكم، فتصدّقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدةٍ من الثلاث عُذراً. فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجةٌ في خاصة نفسي دون عامة المسلمين، فخرج من عنده وهو من أجلّ القوم^(١).

وما أجمل جواب حسن بن الفضل، بل لله دره كيف أسكت

(١) المستطرف في كل فن مستظرف، الأبيهي.

الخليفة بيانه! فقد دخل حسنُ بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب حسنٌ أن يتكلم، فزجره الخليفةُ، وقال: أصبئي يتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن كنت صبياً فلست بأصغرَ من هُدهد سليمان، ولا أنت أكبرُ من سليمان عليه السلام، إذ قال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]، ثم قال: ألا ترى أن الله فهم الحكم لسليمان، ولو كان الأمر بالأكبر لكان داودُ أولى^(١).

وما أشد ذكاء الفتح بن خاقان عندما أجاب عن أسئلة المعتصم، مع أنه لا يزال في ريعان الصبا، والقصة مشهورة عندما ركب المعتصم إلى خاقان يعوده، والفتح صبي يومئذ، فقال له المعتصم: «أيا أحسن: دار أمير المؤمنين أو دار أبيك؟» قال: «إذا كان أمير المؤمنين في دار أبي، فدار أبي أحسن»، فأراه فصاً [خاتماً] في يده، فقال: «هل رأيت يا فتح أحسن من هذا الفص؟» قال: نعم، اليد التي هو فيها^(٢).

وهكذا رأينا أن البلاغة لا تقتصر على الكبار دون الصغار، ولا على جنس دون جنس، وصغارُ اليوم هم كبار قوم آخرين، وعلى كل الأحوال، ما رأينا إنساناً مبدعاً في رجولته إلا وكانت علاماتُ النجابة والفصاحة والبلاغة ترتسم عليه في طفولته.

وهذا غيظٌ من فيض عن بلاغة الأطفال وفصاحتهم، وتاريخنا

(١) دكانة الكتب، رحلة إلى جزر التراث، محمد خير رمضان يوسف، ط١، ١٤١٩هـ، دار ابن حزم، ص ٢٤٧.

(٢) علو الهمة، محمد أحمد إسماعيل المقدم، المكتبة التوفيقية، ص ٣٥٧.

حافلٌ بالكثير الكثير من أمثال هذه الصور والمواقف... وليس لي
إلا أن أقول لأطفال اليوم:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرامِ فلاحُ





الصَّحَابَةُ ۞ عَدَاتُهُمْ وَعُلُوُّ مَكَانَتِهِمْ

نجومُ الهدى، وبدورُ التقى، نجومُ لوامعُ، وبدورُ طواعُ،
رهبانُ الليل، وفرسانُ النهار؛ كحلوا عيونهم بنور المصطفى ﷺ،
وشرّقوا بالإسلام وغربوا حتى انتشر في كل البلاد والأصقاع، أنصارُ
نصروا الرسول ﷺ، ومهاجرون هاجروا في سبيل الله تاركين ديارهم
وأموالهم . . .

يعجز اللسانُ عن الإحاطة بقدرهم، ويقف القلم عاجزاً عن
ذكر كامل مآثرهم وفضلهم . . . وهم كما قال الشاعر:

عهدي بهم تستنير الأرضُ إن نزلوا فيها وتجتمع الدنيا إذا اجتمعوا
ويضحك الدهرُ منهم عن غطارفة^(١) كأنَّ أيامهم من أنسها جُمع^(٢)

حملوا رايةَ الإسلام بعد رسول الله ﷺ خفاقةً في أنحاء
المعمورة، وأعزَّ الله بهم الإسلامَ وأهلَه، فلهم فضل علينا إلى يوم
الدين:

فَمَا الْعِزُّ لِلإِسْلَامِ إِلَّا بِظُلْمِهِمْ وَمَا الْمَجْدُ إِلَّا مَا بَنَوْهُ فَشَيْدُوا

(١) الغطارفة: جمع غطريف، والغطريف: السيد السخي الكثير الخير.

(٢) مجموعة المعاني، عبد السلام هارون، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ١/

بدايةً لقد عرف البخاري الصحابيَّ في صحيحه فقال: «وَمَنْ
صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ أَوْ رَأَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ.» فالصحابيُّ:
هو من لقي النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام. . .

. . . وهذا التعميم في تعريف الصحابي، نظراً إلى أصل فضل
الصحبة، ولشرف منزلة النبي ﷺ، ولأن لرؤية نور النبوة قوة سريان
في قلب المؤمن، فتظهر آثارها على جوارح الرائي في الطاعة
والاستقامة مدى الحياة، ببركته ﷺ ويشهد لهذا قوله ﷺ: «طوبى
لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن رأى من رآني، ولمن رأى من رأى
من رآني وآمن بي»^(١).

فالصحابي بهذا التعريف قد حصل على «شرف الصحبة وعظم
رؤية النبي ﷺ وذلك أن رؤية الصالحين لها أثرٌ عظيمٌ فكيف بروية
سيد الصالحين؟ فإذا رآه مسلمٌ - ولو لحظة - انطبع قلبه على
الاستقامة لأنه بإسلامه متهيئٌ للقبول، فإذا قابل ذلك النور العظيم
أشرق عليه وظهر أثره في قلبه، وعلى جوارحه»^(٢).

وقد ذكر الله جلَّ وعلا الصحابة في كتابه العزيز في أكثر
من موضع، مثنياً عليهم، ومبيناً فضلهم، فقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ
اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ

(١) عدالة الصحابة ﷺ في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ودفع
الشبهات، عماد السيد محمد إسماعيل الشربيني، ص ١٤.

(٢) كتاب الإبهاج في شرح المنهاج، تقي الدين السبكي، ١٢/١.

وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْعُهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغَاطَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ
يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ
مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ
لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا
رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

وغيرها من الآيات التي تذكرهم بخير وفضل.

كما أثنى النبي ﷺ على الصحابة كلّ الشاء، وبيّن فضلهم،
وأن لا أحد - مهما بلغ من التقوى والعبادة - يبلغ جزءاً يسيراً مما
بلغوه، فالناس تعرف فضل الصحابة، والحديث التالي يبيّن ذلك،
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَعْزُونَ فِتَامٌ مِنَ النَّاسِ،
فَيَقُولُونَ: فِيكُمْ مِنْ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ
لَهُمْ. ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَعْزُونَ فِتَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ
فِيكُمْ مِنْ صَاحِبِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ لَهُمْ،
ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَعْزُونَ فِتَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ
مِنْ صَاحِبِ مِنْ صَاحِبِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ.
فَيُفْتَحُ لَهُمْ»^(١)

وقوله ﷺ: «النجومُ أمانةٌ للسماءِ، فإذا ذهبَتِ النجومُ، أتى
السماءُ ما تُوعَدُ، وأنا أمانةٌ لأصحابي. فإذا ذهبَتُ أتى أصحابي

(١) صحيح البخاري.

ما يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمْنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي
ما يُوعَدُونَ»^(١).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي عَلَى الْعَالَمِينَ، سِوَى النَّبِيِّينَ
وَالْمُرْسَلِينَ، وَاخْتَارَ لِي مِنْ أَصْحَابِي أَرْبَعَةً أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ،
وَعَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَجَعَلَهُمْ أَصْحَابِي وَقَالَ: فِي أَصْحَابِي كُلِّهِمْ خَيْرٌ، وَاخْتَارَ
أُمَّتِي عَلَى الْأُمَّمِ، وَاخْتَارَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعَةَ قُرُونٍ، الْقُرْنَ الْأُولَى وَالثَّانِي
وَالثَّلَاثَ، وَالرَّابِعَ»^(٢).

كما أَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ كِتَابٌ كَامِلٌ فِي فِضَائِلِ الصَّحَابَةِ،
وَذَكَرَ فِيهِ كَثِيرًا مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ فَضْلِهِمْ، نَسُوقُ لَكَ
طَائِفَةً مِنْهَا:

قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غِرَضًا
بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحَبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبِغْضِي أَبْغَضَهُمْ،
وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ
يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ».

قال النبي ﷺ: «لَا تَسَبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ
أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدًّا أَحَدَهُمْ، وَلَا نَصِيفَهُ».

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ،

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (بِشْرَحِ النَّوَوِيِّ) كِتَابَ فِضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابُ بَيَانِ أَنْ بَقَاءَ
النَّبِيِّ ﷺ أَمَانٌ لِأَصْحَابِهِ، وَبَقَاءُ أَصْحَابِهِ أَمَانٌ لِلْأُمَّةِ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبِزَارُ فِي مُسْنَدِهِ قَالَ الْحَافِظُ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ ١٠/١٦،
رَوَاهُ الْبِزَارُ وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ، وَفِي بَعْضِهِمْ خِلَافٌ.

والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً».

قال رسول الله ﷺ: «من حفظني في أصحابي كنت له يوم القيامة حافظاً، ومن سب أصحابي فعليه لعنة الله».

وابن عمر يقول: لا تسبوا أصحاب محمد، فلمقام أحدهم ساعة، خير من عمل أحدكم عمره^(١).

ولابن حزم كلمة جميلة في هذا المقام يقول فيها:

«ولو عمّر أحدنا الدهر كله في طاعات متصلة، ما وازى عمل امرئ صحب النبي ﷺ ساعة واحدةً فما فوقها»^(٢).

فالصحابة قد أثنى الله ﷻ عليهم، ورضي رسول الله ﷺ عنهم، وثبتت عدالة جميعهم بثناء الله ﷻ عليهم، وثناء رسوله ﷺ، ولا أعدل ممن ارتضاه الله لصحبة نبيه ﷺ، ونصرته، ولا تزكية أفضل من ذلك ولا تعديل أكمل منه^(٣).

و(للصحابة بأسرهم خصيصة، وهي: أنه لا يسأل عن عدالة أحد منهم، بل ذلك أمر مفروغ منه، لكونهم على الإطلاق معدلين بنصوص الكتاب والسنة، وإجماع من يعتد به في الإجماع من الأمة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠]. قيل: اتفق المفسرون على أنه وارد في أصحاب رسول الله ﷺ وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا

(١) فضائل الصحابة أحمد بن حنبل ٤٨/١ - ٦٠.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ٣٣/٢.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ١/١.

شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴿ [البقرة: ١٤٣]. وهذا خطاب مع الموجودين حينئذٍ.
وقال ﷺ: ﴿حَمْدُ رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشَدُّ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ الآية
[الفتح: ٢٩].

وفي نصوص السنة الشاهدة بذلك كثرة، منها: حديث أبي سعيد
المتفق على صحته: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي،
فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما أدرك مدَّ
أحدهم ولا نصيفه».

ثم إن الأمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة، ومن لابس
الفتن منهم: فكذلك بإجماع العلماء الذين يُعتدُّ بهم في الإجماع،
إحساناً للظن بهم، ونظراً إلى ما تمهد لهم من المآثر، وكان الله ﷻ
أتاح الإجماع على ذلك لكونهم نقلة الشريعة^(١).

«فلا يحتاج أحدٌ منهم - مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على
بواطنهم - إلى تعديل أحدٍ من الخلق لهم، فهم على هذه الصفة إلا
أن يثبت على أحدهم ارتكابٌ ما لا يحتمل إلا قصد المعصية،
والخروج من باب التأويل، فيحكم بسقوط عدالته، وقد برأهم الله
تعالى من ذلك، ورفع أقدارهم عنه، على أنه لو لم يرد من الله ﷻ
ورسوله فيهم شيءٌ مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها،
من الهجرة، والجهاد، والنصرة، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء
والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطع على

(١) مقدمة ابن الصلاح، تحقيق: د. نور الدين عتر، ط ٣، ١٤٢١هـ/

٢٠٠٠م، دار الفكر، بيروت، ص ٢٩٤.

عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكّين الذين يجيؤون من بعدهم أبد الأبدين. هذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من الفقهاء»^(١).

وهم أعلم شيء بالسنة، وأعلم شيء بالقرآن الكريم، «فقد بين النبي لهم معاني القرآن، وشرح لهم مجمله، وأزال مشكله، وهم أعلم بتفسيره لما شاهدوه من القرائن والأحوال، التي أحاطت بنزول القرآن الكريم»^(٢).

وأول من روى أحاديث رسول الله أصحاب رسول الله ﷺ وهم لم يضبطوا ولا حفظوا في عصرهم، كما فعل من بعدهم من علماء التابعين وغيرهم إلى زماننا هذا؛ لأنهم كانوا مقبلين على نصره الدين، وجهاد الكافرين إذ كان المهّم الأعظم؛ فإن الإسلام كان ضعيفاً وأهله قليلون، فكان أحدهم يشغله جهادُه ومجاهدة نفسه في عبادته عن النظر في معيشته، والتفرغ لمهّم، ولم يكن فيهم أيضاً من يعرف الخط إلا النفر اليسير، ولو حفظوا ذلك الزمان لكانوا أضعاف من ذكره العلماء، ولهذا اختلف العلماء في كثير منهم؛ فمنهم من جعله بعض العلماء من الصحابة، ومنهم من لم يجعله فيهم، ومعرفة أمورهم وأحوالهم وأنسابهم وسيرتهم مهم في الدين.

ولا خفاء على من كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ، أن

(١) الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي ١/١١٨.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د. محمد أبو شهبه، ط٤، ١٤٠٨هـ، مكتبة السنة، القاهرة، ص٥٢.

من تبوأ الدار والإيمان من المهاجرين والأنصار السابقين إلى الإسلام والتابعين لهم بإحسان الذين شهدوا الرسول ﷺ وسمعوا كلامه وشاهدوا أحواله ونقلوا ذلك إلى من بعدهم من الرجال والنساء، من الأحرار والعبيد والإماء أولى بالضبط والحفظ، وهم الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون بتزكية الله ﷻ لهم، وثنائه عليهم، ولأن السنن التي عليها مدار تفصيل الأحكام ومعرفة الحلال والحرام إلى غير ذلك من أمور الدين، إنما ثبتت بعد معرفة رجال أسانيدھا ورواتها، وأولهم والمقدر عليهم أصحاب رسول الله ﷺ؛ فإذا جهلهم الإنسان كان غيرهم أشدَّ جهلاً، وأعظم إنكاراً، فينبغي أن يُعرفوا بأنسابهم وأحوالهم، هم وغيرهم من الرواة، حتى يصحَّ العمل بما رواه الثقات منهم، وتقوم به الحجة؛ فإن المجهول لا تصح روايته، ولا ينبغي العمل بما رواه، والصحابة يشاركون سائر الرواة في جميع ذلك إلا في الجرح والتعديل؛ فإنهم كلهم عدولٌ لا يتطرق إليهم الجرح؛ لأنَّ الله ﷻ ورسوله ﷺ وذكياهم وعدلاهم، وذلك مشهورٌ لا نحتاج لذكره^(١).

والمسلمون مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ﷺ ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة ثم البديون، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية. وعلى كل قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ». قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا

(١) أسد الغابة، ابن الأثير ١/١.

أَدْرِي أَدَّكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا «ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ
وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ
فِيهِمُ السَّمْنُ»^(١).

كما أن الصحابة رضي الله عنهم أحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حباً جماً، ووقروه
توقيراً عظيماً، فكان أحب إليهم من كل شيء، وما كانوا يصبرون
على فراقه، فعندما سُئل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه كيف كان
حُبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا
وأبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ.

وهذا عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: ما كان أحد أحب إليّ
من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملاً
عيني منه إجلالاً له، ولو سُئلت أن أصفه ما أطق، لأنني لم أكن
أملاً عيني منه.

وفي صلح الحديبية، عندما جعل عروة بن مسعود يرْمُقُ صحابة
النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه، ماذا قال؟؟ لقد قال: وَاللَّهِ مَا تَنَحَّمُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم
نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا
أَمَرَ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَفْتَتِلُونَ عَلَيَّ وَضُؤِيهِ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا
خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيماً لَهُ، فَرَجَعَ
عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ،
وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكَسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ

(١) رواه البخاري.

يُعْظَمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعْظَمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا، وَاللَّهُ إِنْ تَنَحَّمَ
نُحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا
أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا
تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحَدِّثُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ.

فاستحقوا لذلك ثناء الله عليهم، ونزول القرآن بحقهم، ففي
قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهْجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ
تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي
صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٨، ٩]،
فالصادقون هم المهاجرون، والمفلحون هم الأنصار، بهذا فسر
أبو بكر الصديق، هاتين الكلمتين، من الآيتين، حيث قال في خطبته
يوم السقيفة مخاطباً الأنصار: «إن الله سمّانا (الصادقين) وسمّاكم
(المفلحين)، وقد أمركم أن تكونوا حيثما كنا»، فقال: ﴿يَأَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩] (١).

لذلك، وبناءً على ما تقدم، نرى أنه لا ينتقص فضل الصحابة
إلا مطموسُ البصيرة، أو جانب كبير من الضلال المبين، والشروء
عن الصراط المستقيم، أو هو زنديق كما قال بعض الأئمة، فالإمام
أبو زرعة، يقول: «إذا رأيت الرجلَ ينتقص أحداً من أصحاب

(١) انظر: عدالة الصحابة ﷺ في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ودفع
الشبهات، عماد السيد محمد إسماعيل الشريني، ص ٢١.

رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديقٌ، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حقٌّ،
والقرآن حقٌّ، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسُّنن أصحابُ
رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليُبطلوا الكتابُ
والسُّنَّة، والجرحُ بهم أولى، وهم زنادقة»^(١).

فعلينا أن نذكرهم دائماً بخير، وبالترضي عليهم، وما أروع
قولَ عبدِ الله بنِ مسعودٍ قال: إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ العِبَادِ، فَوَجَدَ
قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ العِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَتْهُ بِرِسَالَتِهِ
ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ العِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ
قُلُوبِ العِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَآءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ فَمَا رَأَى
المُسلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ
سَيِّئٌ^(٢).

وقوله أيضاً: (من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحابِ
رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً،
وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، اختارهم الله لصحبة
نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوا آثارهم)^(٣).

والإمام الشافعي ذكر الصحابة في رسالته القديمة، وأثنى عليهم
بما هم أهلُهُ، ثم قال: «وهم فوقنا في كل علم، واجتهاد، وورع،
وعقل، وأمرٍ استُدرِك به علم، واستُنْبِط به، وآراؤُهُم لنا أحمدٌ،

(١) الكفاية في علم الرواية ١/١١٩.

(٢) مسند أحمد رقم (٣٦٦٧).

(٣) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د. محمد أبو شهبه، ص ٥٢.

وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا، والله أعلم»^(١).

وختاماً: علينا أن نعلم، أنه إذا فاتنا شرفُ الصحبة، فيجب ألا تفوتنا أخوةُ النبي ﷺ والصحابة، وأن نكونَ من الذين تمنى رسولُ الله ﷺ رؤيتهم، فعن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ، فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا بِكُمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ يَأْتِي بَعْدَكَ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لِرَجُلٍ خَيْلٌ غُرٌّ مَحْجَلَةٌ فِي خَيْلِ دُهُمٍ بُهُمْ، أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، فَلْيَذَادَنَّ رِجَالٌ عَنِ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ، أَلَا هَلُمَّ»، فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: «فُسْحَقًا، فُسْحَقًا، فُسْحَقًا»^(٢).

فعلينا أن نتشبه بصحابة رسول الله الأبرار، وأن نمشي على

نهجهم:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

(١) مقدمة ابن الصلاح، تحقيق د. نور الدين عتر، ط ٣، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م،

دار الفكر، بيروت، ص ٢٩٧.

(٢) مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي،

دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة ١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، تحقيق:

حسين سليم أسد ٣٨٧/١١.



خواطرٌ بعدَ مُنتَصَفِ اللَّيْلِ

التفتَ وراءه بَعْدَ أَنْ رَأَى يَدًا سَوْدَاءَ تُرَبَّتُ عَلَى كَتْفَيْهِ، وتقول له: «انْهَضْ»، فرأى أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْيَدِ السَّوْدَاءِ هُوَ اللَّيْلُ، الَّذِي أَخَذَ يَرْمُقُهُ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ بِابْتِسَامَةٍ وَدِيعَةٍ، أَقْرَبَ مَا تَكُونُ إِلَى الضَّحْكِ، ورأى أَنَّ عَلَى جِيدِ اللَّيْلِ عِقْدًا مُتَنَاطِرًا مِنَ اللَّوْلُؤِ وَالْجَمَانِ تَزِينُ بِهِ ذَلِكَ الْجِيدَ . . .

ثُمَّ نَهَضَ مِنْ فِرَاشِهِ، وَأَبَى إِلَّا أَنْ يَقْضَى مُضْجَعِي مَعَهُ، وَلَعَلَّكُمْ إِلَى الْآنَ تَتَسَاءَلُونَ: مِنْ هَذَا؟ . . . فَيَأْتِي الْجَوَابُ: إِنَّهُ الْقَلَمُ.

وبسرعةٍ خاطفةٍ، وأنا لا أزال في حالةٍ من الذُّهولِ عن الواقعِ، أَحْسَسْتُ كَأَنَّ اللَّيْلَ قَدْ امْتَشَقَ الْقَلَمَ سَيْفًا، وَأَخَذَتِ الْأَحْرَفُ تَتَوَالَى إِلَى ذَهْنِي زَرَافَاتٍ وَوَحْدَانًا، وَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَالْكَلِمَاتُ تَنْسَابُ مِنْ خَاطِرِي مُتَنَاطِرَةً عَلَى الْأَوْرَاقِ كَحَبَّاتِ مَطَرٍ تَنْهَمِرُ فَوْقَ أَرْضِ عَظْشِي، ثُمَّ تَجْتَمِعُ فِي ثَرَى فِكْرِي، فَتُنْبِتُ بَسَاتِينَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، وَأَزْهَارًا فَاتِنَةً مِنَ الْجَمَالِ الْبَدِيعِ؛ كَلِمَاتٍ تَلَوَّنَتْ بِأَلْوَانِ شَتَّى، ثُمَّ تَحَوَّلَتْ إِلَى خَوَاطِرٍ طَلِيَّتْ بِلَوْنٍ فَاحِمٍ أَسْوَدَ؛ لِأَنَّهَا كُتِبَتْ عِنْدَمَا سَجَى اللَّيْلُ، وَأَرخَى سُدُوكَهُ، وَتَجَلَّبَبَ بِالْدِّيَاجِيرِ، وَبِيرَاعٍ انْتَزَعْتَهُ مِنْ سَوِيدَاءِ قَلْبِي، وَبِمَدَادٍ مِنْ دَمِي . . .

فكانت الخواطر كالتالي:

• تخيّلْ معي أنّ الوجودَ لا ليلَ فيه! ليتَ شعري! فماذا يفعلُ العابدونُ المُناجون ربّهم بالأسحار؟ وفي أيّ وقتٍ سيناجي العبدُ خالقه بلسانِ ذاكرٍ، وقلب خاشع ذليلٍ، بعيداً عن أعين الرُقباء؟ وفي أيّ وقت كان المتأمّل المفكّرُ في ملكوت السّموات والأرض سيّشعر برهبة السّكون، وظلم الدّياجي الحالكة؟ وبأي غطاءٍ - لولا اللّيلُ - سيتدثرُ العُشاق؟

ومن سيسامرُ الحزين المكلوم في السّهر، ومع من سيتبادلُ المؤرّقُ أحاديثَ الهمِّ والأسى؟ ومن ستناجي الثّكلى التي فقدت وحيدها؟ ومن سيصغي إلى أحاديث الأيّم التي عُيّبَ زوجها تحت أطباق الثّرى، وها هي الآن تعيش مع أطياف ذكراه؟

وعلى كلّ حالٍ، تمرُّ علينا أوقاتٌ غيرُ اعتياديّة، لا فرق فيها بين ليلٍ أو نهارٍ، ولا غيابٍ ولا إشراقٍ، ونردّد مع امرئ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح، وما الإصباحُ منك بأمثلٍ
• قل لي يا أخي: هل هربَ الكرى من جفنيك يوماً، وبحثت عنه ملياً فلم تجده؛ لأنّه كان متخفياً في دياجير العتمة؟! هل مرّ عليك وقتٌ ولم تشعر فيه بليلٍ ولا بنهار؟ وإذا حصل معك ذلك، فهل تذكّرت قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ [الإسراء: ١٢].

هل تقفُ معي لتنظرَ إلى السّباق الذي لا ينتهي إلى يوم

القيامة: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبُرُوجُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

• كم من أمرٍ شغلني، وكم من مصيبةٍ أهمتني، وكم من خطبٍ أرقني، وكم من همٍّ أقضَّ مضجعي، وكم جفا النوم جفوني، وكم من كربٍ أقلقني! فأتاني فرجُ الله من حيثٍ لم أحسب، وجعل الله بعد عُسرٍ يسراً، وجال في خاطري قول الشاعر:

ضاقَت فلما استحكمت حلقاتها فرجت، وكنت أظنها لم تفرج

• يأبى التاريخُ إلا أن يُسجَّلَ في أعلى صفحاته الذهبية أسماءَ كثيرٍ من العُظماء والمبدعين، ولكنَّ التاريخ لا يُنصف في كثيرٍ من الأحيان؛ لأنَّ كثيراً ممن يستحقُّون أن يُذكروا في صفحاته الذهبية أصبحوا نسياً منسياً، وطواهم في غياهب المجهول، كما أنَّ التاريخَ ذكرَ في تلك الصفحات الذهبية أسماءَ كثيرٍ ممن شوَّهوا تلك الصفحاتِ ودنَّسوها؛ وذلك لما تحملُ أسماؤهم من جحافل الخزي والعار، فكان حرياً بالتاريخ أن يكنس أسماءهم من صفحاته؛ حتى تُحافظَ على رونقها وصفائها، وتبقى غايةً في البهاء والجمال، لا تشوبها شائبةٌ، ولا تُدنَّسُ بأسماء المفسدين فيها.

وكثيراً ما أقول بيني وبين نفسي: حتَّى لا نظلمَ التاريخَ، لماذا لا نقسمه في كتبنا إلى شطرين: تاريخ العظماء، وتاريخ الأعداء؟! فليست النَّائحةُ كالثكلى، وما يَسْتوي الأعمى والبصير.

• عجباً لك أيُّها المتكبرُ! أنسيتَ ماضيكَ؟ أنسيتَ أنك خُلقت

من تراب، ثم من نطفة، ثم أصبحت رجلاً؟ أم باعتقادك أنك لم تكن وليداً تُحمل على الأُكف؟! فتذكر أيضاً أنك عندما تموت ستُحمل على الأُكف!

أنسيت - أيها المسكين - أنك أنت نفسك الذي كنت تحبو مُلاصقاً للأرض، ولا تستطيع أن تنهض، وكلما حاولت أن تنهض تعثرت من جديد؟ أما مرّ عليك أن المتكبرين سيُحشرون يوم القيامة أمثال الذرّ يطوهم الناس بأقدامهم؟ بالله عليك قل لي: لماذا تمشي وقد لويت عنقك، وشمخت بأنفك؟ أم هل أصابك داء الصُّعار الذي يُصيب الإبل؟ إذا كان كذلك، فتذكّر قوله تعالى على لسان لقمان: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨].

• من أصعب مواقف الحياة أن تعلم الحق، ولكنك لا تستطيع أن تنطق به، وأن تسكت عن الباطل وأنت تتألم وتحفر وتحفر الليث، وأن تشاهد الحقيقة بأم عينك، ولكنك تصبح أمام نفسك شاهداً زور، وأن ترى أن أنصار الباطل أكثر من أنصار الحق، بل ربّما لا تجد للحق أنصاراً!

لكن، لا تتعجب - يا صاحبي - ولا تُحمل نفسك ما لا تطيق، فما هي إلا لحظات وتزول الحياة، وتعود الأمور إلى موازينها ونصابها، ولا يظلم ربك أحداً.

وكرّر معي قول إقبالٍ مُناجياً ربّه:

لك في البرية حكمةٌ ومشيةٌ أعتت مذهبها أولي الألباب
إن شئت أجريت الصحارى أنهرًا أو شئت فالأنهار موجُ سرابٍ

ثم اعلم - حتى تريح ضميرك وفؤادك وتطمئن - أن كل شيء مُقدَّر، فكرر معي أيضاً قول الشاعر:

أرح فؤادك من همِّ الوجوداتِ وارجع إلى الله عن ماضٍ وعن آتٍ
● لا أظنُّ أن إنساناً أصدق الله عليه العطايا والمِنن، وأمطره بوابل نِعَمه كما أصدق عليّ، ولا أظنُّ أن إنساناً قابلَ إحسانِ الله بالإساءة كما قابلته! فاللهمَّ مغفرتك أوسعُ من ذنوبي، ورحمتك أرحى عندي من عملي.

● عينٌ طالما نظرتُ إلى المُحرّماتِ حريٌّ بها أن تجري دماً، ولسانٌ طالما وقع في أعراضِ النَّاسِ حريٌّ به أن يظللَ أبكم، وأذنٌ تتحسّس، وتتبعِ سوءاتِ النَّاسِ حريٌّ بها أن تظلَّ صمّاء، ولُبٌّ لا يردع صاحبه عن اتِّباعِ الهوى حريٌّ به أن يهوي بصاحبه في مهاوي الضلال.

● لست أدري لماذا كلما قرأتُ سورةَ يوسفَ، وتدبّرتُ فيها؛ فإنَّ هذه الآية تستوقفني كثيراً: ﴿يَصْلِحِ السَّجْنَءَ رَبَّابٌ مُتَّفِقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]؟ وكذلك قوله في سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا﴾ [المدثر: ١١]، وكذلك قوله تعالى في سورة الزمَر: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَيَّ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وهناك آيةٌ في كتابِ الله تَحْتَاجُ منك إلى جوابٍ قبل فوات الأوان، فهَيِّئْ نفسك للإجابة، وإذا لم تُعِدَّ جواباً إلى الآن فبادرْ إلى جوابِ فِعْليِّ وقولي؛ لأنَّك إذا لم تُعِدَّ جواباً فسوف تكون

من الخاسرين، قال تعالى في سورة الحديد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]؟ فقل: آن الأوان يا ربّاه.

• أخي: تذكّر دائماً أنّ مع العسر يُسرّاً، وأنّ الفرج بعد الشدّة، وأنّ الله فعّالٌ لما يُريد، وأنّ الأقدار تجري علينا؛ شئنا ذلك أم أبينا، وأن التوكّل على الله غير التّواكل، وأن الظنّ غير اليقين، وأنك لا تدري متى سوف يُقال عنك: رَحِمَ اللهُ فلاناً، أو يُقال: الحمد لله الذي أراحنا من فلان! فلك ذكّران؛ ذكّر في الحياة، وذكّر بعد الممات، وكُن كما قال أحمد شوقي:

فارفع لنفسك بعد موتك ذكّرها فالذكر للإنسان عمرٌ ثان





قُلُوبٌ شَاكِيَةٌ، وَعَبْرَاتٌ سَاجِمَةٌ فَلِمَنْ يَكْتُبُ الْأَدِيبُ؟!

- أحياناً أُمسِكُ يراعِي، وأغمسه في عَبْرَاتِ جفوني، ونبضاتِ قلبي، لأكتبَ شيئاً ما، مما يجول في خاطري، وينثالُ في مخيلتي ولأسطّر ما كتبتُ في سِفْرِ الأَحْزَانِ...

فتخاطبني نفسي جهاراً، وأحياناً تهمس في سرِّي قائلةً: ومن يقرأ في هذه الأيام؟ ثم إذا كان الحزنُ يسيطرُ عليك فلا تُعكّر بدموع أوراقك وقوافيك مزاجَ الآخرين!، ولا ترمِ عليهم وابلًا من المآسي والأحزان، فإن فيهم ما يكفيهم...

... فأهمُّ بأن أُلقي بالقلم جانباً، وأمزق أوراقِي، وألملم شتاتها المتناثرَ كروحي، وإذ بنفسِي تحدثني أيضاً، فأصغي إليها وإذا بها تقول لي: ولم لا تكتبُ؟ أو ما علمت أن هناك آلافاً من القلوب الشاكية، والعيون الباكية، والعبيراتِ الساجمة، والنفوسِ المتألّمة التي بحاجة إلى من يُضمّد لها جراحها، ويسكب عليها بلسمَ الكلماتِ، فيكفكفُ عن وجناتها دموعها، ويمسح بلمسةٍ حانيةٍ غبارَ الزمنِ المتراكم، والرزايا العصبية التي رانت على النفوس؟!..

أو ما علمت أن الخليّ من الهموم والأحزان لا يحتاج إلى

كتاباتك بقدر ما يحتاج إليها ذو القلب المتألم، والجفن الباكي؟...
- يا صاحبي - فلعلّ الحزانى والشكالى وأولي الأسي يجدون فيما
يقرؤون سلواناً يُنسيهم أحزانهم، وتجلداً يصبرهم، أو على الأقل
فإنهم يجدون في يراعك شريكاً يمشي معهم في دروب العذاب،
ويتجرع معهم كؤوساً مترعة من الحرمان والشقاء..

اكتب، ففي زماننا كثيرٌ من الناس تُرَجِّع حناجرهم صدى
المتنبي وهو يقول:

رمانى الدهرُ بالأرزاءِ حتّى تكسرتِ النّصالُ على النّصال
- لولا الأسفارُ لما نظمتُ كثيراً من الأشعار، ولما جالت في
خاطري كثير من الأفكار، فشكري لك، وعظيم ثنائي أهديه إليك
أيها السّفْرُ... رغم أنك قطعة من العذاب...

- في كثيرٍ من الأحيان أرنو بعين البصيرة والمنطق، جاعلاً
من الخيال مطايا للمستقبل، فأرى تلك المطايا تحملُ جبلاً
من الآلام، وتغوص في بحارٍ من الأسي، كما أنها تحملُ دموعاً
تذرف، ودماءً تنزف، وآهات تئن وتنوح... فأرجع بفكري
من المستقبل المُتخيّل، ومن أحلام اليقظة إلى الواقع الملموس..
وأقول: سحراً للخيال، وبعداً لأحلام اليقظة، فهيهات هيهات أن
يعلم الغيبَ أحدٌ إلا الله، ويلوح في أفق شعوري، وفي سماء فكري
قولُ الشاعر:

إن الليالي والأيامَ حاملَةٌ وليس يعلمُ غيرُ الله ما تلدُ
نعم، عجيبةٌ هي الحياةُ في حملها للمتناقضات، وكم وقفتُ

ذاهلاً واجماً أمام القَدْرِ، وما أتى به من الدروس والعِبَر، فكم من ذليلٍ بالأمس أصبح اليوم عزيزاً!، وكم من عزيزٍ بالأمس أضحى اليوم ذليلاً... كم من فقيرٍ أخذ يخوض بحر الغنى ركباً فُلكَ السعادة، وكم من غنيٍّ قلبَ له الزمنُ ظهر المِجَنِّ..

فنهمس في باطن خواطرنا ونقول: الله في خلقه شؤونٌ، وكلُّ شيءٍ مقدَّرٌ لحكمةٍ ما، ومع مرور الزمن قد نعلمها، وقد تمضي الحياةُ ونحن في حَيْرَةٍ من أمرها!!!...

- ألا ما أصعب الحياةَ، وما أشدَّ حيرتَنا فيها، وكم يطولُ بنا الدهولُ!، وكم نرتشفُ من كأس اليأس! وكم نتجرع مرارة الإحباط! وكم تساورُنَا الشكوكُ تلَوَ الشكوكِ!، وكم ترسم علاماتُ الاستفهام على وجوهنا، ويتملِّكنا التعجُّبُ والإطراقُ لكثيرٍ من القضايا التي تحلُّ بنا دون سابق إنذار!

ولكن، كل ذلك يزول، وتطمئن قلوبُنَا، وتتربُّعُ السكينةُ على عرش أرواحنا، عندما نؤمن بالقضاء والقدر، ونعلم أنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا...

- كثيراً ما أهرب من واقعي المؤلم المرير إلى ماضٍ عشتُه، لأتفياً ظلالَ الذكريات برهةً من الزمن، ففي ذلك انتعاشٌ لقلبي، وسلوٌ لأحزاني، وتلاشٍ لهمي، وتفريجٌ لبعض كروبي...

- تخيّل معي أن الناسَ إذا ماتوا لا يُبعثون، وأنهم إذا بُعثوا لم يُحاسبوا! إذن، لرأيت الظلم يطغى، والباطل يصول ويجول، ورنوت إلى الحياةِ فإذا قانونُ الغاب يسري فيها... ولكن، ليت

شعري! ألا تلاحظُ معي أن الناس تعلم أنها إذا ماتت سُبُعْتُ، وإذا بُعِثت سُبُعْتُ، ومع ذلك نرى أن الظلمَ يطغى، والباطلَ يصولُ ويجول، والحياة يسري فيها قانونُ الغاب. . فكيف إذا كان الناسُ لا يعلمون؟!

- عجباً للحقائق عندما تُقلب، وعجباً للعقول عندما تلتقم الوهم وتلفظ الحقيقة، وعجباً للصادي وهو يتبع السراب، وعن يمينه وشماله ينابيعُ من الماء العذب القراح. . .!
- القلبُ لم يُخلق من الصّوان الصلْد، والحجارة الصّماء، فعلامَ نرى قلوباً أشدَّ قسوةً منهما؟ وأنّى للقلوب المتحجرة أن تشعر بذرةٍ من الرحمة والشفقة؟!

- مما لاحظت في حياتي أن القلب اللين قد يقسو حيناً من الأحيان، ولكنّ القلبَ القاسي لا يلينُ مدى الأزمان!
- إذا رأيتَ النسر يهوي بسرعةٍ خاطفةٍ من ذرى الجبال وأعاليتها إلى الأرض، ومن الشّمَم والعلوّ إلى الحضيض والانحطاط، فلا تظننَّ أنه بنزوله وانخفاضه يتواضع. . . إنما ينقضُّ على فريسته ليعود إلى علوه وسماه أنفَتِه من جديدٍ. . . فالنسور - بحسب ظني - لا تعرف التواضع!





إدارة الوقت من المنظور الإسلامي والإداري

تلخيص هذا الكتاب فائز بمسابقة الملخص الماهر.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: كلنا نعلم أن من أعظم نعم الله ﷻ علينا نعمة الوقت، فالوقت هو أعظم ثروة في حياة الإنسان، وهو من أنفس الأمور التي يجب علينا المحافظة عليها، ورحم الله من قال:

والوقت أنفس ما عُنت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع

وفعلًا كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري:

«نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس الصحة والفراغ».

وعندما قالوا: «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك»، ما قالوا

ذلك إلا عن تجربة، ووعي عميقٍ لقيمة هذه النعمة العظيمة،

وما أقسم الله في كتابه بالليل والنهار والعصر والفجر والضحي إلا

لتنبهنا على أهمية الوقت في حياة المسلم...

كما أن الوقت هو النعمة العظمى التي ساوى الله بين عباده

بها، فالوقت للجميع بدرجة واحدة، ولكن الناس يختلفون في

استثماره وإدارته.

في هذه الدنيا، بعض الناس يبحثون عن الفراغ ولا يجدونه لكثرة أعمالهم، وبعض الناس يجدون الفراغ بين يديهم، ولكنهم لا يعرفون إدارة أوقاتهم...

فكيف يستغل الإنسان وقته وينظمه، ويطبق عليه التطبيقات الإدارية؟.

وكيف يستطيع المسلم أن يمارس الإدارة الجيدة في جميع شؤون حياته الدينية والدينية؟.

وهل يمكن عزل الوقت عن حياة الإنسان الشخصية والعملية؟. ما هو تعريف الوقت؟ وما أهميته في القرآن الكريم والسنة المطهرة؟، وكيف يدير الإنسان وقته في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، وأقوال السلف؟.

ما هي الواجبات الملقاة على عاتق المدير المسلم، وما مسؤولية المسلم عن الوقت؟.

ما هي الأدوات والوسائل المستخدمة في تنظيم إدارة الوقت؟ وما هي أبرز المناهج المستخدمة للإدارة الفعالة للوقت من خلال تطوّر تاريخي؟ وما هو المنهج الجديد في إدارة الوقت بفعالية؟.

ما هي الناحية التطبيقية لإدارة الوقت في العالم العربي بعامة، وفي المملكة العربية السعودية بخاصة؟.

هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة المشابهة يجيبنا عليها فضيلة الدكتور خالد بن عبد الرحمن الجريسي - حفظه الله تعالى - في كتابه القيم: (إدارة الوقت من المنظور الإسلامي والإداري).

هذا الكتابُ النفيسُ في مادته وموضوعه، والمنطقيُّ في صياغة وطريقة عرضه، ونحن بأشدِّ الحاجة إليه في وقتنا المعاصر، فهو كتاب دينيٌّ تربوي إداري تطويريٌّ، بأسلوب ينسجم وثقافة المؤمن المعاصر... ويشحذ به الهمة، ويساعده على استثمار حياته بما فيه الخير العميم، والفائدة والمنفعة للجميع، ويستطيع الفرد أن يدير حياته إدارةً فعالة فاعلة، خاصة أن إدارة الوقت في زماننا المعاصر تعتبر واحدةً من أهم موضوعات علم الإدارة الحديث...

وسنقوم بدراسة موجزة عن هذا الكتاب، نستخلص منها شَهده، ونصفي فيها عسله، حتى يكون الكتابُ مادةً موجزةً مختصرة بين يدي القارئ الكريم.. نسير فيها مع الكتاب خطوة بخطوة، من غير إخلال ولا إملال...

بدايةً، المؤلف الدكتور خالد بن عبد الرحمن الجريسي - حفظه الله تعالى - لم ينسَ والديه الكريمين، فهو بارٌّ بهما أشدَّ البر، وأهدى هذا الكتابَ إلى والديه، لافتاً نظرنا إلى ضرورة أن نعرف لكل إنسان فضله، وأن نقابلَ الإحسان بالإحسان...

يهدي الكتابَ لوالديه بلهجة الولد البارِّ المتواضع، ولجمال الإهداء رأيت ألا أغيرَ فيه أي كلمة، وأن أنقله للقارئ الكريم كما كتبه فضيلة الدكتور:

«يشرفني أن أضع هذا الجهدَ المتواضعَ بين يدي والديِّ الكريمين، وقد أهديا إليَّ من قبلُ كل عناية، وأسديا إليَّ كل تشجيع، وما عملي هذا إلا قطافٌ من فيض أيديهما، اللهم اجزهما

عني كلَّ خير، وارزقهما طول عمرٍ في حسن عمل ووافر نعمة وعافية» .

بعد الإهداء وضع المؤلف مقدمةً للكتاب، ذكر فيها أن الكفاءة والفاعلية مطلبان رئيسان في الإدارة، وهما من تعاليم الدين الإسلامي، فتعاليم الدين الإسلامي تحث المؤمن على أن يكون قوياً فعالاً وفاعلاً، وأن يتحلى بالصفات الحميدة، وأن يعطي كل ذي حق حقه . . .

ثم تحدث فيها عن منهجه في الكتاب، حيث قسّم الكتاب إلى ستة فصول، والفصول إلى أبحاث، متّبعاً منهج البحث العلمي الموثق، وفق قاعدة: (إن كنت ناقلاً فالصحة أو مدّعياً فالدليل)، وقد أتى بالمحتويات بعد المقدمة مباشرة، ليسير الإنسان مع الكتاب على بصيرة ونور، مّطلعاً على العناوين الرئيسية للفصول والأبحاث، قبل أن يخوض غمارها، ويستخرج دُررها . . .

وستكون لنا وقفةٌ مع كل فصل بأبحاثه، وأهم ما جاء فيه . .

الفصل الأول: الوقت وأهميته في الإسلام والإدارة:

وهذا الفصل من (ص ١٣) إلى صفحة (٤٢)، بدأه بتمهيدٍ تحدث فيه عن مبادئ ظهور علم الإدارة عند الغرب، وكيف تناسوا أن تراثنا الإسلامي غنيٌّ بهذه المبادئ والأسس المفيدة التي يمكن تأصيلها في مجال علم الإدارة، ذاكراً حديث النبي ﷺ الذي رواه الترمذي وغيره: «لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ وَمَالِهِ

من أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيَمَا عَلِمَ». والحديث الآخر الذي رواه الحاكم: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

وذكر أن الوقت أمانة عند المسلم، وعليه ألا يفرط فيه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].
والوقت من أهم عناصر الإنتاج، والله تعالى هو الذي يقدر الليل والنهار...

بعد التمهيد قسّم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الوقت وتحديد مفهومه:

فالوقتُ يعدُّ من أكثر المفاهيم صلابَةً ومرونة في آن معاً، فكل فرد يستخدم عباراتٍ تختلف عن الآخر عندما تتحدد علاقته بالوقت، فالوقت كالسيّد واللغز، والعبد المملوك والحكم والقوة المحايدة... باختلاف الرؤية للوقت هي التي تحدد أسلوب التعامل معه، فاستخدام الوقت هو الذي يبيّن الفرق بين الإنجاز والإخفاق...

ومن الصّعب تعريف الوقت بتعريفٍ محددٍ ودقيق، إلا أن تعريفه في القاموس: (الفترة التي تُستغرق في أداء تصرفٍ أو عملية... (ما).

ولتيسير الأمور قام المؤلف بوضع خصائص للوقت، وتقسيمه إلى عدة أقسام.

فمن خصائص الوقت: أنه يمرّ بسرعة محددة وثابتة، ويسير إلى الأمام بشكل متتابع، ولا يمكن إيقافه، وهو مُلك للجميع، فالبعض يوظّفه بشكل جيد، والبعض يهدره ويضيعه، كما أن الوقت سريع الانقضاء، ولا يُباع ولا يُشترى بل يُستثمر، والوقت يتخلل كلّ جزء من أجزاء العملية الإدارية، والذي لا يستطيع إدارة ذاته لا يستطيع إدارة وقت الآخرين...

والحلّ الوحيد لاستخدام الوقت يكمن في الاستخدام الأفضل للوقت المتاح...

أنواع الوقت: قسّمه المؤلف إلى أربعة أنواع:

١- الوقت الإبداعي:

وذلك عندما يُصرف في عمليات التفكير والتحليل والتخطيط المستقبلي، وتنظيم العمل وتقويم مستوى الإنجاز الذي تم فيه، ومعالجة المشكلات الإدارية بأسلوب علمي منطقي.

٢ - الوقت التحضيري:

وهو الفترة الزمنية التحضيرية التي تسبق عملية البدء بالعمل.

٣ - الوقت الإنتاجي:

وهو المدة الزمنية التي تُستغرق في تنفيذ العمل الذي تم التخطيط له في الوقت الإبداعي، وكذلك التحضير له في الوقت التحضيري، وكلما كان الوقت يخصص لتنفيذ أعمال روتينية، كلما كان الوقت المخصّص للإبداع أو التحضير قليلاً.

وقسم الوقت الإنتاجي إلى قسمين :

أ - وقت الإنتاج العادي (المنظم أو غير الطارئ).

ب - وقت الإنتاج غير العادي (المنظم أو غير الطارئ).

ولكي ينجح الإداري فإن عليه أن يخصص جزءاً من وقته للإنتاج العادي، لمواجهة تأثير الإنتاج غير العادي.

٤ - الوقت العام أو غير المباشر:

وهو الوقت الذي يمارس فيه الإداري أنشطة فرعية عامة، لها تأثيرها الواضح على مستقبل المنظمة، وعلى علاقتها داخل بيئتها أو المجتمع كتلبية الدعوات وحضور الندوات...

المبحث الثاني: أهمية الوقت في القرآن الكريم:

أكد القرآن الكريم على أهمية الوقت في سياقات متعددة، وألفاض الوقت في القرآن بعضها له علاقة بالعمل وبعضها بالإدارة وبعضها بعلاقة الإنسان بربه، ويمكن تلمس ذلك من خلال عدة أمور:

أولاً: الوقت من أصول النعم: فنعم الله لا تُحصى والوقت عمرُ الحياة، والآيات التي ترشد إلى قيمة الزمن كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣، ٣٤].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿١٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

والله تعالى مالك الزمان والمكان.

ثانياً: الإقسام بالوقت: فقد أقسم الله بالعصر والليل والفجر والضحي... وإذا أقسم الله بشيء من خلقه فذلك ليلفت انتباههم إليه، وأنه ذو شأنٍ ومنفعة... .

ثالثاً: ارتباط الوقت بالغاية من الخلق: فالله خلقنا للعبادة، وجعلنا خلائف في الأرض كما قال في كتابه العزيز، والعبادات لها مواقيت محددة وعلى رأسها الصلاة التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وكذلك الزكاة والحج والأذكار والنوافل قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]. وغيرها من الآيات الكثير... .

رابعاً: الوقت وتعاقب الأهلة: فالأهلة مواقيت للناس والحج، والإنسان يعلم بتعاقب الليل والنهار دخول السنين وانقضائها كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَنْ أَحْسَنَهُ آيَاتِنَا فَاحْسِنُوا وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفصيلاً﴾ [الإسراء: ١٢].

المبحث الثالث: أهمية الوقت في السنة المطهرة:

نُقل عن النبي ﷺ الكثير من الأقوال والأفعال التي تتحدث عن الوقت، وذلك وفق المحاور التالية:

أولاً: الوقت نعمة عظيمة: فالنبي ﷺ قال كما روى البخاري: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ». فالإنسان عليه أن يحسن استغلال وقته وصحته... .

ثانياً: الوقت مسؤولية كبرى: فوق المسلم أمانة وهو مسؤول عنه يوم القيامة كما في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: «لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟».

ثالثاً: الوقت وعاء العبادة: فالعبادات كلها محددة بأوقات معينة لا يصح تأخيرها عنها، فالصلاة لوقتها، ونصوم لرؤية الهلال ونفطر لرؤيته.

رابعاً: الوقت في أفعال النبي ﷺ: فالنبي عليه الصلاة والسلام أشد الناس حفاظاً لوقته، ووقته جزءٌ لله وجزءٌ لأهله وجزءٌ لنفسه، وكان يملأ وقته دائماً بالعبادة، فكان عبداً شكوراً.

خامساً: تقسيم الوقت وتنظيمه: فتنظيم الوقت وتقسيمه يساعد في الحفاظ عليه، وحث النبي على ذلك كما في الحديث الذي يرويه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنه، قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَمْ أُخْبَرَ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ» قُلْتُ: إِنِّي أَفَعَلُ ذَلِكَ. قَالَ: «فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمْتَ عَيْنَكَ وَنَفِهْتَ نَفْسَكَ، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ» رواه البخاري.

ومن تنظيم الوقت أن يخصص الإنسان جزءاً للراحة والترويح عن النفس، فإن النفس البشرية ملوثة، وهمة الإنسان بين العلو وبين الفتور، فالمباح يشحذ الهمة للنشاط في العبادة من جديد.

سادساً: الحث على اغتنام الوقت، والتحذير من إضاعته:

واستشهد المؤلف على هذا الكلام بحديث النبي ﷺ الذي رواه الحاكم: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» فهي فعلاً نصائحٌ ثمينة، كما حث النبي ﷺ على المسارعة في فعل الخيرات قبل أن تعوق الإنسان بعضُ العوائق التي تمنعه منها، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْظُرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًّا أَوْ غِنًى مُطْغِيًّا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجَالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمْرٌ» رواه الترمذي.

كما كان عليه الصلاة والسلام يحث على التبكير في الأعمال، فالله بارك لأمته في بكورها، فالغدو بركةٌ ونجاح . . .

وختم المؤلف هذا الفصل بذكر الهوامش، وهذا شأنه في الكتاب كله، يذكر الهوامش في نهاية الفصل، ولعله أراد من ذلك ألا يقطع سلسلة أفكار القارئ الكريم، الذي قد يتشتت بين الورقة والحاشية، لذلك جمعها له في نهاية كل فصل.

الفصل الثاني: الوقت في الفكر الإداري:

وهذا الفصل من (ص ٤٣) إلى (ص ٦٨)، وبدأه بقوله: «يختلف مفهوم الوقت لدى الأفراد، وذلك باختلاف دوافعهم واحتياجاتهم وطبيعة وظائفهم، وهو يختلف أيضاً من ثقافة لأخرى . . .».

ثم قسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإدارة وإدارة الوقت:

ولقد قسم أيضاً هذا المبحث إلى محورين :

الأول : الإدارة وتحديد مفهومها :

فتعاريفُ الإدارة كثيرة ومتنوعة، والأسبابُ التي أدت إلى عدم اتفاق الباحثين على تحديد تعريفٍ للإدارة يتلخص في ثلاثة أسباب :

١ - الإدارة علم حديث نسبياً، مع أنها عُرفت ممارسة منذ قديم الزمان .

٢ - الإدارة تشمل مختلف مجالات الحياة، وهذا الشمول والتنوع إلى جانب حداثة علم الإدارة أدى إلى تأخر الوصول إلى تعريفٍ شاملٍ لها .

٣ - الإدارة تُصنّف ضمن العلوم الإنسانية لا العلوم الطبيعية، وهي تدرس الشخصية الإنسانية وسلوكياتها التي تتصف بالحركة المستمرة وعدم الثبات، وهذا أدى بدوره إلى اختلاف تفسير الشخصية الإنسانية وسلوكها ودافعيتها من مفكرٍ لآخر . . .

ثم ذكر المؤلف مجموعة مستقاة من تعريفات رواد الفكر الإداري للإحاطة بمضمونها، وخلص إلى أن الإدارة بمفهومها الحديث يتعين النظر إليها باعتبارها وحدة متكاملة شاملة تضم عناصرها مختلف المداخل الفكرية . . . فالإدارة هي عملٌ ووقتٌ يقترن أحدهما بالآخر . . .

الثاني : إدارة الوقت وتحديد مفهومها :

وكذلك في مجال الإدارة الذي تعنى به هذه الدراسة، يُعد

الوقت من أكثر المصطلحات صعوبةً عند محاولة تحديده... .

وينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار وقتَ المديرين الأكفاء، فعنصرُ الوقت هو العنصر الوحيد الموزَّع بعدالة بين البشر، ولكنَّ السؤال: من يستثمر هذا العنصر؟ وكيف؟ فالوقت يعد من أكثر العناصر هدراً، وأقلها استثماراً... . ثم ذكر المؤلف عدة تعريفاتٍ لإدارة الوقت، وخلص إلى أن مفهوم إدارة الوقت يعد من المفاهيم المتكاملة والشاملة لأي زمانٍ أو مكانٍ أو إنسان... . كما ارتبط مفهومُ الوقت بشكل كبيرٍ بالعمل الإداري بهدف تحقيق فعالية مرتفعةٍ في استثمار الوقت المتاح للوصول إلى الأهداف المرجوة... .

المبحث الثاني: الوقت في النظريات الإدارية:

ظهرت في أوائل هذا القرن نظرياتٌ كثيرةٌ في الإدارة، وجذورها ترجع إلى فريدريك تايلر مؤسس الإدارة العلمية، وقد أسهم تايلرُ إسهاماً كبيراً في زيادة فعالية إنتاج الأنشطة الإنتاجية بطريقة مثلى، كما سعى هنري جانث إلى تحديد الأجر اليومي بشكل ثابت، وتابع فرانك جليبرث وزوجته ليليان دراسة الحركة والزمن بشكل أكثر تفصيلاً، ونشر هارنجتون إيمرسون كثيراً من المبادئ منها:

المثلُّ أو الأهداف، حسن الإدراك، الإرسال، التنميط، كما اهتم هنري فايول برفع مستوى الأداء للمنظمة بوجه شامل.

... . ومن الملاحظ أن محاولات تايلر وأتباعه لم تعبر عن المفهوم الحديث لإدارة الوقت، فهدفها الرئيسيُّ زيادة الإنتاج ومن ثم الأرباح... .

ثم جاءت نظريّة العلاقات الإنسانية بعد حركة الإدارة العلمية في النظرية الكلاسيكية، وألحت على بناء المنظمة من الوجهة الاجتماعية والإنسانية، وأعطت الأولوية لجماعات العمل غير الرسمية، وباختصارٍ فقد ألحت هذه النظرية على الدوافع الاجتماعية، واهتمت بالوقت بشكل ملحوظ، وأكد إلتون مايو رائدُ هذه المدرسة على أهمية الاعتناء بالعامل الإنساني، واختيار فترات الراحة المناسبة . . .

ثم جاءت بعدها النظرية الحديثة للتنظيم التي استفادت من النظريات السابقة وأضافت عليها، وهي نظرية اتخاذ القرارات التي استعانت بالوقت في حل مشكلات الإنتاج والتخطيط، كما اعتمدت النظرية البيولوجية على الوقت، وشبّهت المنظمة بالكائن الحي؛ أي: تُولد ثم تنمو ثم تتهاوى ثم تموت . . .

ونلاحظ مما سبق أن كلّ هذه النظريات تهتم بالوقت اهتماماً بالغاً وتعتمد عليه، فكل عملٍ إداري يحتاج إلى وقت، وعلى المدير أن يعمل على استثماره بكفاءة عالية.

المبحث الثالث: إدارة الوقت داخل العملية الإدارية:

كل عمل إداري يحتاج إلى وقتٍ، وإذا لم نتمكن من استثمار الوقت كله فعلياً أن نستثمر أكبر قدرٍ منه بشكلٍ فعلي فعال مثمر.

ناقش المؤلفُ - حفظه الله - هذه القضية من خلال خمسة محاورٍ كالتالي:

١ - التخطيطُ والوقت: فالوقت يرافق التخطيط في جميع

عملياته، وإعدادُ الخطة الإدارية يتطلب توزيع الوقت عليها بشكل يتناسب مع المراحل المحدودة، ومن مقومات الخطة الناجحة أن تكون محددةً بفترةٍ زمنية معينة، وهدفٍ معين، والتخطيطُ وإن كان يستغرق وقتاً طويلاً في بداية الأمر إلا أنه يُعوّض ذلك الوقت مضاعفاً فيما بعد... .

وأول شيء يقوم به المدير الناجحُ توضيحُ الأهداف وترتيبها، ويكون هذا التحديد عادةً بشكل هرمي، حيث بيّن في الشكل أن هرمية الأهداف تكون كالنحو التالي:

الأهداف الإستراتيجية
الأهداف السنوية
الأهداف الشهرية
الأهداف الأسبوعية
الأهداف اليومية

فالجدول الزمني يساعد كثيراً في قياس مدى الكفاءة والفعالية في تحقيق الأهداف... .

٢ - التنظيم والوقت: فالتنظيم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإدارة الجيدة للوقت، فهو يقلّص الزمن المطلوب للإنتاج، ويرتبط موضوعُ الوقت بالتنظيم الإداري من عدة نواحي، منها:

تحديدُ مهمات العاملين واختصاصاتهم، تقسيمُ العمل بينهم بشكل موضوعي وعادل، تجديد وتبسيط إجراءات العمل المتبعة،

بالإضافة إلى توافر البيئة التنظيمية المادية والاجتماعية، وتطبيق مبدأ الإدارة بالاستثناء والاتجاه نحو تفويض السلطة، فالإدارتان العليا والوسطى تتوصلان إلى قراراتٍ تقوم المستويات الإدارية المباشرة بتنفيذها، وتأخذ منهما المعلومات الخاصة بالتنفيذ.

٣ - التوجيه والوقت: فالتوجيه هو الذي يستغرق جزءاً كبيراً من الوقت الإداري بشكل عام، فالموجه يقوم بإرشاد العاملين إلى كيفية تأدية وتنفيذ العمل، بجانب الاتصالات بمختلف أشكالها الشفهية والكتابية والتقنية، وإطالة زمن التوجيهات تجعل العاملين في ملل، ولن تتحقق الفائدة من الوقت في أثناء التوجيه إلا بتوفر قواعد ثابتة وسليمة للبيئة المادية الاجتماعية الموجودة في المنظمة، ويمكن للإداري الاعتماد بشكل كبير على الاتصالات الشفهية بهدف تقليل الوقت اللازم لكتابة الخطابات وطبعتها...

وكل ما ذكر من شأنه أن يزيد من فاعلية الاتصال، واستغلال الوقت بشكل فعال.

٤ - الرقابة والوقت: فالرقابة تلازم عملية التخطيط وتعتمد عليها، وتظهر أهمية الوقت في الرقابة لدى الكشف عن أخطاء، أو منع حدوثها في الوقت المناسب، وكلما كانت الرقابة نابعة من الذات كلما كانت محافظة على الزمن، ومعتمدة على الثقة والحرص في تحقيق الأهداف.

٥ - اتخاذ القرارات والوقت: كل عملية اتخاذ قرارات تحتاج إلى وقتٍ محدد، ونوعية المشكلات وظروفها لها تأثيرها على الوقت

المحدد في اتخاذ القرار، وقد اهتمت الإدارة الحديثة بالأسلوب العلمي في اتخاذ القرارات المتمثل في تشخيص المشكلة وتحديدها، ووضع المقترحات المناسبة لحلها وتقويمها وتنفيذ المناسب منها، واهتمام الإداري بكل الوسائل والطرق المتاحة في اتخاذ القرارات له أثر كبير في زيادة فاعلية اتخاذ تلك القرارات، وتوفير الجهد والوقت والتكاليف.

الفصل الثالث: إدارة الوقت من منظور إسلامي:

وهو من (ص ٦٩) إلى (ص ١٠٢)، وقد قسم المؤلف هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: إدارة الوقت في القرآن الكريم:

فالقرآن الكريم تطرّق في كثير من آياته لوظائف الإدارة وأشار إليها، ويمكن تناول ذلك من خلال عدة محاور:

أولاً: التخطيط:

ففي سورة يوسف عرض القرآن الكريم لأنموذج بشري في التخطيط، حيث رسم يوسف عليه السلام خطة السنوات المقبلة، وهذا من باب الأخذ بالأسباب كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ قَالَُوا أَضْغَنْتُ أَحْلِمُ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ

إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾ [يوسف: ٤٣ - ٤٩].

يتضح من الآيات أن يوسف عليه السلام قام بموازنة، وهذه الموازنة تعتمد على عدة أركان تتضح فيما يأتي:

- ١ - الموازنة بين الإنتاج الزراعي والاستهلاك.
- ٢ - تمَّ إعداد خطتين سبعيتين للدولة.
- ٣ - هذه الموازنة كانت طويلة الأجل أربعة عشر عاماً.
- ٤ - استخدام الموازنة باعتبارها أداة رقابية لضمان تنفيذ الخطة بدقة.

ثم خلاص المؤلف بعد استعراض تعريفين للتخطيط من المنظور الإسلامي إلى أن التخطيط: «إعمال الفكر في رسم أهداف مشروعة، مع تحديد الوسائل المتاحة وفق الموارد المباحة شرعاً، وبذل الطاقات في استثمارها، لتحقيق الأهداف في أقل وقت ممكن، مع تعليق النتائج بقضاء الله وقدره». فيكون هذا التعريف شاملاً لجميع مراحل العملية التخطيطية.

وأهم عناصر التخطيط الإسلامي من خلال استعراض بعض الآيات القرآنية تتمثل فيما يلي:

- ١ - تحقيق الأهداف: فهو من أبرز سمات التخطيط التي دعا إليها القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿أَمْنَ يَمْشِي مَكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ

أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ [الملك: ٢٢]. فالمؤمن يمشي إلى هدف وغاية.

٢ - تحديد الأولويات: أي: ترتيب الأهداف الأهم فالأهم، فحين أمر الله نبيه ﷺ بالدعوة في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيَنُ ﴿١﴾﴾ فَرَّ فَاَنْذَرَ ﴿٢﴾ [المدثر: ١، ٢]، فإنه حدّد له أولوية دعوة الأقربين من عشيرته بقوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وأمر الله المسلم أن يبدأ بنفسه ثم بأهله فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْأَ أَنْفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

٣ - استثمار جميع الموارد المتاحة: كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٣٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٤﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤].

فهذه الموارد التي ذكرت يتبوأ الوقت المنزلة الأهم بينها، حيث سخره الله لرفع الإنسان.

٤ - بذل الأسباب والوسائل المشروعة: فتحقيق الأهداف لا يكون إلا ببذل الأسباب، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وعلى المسلم أن يتحرى في مشروعية الوسائل التي يستخدمها، فالغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة.

٥ - تعليقُ النتائجِ بمشيئةِ الله تعالى: فالتوكل على الله يكون بعد الأخذ بالأسباب، والنتائج تكون متعلقةً بمشيئةِ الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]. وهذا الخطاب للنبي ﷺ وأُمَّته.

ثانياً: التنظيم:

فهو أهم مقومات نجاح العمل الإداري، وخصائص التنظيم في القرآن الكريم تتمثل في عدة محاور:

١ - التنظيم الهرمي للوظائف: فكل وظيفة فيها رئيسٌ ومرؤوسٌ، ويرجع ذلك إلى تفاوت الاختصاصات والخبرات والقدرات، ويشير القرآن الكريم إلى هذا التفاوت بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال المعري:

الناسُ للناسِ من بدوٍ وحاضرةٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدماً
ومن لوازم التسلسل الوظيفي طاعةُ المرؤوس للرئيس، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ نَنزَعْنُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

٢ - تقسيمُ العمل وتحديد الاختصاصات: فقد قال الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ٥٥]، فالعلم والحفظ هما الصفتان اللتان أبرزهما

يوسف في عرض مؤهلاته لطلب الترشيح للوظيفة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فهذا يعدُّ نصّاً في تقسيم الأعمال والمهمات.

٣ - التفويض: وهو توكيل بعض المهمات على المرؤوسين ومنحهم الصلاحيات اللازمة لتنفيذها، وهو خطوة مهمة نحو تحقيق الأهداف وإدارة الوقت، فهذا سيدنا موسى يطلب من الله أن يشدَّ عضده بأخيه هارون، قال تعالى على لسان موسى ﷺ: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِى (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) أَشَدَّدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كِي نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا (٣٣)﴾ [طه: ٢٩ - ٣٤]، وكذلك عندما فوض ملك مصر سيدنا يوسف بحفظ خزائن الدولة، فالمهمات والصلاحيات تشریف وتكليف في نظر الإسلام الحنيف.

٤ - مراعاة حال العامل المكلف: حتى ينجح العمل يجب إسناده إلى شخص تتوفر فيه الصفات المناسبة للقيام بهذا العمل، فابنة شعيب تطلب من أبيها أن يستأجر سيدنا موسى لأنه قوي أمين، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِي الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. وكذلك لا يكلف الإنسان إلا بما يستطيع القيام به فالله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

ثالثاً: التوجيه:

والتوجيه هو الوظيفة التنفيذية للخطة الموضوعة للعمل، وضمن

التنظيم المعتمد، وأهمية التوجيه تظهر عند النتائج الإيجابية للعمل، وخير ما يمثله المدير هو توجيه الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ في القرآن الكريم عندما قال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥]، فمن توجيهات هذه الآية:

١ - اللين الذي ظهر في تعامل النبي ﷺ مع الصحابة.

٢ - عدم الفظاظة والغلظة.

٣ - العفو عن أصحابه.

٤ - الدعاء والاستغفار لهم.

٥ - مشاورتهم في الأمور الدنيوية كافة.

٦ - التوكل على الله بعد العزم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]، ففيه توجيهٌ صريحٌ بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما يؤكد الإسلام على عامل التحفيز من خلال الترغيب والترهيب، قال تعالى حكايةً عن ذي القرنين: ﴿قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ وَأَمَا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحَسَنُ ﴿٨٨﴾ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٩﴾﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨].

رابعاً: الرقابة:

والرقابة هي المرحلة المكملة لحسن الإدارة، وهي في الإسلام تنبع من استشعار المسلم لرقابة الله تعالى، فهو رقيب علينا، ويعلم كلَّ صغير وكبير، قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

والرقابة في الإسلام تنبع من حرص المسلم على الأمانة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

فالإسلام يسعى إلى تنمية الرقابة الذاتية للمسلم، ووضع كثيراً من القواعد المراقبية والمحاسبية، كما قررت بعض نصوص القرآن الكريم الرقابة الجماعية كقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

كما حذّر المولى من ترك النهي عن المنكر فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

خامساً: اتخاذ القرارات:

فهو عامل مهم في إنجاح العملية الإدارية، لذلك عاتب الله نبيه داود عليه السلام عندما حكم بين رجلين، وسمع من أحدهما ولم يسمع

من الآخر، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحَفَّ خِصْمَانِ بَعِي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢١ - ٢٤].

وكذلك عندما افتقد سيدنا سليمان الهدى وتوعده بالعقوبة، فإنه لم ينفذها حتى يسمع عذره، فقد يكون العذر وجيهاً، وكذلك وجه الله تعالى نبيه ﷺ لمشاورة أصحابه فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

المبحث الثاني: إدارة الوقت في السنة المطهرة:

لقد تجلت وظائف الإدارة في سنة النبي ﷺ القولية والفعالية، وسندكر أهم وظائف الإدارة وتحليلها في ضوء نصوص من السنة المطهرة، وفي إطار إدارة الوقت:

أولاً: التخطيط: في العهد المكي كان هناك نوعان للتخطيط، بعيد المدى وقصير المدى، أما في العهد المدني فقد تجلّت معالم التخطيط وعناصره التي سنلتمس بعضها في السنة النبوية ذات العلاقة بإدارة الوقت، ومن أهمها:

١ - **تحديد الأهداف وترتيب الأولويات:** وهذا يتضح جلياً في وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل، فقد قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ له حِينَ بَعَثَهُ

إِلَى الْيَمَنِ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَآتِقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» رواه البخاري.

فقد رتب النبي ﷺ الأهداف ترتيباً منطقياً حسب أهميتها وأولويتها.

٢ - التفكير والاعتبار: «فالمؤمن» كما قال النبي ﷺ: «لا يلدغ من جحر مرتين»، ويأخذ دائماً بمبدأ الحذر والحيطه.

٣ - بذل الأسباب والوسائل المشروعة: وهو ما حثنا عليه النبي ﷺ في قوله: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» رواه مسلم.

فالمسلم يحرص على كل ما ينفعه في دينه ودنياه، ولا يعجز أو يتكاسل، ففي ذلك إهدارٌ للوقت.

٤ - تعليق النتائج بمشيئة الله تعالى: فالمؤمن يأخذ بالأسباب ويتوكل على الله، وقد قال النبي ﷺ للرجل «اعقلها وتوكل»، ونهى ﷺ عن التحسر على ما فات، وعلى المسلم التسليم لقضاء الله

وذلك في قوله ﷺ: وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» رواه مسلم، فالمؤمن يعلم أن كل شيء بقضاء وقدر، وهو يؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى.

ثانياً: التنظيم: ومن أهم سماته:

١ - التنظيم الهرمي للوظائف: فقد كان ﷺ يطبق التنظيم والتسلسل الهرمي في العمل الوظيفي، وكانت الوظائف التي يكلف بها الصحابة تأخذ شكل الهيكل الإداري.

٢ - التفويض: فالإنسان لا يستطيع أن يقوم بالأعمال كافة مهما أوتي من قوة، ومن هنا كان لا بد من التفويض، وهذا منهج النبي ﷺ فهو يقول: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» رواه البخاري، وقد مارس التفويض ممارسة عملية في حياته الدعوية، وكثيرون هم الصحابة الذين أرسلهم إلى شتى ممالك الأرض معلمين ومبشرين.

٣ - تقسيم العمل وتحديد الاختصاصات: وذلك بإسناد الأعمال لأهل الخبرة والدراية بها، فإسناد الأمر إلى غير صاحبه من علامات الساعة، وأثبت النبي ﷺ الخيانة لمن حابى في تولية من ليس أهلاً للولاية، فقال رسول الله ﷺ: «من استعمل رجلاً من عصابة وفي تلك العصابة من هو أَرْضَى لَهِ مِنْهُ، فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَخَانَ رَسُولَهُ، وَخَانَ الْمُؤْمِنِينَ» رواه الحاكم، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءُ عُثْمَانُ وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ»

وَأَفْرَضَهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَقْرَبَهُمْ أَبِي بْنُ كَعْبٍ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ» رواه الترمذي، ففي هذا الحديث إشارة واضحة إلى عظيم علمه ﷺ بأهمية التخصص في الأعمال، وإسنادُ العمل إلى المختص به هو من الأسباب المهمة في إنجاح هذا العمل وإتقانه. ونبينا ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» رواه البيهقي.

٤ - مراعاةُ حال العامل المكلف: فالإسلام أوصى المسلم بالرفق بمن تحت يده من الناس، فالرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ» رواه البخاري.

فهو يؤكد على عدم تكليف الناس من الأعمال بما لا يطيقون.

ثالثاً: التوجيه: فالإرشاد والتوجيه من أفضل الأعمال في دين الله تعالى، فالدين النصيحة كما قال عليه الصلاة والسلام: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ» رواه مسلم، والنبي ﷺ يحث الصحابة قائلاً: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» رواه مسلم.

وحتى يكون التوجيه فعالاً فإنه يتعين أن يكون على فتراتٍ وبلا إطالة حتى لا تدخل السامة على النفوس، ولموضوع الحوافز حيزٌ

كبيراً في توجيهاته ﷺ، فهو الذي يقول: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه» رواه البيهقي.

رابعاً: الرقابة: وهي نوعان: ذاتية وإدارية.

فالرقابة الذاتية: ظهرت في كثير من الأحاديث، منها قوله عليه الصلاة والسلام: «الْكَيْسُ مِنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ» رواه الترمذي، ومن القواعد الكلية في ذلك قوله: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ - قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ - وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» رواه البخاري.

وأما الرقابة الإدارية: فظهرت جليةً عندما حاسب النبي ﷺ ابن اللتبية، الذي قال: «هذا لكم وهذا أهدي إلي» عندما أرسله النبي ﷺ لجباية أموال الزكاة فقال عليه الصلاة والسلام: «فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرُ يَهْدَى لَهُ أَمْ لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقْرَةٌ لَهَا خَوَارٌ أَوْ شَاةٌ تَيْعَرُ - ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ، حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطِيهِ - اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ ثَلَاثًا» رواه البخاري.

كما أكد على ضرورة التنبيه على أخطاء المسؤولين لذلك عزل

العلاء بن الحضرمي (عامله على البحرين) حينما اشتكاه وفدُ
عبد قيس . . .

خامساً: اتخاذ القرارات: فالتردد في إصدار القرار يؤدي إلى
إضاعة الجهد والوقت، فالإنسان يتأني في التفكير، ثم يصدر قراره
وينفذه متكلاً على الله، والتأني محمودٌ لقول النبي ﷺ لأشج
عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»
رواه مسلم، فالإداري الناجح يتأني، ويستفيد من كل الإمكانيات
المتاحة، ولا ينفرد برأيه دون الآخرين.

الفصل الرابع: واجبات المدير المسلم تجاه الوقت:

وهو من (ص ١٠٣) إلى (ص ١٤١) وأفرده للحديث عن واجب
المدير المسلم، فواجب المدير المسلم تجاه الوقت ينحصر في
مبحثين أساسيين:

المبحث الأول: مضيعات الوقت:

أولاً: أهم مضيعات الوقت أو مبددات الوقت: إن أهم
مضيعات الوقت أو مبددات الوقت تقتضي الالتفات إلى ما يلي:

١ - كل توظيف غير ملائم لوقت الفرد هو مضيّع للوقت،
وعلى الإنسان أن يهتم بالأهم فالأهم.

٢ - جميع مضيعات الوقت يمكن ترشيدها، بل استبدال أنشطة
منتجة بها، ومضيعات الوقت على كثرتها تنقسم إلى قسمين: خارجية
وداخلية.

فالخارجية: مصدرها الناسُ مثلُ الأسرة، العملاء، أو الأشياء
كالقراءة وكتابة الرسائل . . .

والداخلية: مصدرها داخليٌّ، وتتضمن عادة التسويق، وضعف
التخطيط، وغيرها . . .

وقد عرّف ماكنزي مضيعات الوقت بأنها:

«كل شيء يمنع المدير من إنجاز الأهداف بأكثر السبل المتاحة
فعالية» ثم أجملها في خمس وثلاثين مضيعة للوقت، ووزعها على
الأنشطة الإدارية الرئيسة: التخطيط، التنظيم، التوظيف، التنفيذ،
الرقابة، الاتصالات، اتخاذ القرارات.

بينما يرى هاريسون أن مضيعات الوقت تنحصر في خمسة
وعشرين عاملاً منها: سوء الإشراف، عدم تفويض السلطة،
المكالمات الهاتفية . . .

وقد قام دراكر بتجربة على مجموعات من المديرين، وعرض
عليهم فيلماً بعنوان: (إدارة الوقت) وكانوا قد ذكروا عدة أسباب
لضياع وقت العمل قبل مشاهدة الفيلم، منها: النقص في
المعلومات، مشكلات الموظفين، الاقتصار على التفويض . . .

أما بعد مشاهدة الفيلم فكان من الأسباب: القيام بأعمال
متعددة في وقت واحد، التسويق، الإصغاء غير الجيد وغيرها . . .

وقد أجرى محمد شاكر عصفور دراسةً على مستوى الأجهزة
الحكومية في المملكة العربية السعودية، وكان من أهم مضيعات

الوقت: التأخرُ صباحاً عن العمل، المكالمات الهاتفية الخاصة، تناول الشاي والقهوة... .

وانتهى محمد غيث في دراسة قام بها في المملكة، وأتى بقائمة اشتملت على عدة عناصر منها:

الموظفون غيرُ المؤهلين، الزوار بدون مواعيد، الإجراءات الروتينية المعقدة وغيرها... .

ثانياً: تحليل مضيعات الوقت وطرق التغلب عليها: تحتاج هذه العملية إلى التزام من جانب المدير بمواجهة هذه المضيعات، وإلى تخطيط ومعرفة حقيقية بذاته، وبطبيعة وظيفته... .

وإن تحليل مضيعات الوقت يستلزم تحديد أهم تلك المضيعات، ومن ثم معرفة أسبابها، والحلول اللازمة للقضاء عليها، وإن المنهج المقترح للقضاء على مضيعات الوقت يكون فيما يلي:

١ - تحديدُ الهدف.

٢ - ترتيبُ الأولويات.

٣ - ترتيبُ المكتب وتنظيفه.

٤ - التحكمُ في المقاطعات والمجهودات.

٥ - تطبيقُ أسس ومهارات الاتصال الفعال.

وكثيرةٌ هي الأنشطة التي قد تصبح من مضيعات الوقت عند المدير، إلا أن بعض الباحثين يلجّ على بعض الأنشطة دون بعضها، وهو ينطلق من عدة اعتبارات أهمها:

- ١ - يشكل الوقت الذي يستغرقه الإداري في هذه الأنشطة جزءاً كبيراً .
 - ٢ - سوء استغلال الوقت المخصص لكل من هذه الأنشطة .
 - ٣ - هذه الأنشطة يمارسها عددٌ كبير من الإداريين على اختلاف مستواهم الإداري .
 - ٤ - شمول هذه الأنشطة واحتوائها على أنشطة فرعية .
 - ٥ - البعد الاقتصادي لسوء استغلال الوقت .
- وبإمكان المدير أن يسيطر على كثير من مضيعات الوقت من خلال :

- ١ - تجزئة الوقت إلى عدة أجزاء :
 - وقتٌ يمكن ضبطه، ويتحكم فيه المدير .
 - وقتٌ لا يمكن ضبطه كالأحداث الطارئة .
- ٢ - التركيز: الذي يتمثل في التعريف والتحديد الواضح للعمل، وتحديد الأولويات من خلال ثلاث خطوات :
 - أ - ترتيب ورود الموضوع .
 - ب - الاستعجال .
 - ج - مدى إسهام الموضوع في تحقيق أهداف المنظمة .

المبحث الثاني: مسؤولية المسلم عن الوقت:

رأينا سابقاً أهمية الوقت في القرآن والسنة، وكيف كان السلف حريصين كل الحرص على الوقت، فالوقت هو الحياة، ووقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، فما مضى لا يعود، والإنسان عليه أن

يكون وقته لله وبالله كما قال ابن القيم، والوقت هو وعاء العمل . . .

وواجبات المسلم نحو الوقت تتمثل فيما يلي:

أولاً: الحرص على الاستفادة من الوقت: فقد كان سلفنا

الصالح حريصين على وقتهم، يقول الحسن البصري: «أدرت أقواماً كان أحدهم أشحَّ على عمره منه على دراهمه ودنانيره».

وقال أحد الحكماء: «من أمضى يوماً من عمره في غير حق قضاءه، أو فرضٍ أداه، أو مجدٍ أثله، أو حمدٍ حصّله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد ظلم يومه، وظلم نفسه».

ثانياً: اغتنام أوقات الفراغ: فقد جاء عن النبي ﷺ قوله:

«نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس الصحةُ والفراغُ» رواه البخاري.

كما حثنا على اغتنام الوقت بالحديث الذي رواه الترمذي وغيره، عن النبي ﷺ قال: «لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ».

وأما الحديث الآخر الذي رواه الحاكم: «اغتنم خمساً قبل

خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك». فهو إشارة واضحة

للإنسان المسلم إلى ضرورة الحرص على استثمار الأوقات حال القدرة والاستطاعة، ولقد كان سلفنا الصالح حريصين على إشغال

أوقاتهم بالنافع المفيد، ويكرهون الرجل الفارغ المتهلل، كما أن

الفراغ لا يبقى فراغاً بل يمتلئ بالخير أو بالشر.

ثالثاً: المسارعة في الخيرات: فالمسلم يكتسب وقته بفعل الخير، ويسارع إلى مغفرة من ربه ورضوانٍ، فالدنيا دارُ عمل، وصدق أبو العتاهية عندما قال:

إذا أنتَ لم تزرعْ وأبصرتَ حاصداً ندمتَ على التفريطِ في زمن البذر
وليحذرِ المؤمن من المثبطات، فقد كان النبي ﷺ يتعوذ بالله من العجز والكسل.

رابعاً: الاعتبار بمرور الأيام: فمع فجرِ كل يومٍ جديدٍ عبّرُ كثيرة لأولي النهى، والتفكر في الليل والنهار وتعاقبهما هو الذي يؤدي إلى مَلئها بالعمل الصالح، وقد قال النبي ﷺ: «ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادى فيه، يا ابن آدم أنا خلقٌ جديدٌ وأنا فيما تعمل عليك غداً شهيدٌ، فاعمل فيَّ خيراً أشهدُ لك غداً، فإنني لو قد مضيت لم ترني أبداً، قال: ويقول الليل مثل ذلك». حلية الأولياء.

وبيت الشاعر أحمد شوقي مشهور في ذلك:

دقاتُ قلب المرءِ قائلةٌ لهُ إن الحياةَ دقائقٌ وثوانٍ
وصدق أبو العتاهية أيضاً عندما قال:

نظّلُ نفرحُ بالأيامِ نقطعُها وكلُّ يومٍ مضى يُدني من الأجلِ
خامساً: تحري الأوقات الفاضلة: فالله تعالى الذي قدر الوقت، قد فضّل بعضه على بعض، فشهراً رمضان ليس كباقي الشهور، وليلة القدر ليست كباقي الليالي وهكذا... والتبكير إلى الأعمال فيه نجاح وفلاح؛ لأن النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ باركْ لأمتي في بكورها» رواه أبو داود.

سادساً: تخطيط الوقت وتنظيمه: فهذا يساعد على استثمار الوقت بشكل سليم، فسيدنا أبو بكر يقول: «إن الله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل، والله حق في الليل لا يقبله في النهار»، فالمهم هو العمل المناسب في الوقت المناسب.

سابعاً: الالتزام بالموعد: فالمسلم يرضى بعهده وأمانته، وقد حذر النبي ﷺ من التفريط بالوعد، واعتبر ذلك من علامات النفاق، فقال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوثمن خان» رواه البخاري.

ثامناً: وجوب الحذر من مضيعات الوقت: حذر الإسلام من التفريط في الوقت، ووضع ضوابط تحفظ وقت المسلم كالاستئذان فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور: ٢٧، ٢٨].

ومن أهم مضيعات الوقت التسويف وطول الأمل، ويحذر القرآن الكريم المفرطين في أوقاتهم، وينذرهم بالحسرة والندامة، قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿...يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَآنِي لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، فالآخرة حساب ولا عمل، والدنيا عمل ولا حساب.

تاسعاً: كيف يعيش المسلم وقته؟

المسلم ينظم وقته، فينام مبكراً، ويستيقظ مبكراً، فالبركة في البكور، وبعض المسلمين اليوم يقوم بعكس ذلك، يطيل السهر

ولا يصلي الفجر، وقد قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنِ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنِ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانَ» رواه البخاري.

المسلم عليه أن يفتح يومه بذكر الله، فأذكار الصباح كثيرة منها قوله عليه الصلاة والسلام: «إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَا الْيَوْمِ فَتَحَهُ وَنَصْرَهُ وَنُورَهُ وَبَرَكَتَهُ وَهُدَاهُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ ثُمَّ إِذَا أَمْسَى فَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ» رواه أبو داود، وغيرها من الأذكار، ثم يقرأ القرآن، ويتقوى على طاعة الله، ويذهب إلى عمله ناوياً العفة، ويساعد الناس على قضاء حوائجهم ففي ذلك خير كثير، وهو من أيسر الصدقات، فالنبي ﷺ قَالَ: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ». فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَالَ: «يَعْمَلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ». قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ قَالَ: «يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ». قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ. قَالَ: «فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ» رواه البخاري،

وكثيرة هي الصدقات التي يستطيع المسلم القيام بها في اليوم، منها ما بينه النبي ﷺ بقوله: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ، فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ

صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنِ
الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» رواه البخاري.

ثم يتابع المسلم يومه ويصلي الظهر والعصر في أول وقتها، وكذلك المغرب والعشاء، ولا مانع أن يخصص نفسه ببعض اللهو المباح، والترويح عن النفس، فعليه أن يعطي كل ذي حق حقه، فإذا ما أراد النوم أتى بأذكار النوم، ونام على ذكر الله ليستيقظ على ذكر الله طيب النفس.

الفصل الخامس: الإدارة الفعّالة للوقت:

وهو من (ص ١٤٣) إلى (ص ١٦٨)، وقد تحدّث فيه المؤلف عن إدارة الوقت الفعّالة، فالعمل الإداري يهدف إلى تحقيق الأهداف المرسومة، وأي مشكلة لا تكمن في عدم توافر الوقت، فالوقت موزّع على البشر بالتساوي، لكن المشكلة تكمن في مدى فعالية المدير من حيث إدارته للوقت، وحسن الاستفادة منه، وقد تمّ تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأدوات والوسائل المستخدمة لتنظيم وقت العمل وإدارته:

وهذه الأدوات والوسائل تُقسم إلى مجموعتين على النحو التالي:

أولاً: مجموعة الأدوات والوسائل الإلكترونية: ومنها:
الحاسبات الآلية، آلات تصوير المستندات، الماسح الضوئي،
الهاتف الجوال...

ويمكن بيان جدوى كل وسيلة فيما يلي :

الحاسبات الآلية: وهذه الحاسبات تقوم بمهامٍ متعددةٍ، فهي تزود المدير بالنتائج بسرعة وبدقة أكبر ووقت وكلفة أقل، وقد أصبحت الحاسباتُ الآلية في متناول الجميع، والمدير يختار بين كمبيوتر المكتب والكمبيوتر المتنقل، والكمبيوتر فيه الكثيرُ من الأمور التي تساعد على استثمار الوقت بشكل أفضل.

آلات تصوير المستندات، وأجهزة الناسوخ (الفاكس) والماسح الضوئي: وهي تعد بحق من أهم وسائل توفير وقت العمل بالمكاتب، فالماسحات الضوئية وسيلةٌ فعالة في مسح الصور والمستندات وأرشفتها...

والفاكس آلة تجمع بين خصائص الهاتف، وآلة التصوير، ومودم الحاسب الآلي، فهذه الوسيلة تساعد في إدارة الوقت بشكل أكثر كفاءة...

أجهزة الهاتف ذات المسجل الصوتي، والهاتف الجوال: ولها عدة مزايا منها: تسجيل المكالمات، وهي وسيلة مهمة في حالة عدم وجود المدير في المكتب، وتسمح بتوفير المزيد من الوقت لبقية الأعمال المكتبية المهمة...

الإنترنت، والبريد الإلكتروني: من أهم تقنيات العصر التي تفيد في الحصول على المعلومات من أي مكان وفي أي وقتٍ...، كما أن البريد الإلكتروني يساعد على إرسال واستقبال الرسائل باللغتين العربية والإنكليزية معاً، والإنترنت باختصار: العالم بين يديك.

المفكرة الإلكترونية: وهي تحقق بعض المزايا منها:

- ١ - إمكان تنظيم المواعيد في أوقات محددة.
 - ٢ - إصدار إضاءة أو أصوات محددة للتذكير بالمواعيد.
 - ٣ - تسجيل مذكرات مختصرة على الذاكرة الخاصة بها.
 - ٤ - استخدامها بوصفها جهاز هاتف متنقل.
- كما يمكن وصلها بالكمبيوتر.

ثانياً: مجموعة الأدوات والوسائل غير الإلكترونية (الشخصية

أو الذاتية): وهذه الوسائل نبين مهماتها على النحو التالي:

أ - الاعتماد على السكرتير: ومن أهم واجبات السكرتير

ما يلي:

- ١ - فحص المكالمات والزوار.
- ٢ - وضع نظام محكم لتنظيم الملفات.
- ٣ - تنظيم المواعيد والاجتماعات.
- ٤ - إعداد مسودة المذكرات والخطابات.
- ٥ - تفويض الأعمال اليسيرة إليه.
- ٦ - مساعدة المدير على تنظيم مهماته، وتذكيره بمواعيده.
- ٧ - صيانة الملفات ومتابعتها وتجديدها.
- ٨ - أخذ زمام المبادرة بكل ما يهم المكتب.

ب - إعداد قائمة يومية أو أسبوعية بالأعمال: وهذه القائمة

يجب أن تستوفي على ثلاثة شروط:

- ١ - تسجيلُ الأعمال اليومية المطلوب إنجازها .
- ٢ - وضعُ تقديرات واقعيةٍ لزمان كل عمل .
- ٣ - أن يؤخذَ في الحسبان الاجتماعاتُ والمواعيد المقررة من قبل في مفكرة المواعيد .

ج - المفكرة اليدوية والذاكرة الشخصية للمدير: فيسجل فيها الملاحظات والمهمات والأنشطة، والمواعيد التي سيقوم بها المدير حاضراً أو مستقبلاً، وهي صغيرة الحجم، وفيها دليل للهاتف، وهي تنظم المهمات المطلوب إنجازها وإدارتها . . .

المبحث الثاني: مناهج الإدارة الفعالة للوقت:

كيف يستطيع المديرون استخدام الوقت بفعالية؟

العبرة ليست في إنفاق الوقت بل في حسن استثماره، فالوقت شيءٌ لا بد من أن نختبره ونعيشه، وهناك فرقٌ بين مصطلحي الكفاءة والفاعلية في استخدام الوقت، فالفاعلية: تحقيقُ الهدف، أما الكفاءة: فهي أن يتمَّ تحقيق الهدف بأقل جهد وأقل وقت، وأقل تكلفة، وإن الاستثمار الأمثل للوقت سيؤدي إلى:

- ١ - تحقيق المنظمة لأهدافها .
 - ٢ - التزام أكثر بالقضايا الإدارية المهمة، طويلة الأمد .
 - ٣ - تطوير أفضل لقدرات المديرين .
 - ٤ - قلقٍ وضغطٍ وتوترٍ أقل .
- فإدارة الوقت: هي عمل الأشياء الصحيحة بطريقة صحيحة،

وعند دراسة أدبيات إدارة الوقت تتضح ثمانية مناهج مختلفة تقوم على افتراضات ومبادئ، وتتمثل هذه المناهج فيما يأتي:

١ - منهج (نظم نفسك): وذلك في ثلاثة مجالات:

أ - تنظيم الأشياء؛ أي: ضبط كل شيء في المكاتب.

ب - تنظيم المهمات؛ أي إعطاء الأوامر وتحديد خطوات التنفيذ.

ج - تنظيم الأفراد؛ أي: تحديد ما يمكن أن يقوم به الإداري ومن يعمل معه، ثم تفويض الأمور إليهم.

٢ - منهج المحارب (البقاء والاستقلالية): ومن الأساليب التي

يقترحها هذا المنهج:

أ - العزل؛ أي: إيجاد نظام الحماية من خلال (سكرتارية)

وأبواب مغلقة...

ب - الانعزال: وهو الانتقال إلى بيئة بعيدة تضمن العزلة...

ج - التفويض: وهو نقل مؤقت للسلطة من مستوى أعلى إلى

مستوى أدنى، ويستمد هذا المنهج قوته من اعتباره الوقت مسؤولية

شخصية، ثم هذا المنهج يولد حقيقة اعتمادية متبادلة بين جميع

الأطراف، وأثرها إيجابي على جودة الحياة.

٣ - منهج الهدف (الإنجاز): وهو يعتمد على أساليب التخطيط

ووضع الأهداف، فالمنظمات التي تضع أهدافاً تحقق نتائج أفضل،

وكثيراً من الناس من يعتمد على هذا المنهج لصعود سلم النجاح،

وبالإجمال فإن هذا المنهج يتمثل في دفع ثمن غالٍ للوصول إلى

الأهداف المرجوة.

٤ - منهج التسلسل (الأولويات وتحديد القيم): ويعني الإلحاح على أهم المهمات، فيحدد الإنسان القيمة، ويرتبُ المهمات، وينجز الأهم فالأهم.

٥ - منهج الأدوات التكنولوجية: يقرر هذا المنهج أن استخدام الأدوات المناسبة يضمن معرفة الأولويات، وتنظيم المهمات، وهناك ميزة كبيرة في الاستخدام الفعال لتلك الأدوات في تحقيق: تحديد الأولويات، وضع الأهداف، تنظيم المهمات، استخدام منظم سريع للمعلومات.

٦ - منهج المهارة في إدارة الوقت: ويتطلب ذلك إتقان عدة أمور: استخدام تقاويم المواعيد ومفكراتها، إعداد قائمة مهمات، تحديد أهداف، تفويض، تنظيم، وضع أولويات، ومن ضعف هذا المنهج التساؤلاتُ التالية:

ما هي النماذج الأساسية التي يفترض تعليمها؟، هل تقوم على مبادئٍ صحيحة؟، أو أنها تدعو لفروض غير صحيحة تتعلق بالفاعلية؟

٧ - منهج التدقيق الطبيعي (الانسجام والنعمة الطبيعية): ويقوم على فلسفة مستمدة من الحضارات الشرقية المتصلة بالتوافق الداخلي للذات، والانسجام مع الطبيعة بعيداً عن إلحاح الظروف التي تضغط علينا، ولكن الرؤية والتوازن والهدف غير موجودة في هذا المنهج.

٨ - منهج الشفاء (إدراك الذات): يعتقد أصحابه أن هناك مؤثرات تأتي من البيئة الاجتماعية والموروثات مسببة سلوكيات الهزيمة، وغياب الانجاز في إدارة الوقت، وهذا المنهج يعالج جانباً

واحداً فقط، ففهم الإداري لذاته هو جزء فقط من أجزاء التغيير
الفعال في إدارته لوقته.

وهذه المناهج جميعها تنبع من افتراض رؤية الوقت بمعناه
العادي، وليس باعتباره عنصراً من عناصر الإنتاج.

المبحث الثالث: نحو منهج متطور لإدارة الوقت بفاعلية.

بعد استعراض مناهج إدارة الوقت، فإن مفهوم الدراسة لفعالية
إدارة الوقت ننظر إليه من خلال التكامل بين أمرين:

١ - قدرة المدير على القيام بعناصر العملية الإدارية بشكل
فعال.

٢ - قدرته على اتخاذ إجراءاتٍ إيجابية للتحكم في الأنشطة
المستهلكة للوقت.

وينبغي أن نعلم أنّ الإدارة تعارفَ الكُتاب على تقسيمها إلى
مستويات:

مستوى الإدارة العليا، مستوى الإدارة الوسطى، مستوى
الإدارة الدنيا.

ولكن المستويات جميعاً تشترك في ممارسة الإدارة في
التخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة واتخاذ القرارات، وإن سوء
التخطيط وسوء التنظيم - كما يقول تشارلز فردربر - يصنعان توهماً
بأن الوقت قصيرٌ وغيرُ كافٍ.

ثم يخلص المؤلف إلى أن منهج الإدارة الفعّالة للوقت يتمثل
فيما يأتي:

- ١ - عملية التخطيط والتي تقوم على تحديد الأهداف وتخصيص الوقت اللازم وتحليل الوقت.
- ٢ - عملية التنظيم التي تتمثل في تفويض السلطات والأعمال، وتنظيم مهمات العمل وترتيبها.
- ٣ - عملية اتخاذ القرارات.
- ٤ - إدارة المقاطعات الهاتفية والشخصية.
- ٥ - إدارة الاجتماعات، ومكان العمل، وأخيراً: الاتصال الفعال.

الفصل السادس: دراسات تطبيقية في إدارة الوقت:

وهو من (ص ١٦٩) إلى (ص ١٩٨)، وبدأه بالحديث أنّ المؤشرات الاقتصادية تُظهر أن هناك تسارعاً في معدلات نمو القطاع الخاصّ مقارنةً بغيرها من القطاعات، وخاصة القطاع الحكومي، فما السبب في ذلك؟

ثم قسّم هذا الفصلَ إلى مبحثين رئيسيين:

المبحث الأول: أهم الدراسات في إدارة الوقت في العالمين: الغربي والعربي.

قامت عدّة دراسات اهتمت في إدارة الوقت، وسنذكرها باختصار على النحو التالي:

أ - الدراسات في العالم الغربي:

أول محاولة في مجال دراسة إدارة الوقت كانت للكاتب

جيمس ماكي في كتابه: إدارة الوقت، ومن أهم ما جاء فيه: «إذا كنت تشعرُ بنقصٍ في الوقت، فهذا دليل على أن مهاراتك ومعلوماتك الإدارية باتت غير صالحة للمستجدات».

ثم ظهرت الكثيرُ من الأبحاث في الستينيات من القرن الماضي، ثم قامت الباحثة روز ماري ستيورات بدراسة تحت عنوان: (المديرون ووظائفهم)، لمعرفة كيفية توزيع المدير البريطاني لوقته...، كما أشار الباحث بيتر دراكر إلى العوامل التي تؤدي إلى ضياع وقت المدير بشكل عام، وقام الباحث ماكنزي مع الباحث ريتشارد بوضع قائمة تتضمن أربعين من مضيعات الوقت، وأشار أبو شيخة إلى مسح أجراه معهد هاملتون بعنوان: (الرقابة على الوقت) تبين فيه أن المقاطعات تحتل المرتبة الأولى من حيث الأهمية في مضيعات وقت المدير، ثم الاجتماعات غير الفعالة، والمكالمات الهاتفية الكثيرة، والبحث عن المعلومات...

كما أسهم في هذا المجال: الباحث هنري منتزرج في كتابه: (طبيعة العمل الإداري)، وجوزيف كوربر (١٩٦٢م)، وروس ويدر (١٩٧٢م)، وجاك فرنر (١٩٨٠م)، وغيرهم.

ب - الدراسات في العالم العربي:

قام التنفيذيون العربُ بدراسة تقدم بها فريد منى عام (١٩٨٠م) وخاصة في دول الخليج، وأوضحت هذه الدراسة أنهم يواجهون ضغوطاً على أوقاتهم منها:

سوء استخدام التقنية أو عدم توافرها، الأعراف والتقاليد

الاجتماعية، مشاركتهم في تنمية مجتمعاتهم، المركزية السائدة في منظماتهم، استخدام أسلوب الشخصي المباشر في التعامل مع العاملين والعلماء.

كما أرجعت الدراسة الأسباب التي أدت إلى انخفاض قيمة الوقت من منظور هؤلاء التنفيذيين إلى عدة عوامل منها: عدم إدراك أهمية الوقت، سوء أسلوب الحياة الاجتماعية، الوساطات والمجاملات، وغيرها...

وتقدم ربحي الحسن بدراسة تحت عنوان: التخطيط الإداري والوقت عام (١٩٨٢م) توصل من خلالها إلى نتيجة مفادها أن إدارة الوقت بشكل فعالٍ تستحيل في ظل انعدام وجود أهداف أو أولويات أو خطط يومية...

كما قام محمد القريوتي بدراسة عنوانها: إدارة الوقت عام (١٩٩٥م)، أوصى من خلالها بضرورة قيام الإدارة باختصار بعض الاتصالات من أجل الحفاظ على الوقت...

وأيضاً قام كل من نادر أبي شيخة ومحمد القريوتي بدراسة بينا فيها أن الدافع لهما للقيام بهذه الدراسة هو عدم وجود فلسفة واضحة لأهمية الوقت لدى المدير الأردني، وتعد إضاعة الوقت الناتجة عن سوء الإدارة من المشكلات الحادة التي تعاني منها الإدارة في الدول العربية بشكل عام، وفي الأردن بشكلٍ خاص...

وفي المملكة العربية السعودية هناك عدد من الدراسات في موضوع إدارة الوقت، منها: الدراسة التي قام بها محمد شاكر

عصفور عام (١٩٨٠م)، على عيئة من المؤسسات والوزارات، وتبيّن في نتائج الدراسة أن ما يقارب نصف وقت الدوام الرسمي للموظف السعودي يُصرف في إنجاز المعاملات اليومية الرسمية، وأن الاجتماعات تستهلك ١٢٪ تقريباً من وقته، و ١٠٪ من وقته يذهب للأعمال المساعدة ذات العلاقة بالعمل الرسمي.

وقام عبد العزيز ملائكة بدراسة عام (١٩٨٧م) توصل من خلالها إلى تأكيد ٨٠٪ من السعوديين، و ١٠٠٪ من المديرين الغربيين على أهمية الوقت وضرورة استخدامه بشكل فعال . . .

وتوصل محمد الغيث بدراسة أجراها داخل القطاع الحكومي في المملكة العربية السعودية إلى أن ٥٧٪ من عينة البحث أعربت عن أن الوقت المتاح لها غير كاف للوفاء باحتياجات العمل.

ثم قام علي القرني عام (١٩٩٧م) بدراسة ميدانية للتعرف على نظرة المدير السعودي للوقت فأكدت هذه الدراسة على وجود علاقة ارتباط بين الخصائص الوظيفية وقدرة المدير السعودي على إدارة الوقت.

وبالنظر إلى الدراسات السابقة العربية والأجنبية يتضح لنا مدى اهتمامها بكيفية توزيع المدير لوقت عمل، وأهم مضيعات الوقت عنده، ونظرته للوقت، مع تركيزها على المدير في الأجهزة الحكومية.

المبحث الثاني: دراسة ميدانية لإدارة الوقت في القطاع الصناعي الخاص بالمملكة العربية السعودية.

لقد قام الكاتب بإجراء هذه الدراسة بالقطاع الصناعي الخاص داخل مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية، واختار هذا القطاع للأسباب التالية:

١ - تعيش المملكة نهضةً صناعية طموحاً، فعلى الجميع الإسهام في هذه النهضة.

٢ - تعتبر الصناعة السعودية مورداً أساسياً من موارد الدخل القومي للملكة.

٣ - يُعدّ القطاع الصناعي بالمملكة قطاعاً متطوراً، وهو بحاجة إلى الكثير من الدراسات للمنافسة العالمية.

٤ - مدينة الرياض تمثل قاعدةً صناعيةً مهمة للملكة، حيث يوجد فيها مدينتان صناعيتان.

وعدد المصانع بالرياض عام (١٤١٩هـ) بلغ (٨٢٤) مصنعاً، ولقد قامت دراسة فيها على الكثير من مصانع مواد البناء والزجاج والورق والطباعة، والألمنيوم، والمنتجات الجلدية والغذائية، والمعدات الكهربائية والأثاث الخشبي والمعدني، والصناعات المعدنية، والكيميائية والبلاستيكية، وبلغ إجماليها: ١٩٧ مصنعاً، وكانت مفردات العينة المختارة عشوائياً: ٩٤ مصنعاً، وعدد المديرين ٤٥٠، ولا بد أن نطلّع على نتائج الدراسة، وتوصيات الدراسة.

أولاً: نتائج الدراسة:

طرحت في هذه الدراسة عدة تساؤلاتٍ تتلخص فيما يلي:

١ - ما هي نظرة المدير السعودي بالقطاع الصناعي الخاص لقيمة الوقت؟

٢ - ما هي أنواع مضيّعات وقت المدير؟

٣ - ما مدى فعالية المدير السعودي في استثماره لوقت عمله؟

٤ - ما هي الوسائل التي يعتمد عليها المدير السعودي في تنظيم وقت عمله وإدارته؟

٥ - هل توجد علاقات ارتباط بين متغيرات قيمة الوقت من وجهة نظر المدير السعودي بالقطاع الخاص وعدد من المتغيرات الشخصية والوظيفية؟

من خلال هذا القسم ثبت ما يلي:

١ - اهتمام الإسلام العظيم بالوقت.

٢ - المسلمُ يغتنم فرص العمر ولا يضيعها لأنه محاسبٌ عليها يوم القيامة.

٣ - الإسلام وضع كثيراً من أسس الوظائف الإدارية من خلال القرآن الكريم والسُّنة المطهرة وسير السلف الصالح...

٤ - سلف الأمة كانوا يعرفون للوقت قدره وقيّمته.

٥ - الإدارة الإسلامية قائمة على مبدأ الإيمان بالله تعالى، وهو أمرٌ تفتقر إليه النظريات الإدارية الأخرى.

أما النتائج التي توصل إليها الكاتبُ من خلال البحث الميداني فتتلخص فيما يلي:

١ - اتجاهات وآراء معظم المديرين في عينة الدراسة تبرز أهمية الوقت بصفته مورداً مهماً يجب استثماره في العمل، فالوقت لدى المدير السعودي يحظى بالأهمية الكبرى، فالدراسة الحالية تدلّ على تزايد قيمة الوقت من منظور المدير في القطاع الصناعي السعودي الخاص، وهي تختلف عن دراسة فريد منى عام (١٩٨١م) في إعطاء الوقت قيمته.

٢- بيّنت الدراسة أهم مضيعات الوقت للمدير السعودي في القطاع الصناعي، وتوصلت الدراسة إلى أربع مجموعات من مضيعات وقت المدير السعودي في القطاع الصناعي الخاص، وهي:

أ - مضيعات للوقت ذات أهمية مرتفعة جداً: كعدم وجود تنظيم جيد للعمل، وعدم حفظ الملفات والأوراق في أمكنتها الملائمة، وعدم التخطيط المسبق للعمل، والتأخر صباحاً عن موعد العمل...

ب - مضيعات للوقت ذات أهمية مرتفعة: كتأمين احتياجات البيت في أثناء الدوام، تسويق وتأجيل الأمور، مغادرة العمل مبكراً...

ج - مضيعات للوقت ذات أهمية متوسطة: منها الاجتماعات المطولة، المقاطعات الهاتفية؛ كثرة الأعمال الورقية...

د - مضيعات للوقت ذات أهمية منخفضة: كشرب الشاي والقهوة، والحرص على التفاصيل كلها.

فالدراسات الحالية مقارنةً مع الدراسات السابقة تبين مدى

اعتماد الدراسة الحالية على قائمة أكثر شمولاً للبنود المضیعة لوقت المدير، حيث بلغت أربعة وعشرين بنداً، وقد تناولت الدراسة أموراً جديدةً تختلف أيضاً عن دراسة عصفور عام (١٩٨٠م، ١٩٨١م) كسرب الشاي والقهوة، والتأخر صباحاً عن العمل . . .

٣ - أظهرت النتائج التحليلية قيام المدير السعودي في القطاع الخاص بما يأتي:

- أ - اهتمامه بعملية التخطيط ضمن العملية الإدارية.
- ب - إلمامه على دور وظيفة التنظيم في الإدارة الفعالة للوقت.
- ج - اهتمامه بإدارة اجتماعاته.
- د - بذله جهداً كبيراً في منع المقاطعات التي عملها باستمرار.
- هـ - حرصه على الإدارة السليمة لمكان عمله.
- و - سعيه المستمر لاتخاذ قراراتٍ صحيحة وسليمة دون ضياع للوقت أو تسويف.

٤ - لم تثبت نتائج الدراسة بالنسبة للخصائص الشخصية ومدى تأثيرها على نظرة المدير السعودي للوقت وجود علاقة ارتباط ذات دلالة معنوية بين قيمة الوقت من وجهة نظر المدير السعودي وحالته الاجتماعية . . .

٥ - توصلت الدراسة إلى أن الخصائص الوظيفية للمدير السعودي ليس لها علاقةً بنظرته تجاه الوقت.

٦ - بينت الدراسة وجود علاقة ارتباط طردية ذات دلالة معنوية بين قيمة الوقت من وجهة نظر المدير السعودي في القطاع الصناعي

الخاص، ومدى اعتماده على وسائل تنظيم وإدارة الوقت.

٧ - بينت الدراسة أهم الوسائل والأدوات التي يراها المدير السعودي من وجهة نظره مهمة لتنظيم الوقت، فرتبت هذه الوسائل من حيث أهميتها الترتيب التالي:

آلة تصوير المستندات، جهازُ الفاكس، إعداد قائمة يومية بالأعمال المطلوب إنجازها وتوقيتها، برامج كمبيوتر، المفكرة اليدوية، القائمة الأسبوعية، الذاكرة الشخصية، الاعتماد الكبير على السكرتير، الهاتفُ الجوال، البريد الإلكتروني، الإنترنت، المفكرة الإلكترونية، الماسح الضوئي، الهاتفُ ذو المسجل الضوئي، وقد وضعها المؤلف في جدول مرتباً فيه الوسائل ومبيناً متوسطها الحسابي.

ثانياً: توصياتُ الدراسة:

بعد النظر إلى النتائج التي تم التوصل إليها فإن الباحث يوصي بما يلي:

١ - أهمية اعتبار الإسلام دستورَ حياة كاملاً، من خلال القرآن والسُّنة وأقوال السلف...

٢ - ضرورة توعية المسلمين بأن الوقتَ من أهم ما يُسألون عنه يوم القيامة.

٣ - أهمية استخدام الوقت بفعالية باعتبار أنه أساس لاستمرارية إنجاح الأعمال، ويمكن توجيه التوعية نحو الأهمية القصوى لمورد

- الوقت من خلال الدورات التدريبية، والمحاضرات المستمرة. . .
- ٤ - الحد من الممارسات والأنماط السلوكية غير المرغوب فيها لدى بعض المديرين، والتي تتسبب في ضياع وقتهم وتبديده.
- ٥ - مراعاة العمر عند اختيار المديرين لوجود علاقة ارتباط بين عمر المدير ونظرة للوقت.
- ٦ - مراعاة المؤهل العلمي عند اختيار المديرين لوجود علاقة ارتباط بين المؤهل العلمي للمدير ونظرة للوقت.
- ٧ - الحرص على تنمية مهارات المدير السعودي في مجال إدارة الوقت بفعالية؛ لأنه من الموضوعات الملحة، وأن يتم تدريب المدراء عملياً على كيفية التعامل مع الجوانب المتعددة لتحقيق الفعالية في إدارة الوقت.
- ٨ - أن يستخدم المدير السعودي الوسائل الأخرى المعاصرة في تنظيم الوقت كالإنترنت، والبريد الإلكتروني، وغيرها.
- ٩ - العمل على إجراء المزيد من الدراسات في إدارة الوقت، لا سيما ما يتعلق منها بمتغيرات البيئة وتأثيراتها، كما يوصي الباحث بأن تشمل الدراسات الميدانية مناطق أخرى من المملكة العربية السعودية.

وهكذا نكون قد انتهينا من الفصل السادس من الكتاب، ووصلنا إلى نهاية المطاف، وحصلنا على زاد وفير من الدراسات والنظريات المهمة القديمة والحديثة في إدارة الوقت، وتنظيم الحياة، وعلمنا أن ديننا الحنيف كثيراً ما أكد على الوقت وأهميته، حتى

يستخدمه الإنسان بما فيه الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.
ثم وضع المؤلف بعد ذلك قائمة المصادر والمراجع، مرتبةً
على النحو التالي:

القرآن الكريم، كتب التفاسير، كتب السُّنة وشروحها، كتب
التراث، كتب الوقت والإدارة، المجلات والدوريات، المراجع
الأجنبية، وقد بلغ مجموع المصادر والمراجع: ١٠١ مصدراً
ومرجعاً، ثم وضعت قائمة بالكتب التي صدرت للمؤلف، أو شارك
بتحقيقها، وهي: ٣٣ كتاباً، معظمها مترجم إلى الإنكليزية، وبعضها
إلى الفرنسية أيضاً.

هذا والكتاب يتألف من ٢١٤ صفحة.

فجزى الله عنا وعن الإسلام والمسلمين فضيلة الدكتور خالد بن
عبد الرحمن الجريسي - حفظه الله تعالى - على ما قدّم من الخير
العميم للأمة الإسلامية، وما ينفعها في دينها ودنياها، ورأيت لزاماً
عليّ أن أختم هذا الملخص بلمحة عن حياة الدكتور خالد بن
عبد الرحمن الجريسي - حفظه الله تعالى - وهي كالتالي:

الدكتور خالد بن عبد الرحمن بن علي الجريسي.

* من مواليد مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية عام
(١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

* حاصل على درجة الدكتوراه في إدارة الأعمال من جامعة
كنزنجتون بالولايات المتحدة الأمريكية، وذلك عن أطروحته في
فلسفة التسويق.

* حاصل على درجة الدكتوراه في إدارة الأعمال من جامعة الإمام الأوزاعي بלבنا، ذلك عن أطروحته التي بعنوان: (أنماط السلوك القيادي في ضوء الفكر الإداري المعاصر والفكر الإسلامي).

* حاصل على درجة الماجستير في إدارة الأعمال من جامعة الإمام الأوزاعي بلبنا، وذلك عن رسالته التي بعنوان: (إدارة الوقت من المنظور الإسلامي والإداري).

* حاصل على بكالوريوس الدراسات الإسلامية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز.

* يشغل منذ عام (١٩٩٣م) منصب الرئيس التنفيذي لشركة بيت الرياض، وهي إحدى أكبر الشركات التجارية الرائدة في المملكة العربية السعودية.

* صدر له عدد من الكتب في مجالات متنوعة (دينية - اجتماعية - تاريخية - إدارية).

* المؤسس والمشرف العام على موقع الألوكة على شبكة الإنترنت: www.alukah.net

* عضو في عدد من الجمعيات العلمية:

أ - الجمعية السعودية للإدارة - جامعة الملك سعود - الرياض .

ب - جمعية الإداريين العرب - القاهرة .

ج - جمعية الاقتصاد السعودية - جامعة الملك سعود - الرياض .

د - اتحاد الاقتصاديين العرب - بغداد .

هـ - الجمعية التاريخية السعودية - جامعة الملك سعود - الرياض .
و - اتحاد المؤرخين العرب - القاهرة





هل تجرّعت كَأْسَ الفشل يوماً؟ وماذا تعني لك كلمة (فاشل)

هي كلمة نكرها، وتمجّجها آذاننا، وتلفظها أسماعنا، بل نجعل أصابعنا في آذاننا، ونستغشي ثيابنا حتى لا يصل حرفٌ منها إلى سمعنا، وحتى لا تشوّش علينا جمال الحياة...

كلمة نكره أن تُنسب إليها، أو تُنسب إلينا، وإذا قيلت لإنسان فإنه يكاد يتميز من الغيظ، وينظر إليك شزراً، وبألمٍ دفين يعتصر فؤاده...

كلمة جعلت كثيراً من الناس يركب مطية اليأس، ويتخاذل، ويرجع القهقري، بعد أن كان يُسابق الريح، ويتسلق جبال المجد السامقات...

ولعلك تقول: ليت شعري! ما هذه الكلمة؟ ولعمري! لقد جعلتني في حيرة من أمري! فهات، أسمعنيها بعد أن شوقتني لمعرفة شوق غير محب! وشوق علم ومعرفة لا شوق حب ولهفة! إنها - يا صاحبي - كلمة (الفشل) وخاصة حين تُنسب إليك، بأن يقال عنك: فاشل. أو أن يناديك أحد: أيها الفاشل.

فماذا تعني لك كلمة (فاشل)؟

لو طرحنا هذا السؤالَ على ثلَّةٍ من الناس لرأينا أجوبةً شتى،
وأراءً مختلفةً، ومعاني تتوضح لإنسان قد لا تتوضح لغيره، وكلُّ
يُدلي بدلوه..

... فيها هم يقولون:

- كلمة (فاشل) - بالنسبة لي - تعني أنني عبءٌ على المجتمع،
ومماتي أفضلٌ من حياتي، وعدمي خير من وجودي...

- كلمة (فاشل) تعني أنني لا حظَّ لي، كلما تقدمت خطوةً
تعثرتُ خُطواتٍ، وكلما أبحرت في لُجج الحياة، وظننت أنني أمخُر
عُبابها، فإنني أرى نفسي بعد سنةٍ أنني لا أزال على الشاطئ!.

- كلمة (فاشل) تعني - بالنسبة لي وباختصار شديد - التعاسة
والشقاء بكل ما تحمله هذه الكلمة من المعاني البائسة.

- كلمة (فاشل) تعني أنني لست بناجح، فمهما حاولت أن
أنجح سأبقى فاشلاً، لذلك فإنني لن أسلك طريق النجاح؛ لأن القدرَ
رمى بي في حفرة الفاشلين، لذلك تراني دائماً أعلل نفسي بالقدر،
وأعتب على الزمان!

- كلمة (فاشل) آه! كم تؤلمني هذه الكلمة!، وليت أن العرب
لم ينطقوا بها، ومن لي بإنسانٍ يجتثها من معاجم العربية جمعاء؟

إنها الكلمة التي دمرت حياتي، وجعلتني أهوي في مهاوي
الشقاء بلا رحمة، وبلا أدنى هوادة...

... كنت أحمل طموحاً يكاد لعلوه يصل إلى عَنان السماء،
وهمةً عاليةً لا تعرف الونى والفتور، وتقدماً لا يعرف التراجع

والهزيمة، لكنّ من حولي - نعم من حولي، ومعظمهم من أقاربي،
وأغلبهم ممن يدعون محبتي، وأنهم يُكنون لي خالص الحب،
وصفاء القلب - هم الذين جعلوا مني فاشلاً في الحياة...

كانوا دائماً ينعنونني بهذه الكلمة، حتى أصبحت كلمة الفشل
تلازمني بل جزءاً لا يتجزأ مني، وسيطر التشاؤم على حياتي، وتربع
البؤس على عرش قلبي...

... لقد فشلتُ مرة فلم يسامحني أحدٌ، ولم أجد يداً حانيةً
تُرَبّت على كتفي، وتكفكف دمع عيني، وتنشُلني من براثن
اليأس... فبقيت على هذه الحال: فشلٌ، وبؤسٌ، وتعاسةٌ،
وشقاء...

ومع مرور الأيام نزل طموحي إلى أسفل الحضيض بعد علوّ
وارتفاع، وغرقت همتي في الانحطاط بعد أن كانت لا تعرف الوهن
والكلل، وسيطرت على كل مشاعري انهزاميةٌ ورجعيةٌ تشبثت
بي... فنكصتُ على عقبي بعد أن كنت أضارعُ الآتي في تقدّمه،
والشهاب في سرعته وعلوّه...

.. سامحوني، فالفشلُ يرْمقني بعينين سوداوين، ولهول نظراته
لم أسطع أن أُتمّ كلامي...؟!

- كلمة (الفشل) تعني لي خلاف ما تعني لكم، وبكلمة
مختصرة:

لقد دخلتُ إلى ساحة المجد والعز من باب الفشل!
بمعنى آخر: كان فشلي حافزاً كي أتقدم أكثر فأكثر، لأنني

لم أستسلم له، ولم أرخ له العنان، ولم أهتمّ بتمتات الحاسدين، ولم تصغ أذني إلى فحيح الوشاة، ومضيت في درب الحياة، فلولا مرارة الفشل التي أبكتني لأيام وأيام، ولولا تجرّعي من كأس الحسرة، وتضلّعي من أجاج المِحنِ الآسنِ، لما كنت اليوم أبسم للحياة وتبسم لي، وما كنت اليوم أرتوي من فرات النجاح المعين في كؤوس التفاؤل والبشرِ والطمأنينة.

وأثناء هذا الحوار كان هناك رجلٌ يُحملك بكلتا عينيه، وقد تسمرتا في وجوه المتحاورين، يُمعن النظر فيهم، وقد علاه التثاؤب، وكُسي ثوباً من الخمول، وتجلبب بالكسل، ولا يدري الفشل نفسه ماذا يفعل بهذا البائس، أيْمسكه على هُونِ أم يدسّه في التراب؟!... ثم نهض قائماً بعد جهد ولأبي، وقال: أما أنا فلو سألتموني عن كلمة الفشل فسوف أقول لكم: «كلمة فشلٍ تعني أنني فاشلٌ لأنني فاشلٌ، وسأبقى فاشلاً ما تعاقب الليل والنهار، وسأكتب في وصيتي لأولادي:

كُتب الفشل على أبيكم، فاجعلوا من الفشل قَدْرَكم، ومن القدر ذريعةً لفشلكم، ومن البؤس دِثارَكم، ومن اليأس منهجَ حياةٍ لكم!». .

... ثم مضى في طريقه يمشى على استحياءٍ، وبعد برهةٍ غاب عن أعيننا عند مفترق الطريق...

عزيزي القارئ: وبعد هذه الجولة يبقى السؤال مطروحاً عليك:

ماذا تعني لك كلمة فاشلٍ، وهل تجرّعت كأس الفشل يوماً ما؟ .

٩ سؤال، ١٤٣٢هـ، الموافق: ٨/٩/٢٠١١م





مِنْ أَصْعَبِ مَوَاقِفِ الْحَيَاةِ

- من أصعب مواقف الحياة خبرٌ يأتيك وأنت تتوقع خلافه...
خبرٌ يجعلك تجثو على ركبتيك دون أن تشعر... خبرٌ ماتت عند
سماعه كثيرٌ من الآمال التي كنت تعيش مع آفاقها، فتحولت تلك
الآمالُ إلى سرابٍ في الفيافي والقفار...

- من أصعب مواقف الحياة أن يُعذَّب من تُحبُّ أمامك ويتألم،
وأنت لا تستطيع أن تقدم له أيَّ شيء، بل تقف لابساً ثوب الحيرة،
ومتجلبباً بجلباب الدهشة والذهول...

- من أصعب مواقف الحياة أن ترى أرملةً ظلمها كلُّ
من حولها، فأخذت ترفل في أثواب الذل والهوان بعد أن كانت
- أيام زوجها - ترفل في أثوابٍ منسوجةٍ من العزِّ، وموشاةٍ بالعدل
والسعادة والحُبور...

- من أصعب مواقف الحياة أن تقف مع صغيرٍ يظن نفسه
كبيراً، ومع قزَمٍ ويدّعي أنه عملاقٌ، ومع جاهلٍ ويظن نفسه أنه أعلم
من عليها، ومع باقلٍ ويظن نفسه أنه سحبانٌ وائل، ومع الأرض
وتظن أنها السماء، ومع الحضيض ويظن أنه السمُّ والشموخ...

- من أصعب مواقف الحياة أن تستمع مجبراً إلى من تَمجُّ

أذناك سماعَ حديثه، وأصعبُ من ذلك أن توميَ برأسك كلما حدثك، فيعتقد أنك تُطرب لحديثه وتلذُّ لسماعه... .

- من أصعب مواقف الحياة أن ترى الحقودَ يتظاهر بصفاء القلب، والكذوبَ يتظاهر بالصدق، والخائنَ يتظاهر بالأمانة، والغادرَ يتظاهر بحفظ العهد والوداد... . ولكنك لا تستطيع أن تواجه أحداً بهذه الحقيقة فالأمر أعظم من ذلك... .

- من أصعب مواقف الحياة أن يُقابَل إحسانك بالإساءة، وأن تقوم بفعل خيرٍ فينقلبَ عليك شراً، وأن تُوعِدَ وعداً ولكنك لم تستطيع أن تفِي به، وأن يتنكرَ لك من كنت تتوقع أنه أعزُّ الناس عليك، وأصدقهم محبة، وأشفقهم قلباً... .

- من أصعب مواقف الحياة أن ترى أن أنصار الباطل يتكاثرون، وأنصار الحق يتلاشون ويضمحلون، ولكن الأصبَبَ من ذلك أن لا ترى للحق أنصاراً على الإطلاق، أو أن يصيرَ أنصارُ الحق سابقاً أنصاراً للباطل اليوم... .

- من أصعب مواقف الحياة أن تكتشف عندما وصلت إلى نهاية الطريق أنك سلكت الطريقَ الخطأ، أو أن تقفَ والطرقُ شتّى أمامك، ولكنك لم تسلك أياً منها، فانطبق عليك قول الشاعر:

تكاثرت الظبَاءُ على خِراشٍ فما يدري خِراشُ ما يصيدُ
فظللت راكداً في بداية الطريق، وعُدتَ بعد فترةٍ بِخُفْيِ حُنَيْنٍ... .

- من أصعب مواقف الحياة أن يتحكم جاهلٌ بعالم، وأن تبسّم مجبراً لِمَن توذُّ أن تنظر إليه شزراً... .

- من أصعب مواقف الحياة أن تعلم بخيانة الخائن، ولكنك لا تستطيع أن تصارحه بذلك خوفاً من أمور أشدَّ وطأة، وأسوأ عاقبةً... فما أمامك إلا أن تسكتَ على مضر وغيظ، وقد حُبس الدمع خلف جفنيك، وتحفَزَ قلبك تحفَزَ الليث، ولكن بعد هُنيهة خارت قُواه، ولم ينسِ بنتِ شَفَّةٍ...

- من أصعب مواقف الحياة أن يحوطك الظلمُ من كل جانب، وأن يغشاك القهر والذل والهوان... ولكنك لا تستطيع فعلَ أي شيء...

- من أصعب مواقف الحياة أن تحاول إقناع المتكبر الجاهل بحقيقة لا يختلف عليها اثنان، ولا ينتطحُ عليها عنزان، والأصعبُ من ذلك أن يحاول هذا الجاهل أن يقنعك بأفكاره التي يهرب منها المنطق، ويموت عندها العقل، بل تصل إلى حد الهذيان والجنون!...

- من أصعب مواقف الحياة أن ترى أن من علّمته يوماً ما أصبح يدعي أنه معلم لك، والأصعب من ذلك أن ينطبق عليك وعليه قول القائل:

وكم علّمتهُ نظم القوافي فلما قال قافيةً هجاني
ومن أصعب مواقف الحياة أن تكتبَ والناسُ تفهم عكس ما أردت، وأن تتكلم وكلُّ يُووّل على ما يشتهي ويريد، ويُغني على ليلاه، وأن يسمع الناس جزءاً من كلامك - ثم يحكموا عليك - مع أن كلامك لا يُفهم إلا إذا سُمع كاملاً غير منقوص...

والأصعب من ذلك أن تبقى صامتاً لا تتكلم، ومع ذلك ترى
أن الناس أيضاً يفترون عليك، وَيَقُولُونَ شَيْئاً لَمْ تَقُلْهُ، وَيَصِيبُهُمُ
الكرم الحاتميّ - ولكن في غير موضعه - فيزيدون كرمًا في العبارات
ما يشاؤون، ويضيفون إلى إفكهم كلّ ما يشتهون . . .





حُدَاءُ النواعير في مسامع الشعراء

سمعنا عينيها منذ الصغر، وظلّ مرافقاً لنا حتى الكبر...
وكم تعجبنا من بكائها الدائم!! مع أنها ليست ثكلى فقدت
ولداً، ولا أيمماً فقدت زوجاً، ولا مفجوعةً فقدت أخاً...
وكم رأيتُ فيها ساعة تدور وتدور، على مرّ الليالي والشهور،
تقربنا من الموت، وتبكي بكاء الفراق الطويل، فتكثر من النحيب
والعويل...

تسقي الأرض العطشى، وتتن أنين الثكلى...
يسمعها المسافر المشتاق فيشاركها في أحزانها، فينوح معها،
وتنوح معه...

ولعلها في صوتها سرّاً وسحراً، فكم فجّر هذا الصوت الشجيّ
قرائح الشعراء، وكم ألهمهم روائع القصائد، التي خلدها الزمان!!!
فقرأنا مثل هذا البديع:

وحنّانةٍ من غير شوقٍ ولا وجدٍ يفيض لها دمّع كمنتثرِ العِقْدِ
أحنُّ إذا حنت، وأبكي إذا بكثُ فليس لنا من ذلك الفعلِ من بُدِّ
ولكنّها تبكي بغير صبايةٍ وأبكي بإفراطِ الصّبايةِ والوجدِ

وأدمعها من جدولٍ مُستعارَةً ودمعي من عيني يفيض على خدي^(١)
 وكم تغنى بها الشعراء، ورأوها قلباً رقيقاً، وعيناً دامعةً،
 ولبلاً غريداً، وحمامةً نائحةً، فإذا كان الشاعرُ يحن من الشوق
 المبرح والوجد، وله قلبٌ ينبض عاطفةً وحباً وشوقاً، فالناعورة تحن
 من غير وجد، وليس لها قلب، مما حدا بالمجنون أن يأتي بهذه
 الصورة الفريدة:

باتت تحنّ وما بها وجدٌ وأحنُّ من وجدٍ إلى نجدٍ
 فدموعها تسقي الرياضَ بها ودموعُ عيني أفرحت خدي
 وكذلك عبيدُ الله بنُ مسعود، عندما كان في الفرات، وسمع
 حينَ الناعورة، جعل يشاركها البكاء، ولكنَّ العجب!! أن الناعورة
 ليس لها عيونٌ، ودموعها لا تُقرحُ الجفونَ:

ولما استحنتُ بالفراتِ عشيّةً نواعيرُهُ كادَ الفؤادُ يبينُ
 تحنُّ بلا حُزنٍ وشوقٍ أصابها وللقلبِ من شوقٍ إليك حينُ
 سواءٌ بكاءُ العينِ مني والذي بكين، ولكن ما لهنَّ عيونُ
 على أنني والله قد أفرحُ البكا جفوني ولم تُقرحُ لهنَّ جفونُ
 ومثله لأحد الأعراب:

ولما نزلنا الساحلينِ تجاوبتُ أبا عرنا لما ازدهتْها النواعرُ
 وحنّت نواعيرُ الفراتِ بأرضها فلما استحنتُ جاوبتْها الأباعرُ

(١) المستطرف في كل فنٍّ مستطرف، شهاب الدين محمد بن أحمد أبو
 الفتح الأبهسي، ط٣، دار صادر، ص٥٨٩.

إذا نحن أخفينَا الدفينَ الذي بنا من الوجدِ نَمَتُهُ الدُمُوعُ البَوَادِرُ
وعندما نزل صاحبُ (الأنوارِ ومحاسنِ الأشعار) في أكنافِ
العراقِ، هيَّجت نواعيرُ العراقِ أشجانَه، وأثارت شجونَه، فقال:

نَزَلْنَا بِأَكْنَافِ الْعِرَاقِ فَهَيَّجَتْ نَوَاعِيرُهُ أَحْزَانَنَا حِينَ حَنَّتِ
تَحِنٌّ وَتَسْقَى الرَّوْضَ رِيًّا وَلَمْ تَذُقْ هَوَايَ الَّذِي مِنْهُ دُمُوعِي اسْتَهَلَّتِ
وَلَمْ تَعْرِفِ الشُّوقَ الَّذِي فِي جَوَانِحِي وَلَا حُرْقًا بَيْنَ الضُّلُوعِ اسْتَكْنَتْ
وَلَوْ عَلِمْتَ مَا قَد لَقِيتُ وَمُلْكْتُ لِسَانًا لَبَّاحَتْ بِالْهَوَى وَتَشَكَّتِ

وأما أبو طالب الحسين بن عليّ، فقد رأى في الدولاب مغترباً
يحن إلى أوطانه وذلك عندما قال:

كَأَنَّ دُولَابَهَا إِذْ حَنَّ مُغْتَرِبٌ نَاءٍ يَحْنُ إِلَى أَوْطَانِهِ طَرِبًا^(١).

وهذا شاعر آخر يرى أن الناعورة، لم تفقد حبيباً، ولا فلذة
كبد، وما ألم بها الضر... الأزهار حولها تضحك، وهي تبكي، ثم
شبهها بالفلك الذي تدور به النجوم:

ودولابٍ يئنُّ أنينَ ثكلى ولا فقداً شكاه ولا مضره
ترى الأزهار في ضحكٍ إذا ما بكى بدموع عينٍ منه ثره
حكى فلكاء تدور به نجومٌ تؤثر في سرائرنا المسره
يظلُّ النجمُ يشرق بعد نجمٍ ويغرب بعد ما تجري المجره^(٢)

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار الشمشاطي، باب في النواعير وحينها ١/ ٧٤.

(٢) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني المحقق:

إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٨م، طبعة

جديدة ١٩٩٧م، باب في نبذة مما من الله به علي ٣/ ٥٠٢.

ولله درُّ الشاعرِ عليِّ بنِ أحمدَ بنِ عبدِ الرحمنِ أبي الحسينِ
الوقشي!! حيث كان أديباً ومطرباً في نفس الوقت، ومن شعره الذي
يشنف الأسماع، ويأخذ بالألباب:

حننتُ إلى صوتِ النواعيرِ سحرةً وأضحى فؤادي لا يقرُّ ولا يهدى
وفاضت دموعي مثلَ فيضِ دموعها أطارحها تلك الصبابةُ والوجداءُ
وزاد غرامي حين أكثر عاذلي فقلت له: أقصر، ولا تقدح الزندا
أهيم بهم في كل وادٍ صبابةً وأزداد مع طول المعاد لهم ودا^(١)

وقد أراد بعضُ الشعراء، أن يُعللَ دورانِ الناعورة بتعليل
بلاغي، وجعلها تتكلم وتعترف، أنها عندما تدور فإنها تدورُ على
قلبها الذي فقدته، ودموعها تجري على جسمها، فهذا هو يقولُ:

وناعورةٍ قالت وقد حال لونها وأضلُّعها كادت تُعدُّ من السُّقم:
أدور على قلبي لأنني فقدته وأما دموعي فهي تجري على جسمي^(٢)

والشاعرُ الخطيريُّ جعل الناعورة تعترف له بالسرِّ الدفين، الذي
يسيل منها العبرات، ويجعلها تنن وتبكي وتدور، فقال:

رُبَّ ناعورةٍ كأن حبيباً فارقتُهُ، فقد غدت لي تحكي
أبدأً هكذا تننُّ بشجوٍ وعلى إلفها تدور وتبكي^(٣)

ودائماً عندما تُذكر النواعيرُ، تأتي إلى مخيلتنا - ومن غير
استئذان - مدينةُ السحر والجمال، والطبيعة الخلابة، والمناظرِ

(١) القرط على الكامل، ابن سعد الخير، باب: الطور الثاني ٨/١.

(٢) المستطرف في كل فنٍّ مستظرف، الأبشيهي، ص ٥٨٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٨٩.

الجدابة، التي أبدعها الله - جل وعلا -، تلك هي مدينة حماة التي
تغنى بها الشعراء قديماً وحديثاً، وأكثروا في ذلك، ولكنني سأقتصر
على مثالين، الأول قديم والثاني حديث، فها هو الشاعر أبو
الحسن بن سعيد يقول في حماة:

حمى الله من شطّئي حماة مناظراً وقفتُ عليها السمع والفكر والظرفا
تغني حماماً، أو تميل خمائلُ وتزهى مبانٍ تمنح الواصف الوصفا
وأشدو لدى تلك النواعير شدوها وأغلبها رقصاً وأشبهها غرفا
تئنّ وتذري دمعها فكأنها تهيم بمرآها، وتسألها العظفا^(١)

ولا أزال أذكر أنني عندما كنتُ في مصرَ، نظمتُ قصيدة في
الشوق إلى حماة ونواعيرها وعاصيها، وقد اخترت لك - أيها القارئ
الكريم - منها هذه الأبيات:

أحنّ إلى ربوع حماة شوقاً وأذكر ماضياً عذباً جميلاً
نواعير المياه بلا فتورٍ تُقلّب في حماة السلسبيل^(٢)
وهكذا نكون قد شاركنا النواعير في عينيها، وشربنا من كأس
أحزانها، وتعرّفنا على بعض أسرارها، ورأينا كيف وصفها الشعراء
فأبدعوا، ورأوا فيها مُهيّجَ الأحزان، ونديمَ الشوق والغرام.



(١) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني المحقق:
إحسان عباس، الباب الخامس ٣٢٦/٢.

(٢) انظرها كاملة في ديوان: بدرُ الدجى سيّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ، مصطفى قاسم
عباس، ط١، ١٤٢٨هـ، ص ١٤٩ - ١٥٦.



شُعْرَاءُ فِي غِيَاهِبِ السُّجُونِ

لم تخلُ السجونُ يوماً من الأيام من ضيفٍ يحل بها، أو مقيمٍ يعيش بين حناياها، ولا يخرجها منها إلا الموت!!...

ومن المعلوم أن السجنَ يغص بأصناف شتى من البشر، وأن السجن قد يحوي البريء المظلوم، ويحوي السارق والقاتل والمجرم وقاطع الطريق...

وكم من مجرم يدّعي أنه بريء!!، وكم من بريء أصبح يُسمّى مجرمًا، وعلى كل حال:

ما يدخل السجنَ إنسانٌ فتسأله ما بال سجنك؟؟ إلا قال: مظلوم كما أن السجن قد يحوي بين جدرانها الرسولَ والنبى، والعالم والأُمي، والكاتبَ والشاعر، والتقيَّ والفاجر...

وما أكثر الشعراء الذين حُبسوا!! وما أكثر الأشعار التي قيلت في السجون!!، فبددت بنور توهجها ظلامَ السجون الدامس، وتنسمت قوافي تلك الأشعار نسائم الحرية، وخرجت من غياهب السجون ودياجيرها، لتصبح تاجاً مرصعاً على هامة الخلود، وقلادة حرة في صدر الزمان...

ويبقى العجب!! كيف تضم حجرةً مظلمة صغيرة بحوراً لُجِّيَّة

من الشعر، وجبالاً تطاول عَنان السماء، من العلماء والحكماء !!
ولاغروَ ولا عجب، فالسجنُ الذي ضمَّ نبياً ورسولاً، يضم عالماً
وشاعراً وحكيماً... .

ويظل السجينُ على أمل اللقاء مع الأهل والأحبة، فالذي ردَّ
يوسف إلى أبيه، وأعزَّه - وهو في سجنه - قادرٌ على أن يجمعَ
السجين بأهله، ويلمَّ الشملَ، ما لم تعاجله المنيةُ وهو في أعماق
الأرض، فينتقل من أعماق زنانه، ويوضع في أعماق الثرى داخل
قبره!

ورحم الله من قال:

وعسى الذي أهدى ليوسفَ أهله وأعزَّه في السجن وهو أسيرُ
أن يستجيبَ لنا فيجمعَ شملنا واللَّه ربُّ العالمين قديرُ
ونحن عندما نتحدث عن الشعراءِ وقصائدهم التي دبَّجوها في
غياهب السجون، لا بد أن نتذكر جميعاً قصيدةَ أبي فراس الحمداني
الرائعةَ، التي قالها عندما كان أسيراً، وسمع حمامة تنوح على شجرة
عالية بقربه، فأراد منها أن تشاركه في أحزانه، وتحملَ عنه بعضَ
الهموم، فقال يخاطبها، وهو في سجنه:

أقولُ وقد ناحت بقربي حمامةٌ أيا جارتا، هل بات حالك حالي؟؟^(١)
معاذ الهوى ما ذقتِ طارقةَ النَّوى ولا خطرت منكِ الهمومُ ببال
أتحمل محزونَ الفؤادِ قوادمُ على غصنِ نائي المسافة عال

(١) المشهور: (هل تشعرين بحالي) ولكن هذه رواية ابن خالويه.

أجارتنا: ما أنصف الدهرُ بيننا تعالي أقاسمك الهمومَ تعالي
تعالي تري روحاً لدي ضعيفةً تردّد في جسم يعذب بال
أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقة؟؟ ويسكت محزون ويندب سال؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلّةً ولكن دمعي في الحوادث غال^(١)

- وكم من أبياتٍ أخرجت صاحبها من السجن!!، وما ذلك إلا
لرقتها وعدوبتها، فترى القوافي فيها تبكي، ودموع سامعها تهمي،
وقلبه يذوب ليناً وعطفاً، ومعلومةً تلك الأبيات التي جعلت الشاعر
الحطيئة يخرج من سجنه، والتي قالها لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه
عندما أودعه في السجن:

ماذا تقول لأفراخٍ بذى مرخٍ؟؟ زغب الحواصل لا ماءً ولا شجرُ
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمةٍ فاغفر، عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألفت إليك مقاليد النهى البشرُ
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الإثر
فامنن على صبية في الرمل مسكنهم بين الأباطح يغشاهم بها القدرُ
أهلي فداؤك كم بيني وبينهم من عرض داويةٍ يعمى بها الخبر!!
فبكى سيدنا عمرُ، وأخرجه من السجن، ثم دعاه فهدّده بقطع
لسانه إن عاد يهجو أحداً^(٢).

(١) ديوان الأمير أبي فراس الحمداني، تحقيق وشرح: د. محمد ألتونجي،
منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، عام
١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٢٤٦ - ١٤٧.

(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر، باب في السجن ١/١٩٤. =

كما (حُكي أن الحجاج حبس رجلاً في حبسه ظلماً، فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيامٌ ومن نعيمك أيامٌ، والموعِدُ القيامة، والسجنُ جهنمُ، والحاكمُ لا يحتاج إلى بيّنة، وكتب في آخرها:

ستعلم يا نؤومُ إذا التقينا غداً عند الإله من الظلوم؟
أما والله إن الظلمَ لؤومٌ وما زال الظلومُ هو الملموم
سينقطع التلذُّدُ عن أناسٍ أداموه، وينقطعُ النعيم
إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم)^(١)
والشاعر ابنُ عمارٍ عندما حبسه المعتمدُ بنُ عباد، كتب إليه الكثيرَ من قصائد الاستعطاف، وطلب العفو، وإليك هذه الأبيات من آخر قصيدة بعث بها إليه كما يقال:

سجايك إن عافيتَ أندى وأسمحُ وعذرك إن عاقبتَ أولى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزيةً فأنت من الأدنى إلى الله أجبح
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا سوى أن ذنبي ثابتٌ ومُصَحِّحُ
وإن رجائي أنَّ عندك غيرَ ما يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
أقلني بما بيني وبينك من رضئٍ له نحو روح الله بابٌ مفتَحُ
ولا تلتفت رأيَ الوشاة وقولهم فكل إناءٍ بالذي فيه يرشح

= وانظرها في كتاب: نوارد الحطيئة، محمد إبراهيم سليم، دار الطلائع، مصر، ص ٣٩.

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبهسي، ط ٣، دار صادر، ص ١٤٧.

ألا إن بطشاً للمؤيد يُرتجى ولكنّ حلماً للمؤيد يرجح
سلامٌ عليه كيف دار به الهوى إليّ فيدنو أو عليّ فينزع^(١)
ولكنّ، إذا كان الحطيئة قد استطاع أن يُبكي سيدنا عمرَ بتلك
الآيات، فإن ابنَ عمار لم يفلح في نيل رضا المعتمد، بل شجَّ رأسه
بفأس وقضى عليه، وكأنّ المعتمد ما نسي هجاء الشاعر له ولزوجته
وكما قيل:

جراحاتُ السنان لها التئام ولا يلتأم ما جرح اللسان
- والسجين في سجنه، كلما هبت رياحٌ من ناحية بلاده يذوب
حينئذٍ، وكلما لاح له خيالُ ركبٍ مُيمّم وجهه شطرَ بلده، كلما بعث
هواه مع هذا الركب، وقد أورد البغدادي في خزانته أبياتَ شعر
لجعفر بن عُلبّة الحارثيّ قالها في سجنه، وأوردها أبو تمام في أول
الحماسة، وهي في غاية الروعة:

هَوَايَ مَعَ الرَّكْبِ الْيَمَانِينَ مُضَعِدٌ جَنِيْبٌ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوْتِقٌ
عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وَأَنْتَى تَخَلَّصْتُ إِلَيَّ، وَبَابُ السَّجْنِ دُونِي مُعْلَقٌ
أَلَمْتُ فَحَيْتُ ثُمَّ قَامْتُ فَوَدَّعْتُ فَلَمَّا تَوَلَّتْ كَادَتِ النَّفْسُ تَزْهَقُ
فَلَا تَحْسَبِي أَنْتَى تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ بِشَيْءٍ، وَلَا أَنْتَى مِنَ الْمَوْتِ أَفْرَقُ
وَلَا أَنْ نَفْسِي يَزْدَهِيهَا وَعَيْدُكُمْ وَلَا أَنْتَى بِالْمَشْيِ فِي الْقَيْدِ أَخْرَقُ
وَلَكِنْ عَرَّتْنِي مِنْ هَوَاكِ صَبَابَةٌ كَمَا كُنْتُ أَلْقَى مِنْكَ إِذْ أَنَا مُطْلَقٌ

(١) في الشعر العربي الأندلسي والمغربي، د. علي دياب، منشورات جامعة دمشق، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ١٧٨.

وقال آخر:

أسجنٌ وقيدٌ واغترابٌ وعبرةٌ وفقدٌ حبيبٌ؟؟ إن ذاك عظيم
وإن امرأً تبقى موثيقٌ عهده على كل هذا، إنه لكريم^(١)
وعندما حُبس عبدُ الملك بنُ إدريس الجزيريُّ الكاتبُ الشاعرُ،
صدرت عنه - وهو في السجن - قصيدةٌ له في الآداب والسُّنة، كتبَ
بها إلى بنيه (أو إلى ابنه عبدِ الرحمن)، مطلعُها:

ألوى بعزم تجلدي وتصبري نأى الأحبة واعتيادُ تذكري
ويذكر فيها كيف فقد صبره، وذهب سروره، وتلذُّده بالعيش،
ويتشوقُ إلى ابنه الأصغر، ويتذكر ساعة فراقه، فيقول:

عجباً لقلبي يوم راعتنا النوى ودنا وداعك كيف لم يتفطر؟
ما خلتنى أبقي خلافاً ساعة لولا السكونُ إلى أخيك الأكبر^(٢)
وها هو أيضاً ضابئُ البرمجيِّ - وهو في سجنه - يقول متشوقاً:
ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإنني وقياراً بها لغريبُ
وما عاجلاتُ الطير تدني من الفتى نجاحاً ولا عن ريثهن يخيبُ
ورب أمورٍ لا تضيرك ضيرةً وللقلب من مخشاتهم وجيبُ
ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب^(٣)

(١) المجالس وأنس المجالس ابن عبد البر، باب في السجن ١/١٩٤.
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، إحسان عباس: ١ تاريخ
النشر: ١٩٦٠م، الناشر: دار الثقافة عنوان الناشر: بيروت ١/٨١.
(٣) الكامل في اللغة والأدب، المبرد، باب لضابئ البرمجي وهو في السجن
٨٥/١.

وأما صالحُ بنُ عبد القدوس ، فإنه يشكو حاله إلى الله ، ويرى
نفسه في سجنه لا حياً ولا ميتاً :

إلى الله أشكو إنه موضعُ الشكوى وفي يده كشفُ المصيبة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فما نحن بالأحياء فيها ولا الموتى
إذا ما أتانا مخبرٌ عن حديثها فرحنا وقلنا : جاء هذا من الدنيا
وتعجبنا الرؤيا فجلُّ حديثنا إذانحن أصبحنا الحديثُ عن الرؤيا
فإن حسنت لم تأتِ عجلي وأبطلت وإن قبحت لم تحبس وأتت عجلي^(١)

وبعض الشعراء ، رأى في السجن مدى حاجة الناس إليه ، وجعل
نفسه البدرَ المفتَقَدَ في الليلة الظلماء ، ولكن كيف ذلك؟؟ ويأتي
الجواب : بأن الناس سيعلمون قوته ومكانته عندما تدور رحى الحرب ،
وتطحن الحربُ الزبونُ الكُماةَ ، أما فارسُها المُهَابُ ، وليثُها الهدَّارُ ، فإنه
قابعٌ في السجن ، لذلك ، الشاعرُ العَرَجِيُّ - وهو أشعر بني أمية - ، عندما
هجا إبراهيم بن هشام المخزومي ، وأخذه وحبسه . قال وهو في السجن :

كأنِّي لم أكن فيهم وسيطاً ولم تك نسبتي في آل عمرو
أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريبهته وسدادِ ثغر^(٢)

وأما ابنُ زيدون فإنه عندما كان في نكبته ، وأودع في السجن ،
أتى بصور بديعة ، فهو لا يرى في نفسه عندما سُجن سوى قمرٍ قد
أصابه الخسوفُ ، أو شمسٍ قد ألمَّ بها الكسوفُ ، وهو نجم إلا أنه
في الأرض لا في السماء ، يقول :

(١) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ١/١٢١ .

(٢) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة الدينوري ، باب عروة بن أذينة ١/١٢٥ .

هل الرياحُ بنجم الأرض عاصفةٌ أم الكسوفُ لغير الشمس والقمر؟؟
 إن طال في السجن إيداعي فلا عجبٌ قد يودع الجفن حدَّ الصارم الذِّكر^(١)
 وإذا كان ابنُ زيدون قد صوّر نفسه في سجنه بدرأً مخسوفاً،
 وسيفاً صارماً مغمداً، فإن بعض ولد نهيك بن أساف الأنصاري قد
 جعل من الحكم بن المطلب المخزومي شيئاً آخر، فعندما حُبس رأى
 أن الجود والكرم قد حُبسا، وأن المعروف قد أصبح نزيلَ السجن،
 ورأى أن هذا البحر يفيض رغم القيود حتى يكاد يغرق زائريه، قال:
 خليليَّ إن الجود في السجن فابكيا على الجود إذ شُدت عليه مرافقُهُ
 ترى عارض المعروف في كل ليلة وكل ضحىَّ يستنُّ في السجن بارقُهُ
 إذا صاح كبلاه طفا فيضُ بحره لزوّاره حتى تُرام غرائقُهُ^(٢)
 وسُجن مروانُ بنُ عبد الرحمن الملقب بالطلق، وكان عمره
 ست عشرة سنة، وطال سجنه إذ مكث في السجن ست عشرة سنة
 أخرى، فما كان منه إلا أن وصف السجن بقوله:

في منزل كالليلِ أسودَ فاحمٍ داجي النواحي مظلم الأشباح
 يسودُ والزهراءُ تشرق حوله كالحبر أودع في ذوات العاج^(٣)
 - وقد يصور الشاعر نفسه وهو في سجنه سيفاً إلا أنه مغمداً،
 وهزبراً في عرينه، ويسلي نفسه بكثير من التشبيهات والصور البيانية،
 مما حدا بالبيهقي أن يجعلها من محاسن الحبس، في كتابه

(١) إعتاب الكتاب، ابن الأبار ٤٦/١.

(٢) ربيع الأبرار، الزمخشري ٨٣/١.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، إحسان عباس: ٧٩/١.

(المحاسن والمساوي) فيها هو علي بن الجهم يقول عندما حبس:

قالوا حُبستَ فقلتُ ليس بضائري
أَوْ ما رأيتَ اللَّيْثَ يَأْلِفُ غَيْلَهُ
والبدرُ يدركُهُ السِّرارُ فتنجلي
والنَّارُ في أحجارها مخبوءةٌ
والغيثُ يحظرُهُ الغمامُ فما يُرى
غَيْرُ الليالي بادئاتٌ عوْدُ
ولكلِّ حالٍ معقبٌ ولربما
لا يؤيسنُّكَ من تفرِّجِ كربةٍ
صبراً فإنَّ اليومَ يتبعه غدٌ
والحبس ما لم تغشه لدنيةٍ
لو لم يكن في الحبس إلا أنه
بيتٌ يجدد للكريم كرامةً

إلا أن عاصم بن محمد الكاتب، لما حبسه أحمد بن عبد العزيز بتغير حمولة له، عارض ابن الجهم في قصيدة ذكرت مساوي السجن، وأتى فيها بنقيض ما قاله ابن الجهم:

قالت: حُبستَ فقلت: خطبٌ أنكد
لو كنت حراً كان سربي مطلقاً
أو كنت كالسيف المهند لم أكن
أو كنت كالليث الهصور لما رعت
من قال: إن الحبس بيت كرامةٍ
أنحى علي به الزمان المرصد
ما كنت أُؤخذ عنوةً وأُقيد
وقت الشديدة والكريهة أغمد
في الذئاب وجدوتي تتوقد
فمكاشراً في قوله متجلد

ما الحبس إلا بيت كل مهانةٍ
 إن زارني فيه العدو فشامتٌ
 أو زارني فيه الصديق فموجعٌ
 يكفيك أن الحبس بيتٌ لا ترى
 عشنا بخيرٍ برهةً فكبا بنا
 قصرت خطاي وما كبرت وإنما
 في مطبقٍ فيه النهار مشاكلٌ
 تمضي الليالي لا أذوق لرقدةٍ
 فتقول لي عيني: إلى كم أسهرت؟
 وغداي بعد الصوم ماءً مفردٌ
 وإذا نهضت إلى الصلاة تهجراً
 فإلى متى هذا الشقاء مؤكداً؟
 يا ربَّ فارحم غربتي وتلافني
 ومذلةٍ ومكارهٍ ما تنفذ
 يبدي التوجع تارةً ويفنّد
 يذري الدموع بزفرةٍ تتردد
 أحداً عليه من الخلائق يحسد
 ريبُ الزمان وصرْفُه المتردد
 قصرت لأنني في الحديد مصفّد
 لليل والظلمات فيه سرمد
 طعماً فكيف حياة من لا يرقد
 ويقول لي قلبي: إلى كم أكمد؟
 كم عيش من يغذوه ماءً مفرد
 جذبت قيودي ركبتني فأسجد
 وإلى متى هذا البلاء مجدداً؟
 إني غريبٌ مفرد متلدد^(١)

- وكثيراً ما يُسجن إنسان لا يقرض الشعر، فيهيئ الله له
 من الشعراء من يواسيه ويسلّيه في سجنه، فالبحتريُّ عندما سُجن
 محمد بنُ يوسفَ ذكره بنبي الله يوسفَ عليه السلام، وأن صبره جعل منه
 ملكاً، كما ذكره أن الذهب لا يصفأ إلا بالسبك، والدنيا متقلبة،
 والأيام دول:

(١) المحاسن والمساوي، إبراهيم البيهقي، باب مساوي من سخط عليه
 وحسب ٢٢٨/١.

وانظر أبيات ابن الجهم في المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين
 محمد بن أحمد أبي الفتح الأبيشي، ط ٣، دار صادر، ص ٤١٤.

وما هذه الأيامُ إلا منازل فمَنْ منزلٍ رحبٍ إلى منزلٍ ضنكٍ
وقد دهمتكَ الحادثاتُ وإنما صفا الذهبُ الإبريزُ قبلك بالسبكِ
أما في نبي الله يوسفَ أسوةً لمثلك محبوسٍ عن الظلم والإفك
أقام جميل الصبر في السجن برهة فآل به الصبر الجميل إلى الملك^(١)

وكذلك يزيدُ بن المهلب، الذي كان جواداً، وكان حاتمُ
عصره. و(قيل: إن الحجاجَ حبسه على خراجٍ وجب عليه، مقدارُه
مائةُ ألفِ درهم، فجمعت له، وهو في السجن، فجاءه الفرزدقُ
يزوره، فقال للحاجب: أستاذن لي عليه، فقال: إنه في مكانٍ
لا يمكن الدخول عليه فيه، فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجِّعاً لما
فيه، ولم آت ممتدحاً، فأذن له، فلما أبصره قال:

أبا خالد ضاقت خراسانُ بعدكم وقال ذوو الحاجات أين يزيد؟
فما قطرت بالشرق بعدك قطرةً ولا اخضرَّ بالمروين بعدك عودُ
وما لسرور بعد عزك بهجةً وما لجواد بعد جودك جودُ^(٢)

- ونحن عندما ننتقل إلى شعراء العصر الحديث فإننا قد
نراهم، أبدعوا إبداعاً رائعاً وهم في سجونهم، وكتبوا روائع شعريةً
ليس لها نظير، فالشاعرُ نجيبُ الرِّيسُ، يطلب من ظلام السجن أن
يخيم، فقد أصبح السجناءُ يعشقون الظلام، وأصبحوا يطربون لسماع
رنين القيود الذي تحول في مسامعهم إلى أنغام تُشجي القلوبَ، ففي

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي
الفتح الأبيشي، ط٣، دار صادر، ص٤١٤.

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف: الأبيشي، ص٢١٤.

عام (١٩٢٢م) في سجن أرواد، إبان الاحتلال الفرنسي لسوريا
ولبنان، أطلق هذا النشيد الذي تغنى به الأحرار:

يا ظلامَ السَّجْنِ خَيِّمِ إِنَّا نَهْوَى الظَّلَامَا
ليسَ بعدَ السَّجْنِ إِلَّا فَجْرٌ مَجْدٍ يَتَسَامَى
أَيُّهَا الحُرَّاسُ رِفْقاً واسمَعُوا مِنَّا الكَلَامَا
مَتَّعُونَا بِهِوَاءِ مَنْعُهُ كَانَ حَرَامَا
إِيهِ يَا دَارَ الفَخَارِ يَا مَقَرَّ المُخْلِصِينَا
قَدْ هَبَطْنَاكَ شَبَاباً لَا يَهَابُونَ المُنُونَا
وَتَعَاهَدْنَاكَ جَمِيعاً يَوْمَ أَقْسَمْنَا اليَمِينَا
لَنْ نَخُونَ العَهْدَ يَوْمَاً واتخذْنَا الصدقَ دِينَا
يَا رنينَ القيدِ زدني نغمةً تُشجِي فُؤَادِي
إِنَّ فِي صَوْتِكَ مَعْنَى لَأُوسَى والاضطهادِ
لَسْتُ وَاللَّهِ نَسِيّاً مَا تَقَاسِيهِ بِإِلَادِي
فأشْهَدَنَّ يَا نَجْمُ إِنِّي ذُو وَفَاءٍ وَوِدَادِ

وممن كتب وأبدع في هذا المجال الدكتور يوسف القرضاوي،
الذي ألقى قصيدة نونية بمناجاة ليلة القدر... نظمها الشاعر ليلة ٢٧
رمضان عام (١٣٦٩هـ/١٩٤٩م) بمعتقل الطور... وذلك عندما
احتفل المعتقلون بهذه المناسبة الطيبة منها:

يا رب إن الطغاة استكبروا وبغوا بغى الذئاب على قطعان حملان
يا رب كم يوسف فينا نقيي يدانوه بالسجن والقاضي هو الجاني
يا رب كم من صبي صَفِّدوا فمضى يبكي كضفدعة في ناب ثعبان

يا رب كم أسرةٍ باتت مشرّدة تشكو تجبرَ فرعونٍ وهامانٍ
وله فيها بيت جميل يقول فيه :

والليثُ لن تحنيَ الأقفاصُ هامتهُ وإن تحكّم فيه ألفُ سجّانٍ^(١)
وليس لأحدٍ أن ينسى تلك القصيدةَ، قصيدةَ الشاعر هاشم
الرفاعي (رسالةٌ في ليلة التنفيذ) التي يخاطب فيها أباه، ويصوّر
السجن تصويراً عجيباً، بليله الحالك، وهدوئه المخيف، وصمته
الذي يقطعه رنينُ السلاسل :

أبتاهُ، ماذا قد يخط بناني؟
هذا الكتابُ إليك من زنّانة
لم تبقَ إلا ليلةٌ أحيا بها
ستمر يا أبتاه - لست أشك في
الليلُ من حولي هدوءٌ قاتل
ويهدني ألمي، فأنشد راحتي
والنفس بين جوانحي شفافةٌ
شكراً لهم، أنا لا أريد طعامهم
هذا الطعام المرُّ ما صنّعه لي
كلا، ولم يشهده يا أبتى معي
مدوا إليّ به يداً مصبوغةً
والصمت يقطعه رنينُ سلاسلٍ

والحبل والجلاد منتظرانٍ
مقرورة صخرية الجدران
وأحس أن ظلامها أكفاني
هذا - وتحمل بعدها جثماني
والذكرياتُ تمور في وجداني
في بضع آياتٍ من القرآن
دبّ الخضوع بها فهزّ كياني
فليرفعوه، فلست بالجوعان
أمي، ولا وضعوه فوق خوان
أخوانٍ لي جاءه يستبقان
بدمي، وهذي غاية الإحسان
عبثت بهن أصابعُ السجنان

(١) انظر: موقع الدكتور القرضاوي، شعره.

وهكذا، وفي نهاية المطاف، نكون قد شاركنا الشعراء في
سجونهم، وعانينا من بعض ما عانوا، ورأينا أن من إحدى حسنات
السجون أنها تخرج إلينا من بين جدرانها، ومن ثانياً ظلامها البهيم
قصائد خالدة، مشوبةً بصدق العاطفة ورصانة التعبير.





.... وَأَشْرَقَتْ شَمْسُ الْهَدَايَةِ

في وقت كان ظلامُ الجاهلية يَغشى فيه القلوبَ والعقول، وكان ليلها الحالِكُ يَغْطِي شعاعَ الهدى والتقى، ويحجب نورَ الفضيلة والعفاف...

في وقت كان العقلُ البشريُّ قد وصل فيه إلى الحضيض، حتى أصبح الواحدُ منهم يعبد حجراً أو شجراً أو صنماً أو وثناً أو إلهاً من تمرٍ فإذا ما جاع أكله!!...

في وقت نُزِعَتْ فيه الرحمةُ من قلوب الآباء، فتحولت إلى صخورٍ صمّاء، فكان الأبُ يوارى ابنته تحت أطباق الثرى، وهي لا تزال على قيد الحياة، بلا ذنب ولا سبب، بل بمجرد التبشير بمجيء هذه الفتاة تسودُ الدنيا في وجه والدها، ويتخبط تخبطَ عشواء، فلا يدري ماذا يفعل؟؟ كما صور القرآن الكريم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَنْوَرَيْنِ مِنَ الْفُؤَادِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

في وقت تُرتكب فيه المحرماتُ، وتستسيغ الناسُ الفواحشَ، وتكثر الموبقاتُ، وتُحكَّمُ التقاليدُ والعادات، قانونهم قانونُ غاب، فالقوي يأكل الضعيفَ، والأرحامُ تُقَطَّع، والعصبية القبليّة سائدة، وكانوا كما قال شاعرهم دُرَيْدُ بن الصَّمَّة:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
وكما قال الآخر:

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أحاهم حين يندبهم في النَّائبات على ما قال برهانا
في هذا الوقت المظلم، والليل البهيم، أراد الله ﷻ لنور
النبوة أن يشع في الأفق، وأراد الله أن تشرق شمس الهداية، ويزهر
فجر الإيمان، ويسطع بدر الدجى لينير الأكوان، فأرسل الله إلى
البشرية جمعاء، سراجاً منيراً، وشاهداً ومبشراً ونذيراً، فأنير الكون
بعد ظلمة، وأشرقت شمس الهداية بعد عتمة، فبددت دياجير الكفر،
وأزاحت غطاء الشرك، وحولت ظلام الجاهلية إلى نور محمدي،
وهدي سرمدي، وانتقلوا من عبادة الأصنام والأوثان، إلى عبادة
الواحد الديان، ومن العصبية القبلية، إلى الأخوة الإيمانية، ومن
تنافر القلوب إلى تآلفها، ومن قطع الأرحام إلى صلتها...

وتأمل معي - أيها القارئ الكريم - في هذه المقارنة بين
الحالتين التي يصفها جعفر بن أبي طالب بقوله للنجاشي: «أَيَّهَا
الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي
الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجَوَارِ وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِمَّا الضَّعِيفُ
فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ
وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ
وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ
الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَمَاءِ،

وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ
 الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا
 بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ - فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَّنَّا
 بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللَّهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ
 شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمَنَا،
 فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ
 تَعَالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْحَبَائِثِ فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا
 وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ
 عَلَى مَنْ سِوَاكَ؛ وَرَغَبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا
 الْمَلِكُ» الرحيق المختوم: (ص ١٠٢، ١٠٣).

إذن، لقد أطل شهر ربيع الأول، وولد في الثاني عشر منه سيدُ
 البشرية محمدٌ ﷺ، وأرسله الله رحمة للعالمين، لذلك، كلما أطلَّ
 علينا هذا الشهرُ الكريم، تعود بنا الذكرى إلى ولادة النبي فيه،
 فيغشانا الفرحُ، ويعمنا السرورُ، ويبتهج الناس كبيرهم وصغيرهم،
 لم لا؟؟ فالجميع سعيد بمولد سيد البشرية، ومنقذها من ضلالها،
 والسائر بها إلى شاطئ الأمان.

ومما قلته في هذا الشهر العظيم، ومولد النبي الكريم:

- شهر الربيع لقد أتى متهللاً والكون أضحى ثغره بسّاماً
 ما السرُّ يا شهر الربيع؟ أجبني: وُلدَ النبيُّ الهاشمي إماماً
 - كان الضلالُ على العقول مخيماً والجاهليّة عربدت أياماً
 يسطو القوي على الضعيف كأنهم في غابة لا تعرف استرحاماً

وشعارهم عصبية قبلية
هم كالسُّكاري فالعقول تجمدت
الظلم يطغى والربا متحكم
ووليدةٌ تحت الثرى موؤودة
وعقائدٌ فسدت فذاك إلهه
فُبعثت يا مختار فيهم رحمة
وهدمت أركان الضلال وبغيها
وأُتيت بالدين الحنيف مشرعاً
أمضيت عمرك للمحبة داعياً

أكلوا الحرام وقطّعوا الأرحاما
شخصاً ترى يستقسم الأزلاما
تمضي الليالي والجميع ندامى
ما ذنبها؟ لم ترتكب آثاما
حجرٌ وذاك يقُدّس الأصناما
ومحقت من أذهانهم أوهاما
وبنيت صرحاً بالهداية قاما
فنشرت بين ربوعنا الإسلاما
وأقمت بين العالمين سلاما

فعلينا جميعاً أن نشكر الله على هذه النعمة، وله الفضل على
هذه المنة، وأن نسير على نهج النبي في حياتنا، عملاً وسلوكاً،
ومحبةً وتآلفاً...

وأسأل الله أن يعيد علينا هذه الذكرى العطرة، بالخير واليمن
والبركة والنصر المبين، إنه قريب سميع مجيب الدعاء.





الشبابُ أملٌ وعملٌ

الشبابُ مرحلةُ القوة والنشاط والطاقة والطموح الوهاج...
الشباب متعلّقُ آمال الأمة، وأبو المعجزات، هو مرحلةُ العطاء
المثمر، وروضُ الإبداع المزهر، وبستانُ النضارة والفتوة، واللياقة
والقوّة،...

والشباب هو الذي يتمناه الصغير، ويتحسّر على فراقه الكبير،
فتراه يقول في مرحلة الشيخوخة:

فيا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ
وفيه يقول الإمام أحمد بن حنبل:

ما شبّهت الشباب إلا بشيء كان في كمي فسقط.

الشبابُ يذكّرنا بفتية آمنوا بربهم فزادهم هدىً، وبفتى حطم
أصنام الضلال بيده، وبنبي رأى برهان ربه فاعتصم عن الفحشاء،
وبإنسان آتاه الله الحكم صبياً... فأخذ كتاب ربه بقوة الشباب،
وحكمة الشيوخ... وبشاب في الثامنة عشرة من عمره ولاة النبي ﷺ
أميراً...

ونحن إذا ما أردنا للأمة الرقي في كافة مجالات الحياة فلنبداً
من الشباب ف«إن الشباب هم عدة الأمة، وهم أمل الحاضر،

ورجال المستقبل، وسيكون منهم: القائدُ والحاكم، والوزير والقاضي والمعلمُ والعامل، والمربي لمن يأتي من الأجيال، إذاً فتربية الشباب ليست هينةً ولا سهلة، وإنما تحتاج إلى متابعة دقيقة من الآباء والمربين والمسؤولين، ومن الواجب أن يبدأ الآباء والمربون في إعداد الشباب منذ الطفولة، ويجب أن يستمر هذا الإعدادُ إلى أن يشتدَّ عودُ الطفل، ويبلغَ مرحلة النضوج الفكري والعملية.

وينبغي على المربين أن يربوا الشباب على أساسٍ إسلامي خالصٍ من كل الشوائب، وأول ما يبدأ به هؤلاء: تربية الشباب على القيم والعادات الإسلامية، وتحسين الإسلام في نفوسهم من خلال التاريخ المشرق منذ عهد الصحابة الكرام إلى الوقت الحاضر، وإلى ما يشاء الله تعالى»^(١).

وكلُّ شابٍّ منّا يريد أن يكون ناجحاً في حياته، و«كثيراً ما يتساءل الناس في مجتمعاتهم وندواتهم: من هو الشابُّ الناجحُ يا تُرى؟! إن الشابَّ الناجح هو الشابُّ الذي يثق بنفسه، وثقتهُ هذه هي التي تجلب له الاحترام من الغير الذي يرنو إليه كلُّ شابٍّ، ولا بد أيضاً من صحبة الأخيار من الأصدقاء، ويسلك السلوك الإسلامي الرفيع بدفع الأذى بالإحسان، والمنع بالجود والعطاء... سلاحه الإيمان، وعمادُه التوكل، وغذاؤه المواظبة على القربات

(١) الشباب مشكلات وحلول، د. أحمد خليل جمعة، د. ك عصام الشواف، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، الإمامة دمشق، ص ١٣.

والطاعات، وأن يكون طموحُهُ وتطلعه إلى المثل العليا، فإن الشباب بلا طموح كشجرة لا تزهر وبالتالي لا تُثمر...»^(١).

إننا لا نريد إلا شباباً طامحين، لا يرتضون إلا ذرى الجبال مطيةً لهم، وجسرَ التعب ليصلوا من خلاله إلى الراحة الكبرى، إلى رياض الخير والبركة، ونريدُ شباباً على طريق الهدى والتقى سائرين، وبنهج سيدنا محمدٍ ﷺ مقتدين، ولا نريد شباباً ينطبق عليهم قول الشاعر:

شبابٌ قُنِعَ لا خيرَ فيهم وبُورك في الشباب الطامحين
ولا قولُهُ:

أرى التّخنيثَ قد وشى شباباً تناسوا أنهم فعلاً ذكورُ
فأين رجولةُ العربيّ تمضي وشيمةُ شعبنا شعبٌ غيورُ^(٢)

نريد شباباً في ظل الله، من الذين قال فيهم سيدنا محمدٌ ﷺ:
«سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... شابٌ نشأ في عبادة الله»^(٣).

والصحابة عندما أسلموا كانوا في مرحلة الشباب، ونحن عندما نرى أعمار بعضهم سوف نشعر بالعجب، ف«سيدنا عثمان بن

(١) يا أولادي، د. منير غندور، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مكتبة الفارابي، ص ٢١٨ - ١١٩ بتصرف.

(٢) صور من مأساتنا، مصطفى قاسم عباس، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، مطبعة الإمامة، ص ٤١-٤٢.

(٣) رواه البخاري.

عفان كان في الرابعة والثلاثين من عمره، وعبدُ الرحمن بنُ عوف كان في الثلاثين، وسعدُ بن أبي وقاص كان في السابعة عشرة من عمره، والزبير بنُ العوام كان في الثانية عشرة من عمره، وطلحةُ بن عبيد الله كان في الثالثة عشرة من عمره»^(١).

ولا نعجب عندما نرى سيدنا زيد بن حارثة في الثامنة عشرة من عمره، وقد ولاه النبي ﷺ على إمرة جيش فيه كبار الصحابة، وكان أولَ بعث يُتابع تنفيذه في زمن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه^(٢).

والشباب - كما هو معلوم - طاقةٌ كامنةٌ، ولكنها يجبُ أن تتفجرَ ينباعِ قوّةٍ وعطاءٍ ومحبةٍ وإنتاجٍ وفاعليةٍ في المجتمع، وعندما يصلح الشبابُ تصلح الأمة، وعندما يفسدون تفسد...

فالشاعر وليد الأعظمي يطلب من الشباب عودة إلى تعاليم الإسلام؛ لأنهم روحه ويسود بهم يقول:

شبابَ الجيل للإسلام عودوا فأنتم روحه وبكم يسود
وأنتم سرُّ نهضته قديماً وأنتم فجرُهُ الزاهي الجديد
عليكم بالعقيدة فهي درعٌ نصون به كراماتنا حديدٌ^(٣)

كما نرى كثيراً من العلماء يوجّه نداءاتٍ إلى الشباب، ناصحاً

(١) السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، ط ١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ١/١١٧.

(٢) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري، ط ٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ٥٢٩.

(٣) الزوابع، وليد الأعظمي، ص ٦٦.

لهم ومذكراً إياهم بعدم الوقوع في شرك الغرب وصيده، وها هو الشيخ العالم الداعية عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه القيم: «بصائر للمسلم المعاصر» يوجه نداءً رائعاً للشباب يقول فيه:

«يا شباب الإسلام، ويا طلائع البناء الجديد، ويا حبات قلوب الأمة الإسلامية المجيدة:

ليكن في علمكم أن دهاة الكيد العالميين قد بالغوا في الكلام على الصحة الإسلامية في العالم الإسلامي، وهولوا أمرها لهدفين:

١- ليورثوا شباب الإسلام وطلائع البناء الجديد في رعونات تسحق هذه الصحة، وتعيد المسلمين إلى سباتهم.

٢ - وليدقوا ناقوس الخطر في آذان دول العالم الغربي وسائر الدول التي تخشى عودة الإسلام إلى الظهور والقوة في الأرض... وظهر كيان الأمة الإسلامية الواحدة.

لا تغتروا بمن يخادعكم ليستدرجكم، ولا يقودنكم أحداث الأحلام، ولا المراهقون في فهم الإسلام، ولا تعتبروا كل من يخالفكم في الرأي خصماً لكم، ولا كل من يوافقكم في الرأي صديقاً لكم...

لا تشتروا الثمار على أشجارها قبل أن يبدو صلاحها، فريخ باردة أو شديدة تسقطها وهي غير صالحة للانتفاع بها... اتقوا الله في أعمالكم، إن الله مع المتقين»^(١).

(١) بصائر للمسلم المعاصر، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط ٣، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، دار القلم، ص ٧ - ٨ بتصرف.

كما أننا بحاجة إلى أن نربي شبابنا تربيةً روحيةً، وليست تربيةً جسديةً بدنيةً فحسب «فعندما تتم تربية الناشئين تربيةً روحيةً متكاملةً تصفو أرواحهم، وتزكو نفوسهم وتستنير عقولهم، وتستقيم أخلاقهم، وتتطهر أبدانهم، وذلك لارتباطهم الوثيقِ بربهم عزَّ وجل الذي يراقبهم في كل حركاتهم وسكناتهم، ويشعرون بأنه معهم في كل وقت وفي كل مكان، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، فيخافونه ويرجونه ويرهبونه ويطمعون في كرمه، ويتوكلون عليه، ويحسنون الظن به، ويثقون في عونه وهدايته وتوفيقه»^(١).

كما أن الدكتور محمد فؤاد سزكين، وجه كلمةً إلى الشباب المسلم قالها في اللقاء الرابع لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض، سنة (١٣٩٩هـ)، منها:

أيها الشابُّ المسلم:

«لو درست تاريخ الحضارة لهذه الأمة في قرونها الأولى لرأيت كيف أصبح الدينُ الذي جاء نظاماً إلهياً لتنظيم البشرية وإصلاحها - بعد فترة قصيرة من ظهوره - مصحوباً بالعلم، إذ حكم العلمُ في قصور الحكام، وتحكَّم في خطب الخطباء، ومواعظ الوعَّاظ، ولرأيت كيف كانت المساجد مراكز للعلوم ولطلب العلم...»^(٢).

(١) مسؤولية المثقف الإسلامي تجاه قضايا الإرهاب، د. عثمان بن صالح العامر، ص ٤.

(٢) صفحات من صبر العلماء، عبد الفتاح أبو غدة، ط ٩، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ص ٣٥٦ - ٣٥٧.

«فيا شباب الإسلام: قد فُتِحَ بابُ الترشيح، فهيا تسابقوا إلى العلاء، وتنافسوا في جنة عرضها السموات والأرض، واختطوا لأنفسكم طريق المجد، فتالله ما ارتفع صوتُ الحادي يوماً لرفقة أولي صمم، ولا ارتفع الفلكُ الأعلى لغير أهل الشموخ والشمم... من منكم «يوسف» هذه الأحلام الذي يضرب صدره في ثقة وشموخ قائلاً: أنا لها.. أنا لها؟...»^(١).

وتحضرنى هنا هذه الأبياتُ التي قلتها في قصيدتي (صرخة في ضمير أمتي):

أرى جيلاً من الشُّبَّاءِ	ن يقتل وقته الذهبي
تخنَّثَ في ملبسه	ويمضي العمر في اللعب
يرى الغربيَّ أسوتهُ	ويقرأ عنه في الكتب
يقلُّده كإمعةٍ	وتُخجله: أنا عربي
بهذا الجيلِ قولوا لي:	سندحر جيش مغتصب؟!!
بهذا الجيلِ قولوا لي:	سنُرجع عزَّةَ العرب؟!!
بهذا الجيلِ قولوا لي:	سنرقى هامةَ الشَّهب؟!!
نريد اليوم عمَّاراً	وسلماناً وكلَّ أبي
ألا حَسَنُ إمامُ السل	م عند تعاضمِ الكُربِ
- يُعيد لنا تالفنا	ووحدتنا، فداه أبي
نريد اليوم فاطمةً	تُنير الدربَ بالشُّهبِ
فنور الحقِّ والإيما	ن يمحق ظلمة الرِّيبِ

(١) علو الهمة، محمد أحمد إسماعيل المقدم ص ٤١٣ - ٤١٤.

نريدُ اليومَ عائشةً تُبْتُ العلمَ في أدبِ
فعلَى شبابنا الذين نريدهم اليوم، أن يقتدوا بشباب
الصحابة رضي الله عنهم، ويسيروا على نهجهم، ويهتدوا بهديهم، عملاً
وسلوكةً وحياءً وكفاحاً... حتى تشرقَ شمسُ عزّتنا وكرامتنا
من جديد.





أَفْعَلِ الْخَيْرَ.. وَلَكِنْ.. لَا تَرْمِ بِهِ فِي الْبَحْرِ

هل جربت مرةً أن تزرع بسمَةَ رضا على شفاه ساخط، أو أن تزرع بسمَةَ أمل على شفاه قانطٍ، أو أن تزرع وردةً حبور في حديقة بائس محزون؟!...

جرب ذلك، وسوف ترى أن السرور الذي تدخله على نفسك يفوق السرور الذي أدخلته إلى نفس الساخط والقانط والبائس... لكن بشرط أن تكون مخلصاً في ذلك، وبشعورٍ نابع من صميم قلبك، وحرصٍ على فعل الخير لذاته، وإلا لن تشعر بذلك الشعور لأن فاقد الشيء لا يعطيه...

ففعل الخير واصطناع المعروف خلق عظيم، وفاعل الخير محبوبٌ في الدنيا قبل الآخرة؛ لأن فعل الخير لا يأتي إلا بخير، كما أن فعل الشر لا يأتي إلا بشر، ومن يفعل خيراً لا بد أن يُجزى به، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ويلوح في خاطري قولُ الحطيئة:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
وكذلك فإن الخير يبقى، وأما الشرُّ فمصييره إلى زوال، وهو

أخبت زادٍ يتزود الإنسان منه، كما قال عبيدُ بن الأبرص:
 الخيرُ يبقى وإن طالَ الزمانُ به والشُرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد
 وخيرٌ من الخير - كما قالوا - فاعله، وخيرٌ من الذهب معطيه،
 وفاعل الخير ومصطنعُ المعروف لن يضيع عمله سدى، حتى وإن قدم
 هذا الخير لحجر أصمّ، وجميل ما ذكر في كتاب (جمهرة الأمثال)
 لأبي هلالٍ العسكري:

ما ضاعَ عُرفٌ وإن أوليته حَجراً . .

وعلى الإنسان أن يفعل الخير للخير، وينتظر الثواب من الله
 لأن بعضَ الناس قد ينسى ما قدمت له من معروف، وما كان ربك
 نسيّاً، ولأن بعضَ الناس قد يضيع ثوابَ الأعمال الحسنة، ولكن الله
 لا يُضيع أجرَ من أحسن عملاً، لذلك قال حكيم الجاهلية وشاعرها
 زهيرُ بن أبي سلمى:

ومن يجعلِ المعروفَ في غير أهله يكن حمدُهُ ذمّاً عليه ويندم
 وكذلك على المرء أن لا يستصغرَ فعلَ معروفٍ مهما صغراً؛
 لأنه قد يكون عند الله عظيماً، وإن كان بعضُ الناس يرونه لا قيمة
 له، وإليك بعضُ الأمثلة لأعمال قليلةٍ ولكن قد عُفِر لأصحابها:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي
 بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا
 كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ التُّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا
 الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَنِي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ
 أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى ارْتَقَى فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، فَقَالُوا:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لِأَجْرًا؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ» رواه البخاري، وكذلك غُفِرَ اللهُ لامرأةٍ مومسةٍ لأنها سقت كلباً كما جاء في الحديث المتفق عليه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «غُفِرَ لِمَرْأَةٍ مَوْمِسَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكْبِي يَلْهَثُ، قَالَ: كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَفَزَعَتْ حُقْمَهَا، فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا، فَفَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ، فَعُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ».

ومن المعروف وفعل الخير أن يتجاوز من يداين الناس عن المعسرين، وخاصة في الأزمات؛ لأن الله سيتجاوز عنه يوم القيامة، وتأمل معي في هذا الحديث التالي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، وَكَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ: خُذْ مَا تَيْسَّرَ وَاتْرُكْ مَا عَسَرَ وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَلَمَّا هَلَكَ قَالَ اللَّهُ ﷻ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لِي غُلَامٌ وَكُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ فَإِذَا بَعَثْتُهُ لِيَتَقَاضَى قُلْتُ لَهُ: خُذْ مَا تَيْسَّرَ وَاتْرُكْ مَا عَسَرَ وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْكَ». رواه النسائي.

وإذا أردت أن تعلم من هو أحبُّ الناس إلى الله، وما هي أحب الأعمال إلى الله، فالجواب في الحديث التالي: قيل يا رسول الله: من أحب الناس إلى الله؟ قال: «أنفعهم للناس، وإن أحب الأعمال إلى الله سرورٌ تدخله على مؤمن، تكشف عنه كرباً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخي المسلم في

حاجةٍ أحبُّ إليَّ من أن أعتكف شهرين في مسجدٍ، ومن كفَّ غضبه
ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله
قلبه رضياً، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى يثبتها له
ثبت الله قدمه يوم تزل فيه الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما
يفسد الخل العسل».

اصطناع المعروف، ابن أبي الدنيا، قال المحقق: الحديث

حسن.

ثم إن فعلَ المعروف وإكرامَ السائل، وإغاثةَ الملهوفِ سجيّةٌ
عندَ بعضِ الناس، فاستحقَّ صاحبُ هذه السجّيةِ أمدحَ بيتِ شعرٍ ثناءً
له، ففي كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة، قال عبد الملك لقومٍ
من الشعراء: أي بيت أمدحُ؟ فاتفقوا على بيت زهير:

تَراه إِذا ما جِئتهُ مُتَهَلِّلاً كأنَّكَ تُعْطيه الَّذي أَنْتَ سائِلُهُ
ختاماً: لا تَقُلْ افعل خيراً وارم في البحر، بل افعل خيراً
ولا ترم به في البحر، لأنك ستلاقيه خيرَ زادٍ.

ولا تقل: اتق شرّاً من أحسنت إليه، بل تخلّق بأخلاق النبوة
وأحسن إلى من أساء إليك، وتذكر دائماً قول الشاعر:

ازرع جميلاً ولو في غير موضعه فما يضيع جميلٌ أينما زرعاً





مِنَ أَخْبَارِ الْعِطَاشِ

من نعم الله العظيمة التي أنعم بها علينا، والتي لا تقدر بثمن نعمة الماء، هذا الماء الذي جعله الله سراً من أسرار الحياة، فحيث عُدِمَت الحياة، وُحِثَ وُجِدَ وُجِدَت الحياة، كما قال جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وكثر حديث العرب عن الماء والسقيا والرّي، والعطش والظمأ، في أخبارهم وأشعارهم وسيرهم وأيامهم...

ولأن الماء من نعم الله الجليلة، فإنه دائماً يذكرنا بهذه النعمة، حتى نؤديها حقها في الشكر والثناء، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠] وقال جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الملك: ٣٠].

كما ورد ذكر الماء والشرب كثيراً في كتاب الله ﷻ، وفي مناسبات عديدة، كما قال تعالى للسيدة مريم: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٢٦] وكما قال لسيدنا أيوب ﷺ: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص: ٤٢].

وقد شبّه الله ﷻ في كتابه العزيز أعمال الكافرين في الدنيا بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماءً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ مِّمَّ يَجْعَلِ الْمُتَمَنِّينَ إِحْسَابَهُ أَظْمَانًا مَّاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ [النور: ٣٩].

والماء ليس فقط من نعم الله في الدنيا، بل من النعم التي خبأها الله لعباده المؤمنين في الجنة، وإذا كان ماء الدنيا يأسن ويتغير مع مرور الزمن، فإن ماء الجنة لا يتغير، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ١٥].

وإذا كان المؤمنون يتنعمون بالجنة وما فيها من النعيم المقيم، فإن أعظم أمنية لأصحاب النار - والعياذ بالله - هي شربة ماء، ولكن الله حرمها على الكافرين، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠].

وكما يشرب المؤمنون من ماء الجنة وأنهارها؛ كالكوثر والتسنيم، وكالعين التي تُسمى سلسبيلاً، وكالعين التي يشرب بها عبادة الله يفجرونها تفجيراً، فإن المؤمنين يشربون أيضاً من حوض النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الحوض الذي ماؤه أبرد من الثلج، وأشدُّ بياضاً من اللبن، كما قال ﷺ: «أَلَا إِنَّ لِي حَوْضًا مَا بَيْنَ نَاحِيَّتَيْهِ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى مَكَّةَ - أَوْ قَالَ صَنْعَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ - وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِقِ مِثْلَ الْكَوَاكِبِ هُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ

من شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا»^(١).

وقبل أن نخوضَ في الحديث عن العطش، وأخبار العطاش، وبما أننا نتحدث عن الماء لا بد لنا أن نخصّ ماء زمزم بشيء من الحديث؛ لأن لهذا الماء خاصيةً وميزةً لا توجد في ماء آخر؛ ف«مَاءُ زَمَزَمَ لِمَا شَرِبَ لَهُ»^(٢)، و«ماء زمزم طعامٌ طعم، وشفاءٌ سقم»، فهذا أبو ذر الغفاري عندما كان في مكة يسأله النبي ﷺ: «مَتَى كُنْتَ هَا هُنَا؟». قَالَ: كُنْتُ هَا هُنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ مِنْ بَيْنِ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ. قَالَ: «فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ؟». قُلْتُ: مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمَزَمَ، - قَالَ: - فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَ عُنُقُ بَطْنِي وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَيْدِي سَخْفَةً جُوعٍ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، وَإِنَّهَا طَعَامٌ طُعْمٌ»^{(٣)(٤)}.

فهو ماء مبارك، وأشرف منه الماء الذي نبع من بين أصابع النبي ﷺ، فقد ذكر في زاد المعاد أن النبي ﷺ قَالَ: «يَا أَخَا صُدَاءَ هَلْ مَعَكَ مَاءٌ؟» قُلْتُ: مَعِيَ شَيْءٌ فِي إِدَاوَتِي. فَقَالَ: «هَاتِيهِ». فَجِئْتُ بِهِ فَقَالَ: «صُبْ». فَصَبَبْتُ مَا فِي الْإِدَاوَةِ فِي الْقَعْبِ فَجَعَلَ أَصْحَابُهُ يَتَلَاحِقُونَ، ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ عَلَى الْإِنَاءِ فَرَأَيْتُ بَيْنَ كُلِّ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِهِ عَيْنًا تَفُورُ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَخَا صُدَاءَ لَوْلَا أَنِّي أَسْتَجِي مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ

(١) مسند أحمد ٨٠/١٥.

(٢) مسند أحمد ٤١٨/٣١.

(٣) كذا في مسند أحمد، وزاد مسلم: «وشفاء سقم».

(٤) العكن: جمع عكنة، وهي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً، السخفة: الرقة والهزال، وقيل: هي الخفة التي تعتري الإنسان إذا جاع.

لَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا» ثُمَّ تَوَضَّأَ وَقَالَ: «أَدْنُ فِي أَصْحَابِي مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ بِالْوُضُوءِ فَلْيُرِدْ» قَالَ: فَوَرَدُوا مِنْ آخِرِهِمْ^(١).

وكذلك عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: عَطَشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ فَتَوَضَّأَ فَجَهَشَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ: «مَا لَكُمْ». قَالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرِّكْوَةِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ، فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا. قُلْتُ كَمْ كُتِّمْتُمْ قَالَ لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا؛ كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً^(٢)..

وحصل نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ في أكثر من موضع كما هو معروف للجميع...

وغالباً عندما يُذكر الماء يُذكر معه العطش والظمأ، مع أن الإنسان قد يُروى من غير الماء، ولكنه رِيٌّ مَوْقُتٌ، فالنبي ﷺ شرب لبناً، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ لَمَّا خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَرَرْنَا بِرَاعٍ وَقَدْ عَطَشَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَحَلَبْتُ لَهُ كُثْبَةً مِنْ لَبَنِ فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيَْتُ»^(٣).

ومن أعظم الأجور التي يُوجَرُ المرءُ عليها سقاية العطشى، وإرواء الماء، حتى في الجاهلية كانوا يتسابقون لسقاية الحجيج،

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٥٨٠.

(٢) البخاري.

(٣) مسلم، والكثبة: القليل من اللبن وغيره.

وما زالت إلى اليوم سقاية الحجيج من أعظم الشرف وأرفعه . . .

وكثيراً ما استسقى النبي ﷺ للصحابة كما استسقى موسى لقومه، وخاصةً في العطش الشديد، قال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى أن الرجل لينحر بغيره، فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله: إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع له، فقال: «أتحبُّ ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأظلت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جازت العسكر^(١).

بل كان النبي ﷺ في غاية التواضع، فهو يسقي أصحابه، ويشرب آخرهم، كما روى الإمام أحمد في مسنده: أَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَطَشٌ. قَالَ: فَنَزَلَ مَنْزِلًا فَأَتَيْتَنِي بِإِنَاءٍ فَجَعَلَ يَسْقِي أَصْحَابَهُ وَجَعَلُوا يَقُولُونَ اشْرَبْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَاقِي الْقَوْمِ آخِرُهُمْ». حَتَّى سَقَاهُمْ كُلَّهُمْ.

ويرغب النبي ﷺ، بالأذان لأن المؤذنين لا يعطشون يوم القيامة كما قال النبي ﷺ: «الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». لَيْسَ إِنَّ أَعْنَاقَهُمْ تَطْوُلُ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ يَعْطَشُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِذَا عَطَشَ الْإِنْسَانُ انْطَوَتْ عُنُقُهُ وَالْمُؤَذِّنُونَ لَا يَعْطَشُونَ فَأَعْنَاقُهُمْ قَائِمَةٌ^(٢).

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم ٦٤/٢.

(٢) سنن البيهقي ٤٣٢/١.

وليس الأمر في الثواب مقتصرًا على الإنسان، بل حتى
الحيوان عندما يعطش ويسقيه الإنسان فإن الله قد يغفر له، والحديث
الصحيح التالي يؤيد ذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه قَالَ:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرِكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ،
إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ، فَغَفَرَ
لَهَا بِهِ»^(١).

وقد يكون المطر من السماء بسبب حيوانٍ، فقد خرج نبيٌّ
من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هُمُ بنملة رافعة رأسها إلى
السماء، فقال ذلك النبيُّ: ارْجِعُوا فَقَدْ اسْتَجِيبَ لَكُمْ مِنْ أَجْلِ هَذَا
النَّمْلِ، وعن أبي الصِّدِّيقِ النَّاجِي قَالَ: خرج سليمانُ بنُ داودَ
- عليهما الصلاة والسلام - يستسقي فأرى نملةً مستلقيةً على ظهرها،
رافعةً قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللَّهُمَّ إِنَّا خَلَقْنَا مِنْ خَلْقِكَ،
ليس بنا غنى عن سقائك، فإِذَا أَنْ تَسْقِينَا وَتَرْزُقِنَا، وَإِنَّا أَنْ تُمِيتَنَا
وَتُهْلِكُنَا فَقَالَ: ارْجِعُوا فَقَدْ سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ^(٢).

وكم تفنن الشعراء في الصور البديعة التي تصوّر العطشَ
والماءَ، والورودَ والصدودَ، والنهل والعلل، فالمأمون يقول:

أَرَى مَاءً وَبِي عَطَشٌ شَدِيدٌ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَرُودِ
أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّكَ تَمْلِكِينِي وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَبِيدِي

(١) صحيح البخاري.

(٢) الحيوان الجاحظ ١/٣٠٤، وانظر: نهاية الأرب في فنون الأدب،

النوري ١٠٨/٣.

ومما قيل في الدعاء:

رَمَاكَ رَبِّي بِحُمَاةٍ مُقْلِقِلَةٍ وَبَامْتِنَاعِ طَبِيبٍ لَا يُدَاوِيكَ
وَأَنْ تَظَلَّ بِصَحْرَاءٍ عَلَى عَطَشٍ وَتَطْلُبَ الْمَاءَ مِمَّنْ لَيْسَ يَسْقِيكَ^(١)

وغالب بن عبد الله بن عطية عطش وهو في البحر فقال في

ذلك:

إِنَّا إِلَى اللَّهِ لَقَدْ نَالْنَا هَمَّ يَذِيبُ الْقَلْبَ إِحْرَاقَهُ
يَا عَجِبَا مِمَّا دَهَيْنَا بِهِ نَسَكْنَا فِي الْمَاءِ وَنَشْتَاقَهُ^(٢)

ومما قاله المجنون:

أُمِّلْ أَنْ أُعَلَّ بِشَرْبِ لَيْلِي وَلَمْ أَنْهَلْ، فَكَيْفَ إِلَى الْعُلُولِ؟!

وابن المعذل يأتي بصورة في غاية الروعة عندما يقول:

مَا إِنْ ذَكَرْتُكَ فِي قَوْمِ أَجَالِسِهِمْ إِلَّا تَجَدَّدَ مِنْ ذِكْرَاكَ بِلَوَائِي
وَلَا هَمَمْتُ بِشَرْبِ الْمَاءِ مِنْ عَطَشٍ إِلَّا وَجَدْتُ خِيَالاً مِنْكَ فِي الْمَاءِ
وَلَا حَضَرْتُ مَكَاناً لَسْتَ شَاهِدُهُ إِلَّا وَجَدْتُ فَتُوراً بَيْنَ أَعْضَائِي

ومثله لشاعر آخر، ولا أدري من الذي أخذ من الثاني:

يَا صَاحِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ إِلَّا وَأَنْتَ مُنَى قَلْبِي وَوَسْوَاسِي
وَلَا تَنَفَسْتُ مَحْزُوناً وَلَا فَرِحاً إِلَّا وَذِكْرَكَ مَقْرُونٌ بِأَنْفَاسِي
وَلَا هَمَمْتُ بِشَرْبِ الْمَاءِ مِنْ عَطَشٍ إِلَّا رَأَيْتُ خِيَالاً مِنْكَ فِي الْكَاسِ
وَلَا جَلَسْتُ إِلَى قَوْمٍ أَحَدْتُهُمْ إِلَّا وَأَنْتَ حَدِيثِي بَيْنَ جُلَاسِي

(١) مصارع العشاق، السراج القارئ ١/١٩٥.

(٢) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي ٢/٦٧.

وهناك أبيات لأخت عمرو بن عاصية السلميّ تراثه، وقد قُتل
أسيراً وهو في غاية العطش، تخاطب من أسره وقتله:

هَلَّا سَقَيْتُمْ بَنِي جَرْمٍ أَسِيرَكُمْ، نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ذِي غُلَّةٍ صَادِي
شَهَادُ أُنْدِيَّةٍ، رَفَاعُ أَلْوِيَّةٍ سَدَادُ أَوْهِيَّةٍ، فَتَّاحُ أَسْدَادِ
الطاعن الطعنة النجلاء يَتَّبِعُهَا مُثَعْنَجِرًا بَعْدَ مَا تَغْلِي بِإِزْبَادِ

وسبب الشعر أنه كان بنو سهم - وهم بطن من هذيل - أسروه
في حربٍ كانت بينهم، ولم يعرفوه فلما عرفوه، قتلوه، وكان قد
عطش فاستسقاهم فمنعوه، وقتلوه على عطشه. وقيل إن هذا الشعر
للفارعة أخت مسعود بن شداد^(١).

وبعضهم قال شعراً في العنب الأبيض والأسود، وجعله
عاصماً من الجوع بالإضافة إلى العطش؛ كأحمد بن عبد ربه الذي
يقول في عنب أبيض وأسود:

أَهْدَيْتَ بَيْضاً وَسُوداً فِي تَلْوُنِهَا كَأَنَّهَا مِنْ بَنَاتِ الرُّومِ وَالْحَبَشِ
عِذْرَاءٌ تُؤْكَلُ أَحْيَاناً وَتُشْرَبُ أَحْيَا نَأْفَتْعِصِمُ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ عَطَشٍ^(٢)

والبعض الآخر جعل الأشياء المعنوية تُشرب، فالبشاشة هي
التي يسقي أبو المغيث منها رعيته، وقد مدحه أبو تمام، فقال:

اسقِ الرعية من بشاشتك التي لو أنها ماء لكان مسوساً^(٣)

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٣/٣٣١.

(٢) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ابن الكتاني ١/١٣.

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه، الجرجاني ١/٢٢.

وأحمد بن عبد ربه الأندلسي يرى أن أحبابه سقوه من الحمام،
وذلك عندما رحلوا وسارت بهم الطعائن، وخلفوه وحيداً يقول:

سقوني حمامي يوم ساقوا حملهم فرحتُ وراحوا بين ساقٍ وسائقِ
وأخرس لفظي وهو ليس بأخرس وأنطق دمعي وهو ليس بناطقِ
فيا بأبي تلك الدموع التي همت فدلّت على مكنون تلك العلائق: (١)

بينما نرى أن زيد ابن المعتمد على الله بن أبي القاسم عباد،
قال ارتجالاً، وأنشد سحراً حلالاً، عندما مرّت عليه هوادجٌ وقبابٌ،
فيها له أخذانٌ وأحبابٌ؛ وجّهوا على وجه الهدية إلى برّ العدو، وقد
كان يلم بهنّ في صباه إلمام قريش بدار الندوة:

مروا بنا أضلاً من غير ميعادٍ فأوقدوا نار شوقي أيّ إيقادٍ
وأذكروني أياماً لهوت بهم فيها ففازوا بإيثاري وإحمادي
لا غرو أن زاد في وجدتي مروهم فروية الماء تُذكي غلّة الصادي (٢)

وهذا الشاعر يطلب من أحبابه سكان العذيب أن يشربوا دموع
عينه التي يذرفها شوقاً لهم، بعد أن بعدت منازلهم:

يا ساكني أرض العذيب سقيتمُ دمعي، إذا ضنّ الغمام المرزُمُ
بعدت منازلكم وشطّ مزاركم وعهودكم محفوظةً، مذ غبتم (٣)

وكثيرٌ من الكرماء من كافأ على شربة ماء بالألوف، ومن ذلك
ما يروى أن عبد الله بن أبي بكر - وكان من أجود الأجواد - عطش

(١) يتيمة الدهر، الثعالبي ١/١٥٥.

(٢) المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية الكلبي ١/١١.

(٣) معجم الأدباء، ياقوت الحموي ١/١٥٣.

يوماً في طريقه، فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزاً، وقامت خلف الباب، وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذه بعضُ غلمانكم، فإنني امرأةٌ عزبٌ مات زوجي منذ أيام، فشرب عبدُ الله الماء، وقال: يا غلام: احمل إليها عشرة آلاف درهم، فقالت: سبحان الله! أتسخر بي؟ فقال: يا غلام: احمل إليها عشرين ألفاً، فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين، فما أمسيت حتى كثر حُطابها، وكان رضي الله تعالى عنه ينفق على أربعين داراً من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه، وأربعين خلفه، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيد مائة مملوكٍ رضي الله تعالى عنه^(١).

وكثيرةٌ هي القصص التي تتحدث عن الذين كادوا يموتون من العطش، نكتفي بواحدةٍ منها:

قال زيد بن الحباب: قال: حدثنا محمد بن نشيط؛ قال: حدثنا بكر بن عبد الله المزني: أن قصاباً وُلع بجارية لبعض جيرانه، فأرسلها أهلها إلى حاجة لهم في قرية أخرى، فتبعها فراودها عن نفسها فقالت: لا تفعل لأننا أشدُّ حباً لك منك لي، ولكنني أخاف الله قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه!! فرجع تائباً فأصابه العطش حتى كاد ينقطع^(٢).

وما أكثر الأمثلة التي تتحدث عن العطش والسّقى والماء،

(١) المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي، ١/٣٤٧.

(٢) ذم الهوى ١/٢٦٩.

ولكل مثل قصةٌ أدَّت إلى هذا المثل، فمن الأمثال المثلُّ المشهور: (استق أخاك النمري)، أما قصته فكما قال أبو عبيد: أصله أن رجلاً من النمر بن قاسط صحب كعب بن مامة، وفي الماء قلَّةً، فكانوا يشربون بالحصاة، وكان كلما أراد كعبٌ أن يشربَ نظر إليه النمري فيقول كعب للساقي: استق أخاك النمريَّ. فيسقيه حتى نفذ الماء، ومات كعبٌ عطشاً^(١).

وكذلك المثل الذي يقول: (أظن ماءكم هذا ماء عناق).

قالوا: كان من حديثه أن رجلاً بينا هو يستقي وبيته تلقاء وجهه، فنظر فإذا هو برجل معانقٍ امرأته يقبلها، فأخذ العصا وأقبل مسرعاً لا يشك فيما رأى، فلما رأته امرأته جعلت الرجل في خالفة البيت بين الخالفة والمتاع، فنظر يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً، وخرج فنظر في الأرض فلم ير شيئاً، فكذب بصره. فقالت المرأة، كأنها تريه أنها قد استنكرت من أمره شيئاً: ما دهاك يا أبا فلان؟ أربك شيء؟ فكتمها الذي رأى ومضى لحاجته، فلما كان في الورد الثاني قالت: يا أبا فلان: هل لك أن أكفيك السقي وتودع اليوم فإني قد أشفقت عليك؟ قال: نعم إن شئت. فأقام في المنزل، فانطلقت تسقي، وتحينت منه غفلة فأخذت العصا ثم أقبلت حتى تفلق بها رأسه فشجته. فقال: ويلك، ما لك، وما دهاك؟ قالت: وما دهاني يا فاسق، أين المرأة التي رأيتها معك تعانقها؟ فقال: لا والله ما كانت عندي امرأة، وما عانقت اليوم امرأة. قالت: بلى، أنا

(١) مجمع الأمثال، الميداني ١/١٤٥.

نظرت إليها بعيني، وأنا على الماء. فتحالفا، فلما أكثرت قال: إن
تكوني صادقة فإن ماءكم هذا ماء عناق^(١).

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، والقصص التي تتحدث عن
أخبار العطاش أكثر وأكثر، فما علينا في نهاية المطاف إلا أن
نشكر الله على نعمه وآلائه التي لا تحصى، وأن يُديم علينا نعمة
الماء الفرات، وأن يسقينا من يد نبينا ﷺ شربة لا نظماً بعدها أبداً،
إنه سميع قريب.



(١) مجمع الأمثال، الميداني ١/١٩٤.



الأخوة الصادقة هل فقدناها؟!!

الأخوة الصادقة كلمة أريجها يعطر الأرجاء، وعبارة تفيض بالحب والإخلاص والوداد والوفاء...

أخوة من غير نسب، وصادقة لا تعرف الخداع والزيغ والكذب...

حب في الله، وإخاء لا لمصلحة من مال أو منصب أو جاه...

لكن، يبقى السؤال؟!!

هل افتقدنا هذه الكلمة في أيامنا؟ أم نحن كالذين سبقونا بحثوا عنها فلم يجدوها، وجعلوا الخلل الوفي ثالث المستحيلات عندما قال أحدهم:

لما رأيت بني الزمان وما بهم خلّ وفيّ للشدائد أصطفي فعلمت أن المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخلل الوفي

طبعاً. لا أوافق هذا الشاعر على أن الخلل الوفي من المستحيلات، ولكن يمكن أن أقول: إنه من النادر، فقلما يظفر به الإنسان، لذلك عندما يجده، - ويكون حراً وفيّاً - عليه أن يتمسك بأذياله كما قال الشاعر:

تمسك إن ظفرت بذيل حرّ فإن الحر في الدنيا قليل
وقد تلتقي بإنسان لأول مرة، فيغمرك إحساسٌ أنك تعرفه منذ
زمن، ويدخل قلبك من غير استئذان، والعكس صحيح، وما ذلك
بعجيب، فإن روحك قد ألفت روحه، أما الثاني الذي لم تستسغه،
فربما يكون في رويكما تنافر لا إراديّ، إما أن يقوى مع مرور
الزمن، وبعد التجربة والمعرفة، وإما أن تحصل الألفة فيما بعد،
وعلى كل حال، حديث النبي ﷺ واضح في ذلك وصریح حيث
يقول: «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها
اختلف»^(١).

- إن الأخ الصادق، والصديق الصدوق، يظفر به الإنسان
عندما تبني هذه الأخوة والصدقة على محبة الله، لذلك جعل الله
تعالى من السبعة الذين يظلمهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله - كما في
الحديث الصحيح -: «رَجُلَيْنِ تَحَابَّأ فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا
عَلَيْهِ»^(٢).

فالمحبة في الله هي التي تبقى وسواها يتلاشى ويضمحل،
والذي يحب إنساناً ما لماله فإنه لا يحبه لشخصه، بل يحب المال
الذي في جيبه، لذلك عندما يصبح فقيراً ينفصّ عنه الناس، ورحم الله
من قال:

(١) صحيح ابن حبان، باب ذكر الإخبار عن سبب ائتلاف الناس وافتراقهم
٣٧٧/٢٥.

(٢) رواه البخاري، باب فضل ترك الفواحش ٢٤٩٦/٦.

رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ مَالُوا إِلَىٰ مَنْ عِنْدَهُ مَالٌ
وَمَنْ مَّا عِنْدَهُ مَالٌ فَعِنَهُ النَّاسُ قَدْ مَالُوا
رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ ذَهَبُوا إِلَىٰ مَنْ عِنْدَهُ ذَهَبٌ
وَمَنْ مَّا عِنْدَهُ ذَهَبٌ فَعِنَهُ النَّاسُ قَدْ ذَهَبُوا

وكذلك الذي يحب إنساناً لمنصبه، فهو لا يحبه لشخصه بل
للمنصب الذي يتسلمه، فعندما (قيل لبعض الولاة: كم لك صديق؟
فقال: أما في حال الولاية فكثير وأنشد:

الناس إخوانٌ من دامت له نعم والويل للمرء إن زلَّتْ به القدم
ولما نُكِبَ علي بن عيسى الوزير لم يَنْظُرْ ببابه أحداً من أصحابه
الذين كانوا يألّفونه في ولايته، فلما رُدَّتْ إليه الوزارة، وقف أصحابه
ببابه ثانياً فقال:

ما الناسُ إلا مع الدنيا وصاحبها فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فإن وثبت يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا
وقال آخر:

فما أكثر الأصحاب حين نعدّهم ولكنهم في النائبات قليل^(١)
نحن نعلم أن المؤمن ليس بالخَبِّ، ولا الخَبُّ يخدعه، فعليه
أن يكون حذراً في اختيار الأصدقاء والأصحاب، فلا يصاحب إلا
رجلاً يغفر له الزلة، ويُقيله العثرة، ويستر له العورة، ويعينه في

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي
الفتح الأبهسي، ط٣، دار صادر، ص١٦٦.

النكبة، ويحفظه في الغيبة فالشاعر أبو تمام يبحث عن صاحب،
ولكن بشروط من أجمل شروط الصاحب الوفي فهو يقول:

من لي بإنسان إذا أغضبتَه وجهلت كان الحلم رد جوابه
وإذا صبوتُ إلى المدام شربت من أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بطرفه وبقلبه ولعلّه أدرى به

أما الدكتور مصطفى السباعي رَحِمَهُ اللهُ، فهو يرغبنا أن نحرص
على مصاحبة ثلاثة عندما يقول: (ثلاثة احرص على صحبتهم:

عالمٌ متخلق بأخلاق النبوة.

وحكيم بيّضت فوديه ليالي التجربة. «والفؤد: مُعْظَمُ شَعْرِ
الرأسِ مما يلي الأذن، وناحية الرأس، والمثنى فودان».

وشهم له من مروءته ما يحمله على نصحك إذا أخطأت،
وإقالتك إذا عسرت، وجبرك إذا انكسرت، والدفاع عنك إذا غبت،
والإكرام لك إذا حضرت^(١).

لذلك قالوا:

وليس أخي من ودّني بلسانه ولكن أخي من ودّني وهو غائب
ومن ماله مالي إذا كنت معدما ومالي له إن أعوزته النوائب
ولأن قليلاً من الناس من يتمثل بهذه الصفات العظيمة، رأينا
وهب بن منبه بعد تجربة خمسين سنة يقول: «صحبت الناس خمسين

(١) مجلة: حضارة الإسلام، عدد خاص عن وفاة الدكتور مصطفى
السباعي، ١٩٦٤م، ص ٢٩.

سنة فما وجدت رجلاً غفر لي زلة، ولا أقالني عثرة، ولا ستر لي عورة»^(١). وأما ابن السماك فقد جعل ثلاث صفات لبقاء المودة ودوامها فعندما «قيل له: أي الإخوان أحق ببقاء المودة؟ قال: الوافر دينه، الوافي عقله، الذي لا يملك على القرب، ولا ينسأك على البعد»^(٢).

وقد رأينا في زماننا كثيراً من الصفات المذمومة في بعض من يدعون الصحبة الصالحة، «ومع أنه ليس من السهل الإحاطة بها، إلا أننا يمكن أن نكون متفقيين على العديد منها، ومن هذه الصفات: حدة المزاج، والتفتيش عن أخطاء الآخرين ومتابعتها، والإسراف في نقدهم، وإظهار البرم من أوضاعهم، وكثرة الشرثرة والإفاضة في الكلام، مما يجرُّ غالباً إلى إفشاء الأسرار، وإلى النميمة، والأنانية والتطرف في حب الذات، من الأسباب الأساسية للإخفاق في تكوين صداقات جديدة»^(٣).

بالإضافة إلى ما هو أعظم شناعة من هذه الصفات، من الغدر والخيانة والغيبة والحسد والنفاق وسائر الأمراض القلبية... فعلى الإنسان ألا يصاحب من يقع أمامه في أعراض الناس؛ لأنه سوف يقع في عرضه، ولا من ينمُّ له فإنه سوف ينم عليه، ولا من يغتاب عنده فإنه سوف يغتابه...

(١) المستطرف، ص ١٦٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٢.

(٣) عصرنا والعيش في زمانه الصعب: أ. د. عبد الكريم بكار، ط ٣، دار القلم، ص ٣١١ بتصرف.

ولا تغترَّ بكثير ممن يضحك في وجهك، فلعله سوف يُبكيك يوماً ما .

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظننَّ أن الليث يبتسم فالمرء على دين خليله، والمرء مع من أحب^(١)، فأخوك الصادق ينسى الهفوات، ويغفر لك الزلات، وهو ليس ممن قيل فيهم:

وإن يروا هفوةً طاروا بها فرحاً مني وما علموا من صالح دفنوا ختاماً: الأخوة الصادقة المبنية على المحبة في الله، وعلى تقوى الله، هي التي تبقى في الدنيا والآخرة، فكل صديق عدوٌّ يوم القيامة لصديقه إلا المتقين، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].



(١) حديثان الأول رواه الحاكم في المستدرک والثاني رواه البخاري .



حَتَّى تَصْفُو الْقُلُوبُ وَتَسْلَمَ الصُّدُورُ

هو أحدُ الأصغرين، وموطنُ الأسرار، ومجمع الضغائن، ومنبُع الحب، ومستقرُّ الكراهية، وهو المضغَةُ التي إذا صلحت صلحَ الجسدُ كله، وإذا فسدت فسدَ الجسدُ كله... .

إنه القلبُ، والله دره! ويا لعجيبِ أمره! فهو سر من أسرار الله، وآيةٌ من آيات عظمته، يترفع عن الضغائن والأحقاد والغل والحسد، فيسمو بصاحبه إلى مصافِّ النقاء والطهر والصفاء... ويوغل في الكراهية والشحناء والتباغض، فيَهوي بصاحبه إلى حضيض الغل والغش والحسد والقطيعة... .

وأجمل شيء في الدنيا - كما نعلم جميعاً - أن يعيش المرءُ ذا قلبٍ صافٍ وصدرٍ سليم يُحب الخير لجميع الناس، ولا يحمل في قلبه حقداً على أحدٍ أو حسداً لأي إنسانٍ «ففي صلاح القلوب صلاحُ الأجسام، وفي فسادهما فسادُ الأجسام، وفسادُ الأجسام يترتب عليه فسادُ الإنسان، إذ ليس السقيم كالسليم، ولا المريض كالمعافى، فإذا كانت أمراضُ الأجساد قد تُفَوَّت حياة الدنيا، فإن أمراض القلوب تفوت حياة الآخرة، وتفسد حياة الدنيا»^(١).

(١) الإيمان علاج أمراض القلوب، د. منير غندور، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢ م، ص ٥، دار الفارابي.

... وما أجمل أن يعيش الناس حياةً ملؤها الحب والرحمة والعطف والشفقة، وأن يردوا جميعاً بحارَ التآخي والألفة والوداد!... فأفضل الناس على الإطلاق كلُّ مخموم القلب صدوق اللسان، ولمعرفة مخموم القلب إليك الحديث الشريف التالي:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ»، قَالُوا: صَدُوقِ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ»^(١).

وإذا أردنا أن تصفوَ قلوبنا وتسلمَ صدورنا فعلينا أن نبتعد عن كل ما يعكر صفوها، ويجعلها مليئةً بالشوائب، فلا نستمع لنمّام، ولا ننقل وشايةً، وإن جاءنا فاسقٌ بنياً فعلينا أن نتبين، ولنتأمل معاً في هذا الكلام النبوي الرائع حيث يقول ﷺ لأصحابه الكرام: «لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئاً فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»^(٢).

وفي القرآن الكريم نرى أن من دعاء المؤمنين أن لا يجعلَ الله في قلوبهم غلاً للذين آمنوا، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

(١) رواه ابن ماجه في سننه.

(٢) رواه أحمد في مسنده.

وعلينا كذلك أن نبتعد عن الحسد؛ لأن الحسد داء الأمم، وهو منغص الحياة، ومنكد العيش، حيث يغلي قلب الحاسد غليان المرجل، ويكاد قلبه يتميز من الغيظ، ومحسوده يرقل في أثواب من النعيم والسكينة والحبور، فحري بنا أن نظهر قلوبنا من الغل والحسد، ورحم الله من قال:

طهر فؤادك من غلٍّ ومن حسدٍ واسلم بنفسك لا تمكر ولا تكبد
واترك أذى الناس وابذل ما استطعت ندى واحذر أذاهم ولا تركن إلى أحد^(١)

وحتى تصفو قلوبنا وتسلم صدورنا علينا أن نبتعد عن الغش لأن من غشنا فليس منا، وأن نبتعد عن المكر السيئ فلا يحق المكر السيئ إلا بأهله، وأن نبتعد عن سوء الظن لأن كثيراً من الظن إثم، ولأن الظن أكذب الحديث كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «ولا تكونن الظنون السيئة إلا من القلوب التي لا تخلو من السيئات فتطلب في غيرها العثرات»، كما قيل:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عدوه وأصبح في ليل من الشك مظلم^(٢)

وحتى تصفو قلوبنا علينا أن نترك التباغض، وأن لا يهجر أحدنا أخاه فوق ثلاث، فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً،

(١) سقاية القلوب، إسماعيل المجذوب، ط ٤، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ٥٣.

(٢) الحث على سلامة الصدر، علي الدهامي، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م،

وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهَاجِرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ»^(١).

وحتى تصفو قلوبنا ونتحابب فيما بيننا علينا أن نُفْشِيَ السَّلامَ بيننا بكثرةٍ لأن رسول الله ﷺ قَالَ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟! أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(٢).

ختاماً أيها القارئ الكريم: ما هذه المقالة إلا دعوةٌ قلبيةٌ إلى صفاء القلوب، وسلامة الصدور، والتآخي والتحابب... فشتانَ بين القلب الذي يكون أبيضَ كاللُّجين، ونقيّاً كماء السماء، وبين القلب الذي يتراكم عليه الرّان، وتُنكّتُ فيه نكتةٌ سوداءٌ تلو الأخرى من الكراهية والتباغض ليتحولَ إلى ظلماتٍ بعضها فوق بعض... .

ويقيناً إن من أعظم نعم الله على الإنسان أن يكون ذا قلبٍ تقيٍّ، وفؤادٍ نقيٍّ، لا يعرف حسداً ولا شحناً وغلاً... ولأن الغلَّ يُعكّر صفو الحياة في الدنيا، نرى أن الله نزعه من قلوب أهل الجنة حتى لا يحسدَ أحداً أحداً، وحتى يعيشوا خالدين متحابين، على سرِّرٍ متقابلين، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّنتَقِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].



(١) رواه مالك في الموطأ.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.



في الإسلام: كادَ الجارُ أن يرثَ جاره !

كلنا نعلم أنّ من مفاخر العرب في الجاهلية حسنَ الجوار، وأن العربَ اعتبروه من حميدٍ مكارم الأخلاق، ولا نزال نذكر قول عترة:

وأغضّ طرفي ما بدت لي جارتِي حتى يُوارِي جارتِي ماواها
كما أن العرب اعتبروا أن إساءة الجوار من الخصال الذميمة التي يجب تجنبها، ويُلام فاعلها... لذلك كان مما قال جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لملك الحبشة النجاشي، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجَوَارَ...

وعندما أطلَّ الإسلامُ بنوره، وأشرقت شمسُه، رأينا أن النبيَّ ﷺ، أتى مُتَمِّمًا لمكارم الأخلاق؛ لأن شجرة الأخلاق واحدة، فما كان من النبي ﷺ إلا أن هذَّب شجرته وشذبها، وها هو جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يقول لملك الحبشة النجاشي أيضاً:

... حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ

الأمانة وَصِلَةَ الرَّجِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ . (الرحيق المختوم).

وكان سيدنا جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كلما نزل إلى سيدنا محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوصيه بالجار حتى ظن أنه سيجعل له نصيباً مفروضاً من الميراث، قال عليه الصلاة والسلام: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَّثُهُ». (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)

ولأهمية حق الجار نفى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المؤمن إيمانه حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) بل نفى عنه دخول الجنة كما في المعجم الكبير للطبراني قال عليه الصلاة والسلام: «وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقَهُ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْبَوَائِقُ؟ قَالَ: غَشْمُهُ وَظَلْمُهُ».

ومعلومة تلك المرأة التي دخلت النارَ لأنها تؤذي جيرانها، مع أنها تصوم وتصلي، وجعلها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا خيرَ فيها، فعن أبي هريرة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قيل للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن فلانة تصوم النهار، وتقوم الليل، وتؤذي جيرانها بلسانها فقال: «لا خيرَ فيها، هي في النار» المستدرك على الصحيحين للحاكم.

ثم يعلمنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعضَ الأحكام التي تتعلق بحقوق الجوار، والتي كم نحن بحاجة إلى تطبيقها في زماننا!!، ويجعل الجيران ثلاثة، وبيِّن لكل واحد حقوقه، فيسأل الصحابة ويجيبهم:

«أُتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ؟»

إِنْ اسْتَعَانَ بِكَ أَعْتَتَهُ، وَإِنْ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ، وَإِذَا افْتَقَرَ عُدْتِ

عليه، وإن مرض عُدته، وإن مات اتبعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيزته، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذ به بقنار قدرك، - [والقنار: رائحة الطبخ تنبعث من الوعاء حين الطبخ] - إلا أن تغرف له منها، ثم قال: أتدرون ما حق الجار على الجار؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله.

وَقَدْ أَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَهُوَ الْمُشْرِكُ لَهُ حَقُّ الْجَوَارِ، وَجَارٌ لَهُ حَقٌّ وَهُوَ الْمُسْلِمُ لَهُ حَقُّ الْجَوَارِ وَحَقُّ الْإِسْلَامِ، وَجَارٌ لَهُ ثَلَاثَةٌ حُقُوقٌ جَارٌ مُسْلِمٌ لَهُ رَحِمٌ لَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَالرَّحِمِ وَالْجَوَارِ» لذلك عندما ذُبحَتْ شاة لابن عمرو في أهله، قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ قالوا: لا، قال: ابعثوا إليه منها، فإني سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه». أخرجه أبو داود.

فعلى الإنسان أن يُحسن جوار جاره، فللجوار حقوقٌ وحُرُماتٌ، وعلى كل إنسان أن يحافظ عليها، وقد يكون جارك طالباً أو مريضاً أو هرمًا عجوزاً، فأحبَّ له ما تحبُّ لنفسك.. وراعِ شعورَ جارك، ومن هنا قيل: (الجارُ قبل الدار).





لَمَتَى تَخْدَعُنَا الْمَظَاهِرُ الْبَرَّاقَةُ!؟

كثيرٌ من الناس يعتقدون أن كلَّ ما يلمع ذهبٌ، وأن كلَّ باكيةٍ ثكلى، وأن كل ما يُسمع عن شخص فهو يقينٌ، وأن كلَّ من بدت نواجذُه، وظَهَرَ بياضُ أسنانه، فهو فرحٌ مسرورٌ... وأن كلَّ سراپ يلوحُ في الأفق حقيقةً للناظرين، وليس خيالاً يُرى، ولا وهماً مُتخيلاً...

ولكنَّ الناسَ بعدَ فترةٍ - قد تطولُ وقد تقصُرُ - يكتشفون أن كثيراً مما كان يلمع ليس بذهبٍ، وأن النائحةَ التي يُذيب وهجُ نواحيها القلبَ ليست كالثكلى، وأن السراپ الذي يُخيّلُ للعين وهماً وليس حقيقةً... وأن كثيراً ممَّن بدت نواجذُه، وافترَّ ثغره عن ابتسامه، ينطبقُ عليه قولُ المتنبي:

إذا رأيتَ نيوبَ الليثِ بارزةً فلا تظننَّ أن الليثَ يبتسمُ
... ومع الأسف لقد اعتاد كثيرٌ من الناس في زماننا أن يحكموا على الناس بظواهر الأمور، أو بما يتقولُه الناسُ، أو بما يدور على ألسنتهم في السر والعلن، فكم من إنسانٍ يمدحونه في غيابه، ولكنك عندما تراه تتذكر المثلَ المشهورَ: (أنَّ تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه) !، وكم من إنسانٍ يذمونه ويقعون فيه، ويرمونهُ بالاتهاماتِ وهو بريء منها براءة الذئب من دم سيدنا يوسف عليه السلام،

فَتَيَقِّنُ أَنْتَ أَنَّ سَمَاعَ كَلَامِ النَّاسِ كَثِيراً مَا يُجَانِبُ الْحَقِيقَةَ، فَتَخَاطِبُ
نَفْسَكَ قَائِلاً:

خُذْ مَا عَلِمْتَ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زَحْلِ
فَالْإِنْسَانِ يَسْمَعُ كَثِيراً مِنَ الْأَقْوَالِ وَلَكِنِ الْحَقِيقَةُ غَيْرُ مَا يُقَالُ،
فَكَمْ مِنْ رَجُلٍ يَنْظُرُ لِإِنْسَانٍ وَلَا يَأْبَهُ لَهُ، بَلْ قَدْ يَزْدَرِيهِ لِلبَاسِهِ أَوْ
لِمَظْهَرِهِ، أَوْ لِمَا يُحْكِي عَنْهُ، وَإِذْ بِهِ غَيْرُ ذَلِكَ، وَعَلَيْهِ يَنْطَبِقُ قَوْلُ الْقَائِلِ:
تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ هَاصُورٌ
وَكَثِيراً مَا تُخْبِرُ عَنْ إِنْسَانٍ، وَإِذْ بِمُخْبِرِهِ لَيْسَ كَمَنْظَرِهِ - إِجَاباً
أَوْ سَلْباً - كَمَا قَالَ عَتْرَةَ:

أَنَا الشَّهْمُ الَّذِي حُبِّرْتَ عَنْهُ فَقَدْ عَايَنْتَنِي فَدَعِ السَّمَاعَا
وَنَحْنُ فِي دِينِنَا الْحَنِيفَ مَأْمُورُونَ بِحَسَنِ الظَّنِّ، وَأَنْ نَجْتَنِبَ
كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ لِأَنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ...

وَنَحْنُ مَأْمُورُونَ فِي دِينِنَا الْحَنِيفِ أَيْضاً أَنْ نُحَسِّنَ نِيَّتِنَا، لِأَنَّ
قَرَأْنَا حَدِيثاً نَبَوِيًّا مِنْ أُسَاسِيَّاتِ دِينِنَا الْحَنِيفِ يَقُولُ فِيهِ نَبِينَا ﷺ: «إِنَّمَا
الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى.» الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَعَلَّمْنَا دِينَنَا السَّمْحَ أَنْ أَكْرَمْنَا عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَانَا، وَلَا فَرْقَ لِعَرَبِيٍّ
عَلَى عَجْمِيٍّ وَلَا لِأَبْيَضٍ عَلَى أَسْوَدٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى، بِخِلَافِ الَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ مَطِيَّةً لِتَحْقِيقِ مَآرِبِهِمْ، وَعَلَيْهِمْ يَنْطَبِقُ قَوْلُ الْقَائِلِ:

مَهْمَا تَأَلَّقْتَ الْعُلُومَ وَأَصْبَحْتَ مُلْكَ الْيَدِ
فَثِيَابُهُمْ فِيهَا غِبَارُ الْجَهْلِ لَمْ يَتَبَدَّدِ
مَا دَامَ فِيهِمْ أَبْيَضٌ يَغْتَالُ حَقَّ الْأَسْوَدِ

وكذلك نعلم أن الله لا ينظر إلى صورنا ولا إلى أجسادنا ولكن
ينظر إلى قلوبنا، «فَرَّبَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرِينَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ
لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»... صحيح مسلم

.. وبنظرة خاطفة في التاريخ نرى أن كثيراً من الناس كانوا
عبيداً ولكنّ الدين رفعهم، فأصبحوا سادةً فسيّدنا بلائاً من الحبشة،
وسيدنا سلمانُ من بلاد فارس، وسيدنا صهيبُ من بلاد الروم...

بل كثير من العلماء كانوا عبيداً، وبعضهم من حيث الشكلُ
الخارجيُّ قد يزدريه المرء ولكنه من كبار العلماء العباد؛ كعطاء بن
أبي رباح الذي كان أشلَّ وأفطس... حتى قيل: لا يوجد عيبٌ في
الدنيا إلا وكان فيه، ومع ذلك كان ذكره عطراً، وعلمه بحراً، بل
كان عالم الدنيا في عصره!

وعلى الإنسان أن لا يعتقد أنه خير من الناس حتى الذين
يذنبون منهم، وليضع دائماً أمام عينيه قولُ سيدنا عيسى عليه السلام: «ولا
تنظروا في ذُنُوبِ النَّاسِ كَأَنَّكُمْ أَرْبَابٌ، وانظروا في ذُنُوبِكُمْ كَأَنَّكُمْ
عبيد، فإنما الناسُ مُبْتَلَى ومَعافَى، فارحمُوا أهلَ البلاءِ، واحمدوا الله
على العافية».

وكم رأيت إنساناً فظنت أنك ستعلمه، وقلت في سرّك: يا له
من تلميذٍ نجيب!، وبعد أن يتكلم، وتصغي للدرر التي تخرج من بين
ثناياه، تقول في سرّك أيضاً: أيرضى أن أتلمذ بين يديه؟!..

فالأمور بخواتيمها، والإنسان بأعماله لا بمظهره وماله، وتأمل
معي في هذا الحديث الذي رواه الإمام البخاري: عن سهل بن سعد

الساعدي أنه قال: مرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟» فقال: رجلٌ من أشرف الناس، هذا والله حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شَفَع أن يُشَفَّع، قال فسكت رسول الله ﷺ ثم مرَّ رجل، فقال له رسول الله: «ما رأيك في هذا؟» فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفَع أن لا يُشَفَّع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله، فقال رسول الله: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

وفي حديث آخر رواه البخاري أيضاً: «ويقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه!، وما أجلده!، وما في قلبه مثقالُ حبة من خردل من إيمان».

وكم من إنسانٍ يجمع المالَ الحرام ثم يوم القيامة يهوي به في نار جهنم، مع أن ظاهره أنه يصلي ويصوم ويزكي ويحج، فقد قال النبي ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بأناس معهم من الحسنات كأمثال جبال تَهامة... حتى إذا جيء بهم جعلها الله هباءً منثوراً، ثم يُقذف بهم في النار»، قيل: يا رسول الله: كيف ذلك؟ قال: «كانوا يصلون ويصومون ويزكون ويحجون، غير أنهم كانوا إذا عَرَضَ لهم شيء من الحرام أخذوه، فأحبط الله أعمالهم».

وتذكرتُ كلماتٍ كتبتها في مقالٍ لي عنوانه: (حوارٌ هادئٌ مع النفس) قلت فيه: «لا تغتري يا نفسُ بالأسماء والألقاب كثيراً، فليس من الضروري أن يُعبر الاسم أو اللقب عن المسمى، فهذا المسيح وذاك المسيح، ولكن فرقٌ بين هذا وذاك، فهذا المسيح ﷺ، وذاك المسيحُ الدجال».

وختاماً: المؤمن دائماً شعاره: (لست بالخب ولا الخبُّ
يخدعني) كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه.





أَشْوَاقُ الْغُرْبَةِ وَبُكَاءُ الدِّيَارِ

لا مكانَ في الحياةِ بالنِّسبةِ للإنسانِ، أجملُ وأبهى من المكانِ الذي ولد فيه وترعرع، وتفياً ظلَّالَه وارْتوى من فِراتِ مائِه، فالْمكانُ هو تذكُّرٌ لِمِراتِجِ الصِّبا، وضحكاتِ الطُّفولةِ البريئةِ، وهو جزءٌ من كيانِ الإنسانِ، فمهما ابتعد عنه، وشطت به الدارُ، فلا بد أن تبقى أطلالُ بلادِه في ثنايا مُخيِّلَتِه، وهذا جُزءٌ يَسِيرٌ من الوفاءِ لهذه الأرضِ التي حملتْكَ على ظهْرها وأنتَ تحبو، ثم وأنتَ تخطو، ثم تمشي، ثم بعد انتهاء الأجلِ تدفن فيها. فما أرافها!!

وكثير من الناس من ارتشف شراب الهجر والغربة، في كؤوس من الحنين والأشواق...

وكم من مغترب قال بلوعة بيت الطائي:

كم منزل في العمر يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

وكم من مهاجر يتغنى صباح مساء:

بلادي وإن جارت علي عزيزة وأهلي وإن ضنوا علي كرام

ومثله لفوزي معلوف:

مهما يجر وطني علي وأهله فالأهل أهلي والبلاد بلادي

والكل يعلم أن طريق الهجرة وعرة المسلك، ومليئة

بالمنغصات، ومهما بقي الإنسان في بلاد الغربية فاسمه غريب، ولن يجد قلباً حنوناً، بين الحجارة الصماء، مما حدا بالقروي في قروياته أن يقول بعدما أفنت الغربية شبابه:

دفنتَ ربيعَ عمرِكَ في بلادٍ لها طالت لياليك القصارُ
بلادٌ ربما فيها كرامٌ ولكنَّ اللئام بها كثار
إذا لم تحوِ تربتها حجاراً فبين ضلوع أهلها الحجار
وتبقى ساعةُ الوداع مؤثرة، والوقوفُ على الأطلال يرافقه
البكاء، حتى الصحابة رضي الله عنهم، عندما هاجروا إلى المدينة، كما تذكر
السيدة عائشة رضي الله عنها تذكروا مكة وجبالها، وخاصة أن المدينة أوبأ
أرض الله من الحمى، وقد أصابت الحمى بعضَ الصحابة، وكان بلالٌ
إذا أقلع عنه الحمى اضطجع بفناء البيت ثم يرفع عقيرته ^(١) ويقول:

ألا ليت شِعري هل أبيتنَّ ليلةً بوادٍ وحولي إذخر وجليلٌ
وهل أرددنَّ يوماً مياهَ مَجَنَّةٍ وهل يبدون لي شامةً وطفيل ^(٢)

قالت السيدة عائشة: ثم إنني دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم،
فأخبرته، فقال: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة، اللَّهُمَّ
وصححها وبارك لنا في مُدّها وصاعها، وانقل حُمّاها واجعلها
بالجحفة» ^(٣).

(١) صوته.

(٢) جيلان مشرفان على مجنة على بريد مكة.

(٣) السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، ط ١، عام ١٤٢٤هـ/
٢٠٠٣م، دار الفجر ١/ ٤٧١ - ٤٧٢.

فغرس الله بعد ذلك حبَّ المدينة في قلب الصحابة ومن بعدهم
أبد الدهر.

ويبقى السؤال؟؟ لماذا يحن الإنسان إلى بلاده؟؟ أجاب البعض
جواباً جميلاً فقال:

«وكان الناس يتشوقون إلى أوطانهم، ولا يفهمون العلة في ذلك، حتى أوضحها علي بن العباس الرومي في قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار، يعرف بابن أبي كامل، أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرها، بقوله:

ولي وطنٌ آليتُ ألا أبيعهُ وألا أرى غيري له الدهر مالِكا
عهدتُ به شَرَحَ الشبابِ ونعمةً كنعمةِ قومٍ أصبحوا في ظلالِكا
وحببَ أوطانَ الرجالِ إليهمُ ماربُ قضاها الشبابُ هُنالِكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتُهُم عهودَ الصبا فيها فحنُّوا لذلكِ
لقد ألفتَه النفسُ حتى كأنه لها جسدٌ إن بانَ غودِرَ هالِكا^(١)

وقال بعض الأعراب قريبا من هذا، وعلل بكاءه وشوقه بأمرين
اثنين، ومرحلتين جميلتين في حياة الإنسان، براءة الطفولة، وفتوة
الشباب:

ذكرتُ بلادي فاستهلتُ مداِمعي بشوقي إلى عهدِ الصبا المتقادِمِ
حنَّتُ إلى أرضٍ بها اخضرَّ شاري وقُطِعَ عني قبلَ عقدِ التمامِ

(١) زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري، باب ألفاظ لأهل العصر في ذكر
الوطن ٢٨٣/١.

وعندما طال مقام ابن الرومي بسُرَّ من رأى، قال أيضاً وهو
يتشوّق إلى بغداد:

بلدٌ صَحِبْتُ به الشبيبة والصِّبا ولَبِسْتُ ثوبَ العيشِ وهو جديداً
فإذا تمثَّلَ في الضمير رأيتُهُ وعليه أغصانُ الشبابِ تميداً^(١)
وكثيراً ما رأينا أن الشعراء يتشوقون إلى نجد،
ويكثرون من ذكرها في أشعارهم، فها هو الصَّمَّة بن عبد الله
القشيريّ يقول:

قفا ودِّعَا نَجْدًا وَمَنْ حَلَّ بِالْحِمَى وَقَلَّ لَنَجْدٍ عِنْدَنَا أَنْ يُودَّعَا
وَأَذْكَرُ أَيَّامِ الْحِمَى ثُمَّ أَنْشَيْ عَلَى كَيْدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا
فَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحِمَى بِرَوَاجِعِ عَلَيْكَ، وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا^(٢)
وهذا أبو عمرو البجليُّ يقول:

أقول لصاحبي والعيسُ تحدي بنا بين المُنيفة فالضُّمارِ
تمتَّع من شميمِ عرارِ نجدٍ فما بَعْدَ العشيِّة من عرارِ
ألا يا حَبَّذا نفحاتِ نجد وريًّا رَوْضِهِ غَبَّ القِطَارِ
وأهلك إذ يحلُّ القومِ نجدا وأنت على زمانِكَ غيرُ زَارِ
شهورِ يَنْقُضِينَ وما شعرنا بأنصافِ لهن ولا سِرَارِ^(٣)
وقد يحن الإنسان إلى أرض لم يرها ولم يسكنها، ولكن قلبه

(١) المصدر السابق ١/٢٨٣.

(٢) كتاب الأمالي للقالبي، دراسة واختيار، د. عمر الدقاق، منشورات: دار
الشرق، ط٣، عام ١٩٧٢م، ص ٨٨ - ٨٩

(٣) كتاب الأمالي، د. عمر الدقاق، ص ١٥٥.

تعلق بها، أعني مكة والمدينة، كيف لا؟؟ وقد جعل الله القلوب تهوي إليها، أما قال الله **وَعَبَّكُ** في كتابه على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فالشاعر محمد إقبال يقول في رائعة من روائعه الشعرية:

أشواقنا نحو الحجاز تطلعت كحنين مغترب إلى الأوطان
 إن الطيور وإن قصت جناحها تسمو بفطرتها إلى الطيران
 إن كان لي نغم الهنود ولحنهم لكنَّ هذا الصوت من عدنان^(١)
 وعندما شارفت مداخل مكة قلت مخاطباً أم القرى:

يا طالما شاهدتُ طيفك في الكرى ورأيت كلَّ الحسن فيك تصوّراً
 يا طالما شبَّ الغرامُ بخافقي والجفن في عينيَّ حبُّك أسهراً
 يا طالما حمّلتُ يا أقصى المنى ريح الصبا مني السّلام إذا سرى
 ولكم بعثتُ مع النسيم قصيدةً والنفس ولهى والفؤاد تحسّراً
 والقلبُ مني كم يغادر أضلعي ويهيم وجداً إن رُؤاك تذكّراً!!
 ولكم تشبّث في المطايا مُذنفاً وطلبتُ منه العودَ لكن أنكر!!
 وإذا الحدأة ترنّموا بحدائهم وحدائهم من غير خمير أسكراً
 ألفيتيني أبكي كطفلٍ كلما رحلوا إليك، ونور وجهك أسفراً
 أتجرّع الحسراتِ أرتشفُ الأسي لله كم سالت دموعي أنهرًا!!

(١) فلسفة إقبال: محمد حسن الأعظمي، الصاوي علي شعلان، دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م، ص ٩١ - ٩٢.

يا طالما أرجو وصالك برهةً . . . واليوم جئت إليك يا أمّ القرى
ومما قلت وأنا على مشارف المدينة:

رسولَ الله جئتكَ والعيون تفيض ودمعها دمع هتونُ
تركت الأهل والأولاد خلفي وجئت إلى رحابك يا أمين
على أطلال طيبة هام قلبي فوا لهفي!! متى فيها أكون؟؟
وأطلالُ المدينة لي تراءت ونورُ المصطفى نورٌ مبینُ
- وبعضهم يحن إلى العراق، ويطلب من النسيم، أن يحمل

السلام، إلى البلد التي استفاد منها الغرام فتراه يقول:

ألا يا نسيمَ الريح من أرضِ بابلٍ تَحْمَلُ إلى أهلِ العراقِ سلامي
وإني لأهوى أن أكون بأرضهم على أنني منها استفدت غرامي
والآخر يجعل هواءَ بغداد مؤرِّقاً له، ومُهَيِّجاً لأشواقه:

طيب الهواء ببغدادٍ يؤرقني شوقاً إليها وإن عاقت مقاديرُ
فكيف أصبر عنها الآن إذ جمعت طيبَ الهوائين: ممدود ومقصورُ؟^(١)

كما أن الشاعر اللبناني رشيدَ أيوبَ، عندما رأى الثلج يتساقط
في المهجر، تذكر ثلج بلاده، وأهله وأمه وأشياء أخرى ذكرها في
قصيدته المشهورة التي نقتطف منها الأبيات التالية:

يا ثلجُ قد هيَّجتَ أشجاني ذكَّرتني أهلي بلُبنانِ
بالله عَنِّي قُلْ لإخواني ما زال يرعى حرمةَ العهد

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم، اليوسي، باب كأنها تهني علي القلوب

يا ثلجُ قد ذكّرتني الوادي
 كم قد جلستُ بحضنه الهادي
 يا ثلجُ قد ذكّرتني أمي
 مشغوفةً وتحارُ في ضمّي
 يا ثلجُ قد ذكّرتني الموقد
 نعنو لَدَيْهِ كأنه المسجد
 يا ما أحيلى النجم إن لاحا
 والشاعر المسكين نواحا
 والشاعر ابن الأَبَّار بكى وطنه بقصيدة رائعة، أكثر فيها
 من التأوّه، ومن ترويع الفراق، ومن عبارات البعد يقول:

أبينُ واشتياقُ وارتياع؟
 تملكني الهوى فأطعت قسرا
 لقد حُمَّلتَ ما لا يستطيع
 وروّعني الفراقُ على احتمالي
 ألا إن الهوى ملك مطاع
 وليس هوى الأحبة غيرَ علقٍ
 ومن ذا بالتفرق لا يُراع؟
 فللعبرات بعدهم انحذارُ
 لدي فلا يعار ولا يباع
 نأوا حقاً ولا أدري أيقضى
 وللزفَراتِ إثرهم ارتفاعُ
 تلاقٍ أو يُباح لنا اجتماع؟^(١)
 وكذلك عندما رأى عبد الرحمن الداخلُ نخلة برصافته^(٢)

(١) في الشعر العربي الأندلسي والمغربي، د. علي دياب، منشورات جامعة دمشق ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ٢٣٦.

(٢) وهي رصافة قرطبة التي أنشأها وسماها الرصافة تشبيهاً برصافة الشام التي أنشأها جدّه هشام بن عبد الملك غربي الرقة.

أثارت فيه هذه النخلةُ شجونَه، فرآها شبيهةً به فكلاهما غريب عن وطنه، فقال:

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلةً تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرّب والنوى وطول اكتئابي عن بنيّ وعن أهلي
نشأت بأرضٍ أنت فيها غريبةٌ فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غواذي المزن في المنتأى الذي يسحّ ويستمرّي السماكين بالوبل^(١)
وهو مقسّم القلب بين الأندلس، وبين المشرق، لذلك نراه
يقول:

أيّها الراكب الميمم أرضي أقر منّي بعض السلام لبعضي
إنّ جسمي كما تراه بأرضٍ وفؤادي ومالكيه بأرض
قدّر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الدهر بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي^(٢)
ولابن خفاجة كذلك قصيدةٌ رائعةٌ في التشوق إلى الوطن
مطلعها:

أجبت وقد نادى الغرام فأسمعا عشية غناني الحمام فرجعا^(٣)
وإنني عندما كنت في مصر كان طيف مدينة حماة في مخيلتي،
ونظمت قصيدة في الشوق والحنين إليها منها:

(١) السماكان: نجمان مضيئان.

(٢) في الشعر العربي الأندلسي والمغربي، د. علي دياب، ص ٥٠ - ٥١.

(٣) انظرها كاملة في كتاب «في الشعر العربي الأندلسي والمغربي»، د. علي دياب، ص ١٩٢.

أحنُّ إلى ربوع حماة شوقاً وأذكرُ ماضياً عذباً جميلاً
نواعيرُ المياه بلا فتورٍ تقلُّبُ في حماة السلسبيل
أحنُّ إلى أبي وأخي وأمي وأذكرُ يومَ أزمعتُ الرحيل
تقولُ الأمُّ يا طفلي سلاماً وربُّ الكون يهديك السبيل
إذا بُعدت ديارُ الأهل عني غدا قلبي بساحتهم نزيلاً^(١)

والإنسان يتشوق ويحن للوطن والأهل في ديار الغربه
بجميع الأحوال، فكيف به إذا كان أسيراً وفي ديار الغربه؟! لا بد
أنه سوف يتجرع ألم النوى، وعلقم البعد والفرق،
ولا نزال نذكر قصيدة أبي فراس الحمداني الرائعة التي قالها
عندما كان أسيراً، وسمع حمامة تنوح على شجرة عالية بقربه،
فأراد منها أن تشاركه في أحزانه، وتحمل عنه بعض الهموم،
فقال يخاطبها:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا هل بات حالك حالي^(٢)
معاذ الهوى ما ذقت طارقة الهوى ولا خطرت منك الهموم ببال
أتحمل محزونَ الفؤاد قوادم على غصن نائي المسافة عالي
أجارتنا ما انصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تري روحاً لدي ضعيفة تردد في جسم يعذب بال
أضحك مأسور وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندب سال؟

(١) انظرها كاملة في ديوان: بَدْرُ الدُّجَى سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، مصطفى قاسم
عباس، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص١٤٩ - ١٥٦.

(٢) المشهور: (هل تشعرين بحالي) ولكن هذه رواية ابن خالويه.

لقد كنت أولى منك بالدمع مقلّةً ولكن دمعي في الحوادث غالٍ^(١)
وقد كتب إلى ابن عمه سيف الدولة من الأسر:

وما كنت أخشى أن أبيت وبيننا خليجان والدرّب الأشمّ وآلس^(٢)
تشوقني الأهل الكرام وأوحشت مواكب بعدي عندهم ومجالس
وعندما غادر مدينة حلب قال:

سقى ثرى حلب ما دمت ساكنها يا بدر، غيثان: منهلٌ ومنبجسٌ
أسير عنها وقلبي في المقام بها كأن مهري لثقل السير محتبس^(٣)
وتبقى الغربية غربة، والهجرُ هجرًا، ويبقى ترابُ الوطن خيرًا
من الغربية وذهبها، فالإنسان يألف بلاده ويهاها حتى وإن لم تتوفر
فيها مقومات الحياة البسيطة، لذلك قال الشاعر:

بلاد ألفناها على كل حالة وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
ونستعذب الأرض التي لا هوا بها ولا ماؤها عذب ولكنها وطن^(٤)

وحتى إذا كان يعيش في بلاد الغربية مع الطبقة الراقية، وفي
قصور الأسياد والأمراء (فالشاعر الأعشى مقيم بين سادات نجران

(١) ديوان الأمير أبي فراس الحمداني، تحقيق وشرح: د. محمد ألتونجي،
منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق عام
١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ١٤٧ - ٢٤٦.

(٢) اسم نهر في بلاد الروم قرب طرسوس.

(٣) ديوان الأمير أبي فراس الحمداني، تحقيق وشرح: د. محمد ألتونجي،
ص ١٦٩ - ١٧٠.

(٤) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي
الفتح الأبشهي، ط ٣، دار صادر، ص ٣٧٥.

منعماً، ولكن نفسه مشتاقة إلى العراق، وحوله مطايا أصحابه مثله،
ليس لهم همٌّ إلا الوصول إلى العراق، لذلك يقول:

واضعاً في سراة نَجْرانَ رَحْلي ناعماً غير أنني مُشتاقُ
في مطايا أربابُهُنَّ عِجالُ عن ثِواءٍ وهُمُّهُنَّ العِراقُ

ولعلَّ خير شعر يظهر العلاقة المتينة بين المغترب ووطنه قول
حاتم الطائي، وهو في الحيرة مخاطباً جبلي طييء:

فقلت: ألا كيف الزمان عليكما فقلا بخير كل أرضك سائل^(١)

ولعل الوقوف على الأطلال، وبكاء الديار وأهلها، من أروع
الصفات التي تميز شعرَ الأسي والاغتراب، والترحال، وكلما ذكر
الوقوف على الأطلال والبكاء، ذُكر امرؤ القيس ومعلقته التي
مطلعها:

قِفاً نَبِكِ من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لمن يعف رسمها لما نسجتها من جنوبٍ وشمال
«وقد عدَّ القدماء هذا المطلع من مبتكراته، إذ وقف واستوقف
وبكى وأبكى من معه وذكر الحبيب والمنزل»^(٢).

وكذلك النابغة الذبياني فقد بدأ معلقته بالوقوف على الأطلال
عندما قال:

(١) الانتماء في الشعر الجاهلي، د. فاروق سليم، منشورات اتحاد الكتاب
العرب، ١٩٩٨م، ص ٢٣٤ بتصرف يسير.

(٢) العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، عام ١٩٦٠م،
ص ٢٤٩.

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد
وقفت فيها أصيلاً كي أسائلها عيت جواباً وما بالربيع من أحد
أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد^(١)
وقد قال القراء كما ذكر البغدادي في خزانة الأدب: نادى
الديار لا أهلها، أسفاً عليها وتشوقاً إليها.

ومن أروع ما قرأت في تصوير الوقوف على الأطلال، قولُ
جعفر بن أحمد السراج البغدادي:

وقفنا وقد شطت بأحبابنا النوى على الدار نبكيها سقي ربعها المزن
وزادت دموع الواكفين برسمها فلو أرسلت سفن بها جرت السفن
ولم يبق صبر يستعان على النوى به بعد توديع الخليط ولا جفن
سألنا الصبا لما رأينا غرامنا يزيد بسكان الحمى والهوى يدنو
أفيك لحمل الشوق يا ريح موضع فقد ضعفت عن حمل أشواقنا البدن^(٢)

والشريف الرضي وقف على الأطلال، ولما خفيت الديار،
وتلّفت بعينه فلم يرها، ما كان منه إلا أن تلّفت بقلبه يقول:

ولقد مررتُ على ديارهم وطلولها بيد البلى نهبُ
فوقفتُ حتى عَجَّ من نصبِ نضوي، ولجَّ بعذلي الركبُ
وتلّفتتُ عيني فمد خفيثُ عني الديارُ تلّقت القلبُ^(٣)

(١) انظرها كاملة في شرح المعلقة السبع، القاضي الزوزني، تقديم عمر
أبو النصر، ص ٢٩٢ - ٢٩٦.

(٢) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ط، دار المأمون بمصر ١٦١/٧ - ١٦٢.

(٣) البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، باب التجاهل، ٢٠/١.

وقد يرحل الإنسان عن بلده ولا يعود إليها بل يموت غريباً،
فامرؤ القيس عندما (صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتضر
بها، ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك هناك، قد دفنت في سفح جبل
يقال له عسيب، فسأل عنها، فأخبر بقصتها فقال:

أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكل غريبٍ للغريب نسيب
ثم مات فدفن إلى جنب المرأة، فقبره هناك^(١).

و يطلب صدى الطائي ممن يحمل جنازته، أن ينزلوه في
وطنه، ويدفونه تحت ثراه:

سقى الله أطلالاً بأخيلة الحمى وإن كنَّ قد أبدين للناس ما بيا
منازل لو مرت بهن جنازتي لقال صداي: حاملِيَّ انزلا بيا^(٢)
وقد يعود الإنسان إلى وطنه، بعد فراقٍ طويلٍ، وعندما يصل
إلى أطلاله، تمتزج ذكريات أطلال الهجرة، مع ذكريات أطلال
العودة، فيناجيه قائلاً:

وطن النجوم.. أنا هنا حدِّق.. أتذكر من أنا؟
المحت في الماضي البعيد فتى غريباً أرعنا؟
جدلان يمرح في حقولك كالنسيم مدننا

(١) العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، عام ١٩٦٠م،
ص ٢٤٠.

(٢) زهر الأكم في الأمثال والحكم، اليوسي، باب كأنها تهفي على القلوب
١٠٣/١.

أنا ذلك الولد الذي دنياه كانت ههنا!
أنا من مياهاك قطرة فاضت جداول من سنا
أنا من ترابك ذرة ماجت مواكب من منى
أنا من طيورك بلبل غنى بمجدك فاغتنى
حمل الطلاقة والبشاشة من ربوعك للدنى
كم عانقت روعي رباك وصفقت في المنحنى؟^(١)

وأخيراً وللأمانة، قد يعيش الإنسان لفترة ما في وطنٍ غيرِ
وطنه، وأرضٍ غيرِ أرضه، ويدخلها بداية غيرٍ محب لها، لظروف
أجبرته على الرحيل، ولكنه ربما يحب ذاك الوطن، ويحب أهله،
لأنهم طيبون وجديرون بالمحبة، فالمحبة والطيب لا تعرف وطناً
ولا أرضاً، ولكن مهما عاش بينهم فلا بد أن يفارقهم، ليعود إلى
وطنه، مردداً في طريق العودة:

دخلنا كارهين لها فلما ألفناها خرجنا مُكرهينا
وما حب الديار بنا ولكن أمرُ العيش فرقةً من هويننا
تركت أقرّ ما كانت لعيني وخلفت الفؤاد بها رهينا



(١) إيليا أبو ماضي، جريدة «السمير»، عدد: ٢٦، كانون الثاني ١٩٤٨ م.



مِنْ عَجَائِبِ الْأَقْدَارِ!

عجيبَةٌ هي الأقدارُ، كم تسري سفينةُ حياتنا في بحارها إلى حيث لا ندري!... وكم نتوقع أن نضحك فيها فإذا بنا نبكي!، وكم من يومٍ كنا نتوقع أن نبكي فيه فإذا بالبسمة تترسم على شفاهنا، ونشوة الفرح تغمرُّ أرواحنا!...

الأقدارُ، وما أدراك - أيها القارئ الكريم - ما الأقدارُ؟! سرورٌ عند قوم، وحزنٌ عند آخرين، حياةٌ عند قوم، وموتٌ عند آخرين، شقاءٌ وبؤسٌ عند أناس، ونعيمٌ وحبورٌ عند آخرين، نجاحٌ عند قوم، وفشلٌ عند آخرين... عجيبَةٌ هي الأقدارُ... تحمل، ولا ندري ماذا تلد، وكما قالوا:

إن الليالي والأيامَ حاملَةٌ وليس يعلمُ غيرُ الله ما تلدُ الأقدار تزرع ولا ندري متى سنحصد؟ وتمشي بنا على درب الحياة، ولا ندري إذا كنا سنصل إلى نهاية الطريق، أم أن السبلَ ستتفرق بنا؟ وبالأقدار ننتظر مسافراً، ولعله لن يعود! ويأتينا غائبٌ ما كنا نرتجي أن يعود، بل كنا نظن أنه ملقى في غياهب الزمن، وفي سجن المجهول...

ومن عجائب الأقدار أنها خزائنُ الأعمار، وأنها لا تصل إلينا

إلا بتعاقب الليل والنهار... فتُعزُّ ذليلاً وتُذلُّ عزيزاً، وتغني فقيراً،
وتُفقرُ غنياً، وتشفي مريضاً، وتُمرضُ صحيحاً، وتأخذ من بيننا حبيباً
وتخلف لنا حسوداً، تأخذ مخلصاً، وتُبقي خائناً، تخطف من بيننا
عالمًا، وتترك لنا من بعده رؤوساً جهَّالاً يُفتون بغير علم فيضِلُّون
ويُضِلُّون...

عجيبه هي الأقدارُ، ننسجُ آمالاً بخيوط الأمانى، فتنقضُ
الأقدار ما غزلناه، وتُمزِّق ما نسجناه... كم بددتِ الأقدارُ أحلامنا
وآمالنا، فتلاشت وانتثرت، ولم نستطع جمعها في عقد الحياة
من جديدٍ.

الأقدارُ هي التي تأخذ من بيننا طفلاً بريئاً كان يخطط لمستقبل
ملؤه السعادة، يومه شُهد، وليله هناء، ووِردُه عسلٌ مصقَّى
من السعادة... والأقدار هي التي تواري وجه أمِّ رؤوم عن أولادها
خلف حجاب الثرى ولكن إلى حين، فهل ستجمع شملهم من جديدٍ؟
وهنا يلوح في خاطري قول القائل:

وما الدهرُ إلا جامعٌ ومفرِّقٌ وما الناسُ إلا راحلٌ ومودِّعٌ
فإن نحنُ عشنا يجمع الله شملنا وإن نحن مِتنا فالقيامة تجمعُ
عجيبه هي الأقدار. نرى شخصاً في المسجد خاشعاً ضارعاً
متبتلاً، وبالأمس كان في عداد الأشقياء الذين يعيشون حياتهم بلا
هدف، وتمضي بهم مطايا أيامهم في لهوٍ وعبثٍ ولا مبالاة...
وفي الوقت ذاته قد نرى عابداً كان مُلازماً للمسجد والتقوى

والفضيلة، فإذا به - وبلحظة غفلة - قد جُرِفَ بِأَتْيِ المعاصي، وغرق
في بحارِ الآثام... .

الأقدار شمسٌ تُشرق، ولا تدري هل سترنو إلى غيابها
أم لا؟!، وبدر يُنير ولا تدري أتسامره وتساهره من جديد أم لا؟
وشجرة تزهر، وقد لا ترى ثمارها، وسحابةٌ تمطر وقد لا يبُلُّك
طلُّها، بل قد تسقي تلك السحابةُ ثرى قبرك بالماء والثلج والبرد،
ويبكي عليك الأبوان والأخ والولد... .

الأقدار هي التي تُخبِّي للفتاة زوجاً ينغص عليها عيشها
وحياتها، ويسقيها من لُجج العذابِ غُصصاً في كؤوس من العلقم
المرير... . وهي التي تحمل للفتاة زوجاً وفيّاً محبباً مخلصاً، يصوغ
لها من أيامها عقداً لؤلؤياً في سِمت السعادة، وياسمين السرور،
ويجعل من سنوات حياتها جنانَ نعيم وارفَةَ الظلال... .

والأقدار هي التي تُخبِّي بين حناياها أمماً ستغدو ثكلى، وطفلاً
سيرتوي حتى التضلع من أقذار اليتم والبؤس... . ورجلاً سيتنقل
من مأساة لتتلقفه مأساةً أخرى... . والأقدار تحمل في طياتها
ضاحكاً سيبكي دماءً حرّى، ودموعاً سيّاحةً من سحابة البلابل
والدواهي التي تتحفز إليه... . وباكياً سيرفُل في أثواب البسمة،
وينتشي قلبه وتطرب روحه... .

عجيبةٌ هي الأقدار في جمعها بين المتناقضات مع أن الزمن
واحدٌ، والمكان واحدٌ، وحاملُ الأقدار ما هو إلا شخصٌ واحدٌ.

... وختاماً: عجيبةٌ هي الأقدار، والأعجب منها أن المؤمنَ
قد رَوَّضَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا فَمَعَ الْمَصِيبَةَ وَرَدَهُ وَذَكَرَهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ومع الفرحة يلهج لسانه بـ(الحمد لله ربِّ
العالمين)، وفي كل أحيانه يردد: قَدَّرَ اللهُ، وما شاء فعل.





رسالةٌ إلى الثقلاء

كثيراً ما تزور إنساناً ما في مكان عمله، فتجده قد كتب بخطٍ واضح وجميل هذه العبارة: «إن لم يكن لديك عملٌ فدعنا نعمل»، وفي الحقيقة هي عبارةٌ جميلة ولطيفة، واعتذارٌ منك بأسلوبٍ في غاية التهذيب، ونحن نعلم أن من تعاليم ديننا الحنيف قوله تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا...﴾ [النور: ٢٨].

والعبارة السابقة بعض الناس يقرؤونها ويتجاهلونَها، أو يقول أحدهم في نفسه: حتماً لست أنا المقصود بها، لأنني من الأصدقاء، وبالتالي فإن هذه العبارة غيرُ موجهة لي، مما يضطر معه صاحبُ العمل للتوضيح أكثر فأكثر، فيعيد صوغ العبارة لتصبح كالتالي: «إن لم يكن لديك عملٌ فدعنا نعمل، وخاصةً الأصدقاء»، ومع ذلك يُصِرُّ البعض على أنه غيرُ مقصود، أو معنيٌّ بهذه العبارة، ويبقى في زيارتك أثناء فراغه وعملك، لساعةٍ أو ساعتين، وربما أكثر من ذلك، فهذا وأمثاله عُرفوا قديماً وحديثاً باسم: الثقلاء.

وثقيل الظل غالباً لا عمل عنده، فهو عالمةٌ على المجتمع، قتل الطموح، وقطع حبال الآمال، وأعطب الإحساس... وإن كان لديه عملٌ فهو بحاجةٌ لدخول مدرسة الذوق،

والإحساس المرهف، علّه يشعر بقيمة وقت الآخرين، إن كان الوقت لا قيمة له عنده... .

ومشهورٌ ذاك البيتُ الذي يقول:

إذا نزلَ الثَّقيلُ بدارِ قومٍ فما على القومِ إلا الرحيلُ
لن أطيلُ في المقدمةِ وتعريفِ الثَّقيلِ، فإن اللبيب - كما قيل -
من الإشارةِ يفهم.

- (زُرْ غِبًّا تَزِدُّ حُبًّا) هذا الحديثُ وإن كان ضعيفاً عند علماء مصطلح الحديث، إلا أن طرق الحديث بمجموعها يقوِّي بعضها بعضاً، وهو يحمل معنىً صحيحاً، فالإنسان عندما يزور الآخرين على فتراتٍ متقطعة يتشوّق الناس لرؤيته، وتتلهّف قلوبهم وأذانهم لسماع حديثه، وما أحسن قول ابن دُرَيْد:

عليك بإغبابِ الزيارةِ إنها إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكاً
فإنني رأيت الغيثَ يُسأم دائباً ويُسأل بالأيدي إذا هو أمسكاً^(١)
وقد سارت الرّكبانُ بأبياتٍ قيلت في الثَّقيلِ، وهي كثيرة قديماً وحديثاً، ومعظمنا يحفظ الأبيات التي تقص علينا قصة ذاك الثَّقيلَ الذي سقط من السفينة في ظلام الليل، فبكى أصدقاؤه لألم الفراق، وظنوا أن البحر قد ابتلعه، ولكنّ المفاجأة كانت في الصباح، فما إن

(١) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، ضبط وتصحيح: محمد عبد العزيز الخالدي، المجلد الأول، ص ٣٨٧، ط ١، ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، بتصرف.

طلع الفجر حتى لفظه البحر، فإنه ما هُضم مع البحر رغم اتساعه،
وهذه هي القصة شعراً:

سقط الثقيل من السفينة في الدّجى فبكى الرفاق لفقده وترحموا
حتى إذا طلع الصباح أتت به نحو السفينة موجة تتقدم
قالت: خذوه كما أتاني سالماً لم أبتلعه فإنه لا يُهضم^(١)

فسبحان الله! البحر الذي ابتلع كثيراً من السفن والرجال في
ذات الصواري، وغيرها من المعارك الحربية البحرية، وأغرق فرعونَ
وقومه، ويبقى يبتلع الكبير والصغير على مر الدهور، لم يستطع أن
يبتلع الثقيل!!

- وتوجيهات ديننا الحنيف في قمة السلوكيات الأخلاقية
الرفيعة، فهي دائماً تُرشدنا إلى الإحساس بشعور الآخرين، واحترام
أوقاتهم، وأن نكون أصحاب إحساسٍ وذوقٍ رفيع في شتى تعاملاتنا
الحياتية، والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن والسنة، ونكتفي بمثال
واحد، وهو هذه الآية الكريمة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ
النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظْرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِجَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى
النَّبِيِّ فَيَسْتَجِيءُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِيءُ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فهذه الآية تعطينا درساً عملياً في هذا المجال، ويفهم ذلك
من خلال سبب نزولها فعن أنس رضي عنه قال: بُني على النبي صلى الله عليه وسلم

(١) من نفحات الإسلام، روائع إسلامية، د. منير غندور، ط١، ٢٠٠٢م،
مكتبة الفارابي، ص ٩٠ - ٩١.

بَزَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ بِحُبْزٍ وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلَتْ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا، فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ، قَالَ: «ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ»، وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ». فَقَالَتْ وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ؟ فَتَقَرَّرَى حُجْرَةَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ، يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ، وَيَقُولَنَّ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا ثَلَاثَةُ رَهْطٍ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَمَا أَدْرِي أَخْبَرْتُهُ أَوْ أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكُفَّةِ (عتبة الباب) الْبَابِ لِدَاخِلَةٍ وَأُخْرَى خَارِجَةً، أَرَخَى السُّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ (١).

فهؤلاء الثلاثة الذين أثقلوا على النبي ﷺ، أنزل الله بشأنهم قرآنًا يُتلى آناء الليل وأطراف النهار...

ومن طريف ما مر معي أن إنساناً من الثقلاء أهدى لإنسان حملاً صغيراً، وبقي عنده زمناً طويلاً حتى ضجر منه، وضرب بإكرام الضيف عرض الحائط؛ لأن هذا لم يعد ضيفاً، بل أصبح ثقيلاً مُضجراً، بل من أثقل الثقلاء، والحوار التالي بين صاحب المنزل والضيف صاحب الحمل يوضح مدى ما قلته:

(١) صحيح البخاري.

يا مبرماً أهدي حَمَلٌ خُذْ وانصرف ألفي جَمَلٍ
 قال وَمَنْ يَمُودها؟ قلتُ له أَلْفَا رَجُلٍ
 قال وَمَنْ يَسُوقها قلتُ له أَلْفَا بَطَلٍ
 قال وما لِبأسهم؟ قلتُ حُلِيٍّ وَحُلَلٍ
 قال وما سِلاحهم قلتُ سُيُوفٍ وَأَسَلٍ
 قال عَبيد لي إذن؟ قلتُ نَعَم ثم خَوَلٍ
 قال بهذا فاكثبوا إذن عليكم لي سِجَلٍ
 قلت له أَلفي سِجَلٍ فاضمَنُ لنا أن تَرْتَحَلِ
 قال وقد أضجرتكم قلتُ أَجَلٍ ثم أَجَلِ
 قال وقد أبرمتكم قلتُ له الأمر جَلَلِ
 قال وقد أثقلتكم قلتُ له فوق الثَقَلِ
 قال فإني راحلٌ قلتُ العَجَلِ ثم العَجَلِ
 يا كوكبَ الشُّومِ وَمَنْ أَرَبِي على نَحْسِ زُحَلِ
 يا جبلاً من جَبَلٍ في جَبَلٍ فوق جَبَلٍ^(١)

فله دُرّه! أهدي حملاً صغيراً، ولم يرض حتى ينصرف إلا
 بألفي جملٍ، بل يُريدها قافلةً مُحمَّلةً زبيباً وعسلاً، يقودها له ألفا
 رجلٍ، ولا يعودون من حيث أتوا، بل يصبحون عبيداً له أيضاً!!
 هذا وقد أفرد ابن عبد ربه في العقد الفريد باباً كاملاً في الحديث
 عن الثقلاء.

فعلى الإنسان أن يكون لبقاً في كل سلوك من سلوكيات

(١) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، باب الثقلاء، ١/١٨٥.

الحياة، وأن يزور غيباً حتى يزداد حباً، وأن يحترم وقت الآخرين
وشعورهم وعملهم، متحلياً بمكارم الأخلاق ووفضائل الشيم،
وصلّى الله على سيدنا محمد صاحب الخلق العظيم، وعلى آله
وأصحابه أجمعين، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين.





أَتُحِبُّ أَنْ تَعِيشَ مَحْسُوداً؟!

إذا أردت أن تنظر إلى قلوب تكاد تَمَيِّزُ من الغيظ، وإلى صدور تكاد أضلاعها تتمزق من الحقد، وإلى أكبادٍ تتفطر كراهيةً وحقداً، وإلى عيونٍ تخبرك نظراتها عن بغض دفين.. فإنك سوف ترى ذلك في قلوب الحاسدين وصدورهم وأكبادهم وعيونهم...

ولكن، لا تسلني: لِمَ يحصل ذلك معهم؟.. لأنني لا أدري، ولكن أستطيع أن أقول لك:

كلُّ ما أدريه أن الحسد داءٌ قديم، ظهر منذ بداية البشرية... فقابيلُ ولد آدم، قتل أخاه هابيل حسداً، وكان الداعي إلى القتل أن الله تقبلَ قربانَ هابيل ولم يتقبل من قابيل، فقتله بعد أن حسده، لذلك نرى أن أولَ جريمةٍ على وجه الأرض سببها الحسد...

وكل ما أدريه أيضاً أن الحسد لا يقتصر على زمن دون زمن، ولا على أمة دون أمة، ولا على جنس دون جنس، فالحسد هو داءُ الأمم، وهو يحلِقُ الدين، ولأن الدين الحنيف ينهى عن الحسد فقد قال عليه الصلاة والسلام: «دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسدُ والبغضاءُ وهي الحالقةُ، لا أقول: حالقةُ الشَّعْرِ ولكن: حالقةُ الدِّينِ» رواه الترمذي.

وكل ما أدريه أن الحسودَ لا يسود - كما قالوا - وأنى له
السيادةُ وهو يكره الخير للآخرين؟ .

وكل ما أدريه أيضاً أن الحاسد يعترض على حكم الله، فهو
لم يرضَ بما قسم الله لعباده، ويوضح هذا المعنى قولُ الشاعر:

أيا حاسداً لي على نعمتي أتدري على من أسأت الأدب؟!
أسأت على الله في حكمه لأنك لم ترض لي ما وهب
فأخزاك ربي بأن زادني وسدَّ عليك وجوه الطلب

وإذا كنت محسوداً، فلا تجزع ولا تتذمَّر، فجميل أن يكون
المرءُ محسوداً، ولذلك قالوا: وكل ذي نعمة في الناس محسودُ،
وهذا هو الذي جعل النويري في كتابه نهاية الأرب يرى أن
من المديح القليلِ النظير، قولُ علي بن محمد الأفوه:

محسِّدونَ، ومن يعلِّق بحبلهم من البرية يُصبح وهو محسودُ
وجميلٌ قولُ البحترى أيضاً في هذا المجال، كما في ديوان
المعاني لأبي هلال العسكري:

مُحَسِّدونَ كأنَّ المكرماتِ أبتُ أن تُوجَدَ الدهرَ إلا عند محسودِ
محسِّدونَ وشرُّ الناسِ منزلةً من عاش في الناس يوماً غيرَ محسودِ
ومن يتأمل في شأن الحساد فسيري أنهم يسترون الجميل،
ويتتبعون العثراتِ والسقطاتِ، وينشرون السيئاتِ فقط، وقد صدق
الشاعر قعنْبُ ابنُ أمِّ صاحب في وصفهم عندما قال - كما في
مختارات شعراء العرب لابن الشجري -:

إنَّ يسمعون ريبةً طاروا لها فرحاً مني وما سمعوا من صالحٍ دفنوا

صمُّ إذا سمعوا خيراً ذكرتُ به وإن ذكرتُ بسوءٍ عندهم أذنوا
ولي قصيدة بعنوان: (الحسودُ) نظمتها منذ عدة سنوات، وهي
في ديواني الأول (صورٌ من مأساتنا) ومنها أقتطف لك أيها القارئ
العزیز:

يَسْعَى إِلَى الْمَجْدِ وَالْعَلِيَاءِ مَجْتَهِدًا يَكْفَحُ الْبُؤْسَ لَا لَا يَرْعَوِي أَبَدًا
فَإِنْ عَلَا قَدْرُهُ وَاللَّهُ أَكْرَمُهُ يَرَى أَنَسًا تَلْظَى صَدْرَهُمْ كَمَدًا
أَيْحَسُدُونَ وَرَبُّ الْعَرْشِ حَذَرْنَا فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ مِنْ شَرِّ الَّذِي حَسَدَا
إِنَّ الْحَسُودَ جَمِيعُ الْخَلْقِ تُبْغِضُهُ وَالْهَمَّ وَالْغَمَّ وَالْآلَامَ قَدْ حَصَدَا
يُعَانِقُ اللَّيْلَ وَالْأَوْهَامَ تُقْلِقُهُ وَجَفْنُهُ لِلْكَرَى وَالنَّوْمِ قَدْ جَحَدَا
يِرَاقِبُ النَّاسَ مُعْتَاطًا إِذَا فَرِحُوا وَإِنْ أُصِيبُوا بِنَازِلَةٍ فَقَدْ سَعَدَا
يُعَاتِبُ اللَّهَ لَا يَرْضَى بِقِسْمَتِهِ يَظَلُّ دَوْمًا لَرَبِّ الْكُونِ مُنْتَقِدَا
وَيُظْهِرُ الْبِشْرَ إِنْ لَاقَاكَ مُبْتَسِمًا وَحِقْدُهُ فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ قَدْ وُلِدَا
إِلَى ابْنِ آدَمَ قَابِيلٍ لَهُ نَسَبٌ مِنْ الشَّيَاطِينِ أَيْضًا يَطْلُبُ الْمَدَا
يَا حَاسِدَ النَّاسِ أَبْشُرْ بِالْعَذَابِ غَدًا فِي جَوْفِ نَارٍ تُذِيبُ الْجَسْمَ وَالْكَبِدَا

ففي هذه القصيدة تصويرٌ دقيقٌ لنفسيةِ الحسودِ، التي تميّزه
عن غيره من النَّاسِ، تُصوِّرُ الْحَقْدَ الدَّفِينِ الْأَسْوَدَ فِي قَلْبِهِ، حَيْثُ
لَا يَرِيدُ الْخَيْرَ إِلَّا لِنَفْسِهِ، وَتَصَوَّرُ نِفَاقَةَ فِي الْمَعَالِمِ الْعَامَةِ لَوَجْهِهِ
عِنْدَ لُقْيَاكَ، كَيْفَ أَنَّهُ يُظْهِرُ الْبِشْرَ وَالِابْتِسَامَةَ عَلَى وَجْهِهِ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ
يَمْتَلِئُ غَيْظًا، بَلْ يَكَادُ يَتَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ. فَتَتَذَكَّرُ عَلَى الْفُورِ قَوْلَ
الشاعر:

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تعلمِ

وعلى الحَسَادِ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى سِرَائِرِ قُلُوبِهِمْ،
وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ قَسَمَ عَطَاءَهُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ فَحَسَدُهُمْ وَغِيظُهُمْ لَنْ يَغِيرَ
شَيْئاً مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ .

وَإِنِّي أَذْكَرُ هُنَا قَوْلَآ جَمِيلاً لِابْنِ عَطَاءِ اللَّهِ السَّكَنْدَرِيِّ يَقُولُ فِيهِ :
«كَفَى بِكَ جَهْلًا أَنْ تُحْسَدَ أَهْلَ الدُّنْيَا عَلَى مَا أُعْطُوا، وَتُشْغَلَ
قَلْبَكَ بِمَا عِنْدَهُمْ، لِأَنَّهُمْ اشْتَغَلُوا بِمَا أُعْطُوا، وَاشْتَغَلَتْ أَنْتَ بِمَا
لَمْ تُعْطَ» تَاجُ الْعُرُوسِ لِلْسَّكَنْدَرِيِّ .

وَاعْلَمْ - يَا أَخِي - أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَنْجُ
مِنَ الْحَسَادِ وَكَيْدِهِمْ، وَقَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِهِ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا
حَسَدَ، فَمَنْ لَيْكُنْ النَّبِيُّ ﷺ أَسْوَتَكَ، وَالْقُرْآنُ دَسْتُورَكَ . . .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَاسِدَ مَهْمَا اغْتَابَكَ وَمَهْمَا كَثُرَ الْغَيْظُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنَّهُ
لَنْ يَضُرَّكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَتَذَكَّرْ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ
التَّوْبَةِ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التَّوْبَةِ: ٥١]، وَقَوْلَهُ
تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ
قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١١٩] .

. . . فَأَنْ تَعِيشَ مُحْسُودًا يَعْنِي أَنَّكَ فِي نَعِيمٍ، وَيَعْنِي أَنَّكَ مُمَيِّزٌ
بِمَزَايَا وَخِصَائِصٍ كَانَتْ سَبَبًا فِي إِشْعَالِ فَتِيلِ الْغَيْظِ وَالْحَسَدِ عِنْدَ
الْحَاسِدِينَ، وَلِذَلِكَ كَانَ بَعْضُهُمْ كَثِيرًا مَا يَكْرُرُ فِي دَعَائِهِ: اللَّهُمَّ أَكْثَرُ
حُسَادِي .

وَقَبْلَ أَنْ نَخْتِمَ لَا بَدَّ أَنْ نَذْكَرَ أَنَّ هُنَاكَ حَسَدًا مُحْمُودًا وَهُوَ
حَسَدُ الْغِبْطَةِ، وَيَكُونُ بِأَنْ تَتَمَنَّى أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ فَلَانًا

من الناس، ولكن من غير أن تتمنى في قلبك أن يُزيل الله النعمة عنه
فهذا حسدٌ محمودٌ، وهو تَمَنُّ جائزٌ ومستحبٌ.

وما رأيكم في الختام أن نقول معاً: اللَّهُمَّ أَكْثَرَ حُسَادِنَا، وَقِنَا
مِنْ شَرِّهِمْ وَكَيْدِهِمْ، إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.





... وَحَانَتْ سَاعَةُ الْفِرَاقِ!

الفراق، هذا الذي خَلَف وراءه قلباً مُعذَّباً وعيناً دامعةً، وأماً
ثكلى، وزوجةً مفجوعةً، وطفلاً يتيماً، وأماً دفيناً...
الفراق تلك الكلمة التي تعني أن تفارق من تحب، وتبتعدَ عن
تهوى، ولا يكتحلَ جفنك بنوم، ولسانُ حالك يقول للمحب الذي
فارقك:

أَلْقَيْتَ بَيْنَ جَفُونِ عَيْنِي فُرْقَةً فإلى متى أنا سَاهِرٌ يَا رَاقِدٌ؟
الفراق موقف تُسكب فيه العبراتُ، ويتجرع القلبُ الأسى
والحسراتِ...

محاسنُ رُبَعٍ قد محاهنَّ ما جرى من الدمع لما قيل قد رحل الركبُ
تناقض حالي مذ شجاني فراقهم فمن أضلعي نارٌ ومن أدمعي سَكْبُ
الفراق هو الذي جعل الروح تفارق جسد صاحبها، وهو
لا يزال على قيد الحياة، فكم من قلبٍ غادر صدرَ صاحبه، متعلقاً
في مطايا الظاعنين، وخَلَفَ صاحبه على هذه الحالة:

ولقد مررتُ على المنازل بعدهم أبكي وأسأل عنهم وأنوحُ
وأقول إن سألوها بحالي في النوى: ما حالُ جسمٍ فارقته الروحُ
عند الفراق يكثر العناقُ، ويدوب القلبُ شوقاً قبل الفراق،
وتصبح حالتك كالتالي:

كم تشتكي ألم النوى وتذوب إن حلّ الفراق
ودّعت أصحاباً مضوا وجلست تنتظر التلاق
أنى تعانق راحلاً؟! فيموته مات العناق بدر الدجى^(١)

والفراق مهيجُ الأشواق، والشوق هو الذي يقرب الدار
النازحة، كما قال العباس بن الأحنف:

يقرب الشوق داراً وهي نازحة من عالج الشوق لم يستبعد الدار
لكن الشهاب محمود رأى عند الفراق أن شمس الأنس قد
غابت، وأن دار الأعبة قد نأت، وأصبح يناديهم قائلاً:

أحبابنا هل لي إليكم وقد نأت بي الدار من بعد الديار رجوع
وهل شمس هذا الأنس بعد فراقنا يكون لها بعد المغيب طلوع
وهل لي ولا والله ما ذاك ممكن فؤاد إذا حان الفراق يطيع
وقد كنت أدري والحياة شهية تروق بكم أن النوى سيروع^(٢)

وساعة رحيل الأعبة من أقسى الساعات التي يعيشها المرء،
هذا إذا حصل وداع قبل الرحيل، فما بالك إذا غادر الأعبة من غير
وداع؟! لا أرى الحالة إلا كما قال الشاعر:

ساروا وسرّ الوجد قلبي أودعوا يا ليتهاهم يوم النوى لو ودّعوا
رحلوا عن الأوطان لكن في الحشا نزلوا، وما راعوا، ولكن روّعوا
يا صاح إنّ ظباء جيران النقا جاروا عليّ فدلّني ما أصنع؟

(١) انظرها كاملة في ديوان: بدر الدجى سيدنا محمد ﷺ، مصطفى قاسم
عباس، ط ١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٩٧.

(٢) تزيين الأسواق في أخبار العشاق، داود الأنطاكي ٢٠١/١.

نفروا وما التفتوا وعادةً مثلهم يتلفئون إذا نفاراً أوقعوا
قسماً بهم ما لي غنى عنهم ولو أمسيت كاساتِ الأسي أتجرع^(١)
هذا الذي ذكرناه إذا رحل الأحبة ولم يودعوا، فهل تختلف
الحالة إذا حصل الوداع قبل الرحيل؟! لا أظن أن الأمر مختلف
كثيراً، فهذا هو ابن الضائع، يرى أن أحبته قد أودعوا في قلبه عند
وداعهم نيراناً مستعرةً، فإذا به بعد وداعهم كالنجم الحيران، وكلما
حاول أن يستعير صبراً يُسليه عما هو فيه، كلما زاد ضراماً نيران
أشواقه من جديد، يقول:

قد أودعوا القلب لما ودّعوا حرقاً فظلّ في الليل مثل النجم حيرانا
راودته يستعير الصبر بعدهم فقال: إني استعرت اليوم نيرانا
والآخر جعل الصبر يسافر مع محبوبه، ويتشوق إلى اللقاء،
والقلب محترق، والدموع دماء:

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه هل من سبيلٍ إلى لقياك يتفق
ما أنصفتك دموعي وهي داميةٌ ولا وفي لك قلبي وهو يحترق
وذاك يرى أن التصبر عند غياب الأحبة لا طمع فيه مع عظم
الجوى، والشوق المبرح، فما عادت الديار كما كانت، ولا الإشراق
والبهاء كسالف عهده:

غبتم فما لي في التصبر مطمّع عظم الجوى، واشتدت الأشواق
لا الدار بعدكم كما كانت ولا ذاك البهائم بها ولا الإشراق

(١) نسيم الصبا، ابن حبيب الحلبي، باب في الفراق ١٦/١.

أشتاقكم وكذا المحبُّ إذا نأى عنه أحبه قلبه يشتاق^(١)
وهذا الشاعرُ عندما ودَّعه أحبَّأوه يوم الخميسِ عِشاءً، ودَّعهم
وودَّع نفسه التي أبتْ إلا بالذهاب معهم، وكم طلب منها العودة،
ولكنْ بلا فائدة!!:

همُ رحلوا يوم الخميسِ عشيةً فودَّعتهم لمَّا استقلُّوا وودَّعوا
فلمَّا تولوا ولَّتِ النَّفسُ معهم فقلتُ: ارجعي قالت: إلى أين أرجعُ؟^(٢)
وغالباً عند التوديع، يلوِّح الإنسان بيده، ويمدُّها للوداع، إلا
أنَّ يد الهجر والبين تأبى أن تودَّع؛ لأنَّ الموت في الوداع:

قالتُ ومدتُ يداً نحوي تودَّعني ولوعةُ البين تأبى أن تمدَّ يداً
أميَّت أنت أم حيِّ فقلتُ لها: مَنْ لم يمت يوم بيِّن لم يمت أبداً
وأبو الحسن الهمدانيُّ أتى بصورة مختلفة عندما قال:

ويوم تولَّت الأظعانُ عنا وقوَّض حاضرٌ وأرنَّ بادي
مددتُ إلى الوداع يداً وأخرى حبستُ بها الحياةَ على فؤادي
بيد أن بعض الأندلسيين رأى أنَّ الأمر سيان، سواءً ودَّعوا
أم لا؛ لأنَّ منزلهم في شغاف القلب، وشمسهم مشرقةٌ في القلب،
لا تغرُبُ على أية حال:

ساروا فودَّعهم طرفي وأودَّعهم قلبي، فما بعدوا عني ولا قربوا
همُ الشموسُ فني عيني إذا طلَّعوا في القادمين، وفي قلبي إذا غربوا

(١) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، مقدمة المؤلف ١/ ٩٠.

(٢) أخبار النساء، ابن الجوزي ١/ ٨.

أما الكُتّاب فهم عند الفراق، يقلُّ هجوُهم، ويزدادُ بكاؤهم
كغيرهم، إلا أنهم يختلفون عن غيرهم بأنّ داعي الشوق هو الذي
يُملي، والدموعُ هي التي ترمّل السطور:

كتبتُ وعندي من فراقك لوعةً تُزيد بكائي أو تُقلِّ هجوعي
فلو أبصرت عيناكِ حاليّ كاتباً إذا كنتِ ترثي في الهوى لخضوعي
أخطُ وداعي الشوق يُملي، وكلما تعدّيتُ سطرًا رملته دموعي
فلا غرو بعد ذلك ولا عجب، أن نرى أنّ صاحب كتابِ
(مصارع العشاق) كتب على أول جزء منه:

هذا كتابُ مصارع العشاقِ صرعتهم يوم النوى بفراق
تصنيفُ من لدع الفراق فؤاده وتطلّب الراقي فعزّ الراقي
ويبقى لفراق مكةَ والمدينة طعمٌ آخرُ، وكما قيل: (من ذاق
عرف)، فعندما كنتُ في مكة المكرمة، وأُخبرت أنّ الفراق والسفر
بعد يومين، شعرتُ بلوعة الفراق قبل الافتراق، وكان مما قلتُ:

لكل لقاءٍ لوعةٌ وفراقُ ودمعٌ على الخد الأسيل يُراقُ
وقلبٌ يريد الوصلَ، والبينُ دونه وسُهدٌ ونوحٌ تارةً وعناقُ
وأنبتُ أنني بعد يومين راحلٌ فيالهِفَ نفسي!! كيف ذاك يطاق؟!
فما أجمل الأيامِ في قرب كعبةٍ تنيرُ، لها في مقلتي إشراقُ!!
وعندما وصلتُ إلى بلدي، وبعد أيام قليلة، تذكرت مكةَ
وأنوارها، والمدينةَ وأسرارها، والليالي التي أمضيتها هناك بنسيمها
العطريّ، وأريجها الفوّاح، فنظمتُ قصيدةً عنوانها: (. . . وَعَادَ نَبْضُ
الهُوَى يَسْرِي بِأُورْدَتِي) منها هذه الأبياتُ:

سألتُ أيام أنسٍ أن تعود لنا
طابت وطاب اللقاء، والشملُ مجتمع
وعاودتني ليالٍ ما تُذكّرني
لا عذب الله قلباً في الجوى دنفاً
لكنني عدتُ في خُسِرٍ وإخفاق
وكلما ذُكرت أبكي بإطراق
إلا بدمع على الخدين مُهراق
وقربَ الله مُشتاقاً لمشتاق
وختاماً: نرى أنّ من فارق مُحباً ودّع الدنيا، يبقى دائماً متشوقاً

للقيامة، ولكن لماذا؟! يجيبنا الشاعر:

تمنيتُ القيامةَ ليس إلا
ولكني أتمثلُ بقول الشاعر:
وما الدهرُ إلا جامعٌ ومفرّقٌ
فإن نحنُ عشنا يجمع الله شملنا
لألقى من هويتُ على الصراط
وما الناسُ إلا راحلٌ ومودّعٌ
وإن نحنُ مِتنا فالقيامة تجمعُ





هَلْ يَتَجَزَّأُ الْوَفَاءُ؟!

الوفاء كلمةٌ من أروع الكلمات التي تُطرب الآذان عند سماعها، وتنتشي بروائع معانيها...

الوفاء تلك الكلمة التي تتكوّن من مزيج من الود والحب والألفة والإخاء...

الوفاء هي الكلمة التي تعبّر عن معنى لا يتجزأ، فلا يُطعن بسهام الخيانة، ولا يُضرب بسيوف الغدر...

ولكنّ الأصل في الوفاء أنه لا يتجزأ، فهل تجزأ الوفاء في زماننا؟؟؟

سؤالٌ يجيب عنه كلُّ إنسان تجرّع مرارة الغدر، وشرب كؤوس الخيانة علقماً لا يُستساغ!!

فكم من إنسان يطلب منك أن تمدّ له يد العون لتنقذه من مأزق ما، فتمدُّ يدك، وتنقذه بها... وإذ به يقطعها فيما بعد بسيف الغدر والخيانة!! وكم من إنسانٍ كنتَ تظنُّه وفيّاً، فإذا به أشدُّ خيانةً من أبي رغال!! وكم من إنسانٍ قالوا عنه: خائنٌ، فإذا به أوفى من السمّوأل!!

لذلك عندما نجول مع الشعراء الحكماء نرى أن بعضهم جعل
نهرَ الوفاء قد جفَّ وغازض، ونهرَ الغدر قد امتلأ وفاض، ووجد أن
حُسن الظن لا يُفيد، وأن الإنسان عليه أن يُسيء ظنه بجميع البشر،
وذلك كما فعل مؤيِّد الدين الطغرائي في قصيدته (لامية العجم)،
حيث يقول فيها:

وَحُسْنُ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ مَعْجِزَةٌ فَظُنَّ شَرًّا وَكُنْ مِنْهَا عَلَى وَجَلٍ
غَاضُ الْوَفَاءِ وَفَاضَ الْغَدْرُ وَانْفَرَجَتْ مَسَافَةُ الْخُلْفِ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
بينما نرى أن غيره من الشعراء زهد في الناس قاطبة، وخاصة
في الأصدقاء، فكم من صاحب سرّه في البداية، وأبكاه في
النهاية!، وكم من صاحب كان يرجوه لنائبة الدهر، فإذا به من أشدّ
نُوبِ الدهر ومصائبه، لذلك قال:

وَزَهَّدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ وَطُولُ اخْتِيَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبٍ
فَلَمْ تُرْنِي الْأَيَّامُ خِلًّا تُسْرُنِي مَبَادِيهِ إِلَّا سَاءَنِي فِي الْعَوَاقِبِ
وَلَا قُلْتُ أَرْجُوهُ لِدَفْعِ مُلِمَّةٍ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا كَانَ إِحْدَى الْمَصَائِبِ^(١)

وإذا كان شاعرنا قد زهد في وجود الصاحب الحقيقي، والخلّ
الوفاي، فإن هذا الشاعر الآخر أضاف الخل الوفاي إلى المستحيلين،
وإلى الشيئين الخرافيين الغول والعنقاء، فجعل المستحيل ثلاثة
أشياء، وهي كالتالي:

(١) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي ١/١٥٢.

لما رأيتُ بني الزمان وما بهم خلٌّ وفيّ للشدائد أصطفي
فعلمت أن المستحيلَ ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفي
وأولى علاماتِ نقض الوفاء، تبدلُ الهجرِ بالوصل، وسيطرةُ
الجفاء على القلب، الذي يأبى إلا أن يظهر على ملامح الوجه،
فيشعر الإنسان أن الوجهَ ما عاد كعهده، وأن نظرة العين ما عادت
تلك النظرة التي كانت في سالف الزمان، كما قال الشاعر:

وكنْتُ إذا ما جئتُ أدنيتَ مجلسي ووجهُك من ماء البشاشة يقطرُ
فمن لي بالعين التي كنتَ مرّةً إليّ بها في سالف الدهر تنظرُ^(١)
فالقلوب تقلّبت، والوداد زال، وانتقل الإنسان من حال إلى
حال، مع أن الأساس في الوداد أنه ثابتٌ ثبوتَ الجبال، قال
الشاعر:

وكنْتُ أظن أن جبالَ رضوى تزولُ وأنّ ودك لا يزولُ
ولكنّ القلوبَ لها انقلابٌ وحالاتُ ابنِ آدم تستحيلُ
ومع ذلك على الإنسان أن يعلم أنّ الأوفياء كُثُرٌ، ولكنّ العثورَ
عليهم صعبٌ، فإذا طُعنَت بسيف الغدر مرة، فهذا لا يعني أن تُطعن
به كلّ مرة، وإذا لم تجد اليومَ الوفاءَ متمثلاً في شخصٍ ما، فستجده
ولو بعد حين، كما قال ابنُ أبي الدنيا:

إذا المرءُ لم ينصف أخاه ولم يكن له غائباً يوماً كما هو شاهدٌ

(١) نسيم الصبا، ابن حبيب الحلبي، باب في الفراق ١٦/١.

فلا خير فيه فالتمس غيره أخاً كريماً على فضل الكريم يُعاهد^(١)
وقد تلاحظ التغيير، وزوال الود من إنسانٍ لم تذب معه،
ولم تسئ إليه قط، وما قابلته الوفاء إلا بالمثل، فتتملكك الحيرة،
ويناجيك التعجب، وتكثر علامات الاستفهام: ما السبب؟
وما السرُّ؟!.. أقولُ في تعليل الجواب: لعل هذا الصاحب كان
ضحيةً من ضحايا النميمة الذميمة، أو سوء الظن الممقوت، فقل له
بلطف كما قال الشاعر:

أناسٌ أعرضوا عنّا بلا ذنبٍ ولا معنى
أسأؤوا ظنّهم فينا فهَلّا أحسنوا الظننا
فإن عادوا لنا عُدنا وإن خانوا فما حُنّا
وإن كانوا قد استغنوا فإنّا عنهم أغنى
والوفىُّ يبقى وفياً، وإن ساء الظنُّ، وتقلبتِ القلوبُ، وفشتِ
النيمة، فله درّ من قال:

اللّه يعلم والدينا مولىً والعيشُ متنقلٌ والدهرُ ذو دُولٍ
لأنت عندي وإن ساءت ظنونك بي أحلى من الأمن عند الخائفِ الوجِلِ
ختاماً - قالوا: إن الوفاء لا يتجزأ، فليس من الممكن أن
يكون الإنسان نصفَ وفىٍّ ونصفَ خائنٍ!!... ولكن، ليت
شعري!! ألا ترى معي أن الوفاء تجزأ في أيامنا، وتقطع إرباً
إرباً!!، ومع ذلك كلما قطع حبلَ الوفاء شخصٌ ما وصله شخصٌ

(١) تزيين الأسواق في أخبار العشاق، داود الأنطاكي ٢٠١/١.

آخرُ، ليبقى الوفاءً متصلاً، رغم خيانة الخائنين، وغدر
الغادرين... وليكن شعارك:

وأنا المقيم على محبتهم وإن حفظوا عهودي في الهوى أوضيَعوا





دَعُوها نائِمةً...

نعم دعوها نائمةً، سادرةً في أحلامها وغيها، وذاهبةً في سباتٍ عميقٍ...

دعوها نائمةً كما نام أصحابُ الكهف ثلاثمائةٍ سنينَ وازدادوا تسعاً... بل تبقى نائمةً أبد الأباد ومدى الدهور والأزمان...

دعوها نائمةً لأنها متى استيقظت فإننا سوف نرى الدماء تسيل، والأشلاء متناثرة، والعيون تبكي، والقلوب تنفطر حزناً وأسى... لا توقظوها ففي نومها أمانٌ للعباد، وطمأنينةٌ للنفس، وراحةٌ للبال، وحبور يرتسم على الشفاه والوجوه...

دعوها نائمةً لأن من يوقظها فسوف تحل عليه لعنةُ الله في السماء، ولعنة العباد على الأرض، ولعن الملائكة والناس أجمعين.

دعوها نائمةً لأنها متى استيقظت فلا تستطيع أن تستسلم جفونهاً للكرى بسهولة ويسر، بل تتقلب على فراشها ذات اليمين وذات الشمال، وكلبٌ حقدتها باسط ذراعيه هنا وهناك في الأذى وترويع الناس وسفك الدماء! فلا يغمض لها جفنٌ، ولا تنام من جديد إلا إذا أغمضت للأبرياء أجفاناً لا تُفتح إلى يوم القيامة!!

دعوها نائمة، حتى ننام آمين في سربنا، معافين في أجسادنا،

ننعم بنعم الله علينا... ولعلك - أيها القارئ الكريم - إلى الآن تتساءل:

من هذه الحمقاء القبيحة التي تريدنا أن ندعها نائمة؟! ولم كل هذا التحذير من استيقاظها؟ ولعلك تبالغ في وصفها بكل هذه النعوت والأوصاف...؟

فأقول: إن هذه القبيحة هي الفتنة النائمة التي لعن الله من أيقظها...

هي الفتنة التي إذا سرت فإنها تسري بين الناس كما تسري النار في الهشيم بلا أدنى هوادة، ولا أقل تودة...

هي الفتنة التي لا تفرق بين إنسان وآخر، فتخبط خبط عشواء، وتدقُّ عطرَ مَنْشَم، حتى يصل الناس إلى حالة لا يدري القاتل فيم قتلَ ولا المقتولُ فيم قُتِلَ؟

هي الفتنة يا صاحبي التي لها دعاةٌ على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.

إنها الفتنة التي لها قوم كلما رُدوا إلى الفتنة أركسوا فيها، والتي وصفها الله جل ذكره أيضاً بأنها أشدُّ من القتل...

إنها الفتنة التي تحدَّث الله عن أصحابها بقوله: ﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨).

وقال الله عنهم: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩).

هي الفتنة الهوجاء التي تذر الحلیم حيرانَ، والعاقل متأملاً،
وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن أمر الفتنة عظيم،
وخطبها ومصابها جلل... .

وأخيراً: إن الفتنة العمياء هي التي تخلف دموعَ باكيةٍ، ونوحَ
ثكلى، وعويلَ محزونٍ، وشقاءَ يتيم، ونحيبَ أرملة... .

ولكي لا أطيل أختم بالدعاء التالي لي ولجميع القراء الكرام:
اللَّهُمَّ قنا فتنة المحيا والممات، وقنا من مضلات الفتن
ما أحييتنا، إنك سميع قريب.





دُمُوعُ الْقَوَائِي فِي عُيُونِ الْمَرَاثِي

كلُّ واحد منا في هذه الحياة الدنيا قد تجرَّع كأس الفراق،
وذاق علقم الفقد، ولوعة الوداع، وسكب دموعَ القلوب قبل
العيون... .

وكلُّ واحد منا فقد أمًّا رؤوماً، أو أباً عطوفاً، أو أخاً شقيقاً،
أو زوجاً حنوناً أو صديقاً حميماً مخلصاً... .

والإنسان عندما يودِّع مسافراً فإنه يعيش على أمل اللقاء به
ولو بعد حين.

وأما عندما يودِّع إنساناً تحت أطباق الثرى، فإنه لا أمل له في
لقائه بهذه الدنيا، وتراه يكرر مع الشاعر قوله:

وما الدهرُ إلا جامعٌ ومفرِّقٌ وما الناسُ إلا راحلٌ ومودِّعٌ
فإن نحنُ عشنا يجمع الله شملنا وإن نحن متنا فالقيامة تجمعُ

نعم كأسُ الفراق مر، ولكن هذه هي الدنيا، مهما عمَّر الإنسان
فيها فمصيره إلى التراب، ومفارقة الأهل والأصحاب والأحباب.

ساعة الفراق، كلُّ يعبر عما يجيش في نفسه بطريقته، فهذا
بالنحيب، وذاك بالبكاء والدموع، وغيره بالعويل، والآخر بالصبر
والسُّلوان... .

أما الشعراء فتتحول دموعهم إلى مرآةٍ حزينَةٍ، حروفُها
الأحزانُ، وسيفُها قلبٌ مُضني، وقافيتها اللوعة والأسى، وبحرُها
من فيضانات العبرات . . .

وأجملُ ما في الشعر في تلك اللحظة رقته وعذوبته، وصدقه
وعاطفته .

وفي هذه العجالة سنمخر مع الشعراء بحورَ أحزانهم، متأملين في
بعض المراثي التي أصبحت خالدة ما دامت هناك ماقي تسكب دموعها .
وسنرى أن بعض الشعراء رثى نبياً أو أمّاً أو أباً أو أختاً أو
ولداً أو زوجة أو صديقاً وفياتاً أو ملكاً محبباً إلى القلوب . . .

- ونبدأ بسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فله قصيدة في رثاء
النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أول من رثاه يقول فيها:

لما رأيتُ نبينا متجنّداً ضاقت عليّ بعرضهن الدور
فارتاع قلبي عند ذاك لموته والعظم مني ما حيتُ كسير
أعتيقُ ويحك إنَّ خلك قد ثوى والصبر عندك ما بقيتَ يسير
يا ليتني من قبل مهلك صاحبي غُيبت في لحد عليه صخور^(١)

وكذلك سيدنا حسانُ بن ثابت رضي الله عنه، له دالية رائعة في رثاء
النبي يقول في مطلعها:

بطيبة رسمٍ للرسول ومعهدهُ منير وقد تعفو الرسوم وتهمد^(٢)

(١) السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، ط ١، عام ١٤٢٤هـ/
٢٠٠٣م، دار الفجر ٧٠٩/٢.

(٢) حسان بن ثابت، حياته، شعره، إصدار دار كرم، بدمشق، ص ٥٤.

وأخرى مطلعها:

ما بال عينك لا تنام كأنما كُحلت مآقيها بكحل الأرمد^(١)
وممن رثى النبيّ أيضاً: أبو سفيان، وصفية بنت عبد المطلب
وغيرهم.

- ومن الشعراء من رثى أمّه، فإنّ فقد الأم لا يعوض كما هو
معلوم، وها هو الشريف الرضي يرثي أمه بقصيدة مشهورة، تمنى أن
يكون فيها فداءً لأمه، ولكنّ، هيهات!! فلكلّ يومه وأجله، يقول:

أبكيك لو نقع الغليل بكائي وأقول لو ذهب المقال بدائي
وأعوذ بالصبر الجميل تعزياً لو كان بالصبر الجميل عزائي
قد كنت أمل أن أكون لك الفدا مما ألمّ فكنت أنت فدائي

ورهبين المحبسين أبو العلاء المعري، (أول ما قال الشعر،
قاله في رثاء أبيه، الذي توفي وهو لم يزل فتى، وعجب سامعوه
منه، واندهشوا لتلك المقدره التي ألقى بها كلماته على صغر سنه،
ومما يقول في هذه المناسبة مخاطباً والدّه:

فليتك في جفني موارى نزاها بتلك السجايا عن حشاي وعن ضبني
ولو حفروا في درة ما رضيتها لجسمك إبقاء عليه من الدفن^(٢)

ومن جميل ما قرأت، قصيدة للحصري القيرواني (يرثي أباه
وقد ودّع قبره، وقت جوازه إلى الأندلس منها:

(١) حسان بن ثابت، حياته، شعره، ص ٥٧.

(٢) أبو العلاء المعري، حياته، شعره، إعداد: سمير الصارم، إصدار دار
كرم، بدمشق، ص ٤٥.

أبي نَيْرُ الأيامِ بعدك أظلما وبنيانُ مجدي يومٍ مت تهديما
وجسمي الذي أبلاه فقدك إن أكن رحلت به فالقلب عندك خيما^(١)

- وكما أن لكل شيء أماً، فإن هناك أمّاً للمراثي، وهي
مرثية متمم بن نُويرة التي رثى فيها أخاه مالكا، وما سميت بأمر
المراثي، إلا لروعتها، واحتوائها على عظيم المعاني والصفات،
وقد ذكرها أبو زيد القرشي في جمهرته في الجزء الأول، وقد
اخترت منها هذه الأبيات، بعدما وقعت في حيرة عندما أردت
الاختيار:

لَعَمْرِي وما دَهْرِي بتأبين هالكٍ ولا جَزَعاً ممّا أَلَمَّ فأوْجَعَا
لقد غَيَّبَ المِنْهَالُ تحتِ رِداءه فتنِّي غيرَ مبْطَانِ العَشِيَّاتِ أروعا
وما كان وَقَافاً إذا الحَيْلُ أَحْجَمَت ولا طالباً من حَشِيَّةِ المَوْتِ مَفْزَعَا
وأني متى ما أَدْعُ باسمك لم تُجِب وكُنْتُ حَرِيّاً أن تُجيب وتسمعا
تَحِيَّتَه مَنِّي وإن كان نائياً وأمسى تُراباً فوقه الأرضُ بَلْقَعَا
فإن تَكُنِ الأيامُ فَرَقْنَ بَيْنَنَا فَقَدَ بانَ مَحْموداً أَخِي حينَ ودَّعَا
وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جَدِيمَةَ حِقْبَةٍ من الدَّهْرِ حتى قِيلَ لَن يَتَصَدَّعَا
فلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأني ومالكا لِطولِ اجْتِمَاعِ لَمْ نَبِتْ ليلَةً معا

- فهذا أخ رثى أخاه، وهناك من الشواعر من رثت أخاها،
وتبادر الخساء على الفور إلى أذهاننا، وهي التي دبجت في أخيها
صخرٍ أروع قصائد الرثاء، منها البائية التي مطلعها:

(١) في الشعر الغربي الأندلسي والمغربي، د. علي دياب، منشورات جامعة
دمشق، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ٤٠١.

يا عين مالك لا تبكين تسكابا إذ راب دهرٌ وكان الدهر ريباً^(١)

ومنها الرائية المشهورة التي منها:

وإنَّ صخرًا لوالينا وسيدنا وإنَّ صخرًا إذا نشتو لنحار
وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار^(٢)

- وعندما يودع شاعرٌ ولده، وفلذة كبده تحت أطباق الثرى، فإن قلبه يكاد ينفطر، والحزن والكمد يزداد في الفؤاد، فكيف إذا كانت وفاة الولد في يوم عيد؟؟ فهذا الشاعر مات ولده في يوم العيد، فقال فيه مرثية، تبكي العيون، وتثير الشجون، منها:

أيسرني عيدٌ ولم أرَ وجهه فيه ألا بعداً لذلك عيداً
من لم يمت جزعاً لفقد حبيبه فهو الخؤونُ مودةً وعهوداً
مت مع حبيبك إن قدرت ولا تعش من بعده ذا لوعةٍ مكموداً
حزني عليك بقدر حبك لا أرى يوماً على هذا وذاك مزيداً
ما هدني مرُّ السنين وإنما أصبحتُ بعدك بالأسى مهدوداً
يا ليت أني لم أكن لك والداً وكذلك إنك لم تكن مولوداً
من ذم جفنًا باخلاً بدموعه فعليك جفني لم يزل محموداً
فلأنظمن مراثياً مشهورة تنسي الأنام كُثيراً ولبيداً
وجميعُ من نظم القريضَ مفارقٌ ولدًا له أو صاحباً مفقوداً^(٣)

(١) ديوان الخنساء إصدار: دار كرم بدمشق، ص ١٩.

(٢) ديوان الخنساء، ص ٤٤ - ٤٥.

(٣) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبهسي، ط ٣، دار صادر، ص ٦٨٧.

فهل تأملت في روعة هذا الكلام؟؟

وكلما ذكر أن شاعراً رثى ولده، تُذكر قصيدة ابن الرومي التي

يقول فيها:

أريحانة العينين والأنف والحشا ألا ليت شعري هل تغيرت عن عهدي؟؟
الأم لما أبدي عليك من الأسى وإني لأخفي منك أضعاف ما أبدي

وقد يرثي الإنسان ابنته، فعندما ماتت ابنتي تسنيم، وكانت

صغيرة رثيتها بقصيدة منها:

تداعب الجفنَ أطيافٌ لتسنيم وتُشعل الشوقَ هبَّاتُ التناسيم
وعبرتي في حنايا العين قد حُبست ممزوجة برضى مني وتسليم^(١)

- وقليل من الشعراء من رثى زوجته، ومع القلة فإن من أفضل

القصائد في رثاء الزوجة قصيدة جرير التي قالها في رثاء زوجته
أمّ حزره، والقصيدة كلها رائعة، ولكن أقتطف لك منها:

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ ولزرتُ قبركُ والحبيبُ يزارُ
ولقد نظرتُ وما تمتعُ نظرةً في اللحدِ حيثُ تمكنَ الحفارُ
كانتُ مكرمةَ العشيرِ ولم يكنُ يخشى غوائلَ أمّ حزره جارُ
ولقد أراكِ كسيتِ أجملَ منظرٍ ومعَ الجمالِ سكينهٌ ووقارُ
والريحُ طيبةٌ إذا استقبلتها والعرضُ لا دنسٌ ولا خوارُ
صلى الملائكةُ الذينَ تخيروا والصالحونَ عليكِ والأبرارُ

(١) ديوان: صور من مأساتنا، مصطفى قاسم عباس، ط١، ١٤٢٦هـ/

٢٠٠٥م، مطبعة اليمامة، ص٩٩.

وعليك من صلوات ربك كلما نصب الحجيح ملبدين وغاروا
لا يلبثُ القرناء أن يتفرقوا ليلٌ يكرُّ عليهم ونهارٌ^(١)
وفي العصر الحديث، رثى الشاعر محمود سامي البارودي
زوجته بقصيدة رائعة أيضاً، وهي مشهورة، وكان مما قال فيها:
يا دهرُ فيم فجعتني بحليلة؟؟ كانت خلاصة عُدتي وعتادي
إن أنت لم ترحم أساي لبعدها أفلا رحمت من الأسى أولادي
تالله ما جفت دموعي بعدما ذهب الردى بك يا ابنة الأمجاد
والقصيدة تحمل في طياتها الكثير من المعاني الصادقة،
والكلمات الكئيبة، وعبرات الوفاء.

- ومن قصائد الرثاء، ما قيل في رثاء ملك أو زعيم أو ذي
مكانة مرموقة، وقد رأينا من الشعراء من أجاد في هذا النوع، وإن
كانت المبالغة تطغى على كثير من أمثال هذه القصائد، لكن جمال
التصوير، ورقة الألفاظ وانسيابيتها، قد تشفع للشاعر، فتأمل معي
في هذه القصيدة التي قالها أبو الحسن الأنباري في محمد بن بقية
وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة ابن بويه لما صلبه عضد الدولة
ابن ركن الدولة ابن بويه عند خلع بختيار، وهي من نوادر المراثي
ويقول فيها:

علوُّ في الحياة وفي الممات لحقُّ أنت إحدى المعجزات
كأن الناسَ حولك حين قاموا وفودٌ نذاك أيام الصّلات

(١) جرير، حياته شعره، إعداد ضحى عبد العزيز، إصدار: دار كرم،
بدمشق، ص ٤٧ - ٤٨.

كأنك قائمٌ فيهم خطيباً
 مددت يديك نحوهم احتفاءً
 ولما ضاق بطنُ الأرض عن أنْ
 أصاروا الجوَّ قبرك واستنابوا
 لعظمتك في النفوس بقيت تُرعى
 وتشعل عندك النيران ليلاً
 ولم أر قبلَ جذعك قط جذعاً
 ركبت مطيةً من قبلُ زيدُ
 ومن درر المرثي، مرثيةٌ قيلت في معن بن زائدة، قالها
 الحسين بن مطير الأسدي ومنها:
 هلما إلى معن وقولا لقبره
 فيا قبرَ معن كنتَ أولَ حفرة
 ويا قبر معن كيف وارىت جوده
 بلى قد وسعتَ الجودَ والجودُ ميت
 فتىّ عاش في معرفه بعد موته
 ولما مضى معن مضى الجودُ كلُّه
 فقلّهُ در الشاعر!! كيف جدع أنف المكارم بموت معن؟.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب المؤلف: النويري، باب في المرثي والنوادر ١٠٥/٢.

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبهسي، ص ٦٨٨.

ولا ننسى في هذا المضممار قصيدة لابن رشيق القيرواني يرثي المعز مطلعها:

لكل حي وإن طال المدى هُلك لا عز مملكة يبقى ولا ملك^(١)
والشاعر سعيد بن جودي يرثي الغالب بن حسن بأبيات أجاد فيها، وخاصة عندما يقول:

فيا عجباً للقبر كيف يضمه؟؟! وقد كان سهل الأرض يخشاه والوعرُ
وما مات ذلك الماجد القرْمُ وحده بل الجودُ والإقدام والبأس والصبر^(٢)
- وقد يرثي الشاعر نفسه ويكيها قبل موته، وقد (قال ابن قتيبة:
بلغني أن أول من بكى على نفسه وذكر الموت في شعره يزيد بن
خَذاق، فقال:

هل للفتى من بنات الدهر من وَاقي هَلْ للفتى من بنات الدهر من وَاقي
قد رَجَلوني وما بالشَّعر من شَعَثٍ وَأَلْبَسوني ثِيَاباً غيرَ أَخلاق
وطَيَّبوني وقالوا أيما رَجُلٍ وَأَدْرَجوني كأني طَيِّ مَخْرَاق
وأرسلوا فِتْيَةً من خَيْرِهِمْ حَسَباً لِيُسْنِدُوا في ضَرِيحِ القَبْرِ أَطْبَاقِي
وقسموا المال وارفَضت عوائِدُهُم وقال قائلُهُم مات ابن خَذاق
هَوْنٌ عليك ولا تُولَع بِإشفاق فَإِنما مالنا للوارث الباقي^(٣)

(١) في الشعر الغربي الأندلسي والمغربي، د. علي دياب، منشورات جامعة دمشق، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ٣٩١.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٠.

(٣) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، باب وصف قبره وما يكتب على القبر ٣٤٦/١، والقصيدة موجودة في الشعر والشعراء للدينوري والمفضليات للضبي وغيرها من أمهات الكتب.

ومنهم مالك بن الريب الذي (رثى نفسه بقصيدة مطلعها :

ألا ليت شعري هل أبیتن ليلةً
بجنب الغضى أزجي القلاصَ النواجيا
وتبدأ الأبيات المؤثرة بقوله :

تقول ابنتي، لما رأَت طولَ رحلتي
تذكرتُ من يبكي عليّ فلم أجد
فيا صاحبي رحلي، دنا الموتُ فانزلا
أقيما عليّ اليوم أو بعض ليلةٍ
وقوما، إذا ما استل روحِي، فهيتُنا
وخطًا بأطراف الأسنه مضجعي
ولا تحسداني، بارك الله فيكما،
خذاني فجرّاني ببردي إليكما
سفارك هذا تاركي لا أبا ليا
سوى السيفِ والرمح الرديني باكيا
برابيةٍ، إني مقيمٌ لياليا
ولا تعجلاني، قد تبين شانيا
لي السدرَ والأكفانَ عند فنائيا
ورُدّا على عينيّ فضل ردائيا
من الأرض ذات العرض أن توسعاليا
فقد كان قبل اليوم صعباً قياديا)^(١)

- وبما أننا نتحدث عن الرثاء، لا بد أن نتذكر رثاءً من نوع
آخر، هو رثاء الممالك والمدن الزائلة، وقد كثر هذا اللون من الرثاء
في الأندلس، وكلنا يتذكر قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس
التي منها :

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ
هي الأمور كما شاهدتها دولُ
وهذه الدار لا تبقي على أحد
فجاءعُ الدهر أنواعٌ منوعة
فلا يُغرّ بطيب العيش إنسان
من سره زمنٌ ساءته أزمان
ولا يدوم على حال لها شان
وللزمان مسراتٌ وأحزانُ

(١) إطلالة على التراث، عبد العزيز الخويطر ج١٦، ط١، ١٤١٨هـ/
١٩٩٧م، ص٤٤٨ - ٤٥٠ بتصرف.

وللحوادث سُلوَانٌ يسهلها وما لِمَا حلَّ بالإسلام سلوان
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان^(١)
وهكذا كنا في جولة سريعة، مع أب مفجوع، وأم ثكلى،
وأخت نائحة، وولد يبكي، وعين تهمي، ورأينا كيف أن الأحزان
جعلت قرائح الشعراء تتفجر بأعذب المراثي التي خلدها الزمان،
وسيبقى هناك رثاء ما دام هناك فراق ووداع.



(١) في الشعر الغربي الأندلسي والمغربي، د. علي دياب، ص ٣١٠ - ٣١٢.



دينُ الإسلامِ بريءٌ من التطرُّفِ والإرهابِ^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد وعلى إله وصحبه أجمعين.
أيها الأخوات والإخوة: أيها السيدات والسادة الحضور الكرام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد:

لقد كثر الحديث في زماننا عن التطرف والإرهاب، وقتل الأبرياء وسفك الدماء، وحصل لبس عند بعض الناس بين العمليات الانتحارية والعمليات الاستشهادية، وظهرت تياراتٌ فكرية تكفيرية معاصرة، وبعضهم أطلق على نفسه مسمياتٍ يُذكر فيها اسمُ الإسلام، فأدخل الإسلامَ في قفص الاتهام، والإسلام كما تعلمون بريء من هذه المسميات وتفكير أصحابها؛ لأنه دين المحبة والسلام.

وفي هذه العجالة لا بد أن نضع بعض النقاط على الحروف، لمعالجة بعض الإشكاليات التي قد يتعرض لها المرء.

(١) محاضرة ألقيتها في بعض المراكز الثقافية، ومنها في المركز الثقافي في حماة).

فأقول وبالله التوفيق :

الإرهاب لغة كما في لسان العرب: (رهب) رَهَبَ بالكسر يَرْهَبُ رَهْبَةً ورُهْباً ورَهَباً؛ أي: خاف ورَهَبَ الشيءَ رَهْباً ورَهَباً ورَهْبَةً خافه، وأرهبه ورهبه واسترهبه؛ أي: أخافه وفرّعه.

وأما اصطلاحاً فالإرهاب: كما في تعريف المجمع الفقهي الإسلامي: (هو العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دولٌ بغياً على الإنسان في دينه، أو دمه أو عرضه أو عقله، أو ماله، ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد، والقتلِ بغير حق، وإخافة السبيل، وقطع الطريق، وكلّ فعلٍ من أفعال العنف أو التهديد، تنفيذاً لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بإيذائهم أو تعريض حياتهم أو حرّيتهم أو أمنهم للخطر، ومن صنوفه: إلحاق الضرر بالبيئة، أو بأحد المرافق والأماكن العامة أو الخاصة، فكل هذا من صور الفساد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِسِينَ﴾ [القصص: ٦٦]. والإرهاب بغّي بغير حق، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وتعريف مجلسي وزراء الداخلية والعدل العرب للإرهاب قريبٌ من هذا التعريف. من كتاب: الإرهاب والعنف والتطرف في ميزان الشرع، تأليف: محمد علي إبراهيم.

وفي المعجم الوسيط: (الإرهابيون) وصف يطلق على الذين

يسلكون سبيل العنف والإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية.

أما التطرف فهو لغة كما في لسان العرب: تَطَرَّفَ الشيءُ صار طرفاً.

واصطلاحاً: هو الغلو؛ والغلو كما عرّفه الحافظ ابن حجر رَضِيَ اللهُ فِي كتابه القيم فتح الباري: «المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد».

وأما التكفير فهو «ظاهرة استشرت في مجتمعنا العربي والإسلامي والمجتمع الأوروبي كذلك، فأسقطت عصمة المسلمين واستباححت دماءهم وأموالهم، وإن هذه الفتنة العظيمة - فتنة التكفير - التي مزقت جسد الأمة الإسلامية هي أول الفتن ظهوراً في الإسلام فهي منبع لكثير من الانحرافات العقائدية والسلوكية والخلقية والنفسية التي عانت منها الأمة المسلمة على مدى أربعة عشر قرناً. كتاب (التكفير مفهومه وأخطاره وضوابطها؛ إعداد: أحمد محمد بوقرين)

فالفرق الضالة التكفيرية ليست وليدة هذا العصر، بل هي كثيرة وموجودة منذ القدم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١ - الخوارج: وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عام (٣٧هـ)، وهم أول من فارق جماعة المسلمين، وقالوا بتكفير سيدنا عثمان وسيدنا علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ويقدمون ذلك على كل طاعة، ويكفرون أصحاب الكبائر، ويعتبرون مرتكب الكبيرة مخلداً في النار إذا مات مصرّاً عليها، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقاً وواجباً، وينقسمون إلى عدة فرق، وقد ورد في ذمهم

والترغيب في قتالهم أحاديثٌ صحيحةٌ مرفوعة، منها ما رواه النسائي والبيهقي وابن حبان وغيرهم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يخرج قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وعملكم مع عملهم» أي: أن صلاتهم طويلةٌ وفيها خشوع ودموع، فصلاتهم في ظاهرها خير من صلاتنا، وكذلك صيامهم وعملهم، لكن عقيدتهم فاسدة، وما نفع العمل مع فساد العقيدة؟!؟! يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية»، وقد اختلفوا على نحو عشرين فرقة، ومن أسمائهم أيضا الحرورية. ومن الفرق الضالة أيضا المعتزلة وغيرهم.

٢ - والمعتزلة أيضاً: وسموا بذلك لاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد - من رؤسائهم - مجلس الحسن البصري لقولهما بأن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، وقيل: سموا معتزلة لاعتزالهم منهج أهل السنة والجماعة، ومن عقائدهم إنكار جميع صفات الله، والقول بأن القرآن محدث، وأن الله لا يرى في الآخرة، وتصل فرقهم إلى حوالي عشرين فرقة، انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٢٣٥)، الفرق بين الفرق (ص ١١)، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان (ص ٤٩) . . . تلبس إبليس (ص ٩)، والملل والنحل (١/ ١١٤) و(البدع الحولية إعداد عبد الله بن عبد العزيز بن أحمد التويجري) (أشراط الساعة المؤلف: عبد الله بن سليمان الغفيلي).

- وإدراكاً من الإسلام لخطورة عملية التكفير، فقد دعا إلى

احترام هوية كل من يتشهد الشهادتين، وجعله مسلماً، ويجب عدم التشكيك بإسلام من يعلن إسلامه حتى في ساحات القتال وتحت بريق السيوف، حيث قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤].

(التكفير؛ مفهومه وأخطاره، وضوابطه إعداد: أحمد محمد بوقرين) بتصرف.

وسبب نزول هذه الآية كما ذكر ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية، فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح فقال: أشهد أن لا إله إلا الله. وأهوى إليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله؟ والله لأذكرن ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم. فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله، إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد. فقال: «ادعوا لي المقداد. يا مقداد، أقتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله، فكيف لك بلا إله إلا الله غداً؟». قال: فأنزل الله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنْ أَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فَتَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤]، ومثل ذلك حصل مع سيدنا أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما فقد قال كما روى البخاري ومسلم وغيرهما: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم

إِلَى الْحُرْقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ - قَالَ - فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ - قَالَ -
وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ - قَالَ - فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - قَالَ - فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنَتْهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ
- قَالَ - فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: فَقَالَ لِي: «يَا أُسَامَةُ
أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَ
مُتَعَوِّذًا. قَالَ: «أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». قَالَ: فَمَا زَالَ
يُكْرِرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسَلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.
البخاري ومسلم.

وعندما حدثت الفتنة الأولى بين المسلمين ونشبت بينهم
الحروب، رفض سيدنا علي رضي الله عنه أن يتهم خصومه بالكفر والنفاق
وقال: كما نقل ابن كثير في البداية والنهاية (إخواننا بعوا علينا).

ومع ذلك فإن الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً لم تسلم من داء
التكفير، وقد تعرّض الإمام علي رضي الله عنه نفسه إلى عملية التكفير من قبل
الخوارج الذين رفضوا التحكيم بين سيدنا علي وسيدنا معاوية رضي الله
وبالرغم من أن مأخذهم لم يكن يتعدى الاجتهاد السياسي إلا أنهم
أضفوا عليه صفة الكفر والإيمان، وذهبوا إلى حد شق وحدة الأمة
المسلمة، وإعلان الحرب على المسلمين. (التكفير؛ مفهومه
وأخطاره وضوابطها، إعداد أحمد محمد بوقرين).

- ومن أسباب التكفير أن النبي ﷺ قد يستخدم أحيانا عبارة:
(فقد كفر) لِلْمُبَالِغَةِ فِي الزَّجْرِ وَالتَّغْلِيظِ، فيحملها بعض من لا علم
عنده، على التكفير الصريح، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

ما أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ «عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالْكَعْبَةَ، فَقَالَ: لَا تَحْلِفْ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ» قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ، وَالتَّعْبِيرُ بِقَوْلِهِ: فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الرَّجْرِ وَالتَّغْلِيظِ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ تَمَسَّكَ بِهِ مَنْ قَالَ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ. كَمَا قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجْرٍ فِي فَتْحِ الْبَارِي.

أَيُّهَا الْأَخَوَاتُ وَالْإِخْوَةُ:

إِنَّ التَّطَرُّفَ الَّذِي عَرَّفْنَاهُ قَبْلَ قَلِيلٍ هُوَ الَّذِي يُوْدِي إِلَى التَّكْفِيرِ، وَالتَّكْفِيرُ أَيْضًا بَدْوْرُهُ هُوَ الَّذِي يُوْدِي إِلَى الْإِرْهَابِ، وَاسْتِبَاحَةِ الدَّمَاءِ وَقَتْلِ الْأَبْرِيَاءِ.

وَإِنَّ دِينَنَا الْحَنِيفَ يَنْهَانَا عَنِ التَّطَرُّفِ وَالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ، فَاللَّهُ ﷻ جَعَلَنَا أُمَّةً وَسَطًا مَعْتَدِلَةً لَا أُمَّةَ مَطْرَفَةً، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

نَعَمْ جَعَلَنَا أُمَّةً وَسَطًا مَعْتَدِلَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، ففِي الطَّعَامِ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وَفِي الْإِنْفَاقِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]

بَلِ الْوَسْطِيَّةُ وَالْإِعْتِدَالُ فِي صِلْبِ الْعِبَادَةِ أَيْضًا، فَقَدْ جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ

مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» رواه البخاري.

وقد نبهنا النبي ﷺ أن الغلو في الدين أهلك كثيراً ممن كان قبلنا ونهانا عن الغلو في الدين عندما قال كما روى الإمام أحمد في مسنده: «وإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ».

وقال أيضاً: ألا هلك المتنطعون ثلاث مرات وهم المتكلفون الغالون المتشددون (مسلم، وأبو داود عن ابن مسعود).

ديننا ينهى عن الإساءة للإنسان بكل أشكالها، فالغيبة على سبيل المثال - وهي ذكرك أخاك بما يكره - محرمة عندنا، ذكره فقط محرم، بل بكلمة يقولها الإنسان في أخيه قد يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً، فما بالك باللعن واللعن والشتم والضرب والقتل؟

حتى الذي كان يشرب الخمر في عهد النبي ﷺ، بعدما جلد قال رجل من القوم: اللَّهُمَّ العنه، ما أكثر ما يؤتى به (أي: وهو شارب للخمر) فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله». رواه البخاري في الصحيح عن ابن بكير.

وكذلك عندما أتى اليهود إلى النبي ﷺ وقالوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ

«والسام تعني الموت». فقال: «وعليكم»، قالت السيدة عائشة فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ. فَقَالَ لَهَا: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ، وَإِيَّاكَ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ». قَالَتْ: أَوْلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «أَوْلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ» البخاري باب: لم يكن النبي فاحشاً.

فديننا دين الوسطية والرفافة والرحمة والشفقة، ونبينا نبي الرحمة والشفقة.

أيها الأخوات والإخوة:

لقد خلط بعض الناس بين العملية الانتحارية والعملية الاستشهادية.

فالعلمية تكون انتحارية إجرامية جبانة، عندما تكون في بلاد المسلمين وأهل الكتاب والذمة أو في بلاد المعاهدين فنبينا ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يُرَحَّ رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً» البخاري: باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم.

والذي يقوم بالعملية الانتحارية، بدايةً ارتكب ذنباً عظيماً هو الانتحارُ نفسه؛ لأن هذه النفس ليست ملكاً للإنسان حتى ينحرها، بل هي أمانة ووديعة يجب عليه المحافظة عليها من كل ما يسيء إليها، وها هو النبي ﷺ يقول: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِداً مُخَلِّداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ تَحَسَّى سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسَمُّهُ فِي يَدِهِ، يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلِّداً فِيهَا

أَبْدَاءَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» رواه البخاري .

والذي يقوم بالعملية الانتحارية بالإضافة إلى قتله نفسه، فهو قاتل لغيره أيضاً، والله ﷻ يقول في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] .

ويقول في سورة المائدة: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] .

ويقول في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨] .

وتأمل معي في هذا المشهد يوم القيامة كيف يصور القاتل والمقتول، روى الإمام احمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ثكلته أمه رجل قتل رجلاً متعمداً يجيء يوم القيامة آخذاً قاتله بيمينه أو بيساره وآخذاً رأسه بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه دماً؛ (أي: تسيل) في قِبَلِ العرش يقول: يا رب سَلْ عبدك فيم قتلني (أحمد عن ابن عباس).

الحديث كله يستوقف الإنسان متأملاً في هذا المشهد، وتبقى إشارة الاستفهام مرتسمة على الوجه عندما نقرأ تلك العبارة: يا رب سَلْ عبدك فيم قتلني؟؟

ثم يأتينا حديث صحيح للنبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه: «والذي نفسي بيده

لا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يُدْرِي الْقَاتِلُ فِيْمَ قَتَلَ
ولا الْمَقْتُولُ فِيْمَ قُتِلَ» .

لنرى من هذا الحديث أن القاتل لا يدري لماذا قتل الأبرياء
وسفك دماءهم، بل ربما يظن أنه بجريمته قدم خيراً إلى الإنسانية
جمعاء، ويظن أن الجنة قد فتحت أبوابها له، أو بصورة أخرى هكذا
زين له من زج به في هذه الجريمة النكراء، حيث جعلوه متطرفاً، ثم
مكفراً، ثم قاتلاً! وربما كفروا المقتول قبل قتله.

وبينما هو يمشي بأمان فإذا به في عداد الموتى، ولا يدري
لماذا قتل أيضاً، وكأن هذا الحديث ينطبق كثيراً في عصرنا، لذلك
شرع الإسلام لنا حياة من خلال الموت كيف ذلك؟؟

لأن القاتل يُقتل، فالنفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن
قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
﴿١٧٩﴾ [البقرة: ١٧٩]، وفي هذه الآية من الإيجاز والإعجاز والبلاغة
ما أثار دهشة العلماء أبد الدهر.

وهذه العملية الانتحارية بسفكها للدماء وقتلها للأبرياء، بعيدة
كل البعد عن العملية الاستشهادية المشرفة التي تكون في أرض
الأعداء، أرض المحاربين، وخاصة عندما تغلق جميع السبل أمام
المدافع عن دينه وأرضه وعرضه، فيعلنها مدوية: مرحباً بالشهادة في
سبيل الله، فشهادة في سبيل الله خير من حياة ذل لا يطاق.

فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا
والأدلة على جواز العملية الاستشهادية كثيرة منها: عندما (كان

يوم اليمامة، واشتد قتال بني حنيفة على الحديقة التي فيها مسيلمة، قال البراء بن مالك: يا معشر المسلمين، ألقوني عليهم، فاحتُمِل حتى إذا أشرف على الجدار اقتحَم، فقاتلهم على باب الحديقة حتى فتحه للمسلمين، فدخل المسلمون، فقتل مسيلمة، وجرح البراء يومئذ بضعاً وثمانين جراحة ما بين رمية وضربة، فأقام عليه خالد بن الوليد شهراً حتى برأ من جراحه). إذن قال: ألقوني عليهم وهو بإلقاءه عليهم وحيداً قد يستشهد ولم يعترض عليه أحد من الصحابة رضي الله عنهم سير أعلام النبلاء وأسد الغابة.

وكذلك (عن أنس بن مالك قال: رمى أبو دجانة بنفسه يوم اليمامة إلى داخل الحديقة، فانكسرت رجله، فقاتل وهو مكسور الرجل حتى قتل رضي الله عنه).

ومن الأدلة أيضاً في معركة اليمامة لما انكشف المسلمون، قال سالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نعمل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فحفر لنفسه حفرة، وقام فيها، ومعه راية المهاجرين يومئذ، فقاتل حتى قتل شهيداً سنة اثنتي عشرة للهجرة)، علو الهمة محمد أحمد إسماعيل المقدم (ص ٣٠٥).

وبما أن موضوع الفوارق أمرٌ مهم، فقد لاحظنا الفرق الكبير بين العملية الانتحارية والعملية الاستشهادية وكذلك هناك فرق بين الجهاد وبين الإرهاب، فنحن مع الجهاد بشروطه ولسنا مع الإرهاب وقتله.

وهناك فرق كبير أيضاً بين التطرف وبين الصحوة الإسلامية التي نراها ونعيشها ورحم الله من قال:

يا نهر صحوتنا رأيتك صافيا وعلى الضفاف رأيت أزهار التقي
ورأيت حولك جيلنا الحر الذي فتح المدى وبوابة وتألقا
قالوا تطرف جيلنا لما سما قدراً وأعطى للبطولة موثقا
ورموه بالإرهاب حين أبى الخنى ومضى على درب الكرامة وارتقا
أو كان إرهاباً جهاد نبينا أم كان حقاً بالكتاب مصدقا

فأعداؤنا جعلوا المقاومة المشروعة إرهاباً، وجعلوا التزام
المؤمن بتعاليم دينه إرهاباً وتطرفاً، بل جعلوا كل من لم يطأطئ
رأسه لهم إرهابياً متطرفاً، وأما الخانعون لهم فهم في قمة الوسطية
والاعتدال، وهم - بخنوعهم وذلهم في نظر أعدائنا - صورة الإسلام
المشرق، مع أنهم وأسيادهم هم المتطرفون وهم الإرهابيون وكما
قيل:

إن التطرف أن نرى من قومنا من صانع الكفر اللئيم وأبرقا
إن التطرف أن نبادل مجرماً حباً ونمنحه الولاء محققاً
إن التطرف في اليهود سجية شربوا به كأس الخداع معتقاً
إن التطرف أن يظل رصاصنا متلعثماً ورصاصهم متفیهقاً

ديننا أيها السيدات والسادة: دين السلام لأن الله وَعَلَيْكُمْ
من أسمائه السلام ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ
السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٣].

ويدعو إلى دار السلام، ويوم القيامة: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ
الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق: ٣٤].

منهج الحوار الثقافي واحترام الخصوصيات الثقافية، كما سبق ذكره في آيات الجدل والتي هي أحسن وعدم الإكراه^(١).

إذن نحن نعد العدة لأجل العدو، أما الإرهابيون وأعدائهم فإنهم يعدون العدة لقتل الأبرياء وسفك الدماء، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

فواجب كل واحد منا أن يغرس الوعي في أذهان أبنائه، ومن يعولهم ومن يعرفهم، وأن يحذرهم من الأفكار الفاسدة، وعقيدة سفك الدماء، وان يُطْلَعَهُمْ دائماً على نقاء الإسلام وصفائه وسلامه. وللسادة الخطباء دور فعال في هذا المجال، فهم دائماً يدعون إلى الله على بصيرة وهدى ونور مبين، ووزارة الأوقاف وكذلك مديرية الأوقاف مشكورة على تعاميمها التي تصدرها بين الفينة والأخرى والتي تدعو إلى الوسطية والاعتدال ونبذ التعصب والتطرف والإرهاب وأعمال العنف، وإلى الفكر المستنير، وبما أنني أيضاً خطيب مسجد فقد نظمت قصيدة تحدثت فيها عن النهج القويم، الذي يتبعه الخطباء وهي بعنوان: (هذا نهجنا).

ومنها هذه الأبيات:

حيا الإله الواهبُ الخطباء من يرفعون مدى الزمان لواء
من مثّلوا خيرَ الأنام محمداً وبنهجه كم بددوا الظلماء
إنا سنبقى في المحبة أنهرأ نسقي القلوب مودةً وإخاء
بتوحد الآراء يبقى عزُّنا فوق الثريا، يرتقي الجوزاء

(١) الإرهاب والعنف والتطرف في ضوء القرآن والسنة، إعداد: أ.د. عبد الله بن الكيلاني الأوصيف (١٢ - ١٦) بتصرف.

وإن اختلفنا - والخلافُ طبيعة - لا لن نُحَمِّلَ قلوبنا البغضاء
ندعو إلى دين الإله بحكمةٍ ندعو بإيمانٍ وصدق عزيمةٍ
وبصيرةٍ تجلو الظلامَ جلاءً ونحاربُ التكفيرَ والأهواءَ
ندعو بإخلاصٍ إلى دين التقى ولنا بدعوتنا نبياً أسوةً
وبحرقةٍ لا سمعةً ورياءً جَمَعَ القلوبَ على محبته وقد
نشر الهدى ديناً يَشُعُّ صفاءً إسلامنا بدرُ الدجى ونبيُّنا
مُلِثت قلوبُ البائسين شقاءً فعليه صَلَّى اللهُ ما ليلٌ سَجَى
أنعم به! من بالهداية جاء - وأخيراً: معظمنا ملك الدنيا بحذافيرها وهو لا يدري؟؟

فالأمان في السرب، والمعافاة في الجسد، وتوفّر طعام يومك الذي
تعيش فيه، هذه هي الدنيا. أما قال النبي ﷺ: «من أصبح منكم آمناً
في سربه، معافى في جسده، عنده طعام يومه فكأنما حيزت له الدنيا
بحذافيرها».

فانظر كيف بدأ بنعمة الأمان، لأنها من أعظم نعم المَنان.

وأول ما يقضى يوم القيامة بالدماء كما أخبرنا نبينا ﷺ.

فدين الإسلام إذن بريء من التطرف الإرهاب، وليس دين
الإسلام فقط بريئاً من الإرهاب، بل كل الأديان بريئة من الإرهاب،
لذلك اشتهرت مقولة: (الإرهابُ لا دين له).

وفي نهاية حديثي لا بد أن أتوجه بالشكر لكم على حضوركم
الكريم، وحسن إصغائكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



جمالُ العربيَّةِ وخطرُ العاميَّةِ^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربَّ العالمين الذي خلق الإنسان علّمه البيان، والصلاة والسلام على رسوله محمد ﷺ، القائل: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش»، والذي أنزل الله عليه قرآناً عربياً غير ذي عوج، يتلى آناء الليل وأطراف النهار، فكان سراجاً وهاجاً وقمراً منيراً.

والصلاة والسلام على آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

وبعد: أيتها السيدات والسادة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تعلمون جميعاً أن موضوع محاضرة اليوم هو عن جمال اللغة العربية وخصائصها البهية وعن الفصحى وخطر العامية.

وقبل الحديث عن جمال اللغة العربية وخطر العامية، أود أن أبيّن معنى كلمة اللغة كما في المعاجم، وكيف استعمل العرب كلمة اللغة، وعن علاقة اللغة بالثقافة، والارتباط الوثيق بين اللغة والهوية وإلى ما هنالك، فأقول:

(١) محاضرة ألقيتها في بعض المراكز الثقافية، ومنها في مركز رأس العين في الحسكة.

ترجع كلمة «لغة» في العربية إلى المادة أو الجذر: «لغو»، أو «لغي»^(١).

وهو جذر يدور حول معاني الرَّمي والطَّرْح والإلقاء، وهي معانٍ ظَلَّتْ مقترنةً بهذا الجذر في تصاريف المادة، وحملت معاني الرَّمي وما يتصل بها ظلالاً فيها الرُّهد بالشيء، وعدم أهميته، وكونه منبوذاً، ذلك أن ما يُرمى أو يُلقى به أو يُطرح يكون كذلك^(٢).

وقد استعمل العربُ كلمة «لغة»، وكلمة «لغات» للدلالة على اللهجات التي كانت منتشرة في الجزيرة العربية، وترتبط كلُّ منها بقبيلة، أو مجموعة قبائل تعيش في حيز جغرافي (كالحجاز، واليمن مثلاً)، وقد تُنسب اللغة إلى القبيلة، لا إلى المكان، فكانوا يقولون: لغة أهل الحجاز، ولغة أهل اليمن، أو لغة بني تميم، كما يقولون: لغة قريش، ولغة هذيل، ...

وجاء اللُّغويُّون والذين عُنوا بجمع اللُّغة وتقعيدها، فاستخدموا «اللغة» الاستخدام عينه، فإذا ما أرادوا التعبير عن اللغة، من حيث هي لغة القبائل العربية جميعاً، استخدموا أيضاً

(١) السرقسطي: «كتاب الأفعال»، إعداد: حسين محمد شرف، مراجعة محمد مهدي علام، ط٣، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ٢٠٠٢م، ٢/ ٤١٦ - ٤٢٣.

(٢) ابن سيده: «المحكم والمحيط الأعظم في اللغة»، تحقيق: مجموعة من المحققين، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠٤م، ط. جديدة ومنقحة، وانظر أيضاً: الزمخشري، «أساس البلاغة»، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣م (لغو).

كلمة «لغة»، وكلمة «العربية». غير أنّ القرآن الكريم لم يستخدم لفظ «اللغة»، بالمعنى الذي ذكرناه، إنّما استبدل بها لفظ «اللسان» في حين جاءت تصاريف «لغو»، أو «لغي» فيه لتؤدّي الدلالات المحمّلة بالمعاني الأولى «كمعنى الرمي وما يتّصل به، وما تطوّر عنه، من مثل القبيح قولاً وفعلاً، والعيب، والفحش، واليمين غير المقصودة».

واللغة - كما تعلمون - مرتبطةٌ بجميع الأشياء في حياتنا، فهي مرتبطة بالثقافة والهوية وبالكثير من الأشياء. فبين اللُّغة والثقافة رباط حميمٌ، ذلك أنّنا لا نتصوّر لغةً ما بالمفهوم الذي ذكرنا لا نتج ثقافةً، أيّاً كانت اللُّغة، وأيّاً كانت الثقافة، كما أنّنا لا نتصوّر ثقافةً لا تعتمد في جانبٍ أساسيٍّ منها على وعاءٍ لغويٍّ يحتويها، ويتفاعل معها وينقلها، فهما إذاً دائرتان متداخلتان لا يُمكن أن نُخلّص إحداهما من الأخرى.

وكذلك اللُّغة والهويّة بينهما ارتباط وثيق، وهما أيضاً وجهان لشيء واحد، أو بعبارة أخرى: إنّ الإنسان في جوهره ليس سوى لغةٍ وهويّة، اللُّغة فكره ولسانه، وفي الوقت نفسه انتماؤه، وهذه الأشياء هي وجهه وحقيقته وهويّته، وشأن الجماعة، أو الأُمَّة هو شأن الفرد، لا فرق بينهما، وفي ذلك الإنسان ومقوماته يقول الشاعر القديم ذلك البيت الذي نعرفه جميعاً:

لِسَانَ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالِدَمِّ

بيت للأعور الشني: (ت ٥٠هـ).

وعن العلاقة المتينة بين اللغة والهوية يقول الشاعر المعاصر
سليمان العيسى على لسان العربية:

إذا تقطعت الأرحامُ بينكم إذا تراكمت الأسوار والحجب
إذا التمستم من الدنيا هويتكم وضاع خلف تخوم الغربة النسب
فلا تخافوا لكم صدر يضمكم ستلتقون على صدري أنا العرب
ولن نستطرد في الارتباطات الكثيرة للغة حتى لا نخرج عن
إطار موضوع محاضرتنا.

أما عن جمال اللغة العربية فهي كالبدن ضياءً والشمس بهاءً،
والثريا رفعة والعسل حلاوة والماء عذوبة والثلج بياضاً والضحى
إشراقاً وقلب الطفل طهراً ونقاءً، ودموع الثكلى حرناً ورقة، ولا ريب
في ذلك ولا شك، فهي لغة القرآن الخالد، وكلام الله الأزلي
السرمدى، كما قال تعالى في سورة يوسف: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

ولأن العرب هم أربابُ الفصاحة والبلاغة، وهم فحول الشعر
والبيان رأيناهم - على الرغم من فصاحتهم وبلاغتهم - يقفون
عاجزين أمام بيان القرآن الكريم، وفصاحته وبلاغته، فهذا الوليد
ابن المغيرة عندما قال له قومه عن سيدنا محمد ﷺ: «نَقُولُ كَاهِنٌ
قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِكَاهِنٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْكُهَّانَ، فَمَا هُوَ بِزَمَزَمَةِ الْكَاهِنِ
وَلَا سَجْعِهِ، قَالُوا: فَنَقُولُ مَجْنُونٌ قَالَ مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا
الْجُنُونَ وَعَرَفْنَاهُ فَمَا هُوَ بِخَنَقِهِ وَلَا تَخَالِجِهِ وَلَا وَسْوَستِهِ قَالُوا: فَنَقُولُ
شَاعِرٌ قَالَ مَا هُوَ بِشَاعِرٍ لَقَدْ عَرَفْنَا الشُّعْرَ كُلَّهُ رَجْزُهُ وَهَزْجُهُ وَقَرِيضُهُ

وَمَقْبُوضُهُ وَمَبْسُوطُهُ فَمَا هُوَ بِالشَّعْرِ قَالُوا: فَتَقُولُ سَاحِرٌ قَالَ: مَا هُوَ بِسَاحِرٍ لَقَدْ رَأَيْنَا السَّحَارَ وَسِحْرَهُمْ فَمَا هُوَ بِنَفْسِهِمْ وَلَا عَقْدِهِمْ قَالُوا: فَمَا نَقُولُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ؟ قَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ لِحَلَاوَةً، وَإِنَّ أَصْلَهُ لَعَدِيقٌ وَإِنَّ فَرْعَهُ لِحُجْنَةٌ وَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئاً إِلَّا عُرِفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ». سيرة ابن هشام والرحيق المختوم.

فهذا هو قول بعض فصحاء العرب وأرباب البلاغة والبيان.

وعندما تعجّب الأصمعي من فصاحة امرأة من العرب أنشدت شعراً بين يديه قالت له المرأة: أبعده قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصاص: 7]، أبعده هذه الآية فصاحة قال: ولم؟ قالت: وقد جمع الله في هذه الآية بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين. تفسير الألوسي.

فاللغة العربية إذاً لغة مقدسة وتأتي قداستها من قداسة القرآن الذي نزل بها، وقداسة النبي الذي أنزل الله عليه القرآن، ولأنها لغة أهل الجنة في الجنة كما ورد في بعض الآثار.

واللغة العربية لغة محببة، وحبها واجب، وهناك مقولة للثعالبي تؤكد ذلك بالدليل، حيث يقول: «من أحبَّ الله أحبَّ رسوله ﷺ، ومن أحبَّ رسوله العربي أحبَّ العرب، ومن أحبَّ العرب أحبَّ العربية». كما أن العربية تزيد في المروءة فسيدينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة، وتتوالى عنه التوجيهات في ذلك، فيكتب إلى أبي موسى الأشعري بقوله:

«تعلّموا العربية فإنها من دينكم.. وأعرّبوا القرآن فإنه عربيّ».

وقالوا:

ويعجبني زي الفتى ولباسه فيسقط من عينيّ ساعة يلحن
والعربية أيضاً يأتي جمالها من حفظها وخلودها، فكم من لغات
اندثرت!، وكم من لغات تلاشت ونسيت، وكم من لغات بادت وباد
أصحابها، أما اللغة العربية لغة القرآن فهي محفوظة وخالدة تعهد الله
بأن تبقى ما بقيت الحياة؛ لأنها لغة القرآن الكريم؛ وقال الله عن
القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وكم رأينا من أناس غير عرب يقرؤون القرآن بكل طلاقة، بل
وبأحكام التجويد، مع أنهم لا يعرفون التكلم بالعربية...
واللغة العربية تُظهر مفاتن جمالها في الشعر العربي، والشعر
كما تعلمون هو ديوان العرب.

وكلنا نعلم مكانة الشعر الجاهلي، هذه الأبدية الأثرية التي ننظر
إليها إلى اليوم على أنها فخرٌ نعتز به، ونعلقه في قلوبنا كما كان
معلقاً على أستار الكعبة المشرفة...

ولا عجب أن تقيم القبيلة التي ينشأ فيها شاعرٌ الأفراح والتهنئة
لأن الشاعر هو الذي يخلد للقوم ذكراهم وحروبهم وأيامهم، وهو
الذي إذا هجا وضع، وإذا مدح رفع، فها هم بنو أنف الناقة الذين
كان يسوؤهم هذا الاسم، وكانوا يشعرون بالخزي والعار منه، حتى
قال شاعرهم:

قومٌ هم الأنف والأذنبُ غيرهم وهل تسوي برأس الناقة الذنبا

فأخذ القوم يمشون بين الناس ورؤوسهم مرفوعة، بعد أن كانوا يشعرون بالذل والهوان كما أن اللُّغة أيضاً وعاءُ التاريخ، وكلُّما كان التاريخ ممتدّاً وخصباً انعكس على اللُّغة قوَّةً وثراءً، فالوعاء لا بدَّ أن يُثري بما فيه، والتاريخ بمادته ومواقفه وجرالكِ أصحابه ومشاعرهم، وذكرياتهم وانتصاراتهم، وإخفاقاتهم ودروسهم وعبرهم - لا بدَّ أن يُغنيَ هذه اللُّغة التي كانت ترجمانه المعبر، ولسانه الناطق.

فحقُّ لشعرائنا أن يتغنوا بلغتنا العربية، وقد رأوا في هذه اللُّغة البهية فاتنتهم ومحبوبتهم، وليلاهم وهندهم، وفخرهم وعزهم، فأكثرُوا من التغني بلغتهم، والتفاخر بها.

فهذا أمير الشعراء أحمدُ شوقي يقول مفاخرًا:

إن الذي ملأ اللغاتِ محاسناً جعل الجمالَ وسرَّهُ في الضاد
وللشاعر اللبناني حلیم دموس بيتان مشهوران يقول فيهما:
لغةٌ إذا وقعت على أكبادنا كانت لنا برداً على الأكباد
ستظل رابطة تؤلف بيننا فهي الرجاء لناطق بالضاد
في حينَ نرى أن الشاعر الدكتورَ وليد قصاب يتحدث على
لسان اللغة العربية قائلاً:

إني أنا الضادُ التي قد شُرِّفتُ وتفردتْ بمحاسنٍ وبهاءٍ
اللَّهُ عَظَّمَهَا فصاعَتْ وَحِيَهُ بالمعجزاتِ وبالسننِ الوضَّاءِ
عَرَضَتْهُ في لفظٍ بهيِّ ساحرٍ وجمالِ إيقاعٍ وحُسنِ أداءِ
صاغتهُ فكرياً مُعْجزاً متألِّقاً خرَّتْ لديه أكابرُ الفُصحاءِ

وكثيرون من غير العرب شهدوا بجمال العربية وفتوتها

وغناها. قال المستشرق (أرنست رينان) في كتابه: «تاريخ اللغات السامية»:

«من أغرب المدهشات أن تَنبَتَ تلك اللغة القويّة، وتصلَ إلى أعلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أُمَّة من الرُّحَل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقّة معانيها، وحسنِ نظام مبانيها، وكانت هذه اللغة مجهولةً عند الأمم، ومن يوم عُلمت ظهرت لنا في حِلل الكمال إلى درجة أنّها لم تتغيّر أيّ تغيّر يذكر، حتى إنها لم يُعرف لها في كلِّ أطوار حياتها لا طفولةٌ ولا شيخوخةٌ، لا نكاد نعلمُ من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تُبارى، ولا نعلمُ شبيهاً لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملةً من غير تدرُّج، وبقِيَت حافظةً لكيانها من كلِّ شائبة».

والألماني فريتاج يقول: «اللغة العربية أغنى لغات العالم».

ولأن اللغة العربية جماليّةٌ لا تضاهى، وغنيٌّ لا مثيل له، وبهاءً متجدداً ما تعاقب الليل والنهار، عرف أجدادنا قيمة هذه اللغة فقد مر «على الناس زمانٌ كانت العربية فيه تحتلُّ المكانة الأولى بين العلوم عند الكثرة الكاثرة منهم، وكان طالب العلم يبدأ رحلته العلمية بمعرفة علوم العربية المختلفة - من نحو وصرف وبلاغة وعروض - معرفةً بصيرة يتمكّن فيها من ناصية اللغة، ويجتنب اللحن والخطأ في ظاهر القول وما يسطره القلم، بل إن تلك المعرفة كثيراً ما كانت تخوّله التصنيفَ في بعض علوم العربية برغم تخصصه المختلف، أو شهرته في غيرها من العلوم كعلوم الطبِّ والفلسفة

والقرآن والحديث... وغيرها»^(١).

(والعرب - كما هو معلوم - منذ أواخر العصر الجاهلي مهتمون بلغتهم معتزون بتراثها الأدبي، وقد قيل: «الشعر ديوان العرب» ولكن اهتمامهم واعتزازهم بها ازداد مع ظهور الإسلام لأن الله ﷻ اختارها لغةً لدينه؛ قرآنًا، وسُنَّةً، وعبادةً، وتشريعاً.. ثم تضاعف الاهتمام والاعتزاز باللغة العربية وحفظ التراث اللغوي وتنقيته من الدخيل الأعجمي أثناء الفتوحات الإسلامية وبعدها)^(٢).

وقد عزّز هذه المكانة للعربية اهتمام أولي الأمر بها وإعلاؤهم لشأنها بدءاً من الخلفاء في مجالسهم ومحافلهم، وانتهاءً بالعاملين في مجالات الدولة المختلفة من وزراء وحجّاب وأمرء وكُتّاب..

وليس أدلّ على هذه المكانة من تسمية رسول الله اللحن في القول ضلالاً، وذلك عندما لحن أحدهم في حضرته فقال: «أرشدوا أحاكم فقد ضلّ» وماذا بعد الضلال إلا الخسران المبين؟!.

وكان النبي ﷺ يقول عن الشعر والبيان: «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكمة»، رواه أبو داود. وكان يتمثل بقول ابن رواحة: ويأتيك بالأخبار من لم تزود. رواه الترمذي...

وكان يشجع على الشعر فقد كان يَضَعُ لِحْسَانَ مَنْبَرًا فِي الْمَسْجِدِ يَقُومُ عَلَيْهِ قَائِمًا يُفَاخِرُ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ قَالَ يُنَافِحُ عَنِ

(١) د. محمد حسان الطيان بتصرف موقع الألوكة.

(٢) أحمد محمد جمال، المصدر: مجلة البحوث الإسلامية، العدد ١، (ص ٩١ - ١٠١).

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَانَ بَرُوحِ
الْقُدْسِ مَا يُفَاخِرُ أَوْ يُنَافِحُ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ». رواه الترمذي.

ولقد كان النبي ﷺ أفصح العرب، وهو الذي نطق بكلماتٍ
وعبارات لم يقلها أحدٌ قبله قال ابنُ دريد: ومن الألفاظ التي
لم تُسمع من عربيٍّ قبله قوله: «لا يَنْتَطِحُ فِيهَا عَنَزَانٌ». وقوله: «الآن
حَمِي الْوَطَيْسِ». وقوله: «لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرْتَيْنِ». وقوله:
«الْحَرْبُ خَدَعَةٌ». وقوله: «إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ»، وغيرها الكثير
من العبارات^(١).

والخلفاء الراشدون، ساروا على النهج ذاته، وأولوا العربيةَ
اهتماماً واسعاً، ولعلَّ في كلمة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه
إلى عامله أبي موسى الأشعري ما يُؤدِّنُ بهذه المكانة وذلك
الاهتمام، فقد كتب إليه: «خذ الناس بالعربية فإنها تزيد في العقل
وتثبتُ المُرُوَّةَ» بل إن ولادة علم النحو كانت بإيعاز من الخليفة
الرابع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فالإيه ينسب هذا العلم
الجليل وهو الذي أمر أبا الأسود الدؤلي أن ينحو نحوه.

وتمرُّ الأيام وتتعاقب السنون ومكانة العربية أبداً في نماء
وصعود. فعبد الملك بن مروان أشهر خلفاء بني أمية يخشى اللحن
ويتجنَّبُه، وفي ذلك يقول: «شيبني ارتقاء المنابر واتقاء اللحن»
والحجاج يتوخى ألا يُسمع منه لحن في كلام أبداً فهو أفصح الناس

(١) المزهر - عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، ٩٣/١، وانظر: فقه
اللغة، باب: في تقسيم القتل ٢٧/١.

في زمانه، وعندما يبلغه أن ابن يَعْمَر وقع على لحن له في كتاب الله ﷻ يعالج الأمر بطريقته الحجاجية! فينفيه من بغداد ويلحقه بخراسان قائلاً: «لا جَرَم، لا تَسْمَعُ لي لحنًا أبدًا».

وهكذا بات التمكن في اللغة وامتلاك ناصية البيان وفصاحة اللسان قيمةً مقدسة، ومكرمةً متوارثة، وفضيلةً يتداعى إليها الناس، فينشئ الوالد ابنه عليها، وتدعو القبيلة أبناءها إليها، بل تفخر بمن اشتهر بها أو عُرف بالتمكن منها، ويتغنى الشعراء بمن حازها، وينحون باللائمة على من افتقدها، ويعدُّون ذلك عيباً فيه، وفي ذلك يقول قائلهم:

كفى بالمرءِ عيباً أن تراه له وجهٌ وليس له لسانٌ
وما حُسْنُ الرجالِ لهم بزِينٍ إذا لم يُسعدِ الحُسْنَ البيانُ
وفاقد الفصاحة والبيان يفقد أهم مقومات الحياة عند العرب وهي المروءة، يقول يونس بن حبيب: «ليس لعيٍّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء»^(١).

أيتها السيدات والسادة: «إن لغتنا العربية ركن ثابت من أركان شخصيتنا، فيحق لنا أن نفتخر بها، ونعتز بها ويجب علينا أن نذود عنها، ونوليها عناية فائقة. ويتمثل واجبنا نحوها في المحافظة على سلامتها وتخليصها مما قد يشوبها من اللحن والعجمة، وعلينا أن لا ننظر إليها بوصفها مجموعةً من الأصوات وجملةً من الألفاظ

(١) د. محمد حسان الطيان بتصريف موقع الألوكة.

والتراكيب بل يتعين علينا أن نعتبرها كائناً حياً، وعلينا أن نؤمن بقوتها وغزارتها ومرونتها وقدرتها على مسايرة التقدم في شتى المجالات، كما تعد مقوماً من أهم مقومات حياتنا وكياننا، وهي الحاملة لثقافتنا ورسالتنا، والرابط الموحد بيننا والمكوّن لبنية تفكيرنا، والصلة بين أجيالنا، والصلة كذلك بيننا وبين كثير من الأمم.

وإن اللغة من أفضل السبل لمعرفة شخصية أمتنا وخصائصها، وهي الأداة التي سجلت منذ أبعده العهود أفكارنا وأحاسيسنا. وهي البيئة الفكرية التي نعيش فيها، وحلقة الوصل التي تربط الماضي بالحاضر بالمستقبل. إنها تمثل خصائص الأمة، واستطاعت أن تكون لغة حضارة إنسانية واسعة اشتركت فيها أمم شتى، كان العرب نواتها الأساسية والموجهين لسفينتها.

واللغة العربية أقدم اللغات التي ما زالت تتمتع بخصائصها من ألفاظ وتراكيب وصرف ونحو وأدب وخيال، مع الاستطاعة في التعبير عن مدارك العلم المختلفة. ونظراً لتمام القاموس العربي وكمال الصرف والنحو فإنها تُعد أمّ مجموعة من اللغات تعرف باللغات الأعرابية؛ أي: التي نشأت في شبه جزيرة العرب، أو العريبات من حميرية وبابلية وآرامية وعبرية وحبشية. وعلماء اللغة حديثاً يصنفون كلّ السلالات اللغوية ويعودون بها إلى لغة أمّ أطلقوا عليها: «اللغة السامية».

وإن الشخصية العربية تقوم على تشابه أذواق العرب ومَلَكاتهم،

وهذا التشابه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بترائنا الثقافي العريق، ويرتبط بعمالقة الشعر والأدب وبخاصة الذين سجلوا مُثلنا العليا، ويرتبط باللغة العربية التي نعتز بالحديث بها . . ولهذا فإهمال الأدب القديم والاتجاه الأكثر إلى الأدب الحديث يساعد من يروج للفصل بين الآداب القديمة «حيث امتدادُ أخلاق الآباء والسلف» وبين الآداب الحديثة، ولسنا بحاجة إلى التأكيد من جديد على دور اللغة في بناء الأمة وصناعة وجدانها وتكوين هويتها وثقافتها وضمان تماسكها وتواصل أجيالها .

قال الأستاذ محمد الخضر حسين: «كانت الفارسية في الشرق هي التي يمكن بما لها من فصاحة وحسن بيان أن يُوازَنَ بينها وبين اللغة العربية، وقد شهد بعضُ الأعاجم الذين عرفوا اللغتين بأنَّ العربية أرقى مكانةً وألطف مسالكً. قال ابن جني في «الخصائص»: إنا نسأل علماء العربية ممَّن أصله أعجمي وقد تدربَّ قبل استعرابه عن حال اللغتين فلا يجمعُ بينهما، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك لبعده في نفسه، وتقدُّم لطف العربية في رأيه وحسُّه. سألتُ غير مرَّة أبا عليٍّ عن ذلك، فكان جوابه نحواً ممَّا حكيتُه»^(١).

وقال ابن فارس في كتابه: «الصاحبي في فقه اللغة» «لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾» [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، فوصفه - سبحانه - بأبلغ ما يوصف به

(١) الخصائص ١/٢٤٣.

الكلام وهو البيان... فإن قال قائلٌ: فقد يقع البيانُ بغير اللسان العربي؛ لأن كلَّ من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بيّن.

قيل له: إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يُعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده؛ فهذا أحسُّ مراتب البيان؛ لأن الأبكَم قد يدلُّ بإشارات وحركات له على أكثر مراده، ثم لا يُسمّى متكلماً فضلاً عن أن يُسمّى بيّناً أو بليغاً.

وإن أردت أن سائر اللغات تُبيّن إبانة اللغة العربية فهذا غلط، لأننا لو احتجنا إلى أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة.. وكذلك الأسد والفرس... فأين هذا من ذلك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟ هذا ما لا خفاء به على ذي نُهيّة^(١).

فهذا ابن فارس وابن جني وأبو علي الفارسي وكانوا محيطين باللغة الفارسية يشهدون شهادة الحق كما رأيتم.

ولغتنا العربية تتميز بكثير من الخصائص الفريدة، والمزايا التي جعلت منها أمماً للغات، فهي تتميز بثبات الأصول ومرونة الفروع، وثبات أصول الألفاظ ومحافظةها على روابطها الاشتقاقية وهذا يقابل استمرار الشخصية العربية خلال العصور، فالحفاظ على الأصل واتصال الشخصية واستمرارها صفةً يتصف بها العرب كما تتصف بها

(١) الصاحبي في فقه اللغة، باب: أفضل اللغات وأوسعها ٤/١.

لغتهم، ولغتنا أيضاً لغة المترادفات إذ يكثر أن يكون للمسمى الواحد أكثر من مفردة لغوية واحدة بل قد تصل إلى العشرات بل المئات ولا ننسى أن كثيراً من هذه المترادفات نشأ من تعدد اللغات، أو من ملاحظة اختلاف دقيق في الأحوال والصفات، قال ابن فارس في الصحابي: «وقد سُمع أن معاني (العين) تنيف على المائة، ومعاني (العجوز) تنيف على الثمانين، ومعاني (الكرم) على الثلاثين، قال ابن خالويه: جمعت (للأسد) خمسمائة اسم، و(للحية) مائتين. وذكر صاحب القاموس في مادة (سيف) أن للسيف أسماء تنيف على ألف اسم، وهناك كتاب اسمه: المسلوف فيما له اسم واحد إلى الألف للفيروزآبادي...»

(ومن خصائص لغتنا الاشتقاق، وهو أنواع، وقد فصل القول فيها علماء اللغة من قدماء ومعاصرين، وأكتفي هنا بذكر هذه الأنواع دون تفصيل ولا شرح، وهي: الاشتقاق الصغير، والاشتقاق الكبير، والاشتقاق الأكبر، والاشتقاق الكُبار.

- ومن خصائص لغتنا العربية المجاز، وهو استعمال كلمة في غير معناها الأصلي لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.
- ومن ذلك النَّحْت، وهو طريقة من طرائق توليد الألفاظ، وهو قليل الاستعمال في اللغة العربية شائع في غيرها من اللغات الهندية الأوروبية. ومن أمثلته: البَسْمَلَة، والْحَمْدَلَة، والْحَوْقَلَة. وبعض العلماء يسمون النَّحْت الاشتقاق الكُبار ويعُدُّونه نوعاً من أنواع الاشتقاق. وهو أيضاً أنواع.

• ومن ذلك التعريب، وهو نقلُ المفردَةِ الأعجميّة بلفظها مع إدخال بعض التعديل عليها، لتكونَ وَفَق طبيعة اللغة العربية، وقد عرَّب اللغويون المتقدِّمون كثيراً من الكلمات الأعجمية والأعلام الأعجمية. فمن ذلك كلمة (هندزة) عرَّبوها إلى (هندسة).. وغيرُها الكثير من الكلمات.

• ومن ذلك الاختزال الذي اخترعه علماء الحديث، وأخذَه عنهم علماء العلوم الأخرى كعلماء بالرضيات والكيمياء والفيزياء، وهو استخدامُ حرف أو حرفين من الكلمة الأصل للدلالة على الكلمة المختزلة، ومن ذلك الرُّموز الدالَّة على المواد التي تُريد الحديث عنها.

• ومن ذلك استعمالُ كلمةٍ مهجورة الاستعمال وهي موجودةٌ في كتب اللغة، استعمالها في معنى جديد، وهذه الطريقة أخذ بها المجمع العلميُّ العربي في دمشق).

ومن مزايا اللغة العربية (الإعراب) الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يُعرف مراد المتكلِّم من الكلام، ولولاه ما مُيِّز بين فاعل ومفعول، ولا عُرف تعجُّب من استفهام.

ومن مزايا اللغة العربية أنَّ للأبنية (الصيغ) دلالاتٍ تجعل السامع يدرك من معرفته للصيغة المراد. وللأوزان في هذه اللغة معانٍ، ومن ذلك ما هو معروفٌ ومشهور كالأسماء المشتقة من نحو اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبَّهة واسم الزمان واسم المكان وأفعال التفضيل واسم الآلة، والمصدر الدالُّ على المرَّة والمصدر الدالُّ على الهيئة.

ولأوزان الأفعال وتصاريفها دلالاتٌ معينة في العربية:
فمثلاً (فاعِل) تدلُّ على تعلق الفعل بمتعدّد، وعلى المنافسة،
مثل: قَابِلٌ وزاحِمٌ ونافِسٌ. وهكذا.

و(تفاعل) تدلُّ على المشاركة وتعدّد الفاعلية، وقد تدلُّ على
التظاهر بالشيء، مثل: تَجَاهَلٌ، وتَغَابَى، وتَمَارَضَ.

ولأوزان الكلمات معانٍ معينة:
فمثلاً (فُعَال) تدلُّ على الأصوات، مثل: رُغَاءٌ، وتُغَاءٌ،
وعُوَاءٌ.

و(فُعَالَةٌ) تدلُّ على البَقَايا، مثل: حُثَالَةٌ، نُخَالَةٌ.
إنَّ وجود هذه القوالب الفكرية العامّة في اللغة العربية توفّر
على المتكلّم والمتعلّم كثيراً من الجهد في التعبير والفهم والإدراك.
وهذه الطريقة في اشتقاق الألفاظ من مواردها الأصلية،
وتصريفها في أشكالٍ متنوّعة، واستخدام هذه الأبنية، تختلف عن
طريقة التركيب الإلحاقى المعروفة في لغاتٍ أخرى والتي تقوم على
زيادة أحرفٍ مخصوصة في أول الكلمة أو في آخرها لتدلّ على معنى
خاص.

وعددُ الأبنية في العربية كبيرٌ، وكذلك فإن عدد تصاريف الكلمة
الواحدة ومشتقّاتها ومصادرهما تصلُّ إلى أكثر من مئة وخمسين كلمة.
ومن مزايا هذه اللغة أنها تمتاز في مجموع أصوات حروفها
بسعةٍ مدرّجها الصّوتي سعةٌ تُقابل أصوات الطبيعة في تنوعها
وسعتها.

وتمتاز من جهةٍ أخرى بتوزُّعها في هذا المَدْرَجِ توزُّعاً عادلاً
يؤدِّي إلى التوازن والانسجام. وقد أشار ابنُ جني في «الخصائص»
إلى أن العربَ تجنَّبَت بعضَ الكلمات لتقارُبِ مخارجِ حروفها، مثل
اجتماع السين والصاد، أو الطاء والتاء.

ومن مزايا هذه اللغة أن أصوات الحروف العربية يُنطقُ بها
الآن كما كان ينطقُ بها أهلها قبل خمسةَ عشرَ قرناً، والفضل في
ذلك يعود إلى القرآن الكريم كما تحدثنا.

ومن مزايا هذه اللغة ثباتها على مرِّ الزمان ومحافظةها على
خصائصها ومفرداتها، فما قاله زهير وعنترة والحطيئة قبل خمسةَ
عشرَ قرناً يقرؤه العربيُّ المعاصر اليومَ فيفهم معناه.

وبالموازنة مع الإنكليزية نجد أن ما كتبه شكسبير (١٥٦٤ -
١٦١٦م) يحتاج اليومَ الراغبون في فهمه من الإنكليز إلى مُترجم
يُترجمه لهم». د. محمد بن لطفي الصباغ بتصرف من موقع الألوكة.

وإن السلف الصالح - أيتها السيدات والسادة: ما قصرُوا في
خدمة اللغة العربية حيث جاهدوا بالجهد والمال والوقت لخدمة هذه
اللغة لغة القرآن، عكفوا على تعلمها لمالها من مكانة مقدسة في
نفوسهم، غاروا عليها، وغاروا على بيانها المعجز أن تدنسه عجمة
الأعاجم ولوثة الإفرنج... فقضوا سني حياتهم في تقييدها وإشادة
أركانها ورسم أوضاعها...

وأما عن وجود بعض الكلمات غير العربية في القرآن الكريم
فذلك لحكم كثيرة منها: أنه حوى علوم الأولين والآخرين، ونبأ كلُّ

شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات لتتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب. وكذلك كان للعرب في لغتهم بعض مخالطة لأهل سائر الألسنة في أسفارهم، فعلقت من لغاتهم ألفاظ غيرت العرب بعضها بالنقص من حروفها واستعملتها في أشعارها ومحاورتها حتى جرت مجرى العربي الفصيح ووقع بها البيان. ففي بعض كتب الأدب أن يهودياً قال...

وقد حاول البعض منذ نزول القرآن أن يشيع التهمة والكذب بأن النبي يتعلم هذا القرآن من رجل أعجمي فعند قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

قال ابن كثير في تفسيره:

(يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، وكان يباعاً يبيع عند الصفا، فربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] يعني: القرآن؛ أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته

وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي مرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكة من العقل). تفسير ابن كثير.

وبقيت اللغة العربية كذلك وأهلها يدافعون عنها، ويرعونها أحق رعاية حتى أتى على الناس زمان - كما يقول د. محمد حسان الطيان -: «تَنَكَّرُوا فِيهِ لِلْعَرَبِيَّةِ بَعْدَ طَوْلِ تَعَهُّدِ وَعِنَايَةِ، وَهَجَرُوهَا بَعْدَ طَوْلِ وَصَالٍ وَرِعَايَةِ، وَزَهَدُوا فِيهَا وَعَزَفُوا عَنْهَا بَعْدَ طَوْلِ تَقْدِيرِ وَتَقْدِيسِ، بَلْ وَصَلَ الْأَمْرُ بَبَعْضِهِمْ إِلَى حُدُودِ الْمَقْتِ وَالْقَلِي، وَالْبَغْضِ وَالْمَحَارَبَةِ بَعْدَ طَوْلِ الْكَلْفِ وَالْحُبِّ، وَالْعَشْقِ وَالْهِيَامِ!!».

وإن تعجب فعجبٌ أن يمتد أثر ذلك إلى بعض مدرسي هذه المادة فترى بعضهم - مع حرصهم المحمود على إيصالها إلى الطلاب - أبعدَ الناس عنها، وكأن بينها وبينهم أمداً بعيداً أو ثأراً قديماً، أو حجاباً مستوراً، فهم لا يابتهون لها ولا يعيرونها أدنى اهتمام. فأين هؤلاء من لغة القرآن؟! وأين هم من أفصح من نطق بالضاد؟! وأين هم من علماء السلف الذين كان الواحد منهم حجّة في اللغة قبل أن يكون حجّة في مجالات شتى؟!^(١).

ويقول د. طيان: ليس عدلاً أن أحبّب اللغة إلى أهلها وأصحابها! أيحبّب أحدٌ ولدًا إلى والده؟! أو فلذة كبد إلى صاحبها؟! بل قل أيحبّب واحدنا اللسان إلى المتكلم وبه قوامه،

(١) الألوكة بتصرف شديد.

وعليه يبني أمره، وفيه سرّ مقدرته، وإليه يعود الفضل في نجاحه،
وعليه المعوّل في فلاحه؟! .

لا كلّ هذا لا يكون، ولكنها دعوة إلى إعادة الاهتمام بهذا
اللسان، إنها دعوة إلى المصالحة مع اللغة، بعد أن أصابها
من الإهمال وقلة الاكتراث ما ينبغي أن يتوقف عنده كل غيور، بل
كل عاقل، لقد أصابها من جحود أهلها وانصرافهم عنها وافتئاتهم
عليها ما جعل الدكتور شكري فيصل رَضَّ اللهُ يقول: «لعله لم يحمل
قوم على لغة كان لها فضلٌ وجودهم الحضاري ومكانتهم الإنسانية
على نحو ما حمل ناس منّا على لغتهم. . اتهموها بالصعوبة
وحملوها من ذلك ما هو حقّ في أقلّ الأحيان وما هو باطل في
أكثر الأحيان. ورموها بالخروج على المنطق وأنها لا تنقاد قواعدها
إليه. وقذفوا خطّها وحروفها بل دعوا إلى تبديلها، وبذلوا الكثير
من القول والعمل. وأخرجوها من نطاق الطبيعة حين زعموا أنك في
اللغات الأخرى تقرأ لتفهم بينما نحن في العربية نفهم لنقرأ. وقالوا
في نحوها وصرفها ما لم يقله مالك في الخمر! . وتحديثوا عن
عجزها عن متابعة التقدم الحضاري وكأنها لم تكن اللغة التي وسعت
حقباً من الدهر العلوم والمعارف كلها. . . . وكأنها لم تكن اللغة التي
أنشأت حضارةً وأنبئت ثقافة وكتبت آلاف الكتب في كل ضروب
الصنائع والفنون والعلوم» د. محمد حسان الطيان بتصرف موقع
الألوكة.

أيتها السيدات والسادة: إن من أكبر مصائب الأمة أن يكون

تعليمها بغير لغتها، وتفكيرها بغير أدواتها، وقياسُ حاضرها يكون بمعاييرَ وضوابط حضاريةٍ غريبة عنها، والحالة هذه من التخاذل والتكاسل والتبعيّة، واجهت العربية مجموعة من التحديات والمصاعب وقفنا منها موقف المتفرج، إن لم نكن شاركنا فيها من طرف خفي. وقد آن الأوان أن نفضح خطط الأعداء ونكشف عن نواياهم الخبيثة، ونثبت للعالم أن هذه اللغة ثريةٌ غنيةٌ باقيةٌ فنعناها حق الرعاية ولا ندعها تتعرض للتقويض والانهيار والغزو اللغوي الشرس من الداخل والخارج...

ومن المواجهات التي تواجه لغتنا العربية اتهامها بالعقم والجمود والتجّر والقصور، وأنها لم تعد ملائمة لأساليب القرن الحادي والعشرين عصر الثورة المعلوماتية والاختراقات الفضائية، فكان منا من نظر إلى تخلف العرب العلمي في عصر الذرة فأعلن أنه لا يرى لهذا سبباً غير تمسك العرب بلغتهم في مراحل التعليم عامة والتعليم العالي منها خاصة، وآخر يلحّ في الدعوة إلى تدريس العلوم الطبية وغيرها بلغة غير عربية؛ ليظل المسلم عنده إحساس بعجز اللغة العربية لغة القرآن. ولا أجد رداً على ذلك أجمل مما قاله شاعر النيل:

وسعت كتاب الله لفظاً وغايةً وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيّق اليومَ عن وصفِ آله وتنسيقِ أسماءِ لمُخترعاتِ
أنا البحرُ في أحشائه الدرُّ كامنٌ فهل سألوا الغواصَّ عن صدقاتي
فهو يشير إلى الطاقات الهائلة والمخزون الضخم الذي تمتلكه

العربية التي وسعت هذا القرآن بكل أبعاده وآفاقه . إنها لغة الخلود حيث لا يمكن أن تزول عن الأرض إلا أن يزول هذا الكتاب المنزل، وقد تكفل الله بحفظها ضمناً في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] كما شهد الله في كتابه أن لغة القرآن لا تقبل العوج فقال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨].

ومع كل الغنى الذي تتمتع به لغتنا العربية عبر مر العصور وإلى الآن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها نرى بعض أعداء العربية من مستغربين ومستشرقين، ومن بعض الإمعات الذين يتبعون كل ناعق، ويركضون وراء كل سراب نراهم يتبجحون قائلين: نريد لغة عربية معاصرة، نريد أن نستبدل بالفصحى اللهجات العامية واللغات المناطقية والإقليمية القومية الضيقة أو إحياء لغات قديمة ميتة، وكذلك من يدعون إلى اللاتينية بزعمهم أنها أكثر مرونة واختصاراً في النطق؟؟

ولا تعدو أن تكون هذه المحاولات معولاً يحاول أن يصيب مقتلاً في كيان هذه الأمة، وهي محاولات هدامة تحاول إضعاف العربية وقد مشى تيار الهدم هذا في اتجاهين يكمل أحدهما الآخر هما: الاستشراق والاستغراب.

الأول: - اتجاه المستشرقين الذين أوكلت لهم مهمة التدريس في الجامعات والمدارس فشغلوا مناصب عليا، وتولوا مهام جسيمة، وسيطروا على كراسي الدراسة. . فألفوا كتباً في الدين واللغة هي أكبر من علمهم، نفثوا فيها سمومهم ودسّوا فيها أفكارهم هذا

من جهة، ومن جهة ثانية أنهم غرسوا في الطلاب والكوادر هذه الأفكار فأشربت قلوبُ العديد من العرب بها، ومن جهة ثالثة أنشأوا المدارس والجامعات التبشيرية والغربية في بلاد المسلمين وجعلوها أوكاراً لأغراض تجسسية خبيثة.

وأما الاتجاه الثاني وهو الاستغراب فما كان للاستعمار الغربي بحقده الدفين وخبرته الواسعة.. أن يترك هذه اللغة التي يعرفها معرفة جيدة ويدرك آثارها الاجتماعية والسياسية «ما كان له أن يدعها تنمو بإيقاعات سريعة تتساق وإيقاعات النمو الحضاري العام، فأخذ يوجه إليها الضربة تلو الضربة، تارة بقرار سياسي.. وتارة بفتنة عمياء تثير الجدل وتعيق عن العمل.. وتارة باستعمال أبواق لا خلاق لها للترويج للغة مهجورة متخلفة أو للدعوة إلى عامية شائعة... ففي مصر مثلاً وجه اللورد كرومر ضربة قوية للعربية؛ إذ جعل لغة التعليم الرسمي والعالي الإنكليزية... وفي الجزائر أصدر الفرنسيون عام (١٩٠٤م) قانوناً يمنع أي معلم عربي أن يتعاطى مهنته إلا برخصة وضمن شروط محددة منها:

أ - اقتصار التعليم على حفظ القرآن لا غير.

ب - عدم التعرض لتفسير الآيات التي تدعو إلى التحرر من الظلم والاستبداد.

ج - استبعاد دراسة التاريخ العربي والإسلامي، والتاريخ المحلي وجغرافية القطر الجزائري والأقطار العربية الأخرى.

د - استبعاد دراسة الأدب العربي بجميع فنونه.

لقد كانت خطة النفوذ الأجنبي ترمي إلى :

أولاً: تحويل أبجدية اللغات الإقليمية إلى اللاتينية وكانت تكتب أساساً بالحروف العربية، كما حدث في إندونيسيا وبعض بلاد إفريقية وآسية.

ثانياً: تقديم اللغات الأجنبية في الأقطار الإسلامية على اللغة العربية.

ثالثاً: تقديم اللهجات واللغات المحلية وتشجيعها والدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية. . .

وكثيرة هي الخطط الغربية للقضاء على العربية، وكثير من حاول أن يفضل اللغات الأخرى على العربية ولكن نقول له: عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء.

ما حال من يريد أن ينقص من قدر العربية، ويعلي اللغات الأخرى عليها إلا كما قال المعري:

فواعجباً! كم يدعي الفضل ناقص ووأسفاً! كم يظهر النقص فاضل
إذا وصف الطائي بالبخل مارد وعير قُساً بالفهاهة باقل
وقال السُّهى للشمس: أنت خفيةً وقال الدجى يا صبح لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهةً وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فيا موت زر!!! إن الحياة ذميمة ويا نفس جدي!! إن دهرك هازل

أيتها السيدات والسادة: أي هجوم محتمل يستعد الإنسان له بكل ما ملك من قوة ومن رباط الخيل، والهجوم على لغتنا بحاجة منا أن نبذل كل ما فيوسعنا لأن نبقىها فوق هامة النجوم، وكثير منا

يساهم في نشر العامية ولو بغير قصد، فلو أخذنا على سبيل المثال الإعلامَ لرأينا فيه بعض الظواهر السلبية ومنها:

١ - فشوّ العامية على ألسنة بعض المذيعين ولا سيما في المقابلات والمحاورات، رغم أن الصحافة المقروءة استطاعت حتى الآن أن تصون نفسها من الانزلاق في اللهجة الدارجة نوعاً ما.

٢ - بعض الألفاظ الأجنبية كثيرة الترداد على ألسنة المذيعين وهذا العيب قلما نجده في الصحافة المقروءة... ومن الحلول والمقترحات الناجعة في علاج هذا الداء:

١ - أن تستخدم وسائل الإعلام في توعيتها الكلمات الفصحى، والعبارات سليمة التراكيب التي تجمع بين البساطة في التعبير، واحترام قواعد اللغة.

وأيضاً قيام وسائل الإعلام بالتوعية المستمرة في حث الجماهير على النطق بالعربية الفصحى...

وعلينا أن ننبه - في هذا الإطار - أن اللهجات الموجودة في الواقع هي نتيجة طبيعية للعزلة التاريخية والانقسامات الدينية التي رسخت الشرخ الطائفي بين أبناء الأمة الواحدة، واللهجات بشكل عام موجودة في معظم اللغات الحية وفي جميع أصقاع الأرض ولا تخلو لغة من لهجات عامية تختلف من بلد لآخر، ويصل الاختلاف أحياناً إلى حد تعذر فهم لغة الشخص الآخر من نفس القومية، كما هو الحال في اللغة العربية حيث نجد صعوبة بالغة في فهم اللهجة العربية للجزائري أو المغربي أو الموريتاني أو الصومالي.

ففي كل لغة من لغات العالم الحية توجد لغة فصحي وتوجد لهجات عامية محكية، ومهما اختلفت اللهجات بحسب المناطق والبلدان فإن المرجعية تكون للفصحي الأساس، ومهما دخلت الشوائب والكلمات الغريبة على اللهجات المحكية فإن الفصحي هي الحصن المنيع والمرجع الأخير لكل الطوائف من أبناء الشعب الواحد.. الكتاب: اللغة العربية التحديات والمواجهة.

فلماذا أصبحت العربية اليوم تئن أنين الثكلى؟، وتبكي بكاء الحزينة، وتسيل دموعها كدموع اليتيمة، وتشكو من حالتها على لسان شعرائها، وتشكو من أبنائها الذين كانوا في غاية العقوق، وما قابلوا الإحسان بالإحسان، فمن قبلُ عاتبت العربية على لسان شاعر النيل أبنائها، وها هي اليوم تشكو أبنائها وقسوتهم، وتشكو زمانها، وقلة نصرائها، وتوثب حسادها وأعدائها عليها، وتسأل عن أهل مودتها؟ وعن أصحابها وأهل رجائها! وعن أبنائها مع أنها الأم الرؤوم والقلب الحنون، والحضن الدافئ، ها هي اليوم تشكو على لسان الدكتور الشاعر د. وليد قصاب، فيقول في قصيدة عنوانها: العربية تشكو أبنائها:

أشكو الزمانَ وقلةَ النصراءِ	وتوثب الحسادِ والأعداءِ
وأرى الحرابَ تجمعتْ لثنوشتي	وتعيثُ في دوحِي وفي أفيائي
ويعقني من كنتُ أرجو حبهم	وودادهم، في الليلة الظلماءِ
لكن قلبي ليس يصدغه سوى	جحدِ الحبيبِ وقسوةِ الأبناءِ
ربيتهم في دوحتي أعطيتهم	من جنّتي وكسوتهم بردائي

لكنهم لم يذفَعُوا عن حُرْمَتِي
أنا أمهم، أم اللغاتِ جميعِها
قد صارتِ الفُصحى يتيماً ضائعاً
لا يعرفون أصولها وجُذورها
هَجَرُوا الكِتَابَ فضاغَ سَمْتُ كَلامِهِم
كم من خطيبٍ بينكم لِحَانَةٍ
رَفَعَ المِضَافَ ولم يُوقِّرْ حَقَّهُ
ولربّما نَصَبَ الكَلامَ جَمِيعَهُ
ومحاضرٍ هَصَرَ الحَدِيثَ مَكْسِراً
وإذا تَحَدَّثَ في الدروسِ معلِّمٌ
رَطَّنُوا بغيري ذِلَّةً وَخَسَاسَةً
كم زاحمتني ألسنٌ عجميةٌ
ما بالهم لا يعبؤون بحُرْمَتِي
أصبحتُ أسألُ: أين أهلُ مودَّتِي؟
كم صُعْتُ من حَسَنِ ومن أعجوبةٍ
ورقصتُ في ثوبٍ بهيِّ ساحرٍ
كم سُحْتُ في دنيا العلومِ رشيقةً
جأبوا بحورَ مدائني فمَنَحْتُهُم
واليومَ ما من جاهلٍ متعالِمٍ
إِلَّا ويُفتِي في أموري ضَلَّةً
ويقولُ: إني قد عَدَوْتُ عتيقةً
إن اللسانَ على النفوسِ علامةٌ

أو يُعْظِمُوا قَدْرِي وَحَقِّي وفائي
فضلٌ خُصِصْتُ به على النُظَرَاءِ
ما بينَ أبْناءٍ لها جُهَلَاءِ
أو يَغْتَدُونَ بِرَوْضِها المِعْطَاءِ
واعْتاصَ نطقُ حروفِهِم بَصَفَاءِ
مُسيختُ لديه ملامحُ الأشياءِ
أو جرَّ أسماءَ بلا استحياءِ
من غيرِ ما فرقٍ ولا استثناءِ
ضَلَعَ الحروفِ وَرَقَبَةَ الأسماءِ
هَجَرَ الأصيلَ إلى لُغَى الدَّهْمَاءِ
هانت عليهم عِشْرَتِي وإخائي
وَعَدْتُ عليَّ رَطَانَةُ الهُجَنَاءِ
أو يَشْفَعُونَ لِدَلَّتِي وَعَنَائِي؟
أين الصَّحَابُ؟ وأين أهلُ رَجَائِي!
وَخَطَرْتُ فوقَ حديقةٍ زهراءِ
كالغَيْدِ بينَ أناملِ الشعراءِ
أختالُ بينَ أزاهرِ العلماءِ
ما فيَّ من ذهبٍ وَمِنْ لآلَاءِ
لم يَشُدُّ بعدُ معالمَ الإملاءِ
ويَمورُ من حقدٍ وطولِ عِداءِ
وأضيقُ عن عِلْمٍ وعن أنباءِ
وبه تُقاسُ أصالةُ الأَصْلَاءِ

وبه تُمَيِّزُ أُمَّةً من غيرها وبه افتِخَارُ الفِتيَةِ الشُّرَفَاءِ
كم من لغاتٍ في الوري مطموسةٍ نَبُهَتْ بفضْلِ رجالِهَا النُّجَبَاءِ
وأرى بِنِيَّ تنكَّرُوا لجلودِهِم واستعبدَتْهُمُ ألسُنُ الغُربَاءِ^(١)
والشاعر الآخر يقول:

بكت يوماً ونثرت دموعها على وجناتها . .
وتنهدت بقوة . . ملأت صدرها من هواء الجفاء وهي تقول:
أم اللغات أنا . . ومنبع الحضارات هي حروفي . .
تميزت بالضاد . . وأصبحت لغة الأجداد
بكسرتي . . . كسرت القوافي
وبفتحتي . . . فتحت بلاد العجم
بضمتي . . ضمنت أراضي الغرب
وبشدتي ، شددت زمام الأمور . .
أما بسكوني . . فلي معه حكاية
 فيه سكون الليالي . .
 وهمسات الأحباب . .
وتلاوات الآيات المحكمات
هل سألتم أنفسكم بأي لغة كان؟؟
 إنه بالعربية . .
 أنا لغة القرآن
 وأهالي الجنان

(١) المصدر: ديوان فارس الأعلام القديمة/ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ٧٠ - ٧٤.

يجب علينا أن ندرك أهمية اللغة العربية، وأن نحافظ عليها
ونتكلم بالكلمات الفصيحة ونبتعد عن العامية واللغة المحكية وخاصة
في تدريسها وفي جميع مراحل التدريس الابتدائية والثانوية وفي
المعاهد والجامعات، وفي شتى مجالات الحياة، يقول أمير الشعراء
في الشوقيات:

وصن لغة يحق لها الصيان
فخير مظاهر الأمم البيان
ألم ترها تنال بكل ضير
وكان الخير إذ كانت بخير؟
فعلّمها صغيرك قبل كل
ودع دعوى تمدنهم وخلّ
فما بالعي في الدنيا التحلي
وما خرسُ الفتى فضلاً عظيماً

ويقول الأستاذ العقاد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في مقدمة كتاب (الصباح) للأستاذ
العطّار: وستبقى اللغة العربية ما دام لها أنصارٌ يريدون لها البقاء.
ولم ينقطع أنصارها في عصرنا الحاضر، بل نراهم بحمد الله يزدادون
ويتعاونون. ويتلاقى أبناء البلاد المختلفة على خدمتها ودعمها،
لأنهم مختلفون بمواقع البلاد متفقون بمقاصد الضمائر والألسنة
والأفكار.

ختاماً أيتها السيدات والسادة: خطر العامية كبير على اللغة
الأم، التي هي فخرنا ولغة قرآننا ونبينا عليه الصلاة والسلام

و«الحديث عن اللغة العربية لا ينبغي أن ينتهي؛ بل لا بد أن يأخذ طابع الاستمرارية، طالما أننا نحيا بها، وتحيا بنا. لقد جعلها الله - سبحانه - وعاءً لكتابه المجيد؛ كما أنها وعاء لعلوم الدين كلها من تفسير، وفقه، وتوحيد، وغيرها، وهي لغة حديث رسولنا العظيم ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، وهي التي تحوي كنوز تراثنا العلمي والأدبي، ذلك التراث الذي نفخ الروح في هذه الأمة قديماً فسادت الدنيا كلّها». تامر عبد الفتاح موقع الألوكة، بتصرف.





وَمِنَ الشُّعْرِ مَا أَضْحَكَ

عندما يذكر الشعر الظريف... فكلنا يتذكر الشاعر الشاب الظريف، وعندما يذكر الشعراء الذين غرسوا البسمة على وجوه من حضرهم، فلا بد من ذكر أبي دلامة والحطيئة وغيرهم من الشعراء. فأبو دلامة شاعرٌ يُضحك القوم، ويُدغدغ مشاعرهم.

فقد دخل على المهدي وعنده إسماعيل بن علي، وعيسى بن موسى، والعباس بن محمد، وجماعة من بني هاشم، فقال له المهدي: «والله لئن لم تهج واحداً ممن في هذا البيت لأقطعن لسانك، فنظر إلى القوم وتحير في أمره، وجعل ينظر إلى كل واحد، فيغمزه بأن عليه رضاه، قال أبو دلامة، فازددت حيرةً، فما رأيت أسلم لي من أن أهجو نفسي، فقلت:

ألا أبلغُ لديك أبا دُلامه فلست من الكرام ولا كرامه
جمعت دمامةً وجمعت لؤماً كذاك اللؤم تتبعه الدمامة
إذا لبس العمامة قلت قرداً وخنزيراً إذا نزع العمامة

... فضحك القوم، ولم يبق منهم أحد إلا أجازته»^(١)

(١) المستطرف في كل فن مستظرف، بهاء الدين الأبيهي، ط ٣، ١٤٢٨هـ/

٢٠٠٧م، دار صادر، ص ٣١٧.

وأصبحنا نرى في الشعراء من يتحدث عن داره ومصائبها،
بطريقة ساخرة مضحكة، كابن الأعمى ومنهم من يتحدث عن زوجته
وصولتها، أو عن ثوبه البالي، أو عن حماره وفرسه وما يعانيه، أو
حتى من الاصطبل.. فصفى الدين الحلي يضمن من معلقة امرئ
القيس في قصيدته فيقول:

رأى فرسي إصطبل عيسى فقال لي : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)
به لم أذق طعم الشعير كأنني (بسقط اللوى بين الدخول فحومل)
تقعقع من برد الشتاء أضالعي (لما نسجتها من جنوب وشمال)
وبعضهم يقول في وصف امرأة:

لها جسمٌ برغوٲٍ وساقا بعوضةٍ ووجهٌ كوجه القرد بل هو أقبح
إذا عاينَ الشيطان صورةً وجهها تعوذ منها حين يمسي ويصبح
فنحن نعلم أننا نتعوذ من الشيطان الرجيم وشره، لكن الشاعر
جعل الشيطان نفسه يتعوذ منها صباح مساء!!

... حتى دخول الحمام حوله بعض الشعراء إلى صورة
مصغرة لدخول سقر، وفيها المجرمون ولم ينس الاقتباس عندما
يقول:

وحمام دخلناه لأمرٍ حكى سقراً، وفيها المجرمونا
فيصطرخوا يقولوا: أخرجونا فإن عدنا فإننا ظالمونا^(١)
- كما أن لشعراء العصر الحديث نصيباً وافياً في هذا اللون

(١) المصدر السابق، ص ٣١٩ - ٣٢٠ بتصرف.

الشعري، فأنت عندما تقرأ معي القصيدة التالية لا بد أن ترتسم
البسمة على وجهك، هذا إن لم يغلبك الضحك، فقد «كان للأستاذ
عثمان لبيب» حمارٌ يركبه في ذهابه إلى المدارس بالقاهرة، فسرقه
اللصوص، وبلغ الخبر «محمود سلامة» صاحب جريدة «الواعظ»
فرثى الحمار المسروق، وواسى صاحبه بقوله:

قفّ بسوق الحمير وانظر ملياً هل ترى أدهماً أغرّ المحيّا؟
خلسته يد اللصوص صباحاً موكفاً ملجماً معداً مهياً
فخلا اصطبله وأصبح قاعاً صنفصفاً خاوي العروش خليّاً
كان يا حسرتا عليه صبوراً قانع النفس راضياً مرضياً
كم ليالٍ على الطوى قد طواها حامداً شاكراً ولم يشكُ شيئاً
ليت شعري! أين الأمان وهذا جحشُ عثمان قد عدمناه حيّاً؟!
كان عوناً له إذا رام ظعنأً وخليلاً لدى المقام صفياً
كان إن قلت «هش» أجابك طوعاً وإذا قلت: «حا» انتضى سمهريّاً
لك فيه العزاء عثمان أمّا سالبوه فسوف يلقون غيّاً^(١)

فله درّ الشاعر! حيث جمع بين سلاسة الشعر الظريف
المضحك، وبين رصانة التركيب، وجزالة الألفاظ.

والشاعر محمود غنيم عندما سرقت محفظة صديقه، واسأه
بهذه المصيبة، التي جعلها خطباً جليلاً، ومصيبة من أعظم
المصائب، فأتى بهذه الأبيات اللطيفة معزياً صديقه الشاعر:

(١) الجواهر والدرر فيما نفع وندر، محمد خير رمضان يوسف ط١،
١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، دار البشائر الإسلامية، ص٤٠٥.

هَوْنٌ عَلَيْكَ وَجَفْفٌ دَمْعُكَ الْغَالِي
مَنْ أَيْنَ أَصْبَحْتَ إِذَا مَالَ فَتَسْلِبُهُ
فِيهَا لَهَا صُرَّةٌ مِنْ جَيْبِكَ انْطَلَقْتُ
عَوْدَ نَقُودِكَ وَاعْقُدْ حَوْلَهَا عُقْدًا
قَالُوا: خَلَّتْ يَدُهُ مِنْ كُلِّ مَا مَلَكَتْ
يَالَيْتَ شِعْرِي!! مَاذَا أَنْتَ صَانِعُهُ؟!
أَقْسَمْتُ: مَا سَلَبْتَ تِلْكَ النُّقُودَ يَدُ
الذُّئْبِ لَا يَشْتَهِي لَحْمَ ابْنِ جِلْدَتِهِ
فَكَانَ لِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي تَخْفِيفِ الْمَصِيبَةِ، وَالرِّضَا
بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، فَكَيْفَ لَوْ كَانَتْ الْمَصِيبَةُ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ؟!!

وهكذا كنا في جولة مع قصائد مضحكة، سلّتنا عما نحن فيه
من هموم العيش، وضمنك الحياة، ولا بد أن نتذكر أخيراً قول الله
تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ [النجم: ٤٣].



(١) المصدر السابق، ص ٤٠٦.

الخاتمة

آن الأوان أن ترسو سفينتنا بعد طول إبحار، وأن نحط ركابنا بعد طول ترحال .

وكما أن لكل شيء خاتمةً، فما قد وصلنا إلى خاتمة الكتاب، بعد أن تنقلنا معاً في رياض غناء من العلم والمعرفة والأدب والفكر، وهذه - أيها القارئ الكريم - بضاعتي التي وفقني الله إليها، وهي بضاعة مُزجاةً، فما وجدت فيها صالحاً فمن فضل الله عليّ وعلى الناس، وهو ذو الفضل المبين، وما وجدت فيها من خطأ أو هفوة أو نسيانٍ، أو زلة، فمن نفسي، ومن تقصيري، ويأبى كتابٌ إلا أن يكون ناقصاً لأن الكمال فقط لكتاب الله ﷻ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والخاتمة تُذكرنا بالختام، فالإنسان مهما طال به العمرُ ومهما امتدَّ به الأجل فلا بد أن يرحل من الدنيا، ويُخلف فيها ما عملَ، وما حطَّ من كتابٍ، ورحم الله من قال:

وما من كاتبٍ إلا سيُفنى ويَبقى الدَّهرَ ما كتبتُ يداهُ
فلا تكتبْ بكفِّكَ غيرَ شيءٍ يَسُرُّكَ في القيامةِ أنْ تراهُ

ولا بد أن يأتي يومٌ وينطبق عليّ قول القائل:

ستبقى خطوطي في الدفاتر برهَةً على أنها مني وتفنى أنا ملي
فيا قارئاً خطي سلِّ الله رحمةً لكتابه المدفون تحت الجنادل

* * *

أسأل الله القبول، ورحم الله من أهدى إليَّ عيوبي، وآخر
دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مصطفى قاسم عباس

٣ رجب ١٤٣٣ هـ الموافق: ٢٣/٥/٢٠١٢ م



الفهرس

الموضوع	الصفحة
* الإهداء	٧
* مقدمة الكتاب	٩
تأملاتٌ في سفرِ الحياةِ	١٣
عندما يحزنُ الشعراءُ	١٧
من صميمِ الفؤادِ	٢٤
لماذا لا نفكرُ من جديدٍ؟!	٢٧
كلماتٌ مُبعثرةٌ	٣١
في الحياةِ . . . هناك شيءٌ جميلٌ . . . وهناك شيءٌ أجملُ	٣٣
الإنسانُ الشاعرُ عندما تطولُ به الحياةُ	٣٦
كُن عَصامياً ولا تكن عِظامياً	٤٤
الغرابُ عندَ العربِ . . نذيرُ سُومٍ أم بشيرُ خيرٍ؟!	٥٠
النَّدَمُ . . . بينَ الشريعةِ والأدبِ	٦٠
قلوبٌ بلا دماءٍ	٦٧
هكذا علّمتني الأيامُ	٧٠
لأنَّ الحياةَ لا تتنظَّرُ، وقطارَ الزَّمنِ لا يتوقَّفُ!	٧٣
آمالٌ تموتُ وآمالٌ تحيا؟!	٧٧
أيها الدعاةُ إلى الله	٨٢
لصوصُ الإنترنتِ وسارقو الفكرِ والإبداعِ . . من يحاسبهم؟!	٨٦

- قراءة في كتاب: (عَصْرُنَا وَالْعَيْشُ فِي زَمَانِهِ الصَّعْبِ) ٩١
- قراءة في كتاب: (بصائرٌ للمُسْلِمِ المُعَاصِرِ) ١٠٢
- قراءة في كتاب: (كِدْبُهُ نِيسَانَ فِي الْمِيزَانِ) ١١٤
- قراءة في كتاب: (المنهجُ المفيدُ في بناءِ الإيمانِ والعقيدة) ١١٩
- قراءة في كتاب: (الأربعونَ الرِّياضيةُ) ١٢٤
- قراءة في كتاب: (صَفَحَاتُ مُضِيئَةٍ فِي التَّصَوُّرِ وَالسَّلُوكِ الدِّينِيِّ) ١٢٨
- قراءة في كتاب: (حُرْمَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ) ١٣٨
- قراءة في كتاب: (لَحَظَاتُ قَبْلِ الْمَوْتِ) ١٥٠
- قراءة في كتاب: (الإسلامُ الحِصْنُ الأَمِينُ من أَمْرَاضِ العَصْرِ) ١٥٨
- قراءة في كتاب: (فلسفةُ إِقْبَالِ والثقافةُ الإِسلاميةُ فِي الهِنْدِ والبَاكِسْتَانِ) ... ١٦٨
- قراءة في كتاب: (سفينةُ الفَرَجِ فيما هَبَّ ودبَّ ودرج) ١٧٦
- قراءة في كتاب: (دفاعٌ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه) ١٨١
- قراءة في كتاب: (اضْطِنَاعُ المَعْرُوفِ) ١٨٩
- أصحابُ الآراءِ الشَّاذَّةِ، من أين أتونا بها؟! ١٩٧
- أصْدَقُ الدُّمُوعِ فِي رِثَاءِ الإِخْوَةِ ٢٠٢
- الشَّيْبُ . . . يَضْحَكُ فَيُبْكِي ٢١١
- المكفوفونَ فِي الأدبِ العربيِّ البصيرةُ قبلَ البصرِ ٢١٨
- بيني وبين صديقي الشاعرِ صهيبِ يوسف ٢٢٤
- أُمُورٌ تَعَجَّبْتُ مِنْهَا!!! ٢٣١
- صُورٌ من بِلَاغَةِ الأَطْفَالِ ٢٣٥
- الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم عَدَالَتُهُمْ وَعُلُوُّ مَكَانَتِهِمْ ٢٤٣
- خَوَاطِرٌ بَعْدَ مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ ٢٥٥
- قُلُوبٌ شَاكِيَّةٌ، وَعَبْرَاتٌ سَاجِمَةٌ فَلِمَنْ يَكْتُبُ الأَدِيبُ؟! ٢٦١

- إدارة الوقت من المنظور الإسلامي والإداري ٢٦٥
- هل تجرعت كأس الفشل يوماً؟ وماذا تعني لك كلمة (فاشل) ٣٢٠
- من أصعب مواقف الحياة ٣٢٥
- حذاء النواعير في مسامع الشعراء ٣٢٩
- شعراء في غياهب السجون ٣٣٤
- وأشرق شمس الهداية ٣٤٨
- الشباب أمل وعمل ٣٥٢
- افعل الخير.. ولكن.. لا ترم به في البحر ٣٦٠
- من أخبار العطاش ٣٦٤
- الأخوة الصادقة هل فقدناها؟! ٣٧٦
- حتى تصفو القلوب وتسلم الصدور ٣٨٢
- في الإسلام: كاد الجار أن يرث جاره ! ٣٨٦
- لمتى تحدعنا المظاهر البراقة؟! ٣٨٩
- أشواق العربة وبكاء الديار ٣٩٤
- من عجائب الأقدار! ٤٠٨
- رسالة إلى الثقلاء ٤١٢
- أتحب أن تعيش محسوداً؟! ٤١٨
- ... وحانت ساعة الفراق! ٤٢٣
- هل يتجزأ الوفاء؟! ٤٢٩
- دعوها نائمة ٤٣٤
- دموع القوافي في عيون المرثي ٤٣٧
- دين الإسلام بريء من التطرف والإرهاب ٤٤٨
- جمال العربية وخطر العامية ٤٦٩

٥٠٠	وَمِنْ الشُّعْرِ مَا أَضْحَكَ
٥٠٥	* الخاتمة
٥٠٧	* الفهرس